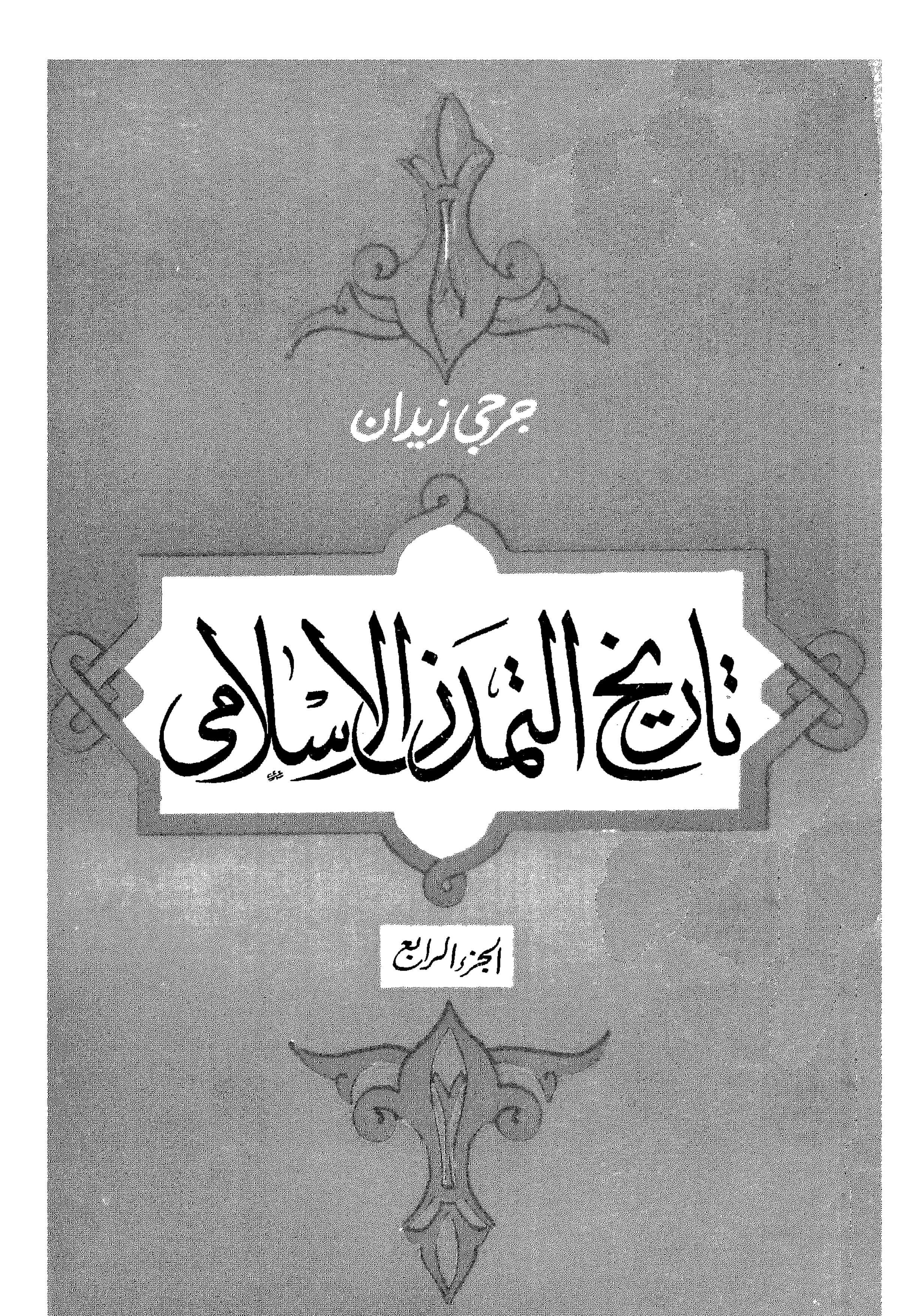

جرجي زيدان
تاريخ التمدن الإسلامي
الجزء الرابع







تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف
جرجي زيدان
منشىء الهلال

الجزء الرابع

يتناول سياسة الدولة وتنازع رجالها على السيادة من عهد الراشدين ، فالامويين فالعباسيين فالاندلسيين فالفاطميين ، وسياسة كل دولة منها في تأكيد سلطانها

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس
أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

هذا الجزء

كان ينبغي أن يخصص لموضوع هذا الجزء ضعف حجمه الذى أراده له المؤلف ، فان مباحثه متعددة وفروعها كثيرة يتسع فيها مجال القول ، ثم انه يغطى نحو تسعة قرون من تاريخ الاسلام حافلة بالاحداث والتطورات ، مابين سياسية واجتماعية ، والعالم الاسلامى عالم فسيح ظل يمتد ويتسع خلال هذه القرون الطويلة حتى وصل الى قلب أفريقية وشرقى آسيا ، فضلا عن امتداده غربا الى المحيط الاطلسى وجزء كبير من أوربا هو شبه الجزيرة الايبيرية . ولم يتعرض أحد بعد المرحوم جرجى زيدان لهذا المطلب الا وجد نفسه مضطرا الى الانصراف عن بعض الميادين وتركيز الكلام فى بعض الدول دون بعضها الآخر ، كما نرى فى كتاب « تاريخ العرب » للاستاذ فيليب حتى ، فقد وقف به عند الحروب الصليبية تقريبا ، وكما نرى فى كتاب بروكلمان عن تاريخ الامم الاسلامية ، فقد أسقط الكثير واستطرد عن دول الاسلام فى آسيا ، وقفز من الحروب الصليبية الى العصر الحديث . وما نظن ان أحدا اقترب من الغاية غير الاب الاسبانى « باريخا » Pareja فى كتابه المسمى « علم الاسلام » Islamologia وهو عنوان غريب ، ولكنه أرخ لدول الاسلام وحركاته المذهبية والفكرية حتى أيامنا هذه . ولقد استغرق نحو ألف صفحة ، ومع ذلك فقد فاته الكثير

وقد جهد المرحوم جرجى زيدان فى تقسيم هذه الفترة الى عصور ، ونهج منهجا خاصا بسطه فى مقدمته . وربما اختلف معه بعض الباحثين فى هذا التقسيم ، ولكن نظرياته فيه مؤيدة بالبراهين ، وهى نظريات كانت ولا زالت موضع مناقشات وأخذ ورد ، والحقائق انما تتجلى من خلال تبادل الآراء . وقد تركت تقسيمه على حاله ، وان اجتهدت فى التنسيق بين الاقسام بعضها وبعض ، وتركت القسم الاخير الذى سماه « الدور الثانى » على حاله ، وكان الاولى به أن يوضع فى هيئة خاتمة ، اذ هو خارج عن موضوع الكتاب ، كما أشار هو الى ذلك فى المقدمة

ويلاحظ القارىء أن المؤلف أوجز الكلام ايجازا شديدا ابتداء من كلامه على بنى بويه ومن جاء بعدهم (ص ١٨٦ وما بعدها) فأوجز أربعة قرون من تاريخ الاسلام فى نحو أربعين صفحة ، فجاء الكلام عن هذه القرون وما قام فيها من الدول موجزا عابرا ، ولكنه مع ذلك حافل بالمعلومات القيمة ، خاصة

اذا علمنا ان احدا لم يكتب فى هذه العصور الى الآن ، فيما خلا كتاب آدم ميتز عن القرن الرابع الهجرى ، وهو مترجم الى العربية

وقد اجتهدت فى سد هذا الفراغ بما أمكننى من التعليق والاشارة الى المراجع والاصول والابحاث التى نشرت بعد أيام المؤلف ، ولم أورد مع ذلك منها الا ما سمح به الحيز ، وهو قليل

وبعد .. فسيرى القارىء أن المرحوم جرجى زيدان قد جمع فأوعى ، وبحث ونقب ، وانتهى الى آراء هى غاية فى القيمة والعمق ، وقدم للباحثين فى تاريخ العرب خدمة تجعله بحق رائد المدرسة الحديثة من مؤرخى العرب

والحمد لله أولا وآخرا ، وهو ولى التوفيق

حسين مؤنس

مقدمة الطبعة الأولى

أخذنا فى تأليف هذا الكتاب ونحن نعلم أهمية موضوعه ونشعر بافتقار اللغة العربية الى مثله . ولكننا لم نكن نتوقع مالاقاه من حفاوة أهل اللغات الاخرى فى العالم الاسلامى بأسره ، ولا أن يصل اعجاب كبار المستشرقين فى أوربا بموضوعه الى مثل ما رأيناه منهم على أثر صدور الأجزاء الثلاثة الماضية . لأنهم فضلا عما كتبوه الينا من عبارات الاستحسان والتنشيط ، وما نشروه من التقاريظ فى المجلات والجرائد التى تصدر فى بلادهم ، قد أخذوا يشتغلون بنقله الى ألسنتهم ونشره بين مواطنيهم ونحن لم نفرغ بعد من تأليفه . وبعض هذه الترجمات قد طبع ونشر ، ولا يزال البعض الآخر تحت الطبع ، والآخر تحت الترجمة . فقد صدر الجزء الأول من الترجمة الأوردية (الهندستانية) مطبوعا على الحجر فى أمرتسار (الهند) بقلم الشيخ محمد غلام منشىء « جريدة وكيل » الهندية الشهيرة . وسيصدر الجزء الأول من الترجمة الفارسية قريبا بقلم ميرزا ذكاء الملك صاحب « جريدة تربيت » الفارسية . وكتب الينا المستشرق الكبير الاستاذ مرجليوث المشتغل بنقله الى الانجليزية فى جامعة أكسفورد ، أنه سيفرغ من ترجمته ويبدأ فى نشره فى أواخر هذا الصيف . وبعث الينا الاستاذ دانيلوف المستشرق الروسى فى موسكو أنه أتم نقل الجزء الاول الى اللغة الروسية ويليه الجزء الثانى . وقد خابرنا بعض المستشرقين بشأن نقله الى اللغة الفرنسية وغيرها

فنشطنا ذلك فى المثابرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دخائل التمدن الاسلامى وكشف أسراره بما يبلغ اليه الامكان على أسلوب لم يطرقه كتاب العرب ، نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى أسبابها وبيان ارتباطها بعضها ببعض مع تطبيق أحكام العقل ونواميس العمران عليها . فنطالع كتب التاريخ والأدب وغيرها ، على سذاجة أسلوبها فى سرد الحوادث وايراد الوقائع ، ونتدبر ما نقرأه ثم نستخرج منه فلسفة ذلك التمدن العجيب ، كما يستخرج السكر من الخروب . لأن مؤرخى الاسلام ، مع ما بذلوه من الجهد فى تحقيق الحوادث وتمحيص أسانيدها ومصادرها ، قلما نظروا فى علاقاتها أو عللوا أسبابها وانما نقلوها على علاتها ، وخصوصا ما يتعلق منها بسياسة الدولة ، وكيفية انتقال الملك من عائلة الى عائلة ، أو أمة الى أمة ، أو طائفة الى طائفة . لأن تعليل تلك الحوادث يبعث أحيانا على الطعن فى أقوال بعض الخلفاء ، أو تخطئة بعض المذاهب ، وهم يتحاشون ذلك احتراما للدين

ورجاله . ولذلك كان موضوع هذا الجزء أوعر مسلكا من موضوعات سائر الأجزاء الماضية ، وأدعى الى اعمال الفكرة ، واستنباط الاقيسة ، وتطبيق النتائج على المقدمات ، لأنه عبارة عن فلسفة تاريخ الاسلام فى ذلك التمدن

موضوع هذا الجزء

بسطنا الكلام فى الجزء الاول من هذا الكتاب عن نشوء الدولة الاسلامية وسعة مملكتها ، وتاريخ نظمها الادارية والسياسية والمالية والعسكرية والقضائية وغيرها . وخصصنا الجزء الثانى لبيان ثروة الدولة الاسلامية ورجالها ، وأسباب تكون تلك الثروة وأسباب تدهورها . وجعلنا الجزء الثالث خاصا بالعلم والادب ، فبحثنا فيما كان منهما عند العرب فى الجاهلية ، وما أحدثه الاسلام من التغيير فى القرائح والعقول ، وما نقل عن اللغات الاجنبية من العلوم ، وما كان من تأثير التمدن الاسلامى فى كل ذلك

فبعد أن نظرنا فى التمدن المذكور ، من حيث نظام الدولة وثروتها وعلومها ، عمدنا الى البحث فى سياستها ، فخصصنا لها هذا الجزء برمته ، ولعله اهم أجزاء الكتاب وأوعرها مسلكا ، لما يحول بيننا وبين أسباب الوقائع السياسية من العقبات والشكوك ، ولاسيما انتقال الخلافة من دولة الى دولة ، وما يعترض ذلك من تنازع أهل الدولةعلىالاستئثار بالسلطة ، وتأثير الاختلاف الجنسى أو المذهبى فى ذلك ، مما لايتيسر العثور عليه فى كتب القوم لما قدمناه من تحاشى المؤرخين الخوض فى مثله . على أننا لم نعدم بصيصا من خلال تلك الظلمة ، تلمسنا به سبيلنا فى البحث عن الاسباب والعلل ، فوفقنا الى كشف أسباب أكثر الحوادث ، فبسطناها بما يقتضيه ذلك من النظر الفلسفى والحكم العقلى والقياس التمثيلى ، وتحرينا الحقيقة جهد طاقتنا

ولما عمدنا الى تقسيم الموضوع وتبويبه اعترضتنا عقبة أخرى لا تقل وعورة عن تلك ، لاختلاط الحوادث وتعارض أسبابها واشتراك نتائجها وتلون مظاهرها ، وتعدد أوجهها من حيث الدين أو الجنس أو المكان أو الزمان ، فرأينا بعد امعان النظر أن نقسم الموضوع باعتبار العناصر التى سادت فى الاسلام ، وما كان من تنازعها على تلك السيادة ، مع ملاحظة أطوار التمدن الاسلامى باختلاف تلك العناصر . فقسمنا تاريخ الاسلام الى دورين كبيرين :

الدور الاول : دور التمدن الذى نحن بصدده ، يبتدىء بظهور الاسلام وينتهى بذهاب الدولة العباسية من العراق ، وتدهور المملكة الاسلامية وتسلط المغول عليها

الدور الثانى : هو النهضة السياسية التى حدثت بعد ذلك التدهور ، بتغلب الدولة العثمانية واحياء الخلافة الاسلامية ، بجمع شتات المسلمين السنيين فى ظلها ، وظهور الدولة الصفوية الفارسية ، وجمع شتات الشيعة تحت رايتها

وقسمنا الدور الاول الى خمسة عصور ، باعتبار تغلب أحد العناصر الاسلامية على سائرها . ولا يتيسر وضع حد فاصل بين هذه العصور لاسباب لا تخفى على المطلع ، فيغلب أن تختلط أواخر كل عصر بأوائل العصر الذى يليه . واليك هذه العصور :

١ ــ العصر العربى الأول : من ظهور الاسلام الى انقضاء الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ

٢ ــ العصر الفارسى الأول : من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ

٣ ــ العصر التركى الأول : من خلافة المتوكل الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ

٤ ــ العصر العربى الثانى : من قيام الدولة الفاطمية الى انقضائها

٥ ــ العصر المغولى : من ظهور جنكيزخان الى وفاة تيمورلنك

أما العصر التركى الثانى فهو عصر الدولة العثمانية ، والعصر الفارسى الثانى عصر الدولة الصفوية ومن خلفها على بلاد فارس ، ويتألف منهما الدور الاسلامى الثانى وهو خارج عن دائرة بحثنا فى هذا الكتاب

وقسمنا كلا من العصور الخمسة التى درسناها فى هذا الجزء الى فصول وأبواب على ما يقتضيه المقام . فقدمنا الكلام بتمهيد فى العرب قبل الاسلام من حيث نظام الاجتماع ، فوصفنا البدو والحضر وأنساب العرب وقبائلهم وبطونهم ، واستفحال عصبية النسب عندهم ومنها الامومة والخؤولة ، ثم ذكرنا توابع تلك العصبية كالحلف والاستلحاق والخلع ، ثم العبيد والموالى فى الجاهلية وأنواعهم وأحكامهم ، والنازلين من الاجانب فى جزيرة العرب قبل الاسلام وخصوصا الابناء الفرس . وختمنا التمهيد بفصل فى سياسة دول العرب قبل الاسلام ومناقب العرب

ثم تقدمنا الى العصر العربى الاول ، فقسمناه الى أيام الراشدين وأيام بنى أمية ، فبينا أولا أن الاسلام قام بالجامعة الاسلامية التى جمعت كلمة العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم تحت راية الاسلام . فتساووا فى الفضل من حيث أنسابهم ، وتفاضلوا من حيث سبقهم الى الدين أو جهادهم

فى سبيله ، فتولدت طبقات اسلامية جديدة ، كالمهاجرين والانصار وأهل بدر واهل القادسية ، مما لم يكن من قبل

ثم وصفنا سياسة الخلفاء الراشدين وانها مبنيـــة على التقوى والحق والعدل ، وذكرنا مزايا كل خليفة منهم ، وان سياســـة عمر بن الخطاب كانت فى أول خلافته تدعو الى حصر المسلمين فى جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ، وانه اضطر بطبـــيعة العمران الى أن يأذن لقواده وأمرائه فى الانسياح فى الارض ، فانتشر العرب بالفتح أو المهاجرة وتكاثروا بالتناسل الـكثير

وختمنا العصر الاول بفصل فى العبيد والموالى وأحكامهم فى الاسلام

ثم انتقلنا الى القسم الثانى من العصر الاول، وهو أيام الامويين ، فذكرنا أولا الاســـباب التى ساعدت على انتقال الخلافة اليهم ، وما كان بين بنى هاشم وبنى أمية من المنافسة قبل الاسلام ، وكيف شق على الامويين أن يعظم أمر بنى هاشم بالنبوة وهم أقل منهم عددا وقوة . فما زالوا حتى غلبوهم على الدولة ، فأخذها معاوية بن أبى سفيان من على بن أبى طالب بالدهاء والاطماع . وفصلنا سياسة الامويين فى تأييـد سلطتهم ، وبينـا أن محور هذه السياسة طلب التغلب بأية وسيلة كانت . والامويون يعلمون ان الهاشميين أحق منهم بالخلافة ، فعمـــدوا الى التغلب بالعصبية كما كانت فى الجاهلية ، وكان العرب المسلمون قد زالت عنهم دهشـــة النبوة ، فعادوا الى عصبية النسب أولا بين قريش وسائر العرب ، ثم بين اليمنية والمضرية . وبالغ الامويون فى التعصب على غير العرب ، فاحتقروا الموالى الفرس وغيرهم وضـــيقوا عليهم . وتحضر العرب فى عصر الامويين وألفوا السكنى فى المدن ، فحدثت العصبية الوطنية ، أى تعصب البلاد بعضـــها على بعض كالبصرة والكوفة والشام وغيرها . واضطر الامويون فى سبيـــل التغلب على بنى هاشم الى اصطناع القبائل والرجال ببـذل المال ، فحملهم ذلك على الاستكثار من الاموال . وجرهم الاستكثار منها الى ابتزازها بحق أو بغير حق ، فضيقوا على الرعية من المســـلمين وأهل الذمة ، حتى مل الناس أيامهم وخصوصا بعدما ظهر من اســـتخفافهم بأحكام الشريعـــة ، وتهتكهم وفتكهم واحتقارهم الموالى وتضييقهم على أهل الذمة . ويلى ذلك فصـــل طويل فى أحكام أهل الذمة من زمن عمر بن الخطاب الى آخر أيام الامويين

ثم تقدمنا الى العصر الفارسى الاول ، فصدرناه بفصل فى انتقال الخلافة الى العباسيين بنصرة الموالى النـــاقمين على بنى أمية . وكيف نصروا بنى

العباس — وهم فى الاصل من شيعة على — وكانوا يظنون بيعتهم مشتركة بين العلويين والعباسيين ، لأن العباسيين كانوا قد بايعوا العلويين على ذلك فسكتوا ، فنقل أبو مسلم الخراسانى المملكة الاسلامية من الامويين وسلمها الى العباسيين . فلما قبض العباسيون على زمام الدولة نكثوا البيعة ، وغدروا بمن كانوا يخشون سلطانهم من العلويين وغيرهم ، حتى فتكوا بجماعة من أكبر دعاتهم وأنصارهم ، وفيهم أبو مسلم نفسه

وقسمنا سياسة العباسيين الى سياستين :

الاولى : سياستهم فى تأييد سلطتهم ، وكانت مبنية على الغدر والفتك ، فخافهم الفرس الذين ساعدوهم على قيام دولتهم ، وكظموا غيظهم لئلا يصيبهم ما أصاب أبا مسلم وأصحابه ، فاستخدمهم العباسيون فى مصالح دولتهم ، وسلموا اليهم مقاليد الحكومة ، وجعلوهم وزراءهم وأشهرهم البرامكة . فلما اشتد ساعد البرامكة ، ونالوا ما نالوه من القوة والسطوة والثروة ، أخذوا يبذلون الاموال لاكتساب قلوب الناس ، وقد أضمروا ارجاع البيعة الى العلويين أو تسليم الدولة للفرس ، فشعر الرشيد بذلك فنكبهم . وفصلنا مقدمات هذه النكبة وأسبابها ، وبينا كيف تضاعفت نقمة الفرس على العباسيين . ولما مات الرشيد اختلف ابناه الامين والمأمون ، وكان الفرس أخوال المأمون ، فنصروه وحاربوا معه وقتلوا أخاه وأعادوا الخلافة اليه ، على أن يبايع بعده لعلى الرضا ، أى ينقل الدولة من العباسيين الى العلويين ، فأطاعهم حتى ملك مراده منهم ثم غدر بهم

والثانية : سياستهم فى معاملة الرعية ، وكانت مؤسسة على العدل والحق والمحاسنة ، ويتخلل ذلك فصول فى أهل الذمة وأحكامهم وأسباب ما لحقهم من الاضطهاد الى عهد غير بعيد . وفصل فى حرية الدين واطلاق الافكار ، وما كان من تنازع العناصر ، وكيف ذهبت العصبية العربية بذهاب دولة الامين ، وما رافق ذلك من اختلاط الانساب ، حتى ندر الدم العربى الخالص بعد ذهاب القرن الثانى للهجرة الا فى البادية

ثم تقدمنا الى العصر التركى الاول ، وذكرنا الاسباب التى دعت الى تدخل الاتراك فى الدولة من أيام المعتصم ، وكيف جمع الاتراك وجندهم وبنى لهم سامرا ، وكيف تدرجوا فى مصالح الدولة حتى تغلبوا على الخلفاء ، وما ترتب على ذلك من احتجاب الخلفاء فى دور النساء ، ومعاشرتهم الخدم ووثوقهم بهم ، حتى رفعوا الخدم والخصيان الى رتب القيادة وامارة الامراء وغيرهما ، وأطلقوا أيدى النساء فى مصالح الدولة ، فآل ذلك كله الى فساد الحكم واختلال الاعمال ، وذهبت هيبة الخلفاء .. فعمد أصحاب الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم ، فتشعبت الدولة العباسية الى فروع :

فارسية ، وتركية ، وعربية ، وكردية ، وكلهـا تابع الخليفة العبـاسي : فاستطرقنا بذلك الى البحث فى معنى الخلافة ونسبتها الى السلطة من أول الاسلام الى الآن

ثم انتقلنا الى العصر العربى الثانى ، فذكرنا نقمة العرب على العباسيين منذ أهملوهم وأسقطوهم من الديوان، وأضفنا اليها نقمة العلويين والامويين، وكيف ظهرت الدولة الاموية فى الاندلس ، والفاطمية فى مصر، لمقاومة الدولة العباسية ، وأوشك الفاطميون — وهم علويون — أن يتغلبوا على العباسيين، لو لم يقف السلاجقة فى سبيلهم . على أن الفاطميين ما لبثوا أن تضعضعوا وغلبهم الاكراد على دولتهم ، وأولهم صـلاح الدين ، فأعاد البيعة الى العباسيين، وانقضى هذا العصر وقد تضعضعت المملكة الاسلامية وانقسمت على نفسها ، وطمع فيها أعداؤها المحيطون بها ، فجاءها المغول وهى فى تلك الحال ، فاكتسحوها وزادوها ضعفا واختـلالا ، وهو العصر المغولى ، وبه ينتهى هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد فى تمحيص الحقـائق وتحقيق الحوادث ، بالاعتماد على أوثق المصادر وأصح الروايات ، وتدبرنا ذلك واستخرجنا من علل الحوادث وأسبابها ما نظنه الاقرب الى الصـواب ، ملتزمين الصـدق والاخلاص والانصاف ، والله حسبنا ونعم الوكيل (١)

وسيكون موضوع الجزء الخامس حضـارة المملكة وأبهة الدولة وآداب الاجتماع ، وبه ينتهى الـكتاب

---

(١) طبع هذا الجزء خمس طبعات قبل هذه ، منها الرابعة سنة ١٩٢٧ والخامسة سنة ١٩٤٧

العصر العربي الأول

العصر العربي الاول

من ظهور الاسلام حتى سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩ م

نريد بهذا العصر المدة التى كانت فيها الدولة الاسلامية فى أيدى العرب ، وكانت سياستها عربية وقوادها عربا وعمالها عربا ، وكانت السيادة فيها للعنصر العربى . والعصر المذكور يبتدىء بالأسلام وينقضى بانقضاء الدولة الاموية . وهو ينقسم الى دولتين : دولة الراشدين ، ودولة الامويين ، ولكل منهما احكام خاصة بها فى السياسة وشؤون الحكومة سيأتى بيانها . ولابد لنا تمهيدا لذلك ان نأتى بفذلكة فى حال العرب قبل الاسلام ، من حيث ما يهمنا بيانه فى هذا الباب ..

تمهيد فى العرب قبل الاسلام

البدو والحضر

البدو أهل البادية ، والحضر أهل المدن . والبداوة أقدم من الحضارة ، لأنها أقرب منها الى الفطرة الطبيعية . فالانسان كان فى أول أدواره بدويا يحترف الزراعة والفلاحة ، أو ينتحل القيام على تربية الحيوان من الغنم والبقر والماعز أو النحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها ، مما لا تتسع له المدن من المزارع للغرس والمراعى للمرعى (*) . فالتجأوا الى السهول والبرارى ، وكان همهم بلوغ الضرورى من القوت والسكن والدفء بالمقدار الذى يحفظ الحياة ويمكن من مواصلة العيش . فلما تقدمت أحوالهم وحصلوا على ماهو أكثر من ذلك من أسباب الغنى والرفاهية، عمدوا الى السكون والدعة وتأنقوا وتمدنوا واترفوا

فالبداوة تقوم اما على الفلاحة والزرع ، أو على تربية الحيوان . فالبدو أهل الفلاحة مضطرون للاستقرار فى مواطنهم ينتظرون الغلة وهم سكان المداشر (**) والقرى والجبال ، وكانوا قليلين فى بادية العرب . وانما يكثر

(*) يوسع المؤلف هنا معنى البداوة ، فيجعلها تشمل كل المجتمعات البدائية بما فيها الزراعية ، وهذا التوسيع مقبول من ناحية الاستعمال العربى ، فان العرب كانوا يطلقون لفظ البادية على ما نسميه الارياف (بالاضافة الى الصحارى) فاذا قال العربى « أهل البادية » فهم من ذلك أهل الصحراء واهل الارياف المزروعة ، غير أنه يغلب ان تطلق البادية على الصحراء وما يجاورها مباشرة من الارض المزروعة على المطر خاصة . اما من الناحية الاجتماعية فان البداوة هى حياة الصحارى ، سواء أكانت تزرع بالمطر او لا تزرع اصلا ، واهل الزراعة المستقرون يسمون حضرا ، لان الزراعة فى ذاتها وايا كان مستواها تعد مرحلة من مراحل الحضارة

(**) الصحيح لغة مجشر والجمع مجاشر ، جاء فى لسان العرب ٥/٢٠٧ : الجشر بقل الربيع، وجشروا الخيل وجشروها (بتشديد الشين) ارسلوها فى الجشر ، والجشر ان يخرجوا بخيلهم فيرعوها امام بيوتهم ، واصبحوا جشرا (بسكون الشين) وجشرا (بفتحها) اذا كانوا يبيتون فى

هذا الصنف من البدو فى بلاد البربر بشمالى افريقيا ، وفيما يجاور المدن العامرة بمصر وفارس والشام وغيرها . وأما البدو الذين يحترفون تربية الحيوان فدأبهم الظعن والارتحال ، لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم . وهم صنفان : أهل سائمة ، وأهل ابل . فأهل السائمة هم القائمون على الشاء والبقر ، ولا يبعدون فى القفر لقلة المراعى الطيبة ، ويقال لهم الشاوية نسبة الى الشاء . وهؤلاء مثل البربر فى شمالى افريقيا ، والترك واخوانهم التركمان والصقالبة ، وغيرهم ممن يقطنون بوادى تركستان وخراسان ونحوهما

***

وأما أهل الابل فأشهرهم بدو العرب ، وهم أكثر ظعنا وأبعد فى القفار مجالا من أهل السائمة ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغنى بها الابل فى قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفار ، وورود مياهه الملحة والتقلب فى فصل الشتاء فى نواحيه فرارا من أذى البرد الى دفء هوائه وطلبا لماخض النتاج فى رماله ، لأن الابل أصعب الحيوانات فصالا ومخاضا وأحوجها فى ذلك الى الدفء . فاضطروا الى ابعاد النجعة والايغال فى القفار ، فهم ينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان ، لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم فى الضواحى ، وقيامهم بالدفاع عن أنفسهم . فهم دائما يحملون السلاح ، ويتلفتون فى الطرق ، ويتجافون عن الهجوع ، الا غرارا فى المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ، ويتفردون فى القفار والبيداء واثقين ببأسهم ، حتى صار البأس لهم خلقا ، ولذلك كان أكثر البدو توغلا فى القفار أشدهم بأسا وأصبرهم على المشاق (*)

مكانهم لايرجعون الى اهليهم ، والجشار (بتشديد الشين) صاحب الجشر ، وفى حديث عثمان رضى الله عنه انه قال : «لايغرنكم جشركم عن صلاتكم » . فالجشر على ذلك هو المرعى الذى يقيم الرعاة فيه بعض الوقت . ويطلق المجشر فى الغرب الاسلامى (المغرب والاندلس) على مواضع من الريف تعمر بالرعاة والزراع فى مواسم المطر ، وتقوم فيها أبنية مؤقتة يقيم فيها الناس ثم يرتحلون عنها ويتركونها خالية

أما دشر فهى تحريف من جشر ، يقول دوزى ان سببه ثقل الجيم قبل الشين ، فتقلب فى النطق الى دال فيقال دش بدلا من جش ، ودشيش بدلا من جشيش ، ودشر بدلا من جشر ، والمدشر هو المجشر . ومن معانى لفظ جش طحن وكسر ، فيقال دشيش الفول ، ويراد به جشيش الفول ، أى الفول الذى تدور عليه الرحا ، ومن هنا لفظ دش بمعنى كسر ، ودشدش بمعنى حطم او قتل

انظر : Dozy. Supplément aux dict. arabes, 1, 442-3

(*) المؤلف هنا ينقل عن ابن خلدون حرفيا تقريبا (انظر فصل « فى أن جيل العرب فى الخلقة طبيعى » ص ١٠٥ – ١٠٦ طبعة الاب لويس شيخو ، بيروت ١٨٨٦) . وقد استغنى المؤلف عن بعض العبارات بدافع الاختصار ، ولهذا يستحسن ان يراجع القارىء الفصل برمته هناك ، وهو صغير وسنكتفى هنا بتوضيح بعض عبارات مما أورده المؤلف . فالمراد بالمسارح فى النص المراعى . وعبارة « واما اهل الابل .. الى قوله الى الدفء » اشارة الى اضطرار هؤلاء البدو الى التنقل بين سفوح الجبال والتلال المعشوشبة والوديان الواطئة ، فهم يقضون الشتاء فى الاودية والصيف على سفوح التلال ، ولكل قبيلة منهم لهذا مشتى ومصيف محددان

فسكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرحل ، ولذلك كانت المدن قليلة فى تلك الجزيرة ، ولا سيما فى أواسطها . وأشهر المدن العربية قبل الاسلام مكة والمدينة والطائف فى الحجاز ، ومأرب وصنعاء فى اليمن . وسكانها اخلاط من العرب والفرس والاحباش واليهود وغيرهم ، يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من أهل البادية

العصبية العربية قبل الاسلام

قلنا ان العرب جمهورهم من البدو ، والعصبية ضرورية لأهل البادية . لأن الناس مفطورون على المطامع ، ودأبهم التخاصم والتنازع ، فأهل المدن يدفع عدوانهم الحكام وأهل الدولة من أن يظلم بعضهم بعضا ، وهى أيضا تدفع غارات الاعداء بما تقيمه من الاسوار وتعده من الجند والسلاح . وأما البدو فيحكم بينهم مشايخهم وكبراؤهم ، بما وقر فى نفوس أهل القبيلة أو الحى من الوقار لهم .. واكرام السن من تقاليد البدو . واذا سطا عليهم عدو فى منازلهم قام بالدفاع عنها فتيانهم وشجعانهم ، وهؤلاء لا يصدق دفاعهم الا اذا كانوا عصبية تشتد بها شوكتهم ويخشى جانبهم

وأهل البلد الواحد ، أو المصلحة الواحدة ، لابد لهم من جامعة تجمع بين أفرادهم . والجامعة تختلف فى الأمم باختلاف أحوالهم ، فبعض الأمم يجمعهم الوطن ، وآخرون يجمعهم الدين ، وغيرهم يجمعهم النسب أو اللغة . وقد رايت أن البدو لاوطن لهم ، وكانوا قبل الاسلام لادين لهم ، فلم يكن لهم ما يجمعهم غير العصبية واللغة ، وهما متلازمتان خصوصا فى البداوة . لذلك عنى العرب بحفظ أنسابهم وضبطها ، وتفاخروا بها ، وبالغوا فى استقصائها ، حتى ردوها الى الآباء الاولين

فأقرب أسباب العصبية عندهم الاخوة والابوة والعمومة ، ومنها تتألف العائلة أو الأسرة ، ومن العائلات تتألف الفصيلة ، كآل أبىطالب وآلالعباس مثلا ، فان كلا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات ، وكلاهما من بنى هاشم . ومن الفصائل تتألف الافخاذ ، مثل بنى هاشم وبنى أمية ، وكلاهما من بنى عبد مناف . ومن الافخاذ تتألف البطون ، مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم ، وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العمائر (جمع عمارة) مثل بنى قريش وبنى كنانة ، وكلاهما من مضر . ومن العمائر تتألف القبائل، مثل ربيعة ومضر ، وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتألف الشعب ، وهو

معروفان ، وهم يسمون فى علم الاجتماع الترانسهيومانز Transhumans ، ولايزال منهم الكثيرون فى جزيرة العربوشمال افريقية وصحارى تركستان وغيرها . والمراد بقوله : « طلبا لما خص النتاج فى رماله » ان هؤلاء البدو يلتمسون فى رمال الصحراء الظروف الملائمة لولادة الابل وما يعقبها من مخاضها

النسب الابعد ، مثل عدنان وقحطان

أنساب العرب

والذى عليه النسابون أن سكان جزيرة العرب قبل الاسلام يرجعون فى أصولهم الى قسمين : العرب البائدة ، والعرب الباقية . فالقبائل البائدة هى التى بادت وضاعت أخبارها قبل ظهور الاسلام ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرهم وجاسم . وقد بحثنا بحثا تحليليا فى نسب هذه القبائل وأماكنها فى مقالة نشرت فى الهلال العشرين من السنة الخامسة لا محل لها هنا . وأما العرب الباقية فهى القبائل التى ظهر الاسلام وهى موجودة ، فقامت به ونشرته وأنشأت الدولة الاسلامية . والقبائل الباقية فرقتان ، ترجع كل منهما الى أب واحد يضمها وطن تنسب اليه : الفرقة الاولى القحطانية ، وترجع فى أنسابها الى قحطان وهو يقطان الذى ينتهى نسبه الى أرفكشاد (أبو أرفخشد) من آباء التوراة ، ومقر القبائل القحطانية فى اليمن ، ولذلك عرفت أيضا بالقبائل اليمنية أو عرب اليمن . والفرقة الثانية العدنانية ، نسبة الى عدنان من بعض أعقاب اسماعيل بن ابراهيم الخليل وتعرف أيضا بالاسماعيلية ، ولما كان مقر أكثرها فى الحجاز ونجد عرفت بالقبائل الحجازية ، أو بعرب الحجاز ونجد أو عرب الشمال

ولكل من القحطانية والعدنانية فروع من القبائل والعمائر والبطون والافخاذ والفصائل لايحصيها عد ولا محل لذكرها ، ولكننا نأتى بما يهمنا منها فى هذا المقام — فالعرب القحطانية أقدم من العدنانية ، أو تمدنت قبلها على الاقل ، ومنها بنو حمير الذين أنشأوا تمدنا فى اليمن ، ومنهم الملوك التبابعة وآثارهم فى حضرموت وخرائب اليمن ، لايزال أكثرها مدفونا فى الرمال وعليه نقوش بالقلم المسند . وقد تفقد آثار ذلك التمدن غير واحد من المستشرقين ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على شىء كثير لصعوبة السلوك فى تلك القفار . على أن بعضهم ألف الكتب فى هذا الموضوع ، وذهب الى أن التمدن اليمنى أقدم من التمدن المصرى ، وان الفراعنة أخذوا أصول تمدنهم عن أولئك العرب القحطانية (*) . والمظنون أن ملكة سبأ التى زارت سليمان

(*) لايمكن القطع فى هذا الموضوع برأى حاسم لانعدام الادلة التاريخية التى تؤيد ما يقوله المؤلف أو تنفيه ، ولو اننا نستطيع القول بأن أبحاث التاريخ المصرى القديم لم تدل على ان اهل مصر اخذوا عن أهل اليمن شيئا بصورة مباشرة . وكل ما يمكننا قوله ،هو ان هناك نفرا من العلماء يذهبون الى ان جماعات من اهل اليمن هاجرت الى مايعرف الان بالصومال ، وهناك تكاثرت ثم هاجرت مصعدة مع النيل فاستقرت فى حوضه واختلطت بمن وجدته هناك من البشر ، ومن هذا الخليط تكون الجنس المصرى القديم الذى انشأ دول مصر الاولى وغزا الوجه البحرى ووحد البلاد فكان ذلك ميلادا لمصر القديمة وحضارتها ، وليس معنى ذلك أن المصريين اخذوا عن اليمن أصول حضارتهم ، بل معناه ان الحضارتين المصرية واليمنية انشأهما شعبان يرجعان الى أصل واحد

الحكيم نحو القرن العاشر قبل الميلاد انما هى من ملوك هذه الدولة

***

وما زال اليمنية فى بلاد اليمن وحضرموت ، حتى كانَ سـيلَ العرم أو انبثاق السد المعروف بسد مأرب . وهو عبارة عن حائط كان موصلا بين جبلين ، يحجز الماء الذى كان يسيل بينهما ، فيرتفع ويروى السفحين الى اعلاهما . بناه بعض ملوك تلك الدولة بناء متينا ، فصبر على صـدمات الماء وتأثير الهواء عدة قرون . فلما دنا القرن الثانى للميلاد (تقريبا) وكانت الدولة قدشاخت ، أحسوا بقرب سقوط السد ، فخافوا الطوفان والقحط، فنزحوا من ذلك المكان وتفرقوا فى البلاد ، بحسب قبائلهم وبطونهم ، ومنهم بنو غسان فى الشام ، وبنو لخم فى العراق ، وبنو الأوس والخزرج فى المدينة ، والأزد فى منى ، وخزاعة بجوار مكة . ثم انفجر السد فهاجر من بقى هناك من القبائل اليمنية . وفى نحو القرن الخامس للميلاد استولى الأحباش على بلاد اليمن ، ثم جاء الفرس فأخرجوا الأحباش وضموا اليمن الى مملكتهم . وجاء الاسلام واليمن من أعمال مملكة الفرس

فلما ظهر الاسلام ، كانت دولة العرب القحطانية قد دالت ، وهم الحضر وسكان المدن (*) . وأما البدو القحطانية فكانوا لا يزالون كثيرين ، غير من بقى من القحطانية الحضر فى يثرب وغيرها من مدن الحجاز واليمن . واليك أشهر القبائل القحطانية عند ظهور الاسلام وهى : سـبأ وحمير وكهلان والأزد ومازن وغسان والأوس والخزرج وخزاعة وبجيلة وخثعم وهمدان وطىء ولخم وكندة وقضاعة وكلب وتنوخ ومراد والأشعر وغيرها

***

وأما القبـائل العدنانية ، أو عرب الحجاز ونجد أو عرب الشمال ، فلم يظهروا قبل الاسلام الا قليلا ، ولم ينشئوا دولة الا بعد الاسلام . وهم قبـائل عديدة ، مواطنهم غالبـا فى نجد والحجاز والعـراق وتهـامة ، وكلها بادية رحالة الا قريشا فقد كانوا حضرا يقيمون فى مكة ، وبعض أهل الطائف . وأعظم القبائل العدنانية قبيلة « معد » ومنها تسلسلت قبـائل عدنان كلها ، ويقال انه كان معاصرا لأرميا النبى (١) . وتفرع من معد اياد ونزار ، وسكنت اياد العراق وتشعبت الى بطون وأفخاذ . وأما نزار ففيها العظمة والقوة ، ولها الفضـل الاعظم على العرب ، لأن منها جاءهم النبى (صلعم) . وانقسمت نزار الى قبيلتى ربيعة ومضر ، فسـكنت ربيعة فى

(*) مع استثناء اهل مدن الحجاز كمكة ويثرب والطائف وما اليها

(١) ابن خلدون ٣٠٠ ج ١

جزيرة العراق ، ومن بطونها ضبيعة وأسد وعنزة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم . وأما مضر بن نزار فهم أهل الكثرة والغلب بالحجاز ، أكثر من سائر بنى عدنان ، وكانت لهم الرياسة بمكة . ومن مضر تشعبت عدة عمائر من جملتها قريش ، وتشعبت قريش الى ٢٥ بطنا من جملتها بنو عبد مناف ، ومنهم بنو هاشم رهط النبى (صلعم) ، وبه شرفت مضر بعد الاسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها

وأشهر القبائل العدنانية ، غير ما تقدم ، خزيمة وكنانة والنضر وشيبان وقيس وهوازن وسليم وغطفان وذبيان وثقيف وكلاب وعقيل وتميم وهلال وباهلة ومخزوم وأمية وعبدالقيس وغيرها ، وبعضها فروع للبعض الآخر. ولكل قبيلة أو عمارةشؤون خاصة وحكومة خاصة وشارة خاصة . ولكل منها سمة خاصة تمتاز بها عن سائر القبائل ، تعرف بها رايتها وتسم بها أبلها ، أى تنقش عليها علامة خاصة بها كيا بالنار يقال لها الميسم (١) وكانت القبيلة تمتاز بشيء تعرف به ويذاع بين القبائل خبره ، وتفاخر به سواها . فكانت مصر مثلا تفتخر بفصاحتها ، وربيعة تفتخر بفروسيتها ونجدتها (٢) واشتهر بعض القبائل بالعز والمنعة دون سواها ، كقبيلة بهدلة من العدنانية ، فقد ذكروا أن العز والقوة تسلسلا اليها من معد الى نزار فمضر فخندف فتميم فسعد فكعب فعوف فبهدلة (*)

عصبية النسب

وبين القبائل ، أو أفخاذها أو بطونها أو عمائرها ، عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض ــ الاقرب فالاقرب الىالابعد فالابعد. فتجتمع الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعا من بطن واحدة ، وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعا من قبيلة واحدة ، على حد قول المثل : « أنا وأخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » فالقحطانى يتعصب على العدنانى وهذه أوسع العصبيات ، ثم ان القبائل يتعصب بعضها على بعض . والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ، ويقال نحو ذلك فى البطون من عمارة واحدة ، أو الافخاذ من بطن واحدة ، حتى تصل الى الفصائل والعائلات . فبنو العباس وبنو أبى طالب مثلا تخاصما ، وكلاهما من بنى هاشم ، وبنو هاشم وبنو أمية تخاصما ، وكلاهما من بنى عبد مناف ، وقس على ذلك

وكل من القبائل أو البطون أو الافخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر

(١) الاغانى ٤ ج ١٩ (٢) المسعودى ٢١١ ج ١
(*) راجع عنهم جمهرة انساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) ص ٢٠٨

مثالب الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على أن أشهر حوادث المنافسة بين العرب انما هو بين القبائل القحطانية (أو اليمنية) والقبائل العدنانية ، وقد يرد ذكر ذلك في التاريخ ولا ينتبه له القارىء لانهم قلما يذكرون انتساب القبائل الى احدى هاتين العصبيتين فيقولون مثلا : « انتشبت الحرب بين قيس وكلب » ولايذكرون أن قيسا من العدنانية وكلبا من القحطانية ، لاعتقادهم أن القارىء يعرف ذلك . وقس عليه قولهم تفاخرت قحطان ونزار ، او معد واليمن ، أو مضر وحمير ، أو هوازن وكهلان ، أو قيس وهمدان ، أو نحو ذلك

العرب والعجم قبل الاسلام

على أن العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس أو الترك ويسمونهم «العجم» ، ويفاخرونهم بالأنساب واللغة ويحتقرونهم ، وقد شقوا من اسمهم لفظ الأعجم للدلالة على الخرس ، أو أن العجم مشتق من العجمة ، فالعجمي عندهم غير العربي ، والأعجم الأخرس (١) والأخزر عندهم الذي في عينه ضيق ، وهذا وصف العجم وهو عند العرب من النقائص ، فاذا قيل للعربي يا أخزر عد ذلك القول اهانة لأنه أخرجه من العرب . على أن العجمي في الاصل الفارسي ، والعجم الفرس ، لأن الفرس أقدم من خالط العرب من الأمم الغريبة عن لسانهم ، ثم أطلقوا لفظ العجم على كل اجنبي غير عربي

والمنافسة بين العرب والعجم قديمة ، فان الفرس في أيام دولتهم كثيرا ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف ، والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى في أيام سابور قبل الاسلام ببضعة قرون ، وكان هذا قد تعمد أذى العرب واخراجهم من بلاده ، وخصوصا قبيلة اياد ، وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب اياد حولها الخيل والنعم

ولكنه تمكن منهم بالقوة والجند ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، ومن افلت لحق بأرض الروم . وفعل نحو ذلك ببني تميم في البحرين . وما زالت الضغائن بين العرب والفرس ، حتى اضطر عرب اليمن الى استنجاد كسرى على الاحباش في القرن الخامس للميلاد ، فأرسل جندا أخرجوا الاحباش واحتلوا مكانهم وحكموا العرب ، الى أن جاء الاسلام وتحول السلطان الى العرب فتسلطوا على العجم ، فكبر ذلك عليهم وخصوصا في أيام بني أمية ،

---

(١) العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣

لتعصبهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشـــعوبية للطعن فى العرب ، وسيأتى بيان ذلك

الأمومة والخؤولة

الأصل فى العصبية عند العرب الأبوة أو الانتساب الى الأب ، مثل ســائر الامم الراقية ، على أن الامومة كان لها شأن كبير عندهم ، وكثيرا ما كانت المزاوجة أو المصاهرة سببا كبيرا للعصبية ، ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على الاجمال ، وانما الفضل فيه للأمومة ، فان المرأة كانت لاتزال محتقرة حتى تصير أما .. فتعلو منزلتها وتشتد عرى الاتحاد بها . فالرجل منهم يفضل أمه على امرأته ، لأن الأم فى اعتقاده أبقى له من امرأته . ومن أمثلة ذلك أن صخر بن عمرو بن الشريد ـ أخا الخنساء ـ لما حضر محاربة بنى أسد ، طعنه ربيعة بن ثور الاسدى فأدخل بعض حلقات الدرع فى جنبه ، وبقى صخر مدة فى أشـــد ما يكون من المرض ، وأمه وزوجته سليمى تمرضـــانه ، فضجرت زوجته منه ، فمرت بها امرأة فسألتها عنه فقالت : « لا هو حى فيرجى ولا ميت فينسى » فسمعها صخر فأنشد قصيدة قال منها :

أرى أم صـــخر لا تمل عيـــادتى وملت ســـليمى مضجعى ومكانى
وأى امرىء ســـاوى بأم حليـــلة فلا عاش الا فى شقا وهوان (١)

وكانت العرب من أجل ذلك لا يعزون فى المرأة الا أن تكون أما (٢) ولم يكن ذلك خاصا بحال المرأة عند العرب ، فقد كان هذا شأنها أيضا عند اليونان ، لأنهم كانوا يعدون المرأة أمة يحجبونها قبل الزواج وبعده ، وتشتغل بأشغال البيت من الحيـــاكة والغزل وتمريض المرضى . وكذلك كان يفعل الفرس بنسائهم ، فاذا صارت المرأة أما علت منزلتها وصار اليهـــا الأمر والنهى فى بيتها ، ولا يزال هذا دأب أهل البادية الى اليوم . ونشأت من ذلك عصبية الخؤولة عند العرب ، وهى نصرة عشيرة الأم لأولادها ، وبعبـــارة أخرى لعشيرة زوجها ، ولو كان الأب من قبيلة يمنية والأم من قبيلة عدنانية ، أو بالعكس

***

وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام ، وأقرب الشواهد عليها نصرة أهل المدينة للنبى (صلعم) فى هجرته اليهم ، فان الخؤولة كانت من أهم أسباب نصرتهم ، لأن أم النبى من بنى النجار من الخزرج وهى قبيـــلة قحطانية ، وأبوه من قريش وهى قبيلة مضرية . فلما توفى والده ذهبت

(١) ابن خلكان ١٣٢ ج ١ (٢) العقد الفريد ٢٦٤ ج ٢

به أمه الى المدينة ، لكى تلتجىء الى أخواله بنى النجار وهم كثيرون ، وكانوا من أقرب اهلها الى التدين ، وقد ترهب أحدهم فى الجاهليـــة ، ولبس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانيـة ثم أمســك عنها ، واتخذ بيته مسجدا . فأقامت عندهم على الرحب والسعة ، ثم ذهبت به الى أعمامه فى مكة وماتت على الطريق . فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد أعمامه ، هاجر الى أخواله فى المدينة ، وأهلها يعرفون ذلك فيه ، لأن خؤولة بنى النجار جعلت الخزرج كلهم أخواله ، فلما نزل المدينة رحب به أهلهـــا ، وكان أول من تابعه منهم أخواله أو من يمت اليهم بقرابة . وكانوا اشد أهل المدينة غيرة عليه ودفاعا عنه (١) ثم تهافت أهل المدينة الى مبايعته . وكان فى أثناء غزواته اذا اشتد القتـــال جلس تحت راية الانصار (٢) وهم يستهلكون فى سبيل نصرته ، ولا سيما آل النجار . وكان أعداء الانصار اذا هجوهم خصوا بنى النجار منهم بالذكر، لتصدرهم فى ذلك أكثر من سائر أهل المدينة . فمن قصيدة قالها عمرو ابن العاص يوم أحد وهو لم يسلم بعد :

خرجنـــا من الفيفـــا عليهم كأننـــا ... مع الصبح فى رضوى الحبيك المنطق

تمنت بنو النجار جهـلا لقـــاءنا ... لدى جنب سلع والامانى تصدق

فمـــا راعهم بالشر الا فجـــاءة ... كراديس خيل فى الازقة تمرق (٣)

***

وظلت الخؤولة مرعية عند العرب بعد الاسلام ، وكان لها تأثير كبير فى العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة ، بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان ، نصره بنو كلب وهم يمنية ، لأن نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت أصابعها بالدم . وكان لنصرتهم دخل كبير فى قيامـــه ، وتزوج هو واحدة منهن ولدت له ابنه يزيد . ولما أفضت الخلافة الى يزيد ، كان الكلبية من حزبه لأنهم أخواله ، وأمثال هـــذه الشواهد كثيرة فى تاريخ الاسلام ، منها ان المأمون نصره الفرس لأن أمه منهم ، وكان أخوه الامين ضده وحزبه عربى لأن أمه عربية ، فلجأ المأمون الى خراسان وأقام بمرو عند أخواله ، فأخرجوا الخلافة من يد الامين وسلموها اليه . والمعتصم كانت أمه تركية وكان ميله الى الاتراك كثيرا ، وقد جندهم فنصروه على الفرس . وقس على ذلك تأثير الأم فى الدولة ، مما سيأتى تفصيله . وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوون أحزابهم بالتزوج من القبائل

---

(١) ابن هشام ١٨٩ ج ١ (٢) ابن هشام ٨١ ج ٢ (٣) ابن هشام ١١٠ ج ٢

المختلفة ، فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم (*)

توابع العصبية العربية

الحلف :

فعمدة العرب فى العصبية جامعة النسب من الاب ، ثم الام . على انهم كانوا يجتمعون بأسباب أخرى ، كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات أو المعاهدات الدولية فى هذه الأيام . وأشهر أحلاف الجاهلية حلف المطيبين ، وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت أنسابها من القحطانية والعدنانية . وقد يكون التحالف بين العرب وغير العرب ممن ينزلون بينهم ، وهو من قبيل الولاء ، كاليهود الذين نزلوا المدينة من بنى النضير وبنى قينقاع وغيرهم ، ومنهم حلفاء الأوس والخزرج ، وكان أهل وادى القرى حلفاء بنى هاشم ، وسيأتى ذكرهم فى الموالى

وللتحالف أو الحلف عندهم شروط وأسباب ، منها أن يكون الحليف أسيرا لايستطيع فداء نفسه ، فيسمونه بسمة تلك القبيلة فيعد حليفا لها (١) والحليف يرث من القبيلة كما يرث الصريح من أبنائها (٢) أما اذا قتل فديته نصف دية الصريح (٣) (**)

(*) دور الامومة دور طبيعى فى تطور الجنس البشرى ، وهو يعرف عند علماء الاجتماع بالماترياركات Matriarchat وهو سابق على دور الابوة (باترياركات Patriarchat) ويراد بدور الامومة ذلك الدور الذى كانت الام فيه رأس الاسرة وصاحبة الامر فيها ، ويكون ذلك عادة فى الاجيال الاولى قبل ان تستقر قواعد الزواج ، لان الاب لم يكن دائم المقام فى الاسرة ، وانما هو يخرج للصيد او الحرب ، وقد يخرج ولا يعود ، فتقوم الام بشئون الاولاد ، وينتقل دور الاب الى احد اخوتها ، اى الى خال الاولاد ، ولهذا كان الخال فى ذلك الدور هو الاب الفعلى للاولاد ، ومن هنا جاءت أهمية الخؤولة . وعندما تقدمت المجتمعات وتقررت قواعد الزواج واستقر الاب فى اسرته اصبح هو رأس الاسرة ، ودخلت الجماعة فى دور الابوة

وقد طبق روبرتسون سميث هذه القواعد فى دراسته عن الزواج والقرابة عند العرب القدماء Robertson, Smith, Kinship and Marriage in Ancient Arabia وقرر ان العرب مروا بدور الخؤولة بدليل وجود قبائل كثيرة منسوبة الى الامهات (باهلة ، كندة ، جذيمة .الخ)

وقد عارضه فى ذلك الرأى نفر من علماء العرب ومنهم المرحوم جرجى زيدان نفسه

(١) الاغانى ١١٠ ج ٧ (٢) تاريخ الوزراء ٢٥١ (٣) الاغانى ١٦٧ ج ٢

(**) الحلف او التحالف تقليد عربى قديم هدفه ربط قبيلة بقبيلة او مجموعة من القبائل برابطة اخرى غير رابطة النسب ، وقد ذهب بعضهم الى أن لفظ الحلف مشتق من حلف ، لان المتحالفين يقسمون يمينا ، ولكن يبدو ان ذلك غير صحيح ، لان القسم جاء فيما بعد ، ومن غير الثابت على أى حال ان المتحالفين كانوا يقسمون على شىء كشرط من شروط عقد الحلف . وقد يتحالف فرد مع قبيلة على ان يكون حليفها ، وفى هذه الحالة يختلط معنى الحلف بمعنى الجوار . واشهر الاحلاف كما ذكر المؤلف حلف المطيبين وقد تولى عقده بنو عبد مناف فيما بينهم (بنو المطلب وبنو هاشم وبنو نوفل وبنو عبد شمس وبنو الحارث) ليواجهوا بنى عبد الدار ومن انضم اليهم ، وكان هؤلاء لا يريدون التنازل عن امتيازاتهم ، وعقدوا مع بنى مخزوم وبنى جمح حلفا سمى بحلف الاحلاف . وقد تطور حلف المطيبين واعيد تكوينه باسم حلف الفضول (وتكون هذه المرة من بنى عبد شمس ونوفل وأسد وعامر) ولفظ الفضول غير واضح المعنى ،

الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الاسلام الاستلحاق ، وهو أن يدعى الرجل رجلا يلحقه بنسبه ، وقد يكون عبدا أو أسيرا أو مولى ، فيسميه مولاه وينسبه اليه . ومن أشهر حوادث الاستلحاق فى الجاهلية ، أن أمية جد بنى امية كان له عبد اسمه ذكوان ، استلحقه بنسبه وكناه أبا عمرو ، فصار اسمه عندهم أبا عمرو بن أمية ، ومن نسله جاء الوليد بن عقبة أخو عثمان بن عفان لأمه ، وكان من جلة الصحابة

وأشهر حوادث الاستلحاق فى الاسلام استلحاق زياد بن أبيه بأبى سفيان والد معاوية داهية العرب ، وقصة استلحاقه مشهورة فى كتب التاريخ . وكان زياد هذا ابن امرأة اسمها سمية ، وكانت جارية ، فولدت زيادا من غلام رومى من موالى ثقيف اسمه عبيد ، ولم يكن ذلك مشهورا عند العرب ، فكانوا يعتبرون زيادا مجهول الأب فسموه « زياد بن أبيه » ، فلما طلب معاوية الخلافة واحتاج الى من ينصره ، قرب اليه جماعة من دهاة العرب ومنهم زياد المذكور ، واختص زيادا بالاستلحاق ، فاستشهد خمارا من أهل الطائف اسمه أبو مريم السلولى ، فشهد أن أبا سفيان جاءه والتمس منه بغيا فأتاه بسمية فحملت منه بزياد ، وثقات المؤرخين ينكرون ذلك ويعتقدون أن معاوية اختلق هذه القصة ليكتسب نصرة زياد ، وقد تم له ما أراد . فسمى زياد من حينئذ « زياد بن أبى سفيان » بعد أن كان يعرف بزياد بن أبيه أو ابن سمية (١) وما زال آل زياد معدودين من قريش ، حتى ردهم المهدى سنة ١٦٠ هـ الى نسب عبيد المذكور ، وصاروا من موالى ثقيف (٢) ومثل هؤلاء آل أبى بكرة ، فقد كانوا من موالى النبى (صلعم) والحقوا بثقيف ، فردهم المهدى الى أصلهم

وان كان بعض المؤرخين يذهب الى ان معناه حلف الافاضل او أهل الفضل . وهناك احلاف أخرى مثل حلف الرباب (بكسر الراء ، انظر عنه الطبرى ، طبعة أوربا ، ٢٢٢١/١ ، والاشتقاق لابن دريد ، طبعة فستنفلد ، ص ١١١) وحلف لعقة الدم (انظر عنه ابن هشام ١٢٥/١ والاغانى ، ٢٦/٧)

انظر : علاوة على ماذكر فى النص :

كتاب المعارف لابن قتيبة ، طبعة فستنفلد ، ص ٢٩٨

تفسير الطبرى ، ٣٥/٥

Caetani, Annali dell'Islam, I, Introd. 85-87.

Caussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, 1, 254-255.

Th. W. Juynbull, Handbuch des islamischen Gesetzes, p. 258.

W. Robertson Smith, Kinship and Marriage etc. p. 53 ff.

Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, p. 480.

I. Goldziher. Islamstudien, I, 63-69.

احمد الصالح العلى : محاضرات فى تاريخ العرب ، ج ١ ، الفهرس

(١) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٠ ج ٦

وكانوا يسمون المستلحق « دعيا » ، وقد يكون الرجل دعى أدعياء فيكون هو دعيا فى رهطه ورهطه دعى فى قبيلة مثل ابن هرمة ، فقد كان دعيا فى الخلج والخلج أدعيـــاء فى قريش ، وكثيرا ما كانوا يستلحقون الرهط أو العشيرة دفعة واحدة ، لنزولهم فيهم أو لنصرتهم اياهم ، كما أصاب بنى العم من أهل البصرة ، فانهم نزلوا ببنى تميم فى أيام عمر بن الخطـــاب ، فأسلموا وغزوا مع المسلمين فقالوا لهم : « أنتم وان لم تكونوا من العرب اخواننا وأهلنا ، وأنتم الانصار وبنو العم » فلقبوا بذلك وصاروا من جملة العرب (١)

***

وكانوا يعدون الدعى من أنفسهم ، ويورثونه كما يورثون الابن الصريح (٢) ويرثونه ، وكثيرا ما كان العرب يرغبون فى استلحاق مواليهم ، رغبة منهم فى أن يرثوهم ، وقد يأبى المولى أن يلحقوه اذا عرف غرضهم ، كما أصـــاب نصيبا المغنى المشهور ، اذ أراد مواليه أن يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم: « والله لأن أكون مولى لائقا أحب الى من أن أكون دعيا لاحقا ، وقد علمت انكم تريدون مالى » (٣)

ومن أسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف « المؤاخاة » ، وقد تكون بين القبائل أو بين الافراد ، ولا تزال هذه العادة شـــائعة بين البدو الى الآن ، فاذا آخيت العربى أخذ بناصرك وحماك ودافع عنك كأنك أخوه

الخلع

وضد الاستلحاق عندهم « الخلع » ، فكان الرجل اذا ســـاءه أمر من ابنه ، سواء كان صريحا أو دعيا خلعه ، أى نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعة ما قد يرتكبه الولد من المكروه ، وقد تفعل ذلك القبيلة أو العشيرة ، فيذهب جماعة منها الى سوق عكاظ ومعهم المراد خلعه ، ويشهدون على أنفسهم انهم خلعوه ، ويبعثون مناديا بذلك فلا تحتمل القبيلة جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه . كما فعلت خزاعة بقيس بن الحدادية الشاعر الجاهلى (٤) وقد يكتبون بالخلع كتابا

ومن أشهر حوادث الخلع قبل الاسلام خلع عمرو بن العاص من عشيرته ، وكان قد ذهب الى الحبشة بتجارة فى الجاهلية مع عمارة بن الوليد المخزومى واختصما فى الطريق ، فأساء عمارة الى عمرو فأضمر له الشر ، وعمـــرو من بنى سهم فكتب الى أبيه أن يخلعه ويتبرأ من جريرته اذا أذى عمارة ففعل ، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها وأرسلوا بذلك مناديا الى مكة (٥)

---

(١) الاغانى ٧٦ ج ٣ — (٢) الاغانى ٩٤ ج ١٧ — (٣) الاغانى ١٣٤ ج ١
(٤) الاغانى ٢ ج ١٣ — (٥) الاغانى ٥٢ ج ٨

وكان الخلعاء فى البادية كثيرين ، يجتمعون ويؤلفون عصابات من الصعاليك يقطعون السبل ويتمردون على القبيلة . فلما جاء الاسلام أصبح تمردهم على الحكومة . فقد كان يعلى الأحول من شعراء الدولة الأموية خليعا ، يجمع صعاليك الأزد وخلعاءها فيغير بهم على أحيـــاء العرب ويقطع الطريق على السابلة . وكان بين تجار الرقيق من يبتاع الخلعاء ويذهب بهم الى بلاد الروم

العبيد فى الجاهلية (*)

الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الانسان ، لأن الانسان مفطور على الاستبداد، والقوى يستعبد الضعيف . وكان الانسان فى أول عهد العمران اذا غلب عدوه وقبض عليه لايستعبده بل يقتله ، الا النساء فقدكانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن. ثم صاروا يستعبدون الاسرى ويستخدمونهم فى حرث الارض ورعاية الماشية ، أو نحو ذلك من الصناعات ، أو يبيعونهم بيع المتاع . ذلك كان شأنهم فى عهد التمدن القديم فى مصر واشور وبابل . وكان للاسترقاق سوق رائجة فى الدولة الرومانية ، فكانوا يأتون بالاسرى بالمئات والالوف، ويبيعونهم بيع الاغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات. ولما انتظم حال تلك الدولة ، صاروا يتزوجون بالجوارى ، وبعد أن كان الرومانى يتصرف بعبيده كما يشـــاء من قتل أو جلد ، أصبح قصاصه منوطا برأى القضاة ، واذا بالغ السيد فى ظلم عبده حكم القضاة عليه

على ان العبيد ما زالوا كثيرين فى المملكة الرومانية ، لايخلو منهم بيت ، واكثرهم من الاسرى أو أبنـــائهم ، يستخدمونهم فى المنـــازل ويعلمونهم الصناعات على اختلاف ضروبها ، ويبيعونهم فى أسواق خاصـــة بالرقيق . ويختلف ثمن العبد عندهم من عشرين ريالا رومانيا الى أربعة آلاف ريال ، ويقال نحو ذلك فى سائر الممالك القديمة . فالفرس مثلا كانوا يستعبدون الاتراك فى الحرب ويتهادونهم ، وقد يتهادون أبناء الامراء منهم . ومما ذكره التاريخ من ذلك أن أبرويز ملك الفرس أهدى الى موريقس Mauricius ملك الروم مائة غلام من أبنـــاء أراكنة الترك فى غاية الحسن والجمال ، فى آذانهم أقراط من الذهب فيها الدر واللؤلؤ ، فى جملة هدايا أخرى. فأهداه ملك الروم هـــدية فاخرة ، فى جملتهـــا عشرون جارية من بنات ملوك برجان Burgundians والجلالقة Gallicians والصقالبة Sclavs والوشكنس Gascons من الاجناس المجاورة لبلاده على رؤوسهن أكاليل الجوهر (١)

(*) يريد بالعبيد هنا الرق ، وكنا نستصوب استبدال كلمة العبيد هنا وفى الفقرة التالية بلفظ « الرق »

(١) المسعودى ١١٦ ج ١

والعرب أيضـــا كانوا يستخدمون العبيـــد من أسرى الحرب ، أو ممن يبتـــاعونهم من الأمم المجاورة لجزيرتهم ، كالحبشـــة وما حولها من الأمم المتوحشة . فكان النخاسون يحملون العبيد والاماء من تلك البلاد وغيرها الى جزيرة العرب ، يبيعونهم فى أسواقها فى المواسم ، وكانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر السلع . ومن أشهر النخاسين فى الجاهليـــة عبد الله بن جدعان التيمى رئيس قريش فى حرب الفجار (١) فاذا اشترى احدهم عبدا وضع فى عنقه حبلا وقاده الى منزله (٢) كما تقاد الدابة . واذا كان العبد أسير حرب جزوا ناصيته وجعلوها فى كنانتهم حتى يفتـــدى نفسه . وكانوا يبتاعون الأرقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الأمتعة ، الا اذا دبر المولى عبده أى قال له : « أنت حر بعد موتى » فانه يكون حرا. وقد يخرجون العبيد فى جملة صداق العرائس ، وممن أخرج فى الصـــداق بشار بن برد الشـــاعر الاسلامى الشهير ، فانه كان هو وأمه لرجل من الازد تزوج امرأة من بنى عقيل فساق اليها بشارا وأمه فى صداقها (٣)

وذلك يدل على كثرتهم ، ولا سيما عند الأمراء والملوك حتى ليزيدون على المئات والالوف . فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على أبى بكر ومعه ألف عبد غير من كان معه من عشيرته (٤) . ولم يكن شريف من أشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستخدمهم فى قضاء حاجات منزله، فعبدالله بن أبى ربيعة كان له عبيد من الحبشة يقومون بجميع المهن ، وكان عـــددهم كثيرا وفيهـــم من يخرج للحرب . وقلما كانوا يثقون بأمانتهم (٥) على أنهم كانوا يستعينون بهم فى القتال ، وكان لذلك شأن بعد الاسلام . وكانوا يجعلون الحد على العبـــد نصف ما على الحر (٦) واذا شهد حربا لا يضرب لهم بسهم (٧) بل يكون سهمه لسيده

وكان من أصناف العبيد عندهم « القن » ، وهو العبـــد الذى يعمل فى الارض ويباع معها ويشبه ما يعرف باسم Cerf فى المملكة الرومانية . ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة ، كما اتفق لأبى لهب مع العاصى بن هشام ، فانهما تقامرا على أن من قمر كان عبدا لصاحبه ، فقمره أبو لهب فاسترقه واسترعاه ابله (٨) وكانوا يسترقون المدينين أيضا

وكانت العرب تتزوج الاماء ، فاذا ولد لهم منهن أولاد استعبدوهم ، فاذا

---

(١) المسعودى ٢٨٢ ج ١
(٢) المعارف لابن قتيبة ١١٢
(٣) الاغانى ٢٠ ج ٣
(٤) المسعودى ٢٨٧ ج ١
(٥) الاغانى ٣٢ ج ١
(٦) الاغانى ١٢٤ ج ١٤
(٧) المعارف لابن قتيبة ١١٠
(٨) الاغانى ١٠٠ ج ٣

انجب أحدهم ألحقوه بأنسابهم واعترفوا به والا بقى عبدا . وأشهر حوادث الاستلحاق على هذه الصورة الحاق عنترة العبسى بأبيه شداد ، وهو ابن جاريته زبيبة . وكان شداد نفاه فلما أنجب ألحقه بنسبه (١) وقصته مشهورة . وكان العرب قبل الاسلام لايعتقون عبيدهم الا لسبب هام . واذا أحب العبد العتق ، استباع أى طلب البيع ، فاذا رضى صاحبه باعه لسواه . أما بعد الاسلام فقد كثر الاعتاق لحكمة سياسية دينية سيأتى ذكرها (*)

الموالى فى الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر ، والغالب فيه أن يكون عبدا معتقا ، فكل عبد أعتق صار مولى ، وهو يشبه ما كان فى الدولة الرومانية من العبيد المحررين ويسمونهم Libertines وكل عبد أو أسير أعتقه صاحبه فهو مولى له ، وينسب اليه أو الى قبيلته أو رهطه . فمولى العباس مثلا هو مولى بنى هاشم ، وهو أيضا مولى قريش ومولى مضر . وقد ينسب المولى الى بلد معتقه ، فيقال فلان مولى أهل المدينة ، أو مولى أهل مكة . والمولى عندهم كالقريب ، ولكنهم يسمون قرابة الاهل صريحة وقرابة المولى غير صريحة . ويطلق المولى على الصاحب والقريب وابن العم والجار والحليف والابن والعم والنزيل والمحب والتابع والصهر وغير ذلك ، وأكثرها يطلق على المولى بسبيل المجاز . وأما عند التحقيق فالموالى ثلاثة أنواع : مولى عتاقة ، ومولى عقد ، ومولى رحم

---

(١) الاغانى ١٤٨ ج ٧

(*) يقول العرب «عبد» والجمع عبيد وعباد ، ويقولون للاناث من الرقيق اماء والمفردة « أمة » ، ويستعملون لفظ الجنس « رقيق » ، ولم يرد هذا اللفظ فى القرآن الكريم ، وانما تستعمل مكانه كلمة « الرقاب » والمفرد رقبة او ما ملكت اليمين . ويقال أيضا عبد مملوك ، لتأييد معنى الملك ، ومملوك فقط ، وغير ذلك . وقد عرفت كل هذه المصطلحات تطورات شتى على طول تاريخ الاسلام ، فالمملوك والغلام والجارية والفتى مثلا فى القرن الرابع الهجرى لا تحمل نفس المعانى التى كانت لها فى القرن الاول . وقد كان الرق معروفا فى الجاهلية ، وكان الرقيق من المتاجر التى تدر على القرشيين ربحا عظيما ، وممن اشتهر بالتجارة فيه عبد الله بن جدعان ، وكان معظم الرقيق الذى كانوا يتاجرون فيه من الاحباش ، وكان فيهم القليلون من الروم وربما من العرب ايضا ، وان كان الغالب ان يكون الرقيق العربى ابنا لجارية فلزمه رق أمه ، وكان المفروض الا يعترف به أبوه ابنا شرعيا له الا اذا شاء ذلك ، وقصة عنترة بن شداد التى بين ايدينا انما هى لذلك قصة ذات موضوع ، فهى تصور جهاد ابن جارية للخروج من رقه بارغام أبيه على الاعتراف به ابنا شرعيا ، وفى سبيل ذلك أتى عنترة بما أتى به من ضروب البسالة

انظر :

G. Jacob, Altarabische Bedwinenleben, Berlin 1897, p. 137-139, 213
Bischr Fares, L'honneur chez les Arabes avant l'Islam. Paris 1932, p. 71.
Lammens, Le berceau de l'Islam. Rome, 1914, p. 299.

دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة ، مادة « عبد » بقلم و. برونشفيج

مولى العتاقة

فمولى العتاقة هو الذى كان أسيرا أو عبدا واعتق ، وكانوا يعتقون الاسير مكافأة على احسان ، فيشترط الرجل على عبده مثلا اذا فعل كذا وكذا فهو حر ، ويكون مولى لمعتقه ، وكان لذلك تأثير كبير فى صدر الاسلام ، لان المسلمين كثيرا ما كانوا يستعينون بالعبيد على أسيادهم بطريق الاعتاق . ومن أمثلة ذلك أن المسلمين لما حاصروا الطائف فى السنة الثامنة للهجرة وكادت تمتنع عليهم ، أمر النبى (صلعم) مناديا فنادى : « أيما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله » فنزل جماعة كبيرة (١) وقد يكون الاعتاق لسبب آخر

واذا كان العبد من أسرى الحرب وأرادوا اعتاقه جزوا ناصيته وخلوا سبيله ، فيصير مولى لمالك تلك الناصية . ومن قول حسان بن ثابت شاعر النبى (صلعم) بعد واقعة أحد جوابا على قول هبيرة بن أبى وهب :

ألا اعتبرتم بخيل الله اذ قتلت أهل القليب ومن الفينه فيها
كم من أسير فككناه بلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها (٢)

المكاتبة

وقد يقع العتاق باتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع ، وهو ما يعبرون عنه بالمكاتبة ، وذلك أن يكتب العبد على نفسه صكا بثمن اذا سعى وأداه عتق ، وقد يجعل الدفع أنجما « تقسيطا » ، فأبو سعيد المقرى أحد كبار التابعين كان عبدا لرجل من جندع ، وكاتبه على أربعين ألفا وشاة لكل أضحى فأداها (٣)

قلنا أن من أعتق عبدا كان ولاؤه له ، ومعنى ذلك انه يكون هو صاحب ولائه ، فينسب اليه ، واذا مات كان هو وارثه . على أنهم كانوا يشترطون أحيانا الا يكون ولاؤه لمعتقه ، بل يكون لمن يؤدى ثمن المكاتبة . وقد تكون العتاقة « سائبة » ، وهى أن يعتق العبد ولا ولاء له . فكان الرجل اذا قال لعبده : « أنت سائبة » يعتق ولا يكون ولاؤه لمعتقه ، ويضع ماله حيث شاء . ومن أشهر المعتقين سائبة سالم مولى أبى حذيفة بن عتبة ، وأصله من اصطخر وكان مملوكا لبثينة امرأة أبى حذيفة ، فأعتقته سائبة (٤)

على ان الاسلام نهى عن أن يكون الولاء لغير المعتق ، فبريرة بنت سعود الثقفية دخلت على عائشة أم المؤمنين تستعينها فى كتابتها وعليها خمس أواق نجمت عليها فى خمس سنين ، فقالت لها عائشة : « أرأيت ان عددت

---

(١) العقد الفريد ٢ ج ٣ (٢) ابن هشام ١٠٥ ج ٢
(٣) المعارف لابن قتيبة ١٥٤ (٤) المعارف ٩٢

لهم عدة واحدة أبيعك أهلك فأعتقك فيكون ولاؤك لى ؟ » فذهبت بريرة الى أهلها فعرضت ذلك عليهم ، فقالوا : « لا ، الا أن يكون لنا الولاء » . قالت عائشة : « فدخلت على رسول الله (صلعم) فذكرت ذلك له فقال : اشتريها فاعتقيها فانما الولاء لمن أعتق » (١) الا أن يشترى أحد ذلك الولاء من صاحبه فيصير الولاء الى المشترى ، كما أصاب أبا معشر أحد أصحاب الحديث ، فقد كان مكاتبا لامرأة من بنى مخزوم فأدى وعتق ثم اشترت أم موسى بنت منصور الحميرية ولاءه (٢)

ومن أسباب العتاقة عندهم التدبير ، وذلك أن يقول الرجل لعبده أنت حر بعد موتى فلا يرثه أهله (*)

مولى العقد

ويقال له أيضا مولى حلف أو اصطناع ، وذلك أن ينتمى الرجل الى رجل بالخدمة على اختلاف ضروبها ، أو بالمحالفة أو المخالطة أو الملازمة على أن يتعاقب ذلك أجيالا . ومن أمثلة الموالى بالمحالفة أو المخالطة اليهود فى يثرب (المدينة) فقد جاء الاسلام وهم يعدون من موالى الاوس والخزرج ، فولاؤهم من قبيل الحلف . ولولاء اليهود فى يثرب تاريخ يطول شرحه ، خلاصته أن اليهود نزلوا قبل الميلاد ببضعة قرون وتوطنوها قبل أن ينتقل اليها الاوس والخزرج من عرب اليمن ، فلما جاءوا اليها رأوا اليهود مستأثرين بالارض والماشية فأقاموا فى ضيق ، حتى اتفق أن أميرا منهم اسمه مالك بن عجلان استشار ملك غسان بالشام فى شأنهم ، وكأنه استعانه عليهم فاتفقا على الكيد لهم . فجاء المدينة وفعل ذلك فذل اليهود وخافوا ، واصبحوا اذا داهمهم أحد من الاوس أو الخزرج بشىء يكرهونه ، لايمشون بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون من قبل ، بل يذهب كل منهم الى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيستجير بهم ، فلجأ كل قوم من اليهود الى بطن من الاوس أو الخزرج يتعززون بهم (٣) ويحالفونهم على أنهم مواليهم ، وفيهم من ينسب ولاءه الى رهط خاص كموالى بنى النجار أخوال النبى (صلعم) أو موالى غيرهم من عرب المدينة .

ومن هذا القبيل أكثر موالى العرب بعد الاسلام ، فقد كان العرب أهل

---

(١) البخارى ٦٠ ج ٢ (٢) المعارف ١٧٢

(*) التدبير هو ان يقرر الرجل ان عبده معتق بعد موته ، واصله قول الرجل لعبده : « أنت حر عن دبر منى » اى بعد موتى . والمذاهب الاسلامية كلها تجيزه على اختلاف فى الاحكام ، وكلها تقرر استحالة الرجوع عن قرار العتق تدبيرا ، فاذا أراد الرجل الرجوع فيه أباح له الشافعيون والحنابلة بيع العبد الى رجل آخر ، فيسقط حق العبد فى الحرية بعد موت مالكه الاول ، أما الحنفيون فلا يجيزون ذلك الا اذا كان الوعد بالتحرير مقيدا بشرط . وكان للمالك ان يضاجع عبدته المدبرة ، ويجرى على أولادها فى هذه الحالة ما يجرى عليها

(٣) الاغانى ٩٧ ج ١٩

السيادة والشوكة ، وأهل البلاد يلازمونهم بالخدمة أو المخالطة أو المعاشرة ، فينسبون اليهم ويسمون ذلك ولاء الموالاة ، وهى أن يقول شخص لآخر : « أنت مولاى ترثنى اذا مت ، وتعقل عنى اذا حييت » فيقول الآخر : « قبلت » . ولكل طبقة من العرب طبقة من الموالى ، فقد كان البرامكة مثلا من موالى الرشيد ، ومن هم دونهم من العجم موالى الامراء ، وهكذا

وكان المولى فى الجاهلية ربما كان نصرانيا أو يهوديا أو مجوسيا ، لا فرق فى ذلك عندهم ، فموالى النبى (صلعم) كان أحدهم حبشى الاصل والآخر يونانى الاصل والآخر قبطى الاصل والآخر فارسى الاصل (١) (*) وعدس مولى عتبة بن أبى ربيعة كان من أهالى نينوى وقتل يوم بدر على النصرانية (٢) أما بعد ظهور الاسلام فأصبح الولاء خاصا بالمسلمين ، لأن القرآن نهى عن تولى اليهود والنصارى بالآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » الخ . وصاروا يعدون بعد الاسلام من أهل الذمة

مولى الرحم

وأما مولى الرحم فيكتسب الولاء بالزواج من موالى بعض القبائل ، فينسب الى القبيلة التى تزوج من مواليها . ومن أمثلة ذلك سديف الشاعر ، فقد كان مولى خزاعة ، ثم ادعى ولاء بنى هاشم لأنه تزوج مولاة لآل أبى لهب (من بنى هاشم) (٣)

وللموالى عند العرب أحكام عامة وأحكام خاصة ، فأحكامهم العامة ان المولى أحط منزلة من الحر وأرفع من العبد ، فهو حر لايباع كالعبد لكنه لايعامل معاملة الحر فى الزواج والميراث . فالمولى لايتزوج حرة ، ودية المولى نصف دية الحر (٤) كأنه عبد . ويعامل نحو ذلك فيما يقع عليه من القصاص ، فيجلد نصف حد الحر

وأما أحكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء ، وأهمها الارث ، فمولى العتاقة يورث ولا يرث ، ومولى العقد لايرث ولا يورث ، ومولى الرحم يرث ويورث (٥) فمن أعتق عبدا كان الولاء له وهو يرثه ، ولذلك يسمونه مولى النعمة . وكان الرومانيون يرثون ثلث ما يملكه مواليهم أو يكتسبونه بالعمل

---

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٢

(*) الآراء مختلفة فى عدة موالى الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف صاروا الى ولائه ، وقد عقد لهم فصولا معظم من كتبوا السيرة ، غير ان ادق احصاء اورده ابن الاثير (انظر طبعة المطبعة المنيرية الاولى ، ج ٢ ص ١٢٩ – ١٣٠) ، وتحدث عنهم المقريزى فى « امتاع الاسماع » حديثا مطولا ، والمولى الحبشى المشار اليه فى المتن هو بلال ، واليونانى هو يسار ، والفارسى سلمان ، والقبطى هو مابور الذى أهداه اياه المقوقس مع مارية القبطية واختها سيرين ، وكان خصيا

(٢) المسعودى ٣١ ج ١ (٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٤ (٤) الاغانى ١٧٦ ج ٢

(٥) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢

أو غيره ، واذا لم يكن لهم من يرثهم من نسلهم ورثوا كل أموالهم (١)

وكان للموالى شأن فى عصبية العرب قبل الاسلام ، وقد عظم شأنهم فى الاسلام ، حتى كانوا سببا فى قلب الممالك ونقل السلطة من دولة الى دولة(*)

النزالة الاجانب فى الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانيــة ومن يتبعهم من العبيد والموالى والخلفاء ونحوهم ، وفيها أيضا جماعة من النزالة نزحوا اليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهنـــد ، وفيهم الاحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم . وكان بعضهم يتوالدون فيها ويتزوجون بأهلها ، فيختلطون بهم وتضيع انسابهم فيهم ، كالكلدان والسريان وغيرهم . وفيهم من يحالفونهم وينتمون اليهم كاليهود والنصارى ، ومنهم من يدخلون فى جملة عبيدهم ومواليهم كالاحباش والفرس والهنود ، فتضيع اصولهم . ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهـــور الاسلام عربا صرفا ، الا بعض اليهود كبنى قينقـــاع والنضـــير وغيرهم ، وشرذمات من نصارى الروم ، وطائفة من الفرس الاحرار يعرفون بالابناء

الأبناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون فى بلاد اليمن ، ويعرفون بأبناء الفرس الاحرار أو « الابناء » تمييزا لهم عن الفرس الموالى . وأبناء الفرس الاحرار هم أبناء الجند الفارسى الذى جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذى يزن الحميرى على الاحباش ، وكان الاحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها ، ففزع سيف المذكور الى كسرى ملك الفرس واستنجده فى حديث طـويل ، فسير كسرى معه بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمه وهرز . فلما وصــل الجيش الى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الاحباش ، فاستظهر الفرس عليهم وأخرجوهم من البلاد ، وملك سيف بن ذى يزن ووهرز أربع سنين . وكان سيف قد اتخذ من الاحباش خدما ، فخلوا به يوما وهو فى الصيد وقتلوه وهربوا فى رؤوس الجبال ، وطلبهم اصحابه فقتلوهم جميعا ، وتضعضع أمر

(١) Gibbon's Roman Empire, II.

(*) المادة عن المولى والموالى والولاء غزيرة جدا فى كتب الفقه الاسلامى خاصة بحيث يتعذر ايرادها هنا ، وقد افاض ابن منظور فى اللسان والمرتضى الزبيدى فى تاج العروس فى الكلام على أنواع الولاء والموالى (مادة ولى) ولهذا نكتفى بأن نورد بعض الابحاث الاوربية الحديثة فى الموضوع:

Von Kremer, Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen II, 154.
Ignaz Goldziher, Muhammedanische Studien, I, 104 sqq.
Schacht, Origins of Muhammedan jurisprudence, 265, 279.
R. Levy, Introduction to the Sociology of Islam, I, 117-127.

والمراجع التى أوردها برونشفيج فى مقال «عبد» فى الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الاسلامية ، ص ٢٥ – ٤١

اليمن ولم يولوا عليهم أحدا من العرب ، فظلت سيادة الفرس عليهـــا حتى ظهر الاسلام ، وفيها عاملان من قواد الفرس أحدهما اسمه فيروز الديلمى والآخر راذويه فأسلما

فالجيش الفارسى لما استوطن اليمن تزوج رجاله فيها وتناسلوا ، ورزقوا الأولاد والأحفاد وعرفوا بالأبناء . واشتهر منهم فى صدر الاسلام طاوس بن كيسان أحد أعلام التابعين ، ووهب بن منبه صاحب الاخبـــار والقصص ، ووضاح اليمن الشاعر وغيرهم

وكان مثـــل هؤلاء الفرس أيضا فى الشام والعراق والجزيرة ، واختلفت أسماؤهم باختلاف أماكنهم بعد الاسلام ، فهم يسمون فى اليمن الابنـــاء كما رأيت ، وفى صنعاء خاصة يســــمون بنى الاحرار ، وفى الكوفة الاحامرة ، وبالبصرة الاساورة ، وبالجزيرة الخضارمة ، وبالشام الجراجمـــة (١) . وكان للأبناء شأن عند ظهور الاسلام ، فتجندوا للمسلمين ونصروهم ، وظـــلوا مميزين عن سائر المسلمين غير العرب بأنهم غير الموالى (*)

سياسة الدولة فى الجاهلية

لم يكن للعرب دولة فى جاهليتهم ، الا ما كان فى اليمن من دول التبابعة مما لايدخل فى بحثنا . وانما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التىكانت تدور عليها احكامهم ومعاملاتهم لحفظعلاقاتهم السياسية وآدابهمالاجتماعية، مما يقوم مقام القوانين الادارية والسياسية الدولية فى الامم المتمدنة

فالرياسة عندهم أو الامارة انما ينالها أهل العصبية والجاه ، واذا تساوت العصبية فى جماعة قدموا أكبرهم سنا ، ولذلك كان لفظ « الشيخ » عندهم يدل على الشيخوخة والرياسة معا ، واذا أشكل عليهم الانتخاب لأىسبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك اذا اجتمعت عدة قبائل فى محالفة على حرب ، واحتاجوا الى من يرأسهم جميعا فانهم يقترعون بين أهـــل الرياسة ، فمن

---

(١) الاغانى ٧٦ ج ١٦

(*) يطلق لفظ « الابناء » ايضا على اولاد سعد بن زيد بن عبد مناة بن تميم، عدا اثنين منهم هما كعب وعمرو ، وكانوا يسكنون بالدهناء

أما لقب الابناء فيطلق عادة على أبناء الفرس خاصة من كان فى اليمن ، وكان اول دخـــول الفرس اليمن على ايام خسرو الاول الملقب بأنوشروان (٥٢١ ـ ٥٧٩ م.) استجابةلاستنجادسيفبن ذى يزن الحميرى بسبب توالى غارات الاحباش على اليمن ، فأرسل حملة قوية طردت الاحباش، ثم عاد هؤلاء الاخيرون مرة اخرى فأرسل الفرس قوة اخرى طردت الاحباش من اليمن بصورة نهائية واستقرت الحامية الفارسية فىاليمنحتى جاء الاسلام فأسلم قائدها باذانورجالها وابناؤهم الدين عرفوا بالابناء

واطلق لفظ « الابناء » ايضا على اولاد أنصار الدولة العباسية الاول ، والتسمية اختصار لعبارة « ابناء الدولة »

انظر :

Wüestenfeld, Register zu den genealogischen Tabellen der arabischen Staemme
Noeldeke, Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden (Leyden, 1879)
De Goeje, Glossar zu Tabari

وقعت عليه القرعة اسندوا اليه الرياسة .. ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . واما حضرهم فى مكة فالرياسة فيهم لسادن الكعبة ، وقد تقدم ذكر مصالح الحكومة عندهم فى الجزء الاول من هذا الكتاب

وكان فى كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرياسة والشرف ، فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرياسة فيها ، كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش ، وبيت آل حذيفة بن بدر الفزارى من قيس ، وبيت آل زرارة بن عدى من تميم ، وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله بن همام من شيبان ، وبيت بنى الريان من بنى الحرث بن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف ، لتوالى ثلاثة آباء منها فى الرياسة على الاقل . ولأهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة (*) : وكان أهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك فى تولية الحكام . ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن ابن على : — « ول أهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم »

والامير البدوى مع سلطته المطلقة قلما يستبد فى احكامه ، ويغلب ان يستشير أهل بطانته وخاصته ، على انه لم يكن يحتجب عن أحد ولا يمتهن احدا . يجالس جميع الناس ويخالطهم ، رفيعهم ووضيعهم . وهم لا يعرفون القاب التفخيم ولا نعوت التملق ، فاذا خاطب البدوى أميره ناداه باسمه وطالبه بحقه ، بعبارات تشف عن عزة النفس واباء الضيم ، أو هى انفة البداوة ، على أنهم كانوا يتكلمون على الاسنان (**) ، والامير يخاطب رعاياه بألقاب الوقار ، كالأب والعم والخال والابن أو ابن الأخ ، على ما تقتضيه الاسنان والانساب . وظل ذلك شأنهم فى صدر الاسلام ، ينادون الخليفة باسمه ويحاجونه فى شؤونه ، حتى اذا تحضروا احتجبوا وتكبروا ، فاتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم

مناقب العرب فى الجاهلية

الوفاء

على أن العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل فى الخصومة بينهم ، لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التى تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم ، وتنزههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » ، لأنه اذا تأصل فى أمة أغناها عن القضاء — والحكومة انما تقضى بين الذين لايعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكنا فى خلق العربى ، ويزيد

(*) راجع الفصل القيم الذى كتبه السيد محمود شكرى الالوسى فى كتابه « بلوغ الارب فى معرفة احوال العرب » وعنوانه « بيوتات العرب » الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٢٤ ج ٢ ص ١٨٩ — ١٩١

(**) أى يتكلمون فى المجلس بحسب السن ، يتكلم الاكبر فمن يليه وهكذا

تمكنا فيه كلما بعد عن المدن وأوغل فى الصحراء ، لأن الغــدر والنكث لايعيشان الا فى القصور الشماء فى ظل الحدائق الغناء

وترى الوفاء مطبوعا فى اقوال أهل البادية وأشعارهم وأمثالهم ، ويتجلى فى عاداتهم وأخلاقهم وفى سائر أعمالهم ، وهو فيهم سجية وفى سواهم صناعة وتكلف . وحكاية حنظلة الطائى والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلة أحسن تمثيل ، فان حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت ، فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك بن عدى ، ولم يقدم شريك على ذلك الا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفى حنظلة فجاء فى الوقت المعين ، لا جند يقوده ولا حراس تخفره ، مما حمل النعمان على العفــو عنه وقصته مشهورة (١)

وأغرب من ذلك وفاء السموأل (صموئيل) بن عادياء ، وكان امرؤالقيس الكندى قد استودعه سلاحا وامتعة تساوى مالا كثيرا ، وســافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه ، فبعث ملك كندة يطلب الاسلحة والامتعة المودعة عند السموأل ، فلم يسلمها . ولما الح عليه اجابه : « لا أغدر بذمتى ولا أخون أمانتى ولا أترك الوفاء الواجب على » . فجرد الملك عليــه جيشــا وحاصره فى حصنه ، فوقع ابن السموأل أسيرا عند الملك ، فهدد السموأل بقتل ابنه ان لم يسلم الوديعــة ، فأبى التسليم وقال : « ماكنت لأخفر ذمامى وأبطل وفائى فافعل ما شئت » . فذبح ولده والسموأل ينظر. فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائبا ، وأما السموأل فصبر على ما تحمله من الثكل محافظة على الوفاء ، ولم يسلم الوديعة الا الى ورثة امرىء القيس

فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم الى القوانين ، واستغنوا عن الجند والحرس ,وخصوصا اذا أضفنا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنايا .. فهذه كلها مناقب العــرب أهل البادية

الجوار

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام أيضا « الجوار » ، فان البدوى يحافظ على جاره محافظته على نفسه . والمقصود بالجوار فى الاصل ان يحافظ الرجل على جاره القريب ، وهو من قبيل التعاون الطبيعى حتى قيــلَ : « جارك القريب ولا أخوك البعيد » . ولكن العرب توسعوا فى ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة والجوار ، وكلها بمعنى الحماية والحفظ ، مع ان أصل المادة « جار » يفيد عكس ذلك . واستعاروا الجوار للحماية على

(١) المستطرف ١٦١ ج ١

الاطلاق ، فاذا خاف أحدهم سوءا جاء الى رجل يحميه ، ويكفى أن يقول له : « اجرنى » فيجيره بقدر طاقته ، وقد يفرط فى أهله ولا يفرط فى جاره

ومن امثلة ذلك أن الاعشى امتدح الاسود العنسى فأعطاه جائزة من الحلل والعنبر ، فرجع وطريقه على بنى عامر فخافهم على ما معه من المال ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له : « أجرنى .. » ، فقال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الجن والانس .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « لا .. » ، فتركه وأتى عامر بن الطفيل فقال له : « اجرنى .. » ، قال : « قد أجرتك .. » ، قال : «من الانس والجن ..» ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « وكيف تجيرنى من الموت ؟ » ، قال : « اذا مت وأنت جارى بعثت الى أهلك الدية » ، فقال : « الآن علمت انك تجيرنى » (١)

وقد يجيء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده فى بيته ، فيكفى أن يعقد طرف ثوبه الى جانب طنب البيت ، فاذا فعل ذلك صار جارا ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به أن يجيره وأن يطلب له بظلامته (٢)

ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه أن عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر انصابا ميلا فى ميل على قبره ، لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش ، اشارة الى ما كان عليه من المحافظة على الجوار فى حياته (٣)

وما زال الجوار مرعيا عند العرب بعد الاسلام ، الا من خالط الامم الاخرى فى البلاد الفتوحة . على أن تأيد الدولة اقتضى ضعف الجوار ، لأن أهل الوجاهة أصبحوا من أهل الدولة ، والرجل يومئذ انما يستجير من حاكم يطلبه ، فاذا استجار به مظلوم قالوا : « انما يجير الرجل على عشيرته ، واما على سلطانه فلا » خوفا على مناصبهم ، كما أصاب ابن مفرغ لما هجا بنى زياد واستجار بالأحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد ، وهو يومئذ امير البصرة فأبى الاحنف خوف العزل ، وقال له : « اذا شئت أن أجيرك من بنى سعد فعلت » ، فذهب الى غيره من وجهاء العرب فأبوا اجارته لنفس هذا السبب (٤)

الأريحية

ومن المناقب التى تغنى العرب عن الوازع القهرى او القوة الحاكمة « الاريحية » ، وهى من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية ، أو ما يجرى

---

(١) الاغانى ٨٣ ج ٨ (٢) الاغانى ١٨٤ ج ٢
(٣) الاغانى ١٣٩ ج ١٥ (٤) الاغانى ٥٦ ج ١٧

مجراها من أحوال الفروسية التى يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ، ومرجع ذلك الى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الأحدوثة . وكان للأريحية شأن عظيم عند العرب ، لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم ، لأنهم أهل خيال وذوو نفوس حساسة ، يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم ، وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم ، وربما بذل العربى حياته فى سبيل كلمة يقولها ، أو فرارا من كلمة يسمعها ، ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهاة فى المواسم والاندية ، مما يرغب فى الفضائل ويغنى عن زجر الحكام

ومناقب العرب كثيرة ، كالكرم والضيافة وعلو الهمة ، مما لا دخل له فى موضوعنا

سياسة العرب
في عصر الراشدين
من سنة ١١ ـ ٤١ هـ

الجامعة الاسلامية

قد رأيت أن العرب انما كانوا يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب ، فلما جاء الاسلام كان فى جملة ما بدله من أحوالهم أنه جمع كلمتهم وصاروا يدا واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم . وبعد أن كان اليمنى يفاخر الحجازى ، والمضرى يفاخر الحميرى ، ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والافخاذ ، جاء الاسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو «الاسلام» ، فقال النبى : «المسلمون اخوة» ، وقال فى خطبة ألقاها يوم فتح مكة : «يامعشر قريش، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » (١) (*) وقال من خطبة فى حجة الوداع : « أيها الناس ، ان ربكم واحد وأن اباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى » (٢) (**)

واقتدى بالنبى خلفاؤه الاولون ، لاسيما عمر بن الخطاب ، فان جبلة بن الايهم ملك غسان بعد أن أسلم ، اتفق وهو يطوف بالكعبة أن فزاريا وطىء زاره فانحل ، فرفع جبلة يده وهشم الفزارى ، فشكاه الى عمر فأراد أن يهشم انف جبلة ، فقال : «وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟» فأجابه عمر : «ان الاسلام جمعك واياه ، فلست تفضله بشىء الا بالتقى والعافية» ، فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد الى الفرار (٣)

---

(١) ابن هشام ٢١٩ ج ٢

(*) بقية حديث ابن هشام تكمل مايريد المؤلف قوله هنا . قال ابن هشام بعد ذلك : « ثم تلا هذه الآية (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم) الآية كلها ، ثم قال : يامعشر قريش ، ماترون انى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، اخ كريم وابن اخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » ـ ابن هشام : السيرة ج٤ ص ٥٤ ـ ٥٥

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١٦٤ ج ١

(**) رجعت الى نص خطبة حجة الوداع عند ابن هشام فلم أجد فيها هذا الحديث الشريف ، ثم رجعت الى نص الخطبة كما نقلها الدكتور حسين هيكل فى كتابه عن محمد صلى الله عليه وسلم فلم اجدها ايضا . وانما الذى فيها مما يتفق مع المعنى الذى يريده المؤلف هنا : « ايها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن ان كل مسلم أخ للمسلم ، وان المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس ، فلا تظلمن انفسكم ، اللهم هل بلغت » ..
أنظر : سيرة ابن هشام ، طبعة السقا والابيارى وشلبى ، القاهرة ١٩٣٦ ج ٤ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢
حياة محمد للدكتور هيكل ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٣٥٨ ، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤

(٣) الاغانى ٤ ج ١٤

فيؤخذ من ذلك أن الجامعة الكبرى انما هى الاسلام ، ولكنهم كانوا يجعلون للعرب مزية على سواهم من الامم لانهم قوام الاسلام ، وأوصى عمر بن الخطاب بأهل البادية خيرا ، لانهم أصل العرب ومادة الاسلام (١) وقال : « اياكم وأخلاق العجم » ، والاسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم . وعمر أول خليفة فضل العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سبيهم ، ومن أقواله : «قبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا وقد وسع الله عز وجل وفتح الاعاجم» ، وفدى سبايا العرب من الجاهلية والاسلام الى أيامه (٢) عملا بالحديث « لا سبأ فى الاسلام»

وكان عمر لا يدع أحدا من العجم يدخل المدينة (٣) وهو الذى قسم خيبر بين المسلمين وأخرج اليهود منها ، وقسم وادى القرى وأجلى يهود نجران الى الكوفة (٤) لتخلو جزيرة العرب من غير العرب . وكان كثير العنـاية بالجامعة العربية يوصى العرب بحفظ أنسابهم لئلا تضيع عصبيتهم ، ومن وصاياه : «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدكم عن أصله قال : من قرية كذا . . » (٥)

الجامعة العربية :

ثم ان عمر ، مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها، قدحرض العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال : «ليست الحجـاز لكم بدار الا على النجعة . . سيروا فى الارض التى وعدكم الله فى الـــكتاب أن يورثكموها » (٦) لعلمه أن فى العراق والشام عربا يتحدون معهم وينصرونهم . وكان عرب العراق ناقمين على الفرس من أيام دولتهم ، لما كانوا يسومونهم اياه من الاضطهاد. وكانت ديانة بعض عرب العراق والشام النصرانية، ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين . وخصوصا عرب العراق فانهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على عورات الفرس ــ فأبو زبيد الطائى حارب مع المسلمين فى واقعة الجسر حتى قتل وهو نصرانى ، وانمـا حارب حمية للعرب . وجاء المسلمين يوم واقعة البويب أنس بن هلال النمرى فى جمع عظيم من النمر ــ وهم نصارى ــ وقالوا : « نقاتل مع قومنـا » (٧) وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حمية للجامعة العربية ، بقطـع النظر عن الدين

وكثيرا ما كان عرب الشام والعراق عونا للمسلمين فى حروبهم ، يرشدونهم

---

(١) ابن الاثير ٢٥ ج ٣ — (٢) ابن الاثير ١٨٦ ج ٢
(٣) المسعودى ٢٩ ج ١ — (٤) ابن الاثير ٢٨٠ ج ٢
(٥) ابن خلدون ١٠٩ ج ١ — (٦) ابن خلدون ١٢٢ ج ١ — (٧) ابن الاثير ٢١٥ ج ٢

وينصحونهم ويحملون اليهم اخبار اعدائهم . فلما خرج الوليد بن عقبة غازيا للروم لقيه الروم فقاتلوه ، فجاءه رجل من العرب نصرانى وقال له : «انى لست من دينكم ولكننى انصحكم للنسب ، فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار ، فان رأوكم ضعفاء أفنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم» (١) وقد نفعته هذه النصيحة

ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة، فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق. ولما رأى ما كان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم ، فلما هم المسلمون بوضع الجزية على اهل الذمة وفى جملتهم عرب تغلب واياد والنمر — وهم نصارى — أبى هؤلاء الجزية ، وبلغ عمر ذلك فاستشار أصحابه فقال له بعضهم: «انهم عرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك» فوافق ذلك ما فى نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ، ولكنه شرط عليهم أن لا ينصروا أولادهم (٢)

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية ، وكان يعد ذلك حقا واجبا. فلما سار الوليد بن عقبة لفتح العراق والجزيرة ، انضمت اليه عربها النصارى ، الا قبيلة اياد ، فانهم تحملوا الى بلاد الروم ، فكتب الوليد الى عمر بذلك ، فكتب عمر الى ملك الروم : «بلغنى أن حيا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتخرجنه الينا أو لنخرجن النصارى اليك» فأخرجهم ملك الروم (٣)

الانسياح فى الارض :

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعا للجامعة العربيـــة ، والاستعانة بها على الروم والفرس ، ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما الا فى السنة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، وهو مايعبرون عنه بالانسياح فى الارض. فكانوا يتطلبون الفتح وقد طابت لهم الغنائم واستلذوا النصر ، فاذا استأذنوه فى فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم ، كما وقع لعمرو بن العاص لما أراد فتح مصر ، وكان قد عرفها من أيام الجاهلية ، فلما فتحت الشام والعراق جاء الى الخليفة عمر ورغبه فى فتحها وقال له : «انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الأرض أموالا واعجز عن القتال والحرب» فلم يجبه عمر، ولما الح عليه اطاعه وهو يتردد وقال له : «سر .. انى مستخير الله فى سيرك ، وسيأتيك كتابى ان شاء الله تعالى ، فاذا ادركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من ارضها فانصرف ، والا أن دخلتها قبل ان يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره» . فسار عمرو بجنده مسرعا خوفا من أن يأتيه كتاب الخليفة بالرجوع . فوصله كتابه فى بلد قرب العريش خارج حدود مصر ، فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهى من مصر،

(١) الاغانى ١٨٧ ج ٤ (٢) المعارف ١٩٣ (٣) ابن الاثير ٢٦٢ ج ٢

ففض الكتاب واذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته ، أما بعد فان أدركك كتابي هذا وأنت لم تدخل مصر فارجع عنها ، واما اذا أدركك وقد دخلتها أو شيئا فى أرضها فامض واعلم أنى ممدك » ، فمضى حتى فتح مصر

ولما فتح المسلمون الاهواز قال عمر : «ليت بيننا وبين فارس جبلا من نار لايصلون الينا ولا نصل اليهم» . ومن هذا القبيل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر . وكان اذا هم المسلمون بالنزول فى بلد أو انشاء معسكر فى البلاد المفتوحة أوصاهم أن لايقيموا فى مكان يفصل بينه وبين المدينة (مركز الخلافة) ماء ، حتى اذا أراد أن يأتيهم أتاهم على راحلته ، مما يدل على رغبته فى العصبية العربية على أن يكون مركزها فى بلاد العرب . ومع ذلك فلما لم ير بدا من الانسياح فى الارض أذن لقواده بالفتح ، ولكنه ظل على رأيه فى القرشيين على الخصوص ، فحصرهم فى المدينة ومنعهم من الخروج وقال : «أخوف ما اخاف على هذه الامة انتشاركم فى البلاد» ، فاذا جاء الرجل منهم يستأذنه فى الغزو أجابه : «قد كان لك فى غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من غزوك اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك » . كان يفعل ذلك بالمهاجرين من قريش فقط ، فلما ولى عثمان خلى عنهم ، فلحق معظمهم بمعاوية فى الشام وانتشروا فى البلاد (١)

فسياسة عمر بن الخطاب فى أوائل دولته كانت تقضى ببقاء العرب محصورين فى جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق ، وأن يختص قريشا بالاقامة فى المدينة لانها مركز الاسلام وهم أساسه ومنشأه ، على أنه لم يستطع وقف تيار الفتح فلم ير بدا من الاذن فى الانسياح (*)

---

(١) ابن الاثير ٩٠ ج ٣

(*) لم تتقدم الدراسات حول عمر بن الخطاب فى العصر الحديث خطوة واحدة عما كانت عليه فى القرن الرابع الهجرى ، وكل من كتبوا عنه من مؤرخى المسلمين المحدثين يدورون حول معان كهـــذه التى اوردها الطبرى فى كتابه : « الرياض النضرة فى مناقب العشرة » ، القاهرة ١٣٢٧ . اما المستشرقون فلم يخرجوا عما قاله الاب هنرى لامانس فى مقاله المعروف « ثالوث ابى بكر وعمر وابى عبيدة بن الجراح » :
Henri Lammens, Le Triumvirat Abu Bakr-Umar-Abu Ubaida ibn al Jarrah dans Etudes sur le siècle des Umayyades
وما كتبه ليـــوني كايتـــانى فى المجلد الخامس ، من تاريخه الطويل Annali dell'Islam وهو اوسع دراسة حديثة لعمر واعماله . ولكن كايتانى اساء الظن وذهب مذهبا ماديا صرفا فى الدرس والتحليل ، وغابت عنه نواحي الجمال فى الشخصية العمرية . واغرب ماذهب اليه تشبيهه عمر بالقديس بولس ، مع ان الفرق بين الاثنين عظيم ، فالقديس بولس داعية ومنظم دعاة وواضع طقوس ، وهو الذى أخرج من حياة المسيح وافعاله طقوسا وعبادات ، اما عمر فكان رجل دولة ومنظما من الطراز الاول ، وكان الى جانب ذلك على خلق متين وايمان لا يتزعزع . ويهمنا هنا ــ فى مجال التعليق على كلام المؤلف ــ موقفه من العرب وايمانه بالعروبة ، فقد كان عربيا صريحا يعرف مواضع قوة العرب ومواضع ضعفهم ، فاجتهد فى الافادة من مواطن القـــوة على احسن صورة ممكنة ، وحرص على ان يجنب العرب التعرض لمواطن الضعف ، ومن هنا كان حرصه على الا يختلطوا بالناس ويستقروا فى الارضين فيستنيموا الى الدعة ، وهم عدد قليل وسط

فالعصبية التى قام بها الاسلام هى الجامعة العربية ، ولذلك كان اللفظان مترادفين فى ذلك الحين ، وخصوصا عند الامم التى خضعت لسلطان المسلمين، فكانوا اذا قالوا «العرب» ارادوا «المسلمين» ، وبالعكس. ولفظ «طيبوتا» عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء ، والفرق بين هذه الجامعة قبل الاسلام وبعده أن العرب كانوا فى الجاهلية عصبيات عديدة تختلف باختلاف الانساب ، فأصبحوا بالاسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب ، وتركوا ذكر الآباء والاجداد عملا بما يقتضيه روح الاسلام . وكانوا فى جاهليتهم يتفاضلون بالانساب ، فأصبحوا فى الاسلام يتفاضلون بالتقوى والجهاد فى سبيل الدين ، فنشأت فيهم جامعات اسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل (*)

طبقات عربية اسلامية

لما قام النبى (صلعم) بالدعوة الاسلامية، احتاج الى من يسمع دعوته وينصره، فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه ، وهاجر بعضهم الى الحبشة وهاجر الآخرون الى المدينة معه فعرفوا بالمهاجرين ، وهم أقدم الطبقات الاسلامية . ولما جاء المدينة وأقام فيها نصره أهلها وآمنوا بدعوته فسماهم «الانصار» وهم طبقة اخرى ، والطبقتان معا تسميان «الصحابة» أى الذين صحبوا النبى أو عرفوه . وتفرع من الصحابة جماعات تعرف كل منها بجامعة خاصة لاحوال خاصة كان لها تأثير فى نصرة الاسلام أو نشره . فواقعة بدر كان

محيط واسع من البشر فتذهب ريحهم . وربماكان موقفه من الصحابة أعظم دليل على مهارته السياسية ، فقد عرف ان تفرقهم فى النواحى يتيح الفرصة لالتفاف الناس حولهم ، وربما اغرى ذلك بعضهم بطلب السلطان ، فألزمهم بالمقام فى المدينة او مكة تحت بصره ، وقد خدمهم بذلك خدمة كبرى لم يعرفوا قدرها الا بعد مقتله ،فقد تعرضوا للسياسة واخذتهم التيارات ووقع الشقاق بينهم مما ادى الى وقوع الفتنة

ومن النواحى الخاصة التى امتاز بها عمر اعتماده على الشباب دون الشيوخ ، وكان شباب بنى امية اقرب الى قلبه من غيرهم لادراكهم شؤون الادارة وتقديرهم للمسئولية ونمو الشعور بالنظام فى قلوبهم ، ولهذا فقد ولى الكثيرين منهم الولايات العظيمة ، وهو فى الحقيقة الذى مهد لهم الطريق للسلطان ، وقد عبر المقريزى عن ذلك فى كتابه « النزاع والتخاصم بين بنى امية وبنى هاشم » بقوله انه هو الذى « حدد انيابهم » ، وتاريخ الدولة الاموية لهذا يبدأ من خلافة عمر ، بل من اواخر ايام الرسول صلى الله عليه وسلم

ويذهب المستشرقون الى ان عمر نقل الدولة الاسلامية من اسلامية الى عربية ، وجعل الصدارة فيها للعرب ، واعتز بخصال العروبة واجتهد فى المحافظة على الكيان العربى سليما ، وهذا كله صحيح . ولكن عمر لم يغمط قدر غير العرب كما يقول فلهاوزن وكايتانى ، فالواقع ان عمر ، رغم ايمانه بالعرب واعتزازه بهم ، هو الذى ابتكر فكرة ربط الشعوب المفتوحة الى العرب برابطة الولاء ، فرفع اهل هذه البلاد الى مرتبة المواطنة الكاملة فى الدولة تحت اسم «الموالى» ولم يكن الموالى اقل فى شىء من العرب ، سواء فى الحقوق او الواجبات ، وهو الذى حال بين العرب الفاتحين وتملك الاراضى المفتوحة ، فحال بذلك بين الموالى وبين ان يصيروا رقيقا ، ومن هذه الناحية يعتبر عمر من اعظم المبتكرين فى ميدان التشريع العام لا الاسلامى فقط . وموضوع عمر فى حاجة الى دراسات طويلة جديدة لا تدور حول « مناقب العشرة » بقدر ما تدور حول عبقريته السياسية وقدرته التنظيمية ، وتمكنه رغم ضعف الاداة التى كانت بين يديه من السيطرة على جيوش قوية منتصرة كان من الممكن ان يستبد قوادها بما فتحوا . وتتضح قيمة ذلك كله اذا نظرنا الى ما وقع بعد وفاته بسنوات قلائل ، أى فى خلافة عثمان

(*) يستعمل المؤلف هنا لفظ جامعة بمعنى الرابطة،فالجامعة الاسلامية هى الرابطة الاسلامية وكذلك الجامعة العربية هى رابطة العروبة

لها شأن عظيم فى تأييد الاسلام ، فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين ونسبوا اليها فسموا «البدريين» أو «أهل بدر» ، وكذلك واقعة القادسية التى كانت عنوان فتح العراق وفارس ، فان الذين شهدوها عرفوا بأهل القادسية . وقد جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات أو الجماعات امتيازات خاصة ، وفضلوا أهل بدر وأهل القادسية بالعطاء على سائر المسلمين

ويقال نحو ذلك فى من شهد فتح مكة أو سواها من الوقائع الاخرى التى كان لها شأن فى الاحزاب الاسلامية ، كواقعة الجمل وواقعة صفين ، فان شيعة على يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل لانهم انتصروا فيها ويسمونهم «أصحاب الجمل» ، وشيعة بنى أمية يفضلون «أصحاب صفين» لمثل هذا السبب ، وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر أصحابه

على أن الصحابة يتفاضلون أيضا فى السبق الى الهجرة أو الى البيعة، ومنهم أصحاب بيعة العقبة وأصحاب الغار (*) . والذين لهم صحبة قبل بيعة الرضوان يفرقون عمن صاحب بعدها ، ونحو ذلك مما يطول شرحه. ناهيك بالمناصب التى اقتضتها الاحوال الدينية أو الادارية ، كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعى التابعين وغيرهم (**)

على أن عصبية النسب لم تذهب بعد الاسلام ذهابا تاما ، ولكنها تحولت الى وجهة دينية ، فأصبح أشرف الانساب عندهم ، أقربها الى قبيلة النبى «قريش» فالنسب القرشى أشرف الانساب ، وللقرشيين التقدم فى المناصب والمراتب والعطاء وخصوصا بعد اشتهار الحديث : «الائمة من قريش»(١) فاعتقدوا الفضل للقرشيين على الناس كافة فى كل شىء ، حتى فى أحوال الحياة والولادة فقالوا : «لاتحمل لستين الا قرشية ، ولا تحمل لخمسين الا عربية » (٢) (***) وانه لا تكون بنت امرأة قرشية أمة (٣) وأن القرشى لا يتزندق(٤) وانه لاينبغى

(*) لا ادرى ما المراد بأصحاب الغار هنا ، لان الغار ليس فيه الا صاحب واحد هو ابو بكر الصديق ، ولعل المراد هنا اصحاب الشعب وهم الذين حاصرتهم قريش مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى شعب خارج مكة وقاطعوهم وكتبوا وثيقة مقاطعتهم فى « الصحيفة » المشهورة

(**) لا يعد الحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم من اصحاب المناصب ، ولم يكونوا كذلك طبقات متميزة ، بل لم يكونوا جماعات ذات وحدة وامتياز معين ، وانما هم افراد امتاز بعضهم بميزاتهم الشخصية ، وهم فى هذا يختلفون عن اصحاب المناصب الحقيقية كالقضاة وامراء الجند وعمال النواحى ومن اليهم

(١) العقد الفريد ٤٠ ج ٢ (٢) الاغانى ٨٨ ج ١٥

(***) معنى ذلك ان القرشيات وحدهن هن اللائى يحملن ويلدن حتى تصل سنهن الى الستين، والعربيات وحدهن هن اللائى يحملن ويلدن حتى سن الخمسين . وقد وجدت اصل الخبر فى طبعة الساسى من الاغانى ج ١٥ ص ٨٥ ونصه : اخبرنى الحرمى بن ابى العلاء والطوسى قالا : حدثنا الزبير بن بكار ، واخبرنى احمد بن محمد بن سعيد الهمدانى ، قال : حدثنا يحيى بن الحسن العلوى ، قال : حدثنى الزهير بن بكار ان هندا حملت بموسى بن عبد الله ولها ستون سنة ، قال : ولا تحمل لستين الا قرشية ولا تحمل لخمسين الا عربية »

(٣) الاغانى ١١٠ ج ١٤ (٤) الاغانى ٦٠ ج ١٤

للقرشي أن يستغرق في شيء من العلم غير الاخبار (١) وظلت الرياسة في قريش لا ينازعهم فيها منازع الى عهد غير بعيد

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والانصار شأن خاص وحزب خاص، ولاسيما في أيام بني أمية ، اذ ذهبت دهشة النبوة وعاد الناس الى عصبية الجاهلية ، فاختصم المهاجرون والانصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر — والمهاجرون من العدنانية (مضر) والانصار من القحطانية (الاوس والخزرج) — فعادوا الى المنافسة وغلب انحياز كل من الطائفتين الى أحد الاحزاب التي نشأت في ذلك العهد ، فكان الانصار مع علي ومعظم المهاجرين مع معاوية ، وعادوا الى المهاجاة والمفاخرة بالاشعار وغيرها

وكان الانصار أهل المدينة من أشجع الناس وهم أهل الشورى ، يعقدون الامامة وحكمهم جائز على الامة وهم شيعة علي وسائر أهل البيت . فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا من أقوى مقاوميه ، فكان رجاله يكرهونهم ويسعون في اذلالهم ، وكثيرا ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب — يروى أن بعض الانصار استأذنوا للدخول على معاوية في ابان خلافته ، فدخل الحاجب وقال : «هل تأذن للانصار ؟» ، وكان عمرو بن العاص حاضرا فقال : «ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ اردد الناس الى أنسابهم»

سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للاسلام في عصر الراشدين دولة سياسية ، بل هي خلافة دينية أساس أحكامها التقوى والرفق والعدل ، مما لم يسمع بمثله في عصر من العصور . ورجل هذا العصر ، بل رجل الاسلام على الاطلاق «عمر بن الخطاب» ، فان مايروونه من أعماله وأحكامه يندر اجتماعه في البشر ، ومناقبه مدونة في الكتب ومشهورة . واما ابو بكر فلا يقل عظمة عنه ، لولا قصر مدة حكمه ، ويكفيه من الاثر في الاسلام قتاله أهل الردة ، اذ رجع بعض الناس عن الاسلام بعد موت النبي ، فخاف المسلمون ذهاب دولتهم وهي لاتزال في طفولتها، فشمر أبو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وايد الدين ، وكذلك يقال عن علي وعثمان

أبو بكر :

وعصر الراشدين هو في الحقيقة عصر الاسلام الذهبي ، ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل . فقد أسلم أبو بكر وعنده من ماله اربعون الفا ، وهي ثروة طائلة يومئذ ، أنفقها كلها في سبيل الاسلام مع ما اكتسبه من التجارة . وكان له في خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين ، ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار . وكان منزله في السنح بضواحي

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٥١ ج ١

المدينة يغدو اليه على رجليه ، وينذر أن يركب فرسه . فاذا جاء المدينة صلى في الناس ، فاذا جاء العشاء عاد الى السنح . وكان مع ذلك يغدو كل يوم الى السوق يبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها. وكان قبل الخلافة يحلب للحي أغنامهم ، فلما صار خليفة سمع جارية تقول : «الآن لا يحلب لنا منائح دارنا» فقال : «بلى لعمرى لاحلبنها لكم ، وانى لارجو أن لايغيرنى ما دخلت فيه» . وبعد خلافته بستة أشهر تحول الى المدينة وقال: « ما تصلح أمور المسلمين مع التجارة ، وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر فى شؤونهم» . فترك التجارة ، فصار ينفق من مال المسلمين مافرضوه له : ٦٠٠٠ درهم فى السنة . فلما حضرته الوفاةأوصى بقطعة أرض كانت له،ان تباع ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين

عمر بن الخطاب :

أما عمر بن الخطاب ، ففى أيامه فتحت البلاد وكثرت الغنائم ، وانصبت خزائن كسرى وقيصر بين يدى رجاله ، ومع ذلك فانه كان من الزهدوالتقشف بما ليس بعده غاية ، حتى قيل انه كان يقف للخطابة وعليه ازار مرقع بجلد . واذا أنفق عطاءه واحتاج الى المال اتى صاحب بيت المال فاستقرضه على أن يؤديه من عطائه . وكان شديد الحرص على أموال المسلمين ، لاينفقها الا فى مصالحهم ، ويتولى أمورهم بنفسه دينا وسياسة ، فيسعى فى نشر الاسلام ، ويعلم العرب قواعد الدين ، فيطوف الاسواق ويقرأ القرآن ويحرض الناس على التقوى ، واذا حرضهم على شىء بدأ بنفسه . ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة ، وكان يبعث أناسا من القراء يعلمون أهل البادية القرآن ، ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرأ شيئا منه عاقبه بالضرب ، وربما فرط الضارب حتى يقتل المضروب (١) وكان شديدا على عماله وقواده ، يحاسبهم ويدقق فى استطلاع احوالهم ، فمن رأى فيه اعوجاجا قومه ، لايبالى من هو حتى خالد بن الوليد القائد الاسلامى الشهير ، فان عمر نقم عليه لامر يخالف قواعد التقوى ، فاستقدمه اليه ووبخه وهدده كأنه غلام وخالد لا يجيبه (٢) وقد يضرب عامله بالدرة أو يوبخه ، وليس فيهم من يرد فى وجهه أو يعترضه ، وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر ، أو يطمع فى أموال المسلمين . ومع ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الاب لبنيه ، فيطعمهم على موائد يجفن لهم فيها عشرة عشرة ، واذا غاب قواده تفقد بيوتهم وتعهد أهلهم بما يحتاجون اليه (٣) وكان عادلا فى الناس رفيقا بغير المسلمين . وكانت الدنيا فى أيامه مجمعة على الطاعة ، والناس يدخلون فى الاسلام أو يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة ، كأنه كان

(١) الاغانى ٥٨ ج ١٦ (٢) ابن الاثير ١٧٤ ج ٢
(٣) الجزء الثانى من هذا الكتاب

قابضا على شؤون الدولة وأعنة الحكومة بيد من حديد . فلما قتل تزعزعت أركانها ، ونقض كثير من أهل الامصار وخصوصا خراسان وسجستان (١) وغيرهما من الاطراف البعيدة

عثمان بن عفان :

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين ، لولا ضعفه واستسلامه الى بعض ذوى قرابته من بنى امية ، حتى نقم عليه سائر المسلمين، وخصوصا أهل المدينة لاسباب تقدم بيانها وقتلوه ، فاتخذ بنو أمية قتله حجة لطلب الخلافة لانفسهم . على أن عثمان أول خليفة اقتنى المال لنفسه ، فقد ذكروا انه كان عند خازنه ١٥٠،٠٠٠ دينار و ١،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، وله ضياع بوادى القرى وحنين وغيرهما قيمتها ١٠٠،٠٠٠ دينار ، فضلا عما خلفه من الخيل والابل ، وفى أيامه اقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واختزنوا الاموال (٢) وتعودوا الغنى والترف ، فلما جاءهم على بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف كابروه ، وساعدهم على التمنع قيام معاوية واطماعهم فى الأموال ، وسيأتى بيان ذلك

على بن ابى طالب :

أما على فحكاياته فى الزهد والتقوى كثيرة، وكان شديد التمسك بالاسلام، حر القول والفعل ، لا يعرف الدهاء ولا يركن الى الحيلة فى شأن من الشؤون، وانما همه الدين وعمدته فى أعماله الصدق والحق . فمن أمثلة تقشفه وزهده أنه تزوج فاطمة بنت النبى وليس له فراش الا جلد كبش كانا ينامان عليه بالليل ويعلفان عليه ناضحهما بالنهار ، ولم يكن عنده خادم يخدمه . وجاءه مال من أصبهان فى أيام خلافته فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة ، وكان يلبس قطيفة لا تقيه البرد . ورآه بعضهم يحمل تمرا فى ملحفته قد اشتراه بدرهم ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك ؟ » ، فقال : « أبو العيال أحق بحمله .. » . ومن أقواله فى كيف يجب أن يكون المسلمون قوله : « خمص البطون من الطوى ، يبس الشفاه من الظمأ ، عمش العيون من البكاء » (٣) . ومن أمثلة عدله انه رأى درعا له عند رجل فتقاضيا الى شريح القاضى ، فوقف على بجانب خصمه احتراما للعدل . وكان اذا بعث رجاله فى حرب أوصاهم أن يرفقوا بالناس وأن يكفوا الأذى عن النساء

وكان شديدا فى محاسبة رجاله حرصا على العدل والحق ، كما كان يفعل

---

(١) ابن الاثير ٦٠ ج ٣ (٢) المسعودى ٣٠١ ج ١
(٣) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٣

عمر . ولو تولى أمور المسلمين فى زمن عمر ، والناس فى دهشة النبوة وصدق التدين ، لكان نصيبه من الحكم أطول ، ولما بدا فى تدبيره ضعف ، ولكنـــه تولاها وقد فسدت النيات ، وطمع العمال فى الاحـكام ، وأطمعهم وأدهاهم معاوية بن أبى سفيان ، فانه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل، وعلى يضيع الأحزاب بتدقيقه فى محاسبة عماله وقواده ، والمبالغة فى المحـافظة على الدين وأسباب التقوى ، ففارقه جلة الصحابة حتى ابن عمه عبد الله بن عباس ، وكان عاملا له على البصرة ، فوشى به أبو الأسود الدؤلى الى على ، فكتب على الى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشى ، فأجابه : « أما بعد فان الذى بلغك باطل ، وانى لما تحت يدى لضابط وله حافظ ، فلا تصـــدق الظنين والسلام » . فكتب اليه على : « أما بعد فأعلمنى ما أخذت من الجزية، ومن أين أخذت ، وفيما وضعت » . فكتب اليه ابن عباس : « أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك ، انى رزئته من أهل هذه البلاد ، فابعث الى عملك من أحببت فانى ظاعن عنه والسلام » ، واستدعى أخواله من بنى هلال ابن عامر ، فاجتمعت معه قيس كلها ، فحمل مالا وقال : « هــذه أرزاقنـــا اجتمعت » فتبعه أهل البصرة الى مكة (١) ولم ينتفع على به ولا بأحزابه (*)

---

(١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٣

(*) لم ينفرد على بن ابى طالب بالشك فى تصرف عبد الله بن عباس فى الاموال ، فقــد رفض عمر بن الخطاب ان يوليه ولاية « مخافة ان يستحل الفىء على التأويل » كما قال عمر . والواقع ان عبد الله بن عباس لم يكن موفقا فى السياسة والادارة بقدر توفيقه فى ميدان العلم ، وربما كان الافضل له لو ظل بعيدا عن السياسة ، فقد اضطرب فى ميدانها اضطرابا شــديدا وتحمل اذى كثيرا . ولاشك فى أن تاريخ ابن عباس كما تقصه علينا المراجع فى حاجة الى تصفية ، فقد دخل عليه تحريف كثير خلال العصر العباسى ، لان عبد الله كان جد العباسيين . وقد ولد عبد الله اثناء حصار بني هاشم فى الشعب ، وتوفى سنة ٦٨/٦٨٦ – ٦٨٧ فى الطائف ، وحضر عصور الفتنة الاولى كلها وشارك فيها الى جانب على حينا ومباعدا له حينا ، وهو يعتبر من غير شك مؤسس العلوم الاسلامية من تفسير وحديث ، ولـكننا لانعتقد انه جرى فى التدريس على الاسلوب المنظم الذى تنسبه اليه الروايات ، وهو من اصحاب المذاهب الكبرى فى التأويل والفتيا، وان كان بعض فتاواه موضع نقد الفقهاء كقوله بتحليل زواج المتعة الذى ينكره عامة أهل السنة وفى ميدان الادارة اخذ عليه تصرفه فى مال البصرة ، الذى يشير اليه المؤلف هنا ، وقد ظل على يطالبه به ، وربما كان هذا هو السبب فى انحرافه عنه . وقد ظل هذا المال معلقا حتى سوغه اياه معاوية بن ابى سفيان جزاء له على توسطه بينه وبين الحسن بن على مما ادى الى تنازل هذا الاخير . وقد أساء نفر من المستشرقين الحكم على عبد الله بن عباس ، وخاصة لامنس وكايتانى

أنظر : طبقات ابن سعد (طبعة سخاو) ج ٢ كراسة ١١٩/٢ – ١٢٣ و ١٢٥
البلاذرى : انساب الاشراف ، مخطوطة باريس أوراق ٧١٤ و ٧٣١ وما يليها
الكشى : معرفة اخبار الرجال ، طبعة بومباى ، ص ٣٦ – ٤٢
ابن الاثير : اسد الغابة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٨٠ – ١٢٨٦ ، ج ٣ ص ١٩٢ – ١٩٥
سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوطة باريس ، اوراق ١٨٧ وما يليها
ابن حجر : الاصابة ، طبعة كلكتا ، ٨٠٢/٢ – ٨١٣
نصر بن مزاحم المنقرى : وقعة صفين ، طبعة عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٦٥ ، الفهرس
وانظر فهرس الطبرى وابن الاثير والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف)

Caetani, Chronographia Islamica — حوادث سنة ٦٨ هجرية
Caetani, Annali dell'Islam — فقرة ٢٤ – ٢٥
Lammens, Etudes sur le règne du Calife Umayyade Muawiya, Index

فعلى لم يفعل بابن عمه غير ما كان عمر يفعله بعماله ، ولكن الاحوال كانت قد تغيرت ، وقام معاوية يبتاع الاحزاب بالعطاء ويجتذب القواد بالدهاء

وزد على ذلك أن رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية ، وكانت لا تزال فيهم الأريحية والأنفة وحرية البداوة والوفاء ، وجاء الاسلام فكمل الاسباب الباعثة الى الاتحاد والنهضة والقوة

على أن سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران ، أو تقتضيه سياسة الملك ، وانما هى خلافة دينية وفقت الى رجال ينـدر اجتماعهم فى عصر ، والى أحوال يكفى منها الجامعة الاسلامية والحمية الدينية والأنفة البدوية والأريحية العربية · فهذه كلها اجتمعت فى عصر واحـد وتلاءمت فأتت بالعجائب ، فانتشر الاسلام وفتح العالم فى بضع عشرة سنة كما هو مشهور (١) فأهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك فى غير ذلك العصر العجيب ، وان انقلاب تلك الخلافة الدينيـة الى الملك السياسى لم يكن منه بد ــ سنة الله فى خلقه

انتشار العرب فى الارض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام فى جمع كلمة العرب،وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فحرضهم على فتـح العراق والشام ، لعلمه بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا الى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة · ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم اذا بنوا بلدا فى دار الفتح أن لا يبنوه فى مكان يحول بينه وبين المدينـة ماء ، خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزق ، ورغبة منـه فى استبقاء مركز الخلافة فى المدينة دار الهجرة ، على أن يستبقى البلاد المفتوحة لاستدرار ما فيها من غلة أو مال لأهل الحجاز · ولهـذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدد فى منعهم اعتمادا على الحديث القائل « السـكة (المحراث) ما دخلت دار قوم الا دخله الذل » (٢) ولأن الاشـتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم تكن المدن التى بنـوها فى صـدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط الا حصونا أو معسكرات ، ينزل فيها جند العرب نزول الحامية

جولدتسيهر : مذاهب المسلمين فى تفسير القرآن ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجـار ، الفهرس

وانظر بصفة خاصة مقال L. Veccia Vaglieri وعنوانه :

Il conflitto Ali-Muawiya e la secessione Kharigita riesaminati alla luce di fonti ibadite

فى : Annali dell'Istituto Univ. Orient. di Napoli Vol. IV

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب

(٢) ابن خلدون ١١٩ ج ١

أو جيش الاحتلال (١) ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبى (صلعم) « ان لايترك فى جزيرة العرب دينان » (٢) ، وأن لا يأتى الحج احد من المشركين (٣) فأخرجهم وتخلص من خطرهم ، اذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا عونا لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك ، كما سترى

فكانت السياسة فى صدر الاسلام أن يبقى المسلمون فى بلاد العرب وضواحيها ، (*) وكان القواد الذينفتحوا الشام والعراقوقد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم ، فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم ، فكان عمر وهو فى المدينة قابضا على أطراف الدولة يشدها نحوه ، ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقا وغربا ، حتى اضطر أخيرا الى مجاراتهم وأذن بانسياحهم فى الارض ، فتفرق العرب وفتحوا مصر وفارس وافريقية وغيرها . ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أنيخرجوا من المدينة،فخرجوا وتفرق العرب فى الارض وانتشروا فى مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها ، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠ر٠٠٠ نفس (٤) وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد (**)

---

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن هشام ١٩٥ ج ٢ (٣) ابن هشام ٥٠ ج ٣

(*) يغلب ان المراد ببلاد العرب وضواحيها المدن التى أنشأها العرب فى الولايات المفتوحة وما يحيط بهذه المدن ، لان بلاد العرب شبه جزيرة فسيحة لا ضواحى لها

(٤) ابن خلدون ١٣٦ ج ١

(**) عبر ابن خلدون عن ذلك فى تاريخه تعبيرا غاية فى الدقة والاحكام ، قال : « وكان المتولون لتمهيد قواعد الامر وبناء أساسه من أول الاسلام والدين والخلافة من بعده والملك قبائل من العرب موفورة العدد غزيرة الاحياء ، فنصروا الايمان والملة ، ووطدوا أكناف الخلافة ، وفتحوا الامصار والاقاليم ، وغلبوا عليها الامم والدول

اما من مضر فقريش وكنانة وخزاعة وبنو أسد وهذيل وتميم وغطفان وسليم وهوازن وبطونها من ثقيف وسعد بن بكر وعامر بن صعصعة ومن اليهم من الشعوب والبطون والافخاذ والعشائر والحلفاء والموالى

واما من ربيعة فبنو ثعلب بن وائل وبنو بكر بن وائل وكافة شعوبهم من بنى شكر وبنى حنيفة وبنى عجل وبنى ذهل وبنى شيبان وتيم الله . ثم بنو النمر بن قاسط ، ثم عبد القيس ومن اليهم

واما من اليمنية ثم من كهلان بن سبأ منهم ، فأنصار الله الخزرج والاوس ابنا قبيلة من شعوب غسان وسائر قبائل الازد ، ثم همدان وخثعم وبجيلة ، ثم مذحج وكافة بطونها ، ولخم وبطونها ، وكندة وملوكها

وأما من حمير بن سبأ فقضاعة وجميع بطونها ، ومن الى هذه القبائل والافخاذ والعشائر والاحلاف

هؤلاء كلهم انفقتهم الدولة الاسلامية العربية فتقاسمتهم الثغور القصية ، واكلتهم الاقطار المتباعدة ، واستلحمتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم حى يطرف ولا حلة تنجع ولا عشير يعرف ، ولا قليل يذكر ، ولا عاقلة تحمل جناية ، ولا عصابة (تنجد) بصريخ . الا سمع من ذكر أسمائهم فى أنساب اعقاب متفرقين فى الامصار التى ألحموها بجملتهم ، فتقطعوا فى البلاد ، ودخلوا بين الناس فامتهنوا واستهينوا ... »

العبر (طبعة بولاق) ج ٦ ص ٣ . وقد أصلحت الاخطاء المطبعية ، ويلاحظ ان طبعة بيروت الجديدة باشراف الاستاذ داغر تحمل كل أغلاط طبعة بولاق ، وتضيف اليها أغلاطا أخرى

الاستكثار بالتناسل

كانت العرب في الجاهلية قليلة العدد بالقياس على ما صارت اليه بعد الاسلام • ذكروا ان أكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل، وهو جيش يوم الصفقة (١) (*) والذين تجندوا للاسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الاسلام قليلين كما رأيت ، ومملكتهم الواسعة تحتاج الى رجال ، فعمدوا الى الاستكثار بالتناسل ، وهو من قواعد العصبية العربية من أيام الجاهلية • فان عبد المطلب جد النبي ، لما ظهرت قريش عليه، نذر لله اذا رزقه عشرة من الولدان يبلغون أن يمنعوه ويذودوا عنه ، أن ينحر أحدهم قربانا لله ، فجاءه عشرة أولاد فاشتد أزره بهم

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم ، وما وقع في أيديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيات ، استكثروا من أمهات الاولاد ، فضلا عن الزوجات، فكثر نسلهم ــ والترف يزيد الدولة في أولها قوة بكثرة النسل ــ وتسابقوا الى احراز الجوارى ، حتى ان بعضهم أحصن ثمانين امرأة معا ، كالمغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله أربع نسوة و٧٦ أمة (٢) فلاغرابة اذا ولد لاحدهم خمسون ولدا أو مئة ولد أو أكثر • ذكروا أنه وقع للارض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد (٣) وخلف عبد الرحمن بن الحكم الاموى ١٥٠ ذكرا و ٥٠ أنثى (٤) (**) وخلف تميم بن المعز الفاطمي أكثر من مئة ذكر و٦٠ أنثى (٥) وكان لعمر بن الوليد تسعون ولدا منهم ستون يركبون الخيل (٦) وولد لابن سيرين ٣٠ ولدا من امرأة و ١١ بنتا (٧) وقس على ذلك مما يطول شرحه ، وفي التاريخ أدلة كثيرة على قيام الدولة بعصبية الملك من الاولاد والاخوة والاعمام، كالعباسيين والأيوبيين وغيرهم

انتشار العرب بالفتح

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام • فلما ظهر الاسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته ، ونهضوا للفتح وأوغلوا في البلاد وفتحوا الامصار ، ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانساحوا في الارض ، حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف نهر الكنج شرقا وشواطيء المحيط الاطلسي غربا ، وضفاف نهر لوار شمالا وأواسط افريقيا جنوبا ، وملأوا الارض فتحا ونصرا ، واحتلوا مدائن كسرى وقيصر ، وأقاموا في المدن وركنوا الى الحضارة وتعودوا الترف ، واختلطت

---

(١) العقد الفريد ٧٨ ج ٣

(*) يوم الصفقة من أيام العرب ، وقد أتينا بخبره بالتفصيل في الطبعة الجديدة من « تاريخ العرب قبل الاسلام » للمؤلف

(٢) الاغاني ١٤٣ ج ١٤ والمعارف ١٠٠

(٣) ابن خلكان ١٤٧ ج ٢ (٤) نفح الطيب ١٦٤ ج ١

(٥) ابن خلكان ٩٩ ج ١ (٦) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٧) ابن خلكان ٤٥٣ ج ١

أنسابهم بتوالى الاجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطتهم (*) . والقبائل التى قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية، واليك أسماء القبائل التى مهدت قواعد الدولة الاسلامية ونشرت الدين الاسلامى بالفتح من أول الاسلام :

من العدنانية		من القحطانية	
مضر	ربيعة	كهلان	حمير
قريش	تغلب بن وائل	الأوس والخزرج	قضاعة وبطونها
كنانة	بكر بن وائل	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الأزد	سليح
أسد	حنيفة	همدان	تنوخ
هذيل	عجل	خثعم	بهراء
تميم	ذهل	بجيلة	عذرة
غطفان	شيبان	مذحج	وغيرها
سليم	تيم الله	مراد	
هوازن	النمر بن قاسط	زبيد والنخع	
ثقيف	وغيرها	الأشعريون	
سعد بن بكر وعامر ابن صعصعة		لخم وكندة	

على ان هذه القبائل لم تكن فى أوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس ، بل كانت رابطة ثم اختلطوا وتفرقوا فى الارض ، وأنفقتهم الدولة الاسلامية العربية ، فنبا منهم (**) الثغور القصية وأكلتهم الاقطار المتباعدة ،

(*) قال ابن خلدون فى مستهل الجزء السادس من تاريخه (طبعة بولاق ص ١ — ٢) : « ... وافترقوا على الثغور البعيدة والاقطار البائنة عن ممالك الاسلام ، فنزلوا بها حامية ومرابطين ، عصبا وفرادى ، وتناقل الملك من عنصر الى عنصر ، ومن بيت الى بيت ، واستفحل ملكهم فى بنى أمية وبنى العباس من بعدهم بالعراق ، ثم دولة بنى أمية الاخرى بالاندلس، وبلغوا من الترف والبذخ ما لم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم ، فانغمسوا فى الدنيا ، ونبتت اجيالهم فى ماء النعيم ، واستأثروا مهاد الدعة ، واستطابوا خفض العيش ، وطال نومهم فى ظل الترف والسلم ، حتى ألفوا الحضارة ونسوا عهد البادية ، وانفلتت من أيديهم الملكة التى نالوا بها الملك وغلبوا الامم ، من خشونة الدين وبداوة الاخلاق ومضاء المضرب ، فاستوت الرعية والحامية ... »

(**) هذا النص من ابن خلدون ، وقد رويناه بجملته فى تعليقنا فى ذيل صفحة ٤٩ واصلحنا « فنبا منهم » الى « فتقاسمتهم » وهو أصوب

واستلحمتهم الوقائع وضاعت أسبابهم بتوالى الاجيال حتى خرجت الدولة من أيديهم

انتشار العرب بالمهاجرة

على أن انتشار العـــرب فى الارض لم يكن بالفتح فقط ، ولكنهم تفرقوا أيضا بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وأنعامهم ، التماسا لسعة العيش فى البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة ٠ فقد جلت بطون من خزاعة الى مصر والشــام فى صدر الاسلام ، لان أرضهم أجـدبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى (١) وكذلك كانت تفعل العرب كلما أصابها جدب ، حتى كانت لهم أعوام خاصة يجلون فيها الى مصر والشام ، يسمونها أعوام الجلاء (٢) وكانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام : اذا أجدبت أرضهم يمموا العراق وفارس ، فيعطيهم الفرس التمر والشعير ، ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون الى بلادهم (٣) خوفا من الذل فى سلطان دولة أعجمية ٠ أما بعد الاسلام فكان المقام يطيب لهم فى بلاد فتحها آباؤهم أو أعمامهم أو أخوالهم ، وغرسوا عليها أعــلامهم وجعلوها فيئا لهم

على ان الغالب فى نزوح العرب عن أحيائهم وانتجاعهم المدن أو أكنافها ، أن يكون بايعاز بعض الخلفاء أو الأمراء ، وخصوصا بعد رجوع العـــرب الى عصبية النسب بين قحطان وعدنان ، أو مضر وقيس فى عهد الدولة الاموية٠ فكان الامير أو الخليفة اذا تولى بلدا وخاف على سلطانه من أمير آخر ذى عصبية أخرى ، استقدم جماعة من قبيلته ، أو من ينتمى اليهـــا بالحلف ونحوه ، يسكنهم فى ضواحى بلده لاستنصارهم عنـــد الحاجة ، فيطلق لهم المرعى ويفرض لهم العطاء ، كما حدث فى ولاية الوليد بن رفاعة على مصر فى خلافة هشام بن عبد الملك الأموى ، وكان هشام يقرب قبيلة قيس (العدنانية) لانهم نصروه وأيدوا خلافته ، ولم يكن منهم فى مصر الا بعض البطون ، وقيس قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل وبطون وأفخاذ ، وأول من نبه هشام الى نقلهم عبيد الله بن الحبحاب ، فانه وفد عليه فسأله أن ينقل الى مصر منهم أبياتا ، فأذن له فى الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر؛ أى أن يقبضوا رواتبهم من حكومة مصر ، على أن لا ينزلهم فى الفسطاط ، فأنزلهم فى الحوف الشرقى (الشرقية والدقهلية) ولا سيما فى بلبيس وأمرهم بالزرع (٤) ثم تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا فيها

بنو سليم وبنو هلال

وقد يكون الباعث على استقدامهم واقرارهم رغبــة الامير أو الخليفة فى التخلص من شرهم ، كما فعل العزيز بالله الفاطمى ببنى سليم وبنى هلال ،

---

(١) الاغانى ٦ ج ١٣ (٢) الاغانى ٤٧ ج ١١
(٣) ابن الاثير ٢٢٨ ج ٢ (٤) المقريزى ٨٠ ج ١

وهما بطنان من مضر ، كان رجالهما الى زمن العزيز المذكور فى القرن الرابع للهجرة لا يزالون أحياء ناجعة أهل بادية ، محلاتهم وراء الحجاز مما يلى نجد : بنو سليم من جهة المدينة ، وبنو هلال من جبل غزوان عند الطائف فكانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام ، فيغيرون على الضواحى ويفسدون السابلة ، وربما أغار بنو سليم على الحـــاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة . ثم ظهر القرامطة فتحيز بنو سليم لهم ، وعاثوا فى البلاد ، وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم . فلما أفضت خلافة مصر الى العزيز بالله الفاطمى ، كان القرامطة قد تغلبوا على الشام ، فانتزعها العزيز منهم وردهم الى قراهم فى البحرين ، ونقل أشـــياعهم من بنى هلال وسليم وأنزلهم بالصعيد ، فى العدوة الشرقية من نهر النيل ، فأقاموا هناك . وكان لهم أضرار فى البلاد ، والخلفاء يدارونهم ويبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم . فاتفق بعد سنين أن المعز بن زيرى عامل الفاطميين فى أفريقية ، شق عصا الطاعة وبايع للدولة العباسية ، وقطع اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة والطراز والرايات ، فعظم الامر على الخليفة بالقاهرة ، وهو يومئذ المستنصر بالله ، فأشار عليه وزيره أبو محمد الحسن بن على اليازورى ، أن يقرب اليه أحياء هلال وسليم المذكورين ، ويصطنع مشايخهم ويوليهم أعمال افريقية ، ويرسلهم لاستلام أمورها ، فاذا فازوا كانت احدى الحسنيين ، والا فانه يتخلص من شرهم . فبعث الخليفة وزيره الى هذه الاحياء سنـــة ٤٤١ هـ وحرضهم على الذهاب الى المغرب وتملكه ، ففرحوا وأجازوا النيل وساروا برا الى برقة ففتحوها . ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعا فى الكسب ، وأصبحت افريقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين ، فاقتسموا البلاد فيما بينهم (١) (*)

---

(١) ابن خلدون ١٤ ج ٦

(*) كان دخول العرب الهلالية من الحوادث الفاصلة فى تاريخ المغرب الاسلامى ، فقد قضوا على دولة بنى زيرى الصنهاجيين فى تونس وعلى دولة أبناء عمومتهم بنى حماد أصحاب القلعة المعروفة باسمهم فيما يعرف الآن بالجزائر ، وانقطعت نتيجة لغارتهم الصـلات السياسية بين المغرب وبين المشرق ، واتجه المغرب بعد ذلك وجهة خاصة منفصلا عن بقية المجموعة الاسلامية، مما كان له أسوأ الاثر على مصير المغرب والاندلس فى أواخر العصور الوسطى

ويرجع السبب فى الخلاف بين زيرى والفاطميين الى سوء سياسة وزراء هؤلاء الاخيرين ، وخاصة أبو القاسم احمد بن على الجرجرائى وابو محمد الحسن بن على اليازورى المذكور ، وهذا الاخير هو المسئول عن اطلاق عرب بنى هلال وبنى سليم على المغرب ، فخربوا كل ما مروا به ، وكانوا ـ كما يقول ابن خلدون ـ كالجراد المنتشر

انظر ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ص ١٢ وما يليها

وقد درس الموضوع دراسة مستفيضة جورج مارسيه . انظر :

George Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle. Constantine — Paris 1913

ثم عاد الى الموضوع مرة اخرى فى كتابه

La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Age. Paris, 1946.

وغارة بنى هلال هذه على المغرب هى المحور الذى دارت حوله سيرة الهلالية ، وهى مجموعة من القصص الشعبى ورد لنا فى صور شتى أهمها السيرة الشامية والسيرة الحجازية . وتعرف رحلة الهلالية فى القصص باسم تغريبة بنى هلال ، وهى معروفة فى مصر باسم قصة الزناتى خليفة ، وقد درسها الدكتور عبد الحميد يونس فى كتابه المعروف « الهلالية فى التاريخ والادب الشعبى » ـ القاهرة ، ١٩٥٦ . وانظر مقال J. Schleifer فى دائرة المعارف الاسلامية عن « هلال »

وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين الى الاندلس بعد اتمام فتحها ، اذ صرف عرب الشام وغيرهم الهمم الى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها . فنزل بها من أصول العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم ، وفيهم قبائل من العدنانية والقحطانية (١) وكل قبيلة كانت تنزل البلد الذى يشبه بلدها باقليمه ومرعاه . ناهيك بما كان يتنقل من القبائل أو البطون فى أثناء الحروب فى عصر الامويين للنجدة أو نحوها (*)

العبيد والموالى فى الاسلام

للعبيد والموالى شأن كبير فى الدولة الاسلامية ، وقد أثروا فى سياستها وجندها وفى سائر أحوالها من العلم والادب والفقه ، فلاغرو اذا أفردنا للكلام عنهم فصولا خاصة

الرق فى الاسلام :

قلنا أن الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان أكثره بالاسر أو الشراء ، وأما فى الاسلام فأكثر الاسترقاق بالاسر ، وخصوصا فى أثناء الفتوح لكثرة من كان يقع فى أيديهم من الأسرى . فاذا غلبوا جندا أو فتحوا بلدا ، أسروا رجاله وسبوا نساءه وأطفاله ، واقتسموا الاسرى والسبايا والغنائم ، وهى كثيرة ربما زاد عدد الاسرى فى المعركة الواحدة على عشرات الالوف ، فيختمون أعناقهم ويقسمونهم على الاسهم (**) وقد يصيب الفارس من العرب مائة

---

(١) نفح الطيب ١٣٧ ج ١

(*) اوفى مرجع لدراسة هجرات العرب الى الاندلس هو « جمهرة انساب العرب » لابن حزم ، القاهرة ١٩٥٥ . وقد درس هذا الموضوع المستشرق الاسبانى Elias Teres فى مقال نشر فى مجلة Al-Andalus سنة ١٩٥٧ تحت عنوان Linajes arabes en Al-Andalus

(**) القاعدة انه اذا تم فتح بلد عنوة يحل للمسلمين ان يقتلوا المحاربين او من يعين على الحرب ، فأما المرأة والشيخ الفانى والاعمى والمقعد ونحوهم فلا يجوز قتلهم ، مالم يكن احدهم ذا رأى فى الحرب ، يوجه قومه ويؤلب على المسلمين . وان طلب المحاربون صلحا أثناء الحرب أجيبوا اليه متى رأى الامام ذلك ، قال الله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » ، ووجب اذ ذاك تنفيذ شروط الصلح التى تعاقدوا عليها ، فاذا لم يكن هناك صلح وانتصر المسلمون وفتح البلد ، فهناك أسرى حرب ، وهناك أهل البلد المفتوح ممن لم يكونوا فى الجيش المحارب، فأما الاسرى فالامام مخير بين اطلاقهم دون فدية أو مقابل فدية ، او فدائهم بأسير مسلم بين يدى الاعداء او الاحتفاظ بهم رقيقا . ونادرا ما كان الاسير يقتل . اما أهل البلد غير المحاربين، فان وضعهم من الناحية النظرية وضع الاسرى ، ولكن عمر بن الخطاب اعتبرهم ملكا للدولة وأعتقهم ، فأصبحوا موالى للعرب ، وتركهم يعملون فى الارض أو فى مهنهم على أن يؤدوا الخراج عما يزرعون من أرض والجزية عن رؤوسهم ، وتسقط الجزية بالاسلام ، فلا يبقى الا الخراج

ولم تجر العادة باسترقاق أهل البلد المفتوح عنوة بصورة عامة ، بل الغالب أن هذا كان يجرى على المحاربين وأهلهم وعبيدهم ، وعلى كبار رجال الدولة الذين قاوموا العرب وأهلهم وعبيدهم ، وربما جرى على أهل المدن الذين قاتلوا المسلمين قتالا عنيفا ، وفى هذه الحالات كان أولئك جميعا يعتبرون رقيقا يؤخذ خمسهم للدولة للتصرف فيهم على انهم فىء ، ويوزع الباقى على الفاتحين

والغالب ان عمليات الاسترقاق لم تكن تجرى على هـذا النحـو الا عقب الواقع او عقب دخول المسلمين البلد مباشرة ، ثم يعلن الامان ، ويصبح بقية أهل البلد موالى للدولة الاسلامية ويتركون احرارا ، على أن يؤدوا خراج الارض بصفة مستمرة وجزية الرءوس الى أن يسلموا

والولاء نفسه رابطة تختلف كل الاختلاف عن الرق ، فهو فى حالة دخول قبيل كبير فى ولاء

أسير ومائة جارية في واقعة واحدة ، فيجتمع عند بعضهم بتوالى الايام ألف عبد أو أكثر (١) وهم عند الامراء أكثر مما عند غيرهم ، وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشـــدين . على أن الخليفة عثمــان كان عنده ألف عبد (٢)

والغالب في الاسرى اذا كانوا كثارا أن يباعوا بالجملة قبل تفريق الاسهم ، فينادون على الاسير بمائة درهم وأقل أو أكثر ، وربما اقتضى لبيع أسرى معركة واحدة عدة أشهر . ومن أكثر الفتوح أسرى وغنائم فتوح الاندلس ، فقد ذكروا أنهم ظلوا يبيعون الاسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة أشهر (٣) وتكاثرت الاسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية ، حتى نادوا على الرقيـــق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرعة (٤) وكثرت الاسرى والغنائم عليهم في واقعة الأرك بالاندلس ، حتى بيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم (٥) (*)

الدولة الاسلامية أشبه بالحلف ، وفى الظروف التى تكونت فيها الامبراطورية الاسلامية لم يكن من الممكن أن تظل أغلبية ضخمة موالى عتاقة لاقلية صغيرة من العـــرب ، وخاصة بعد دخول أعداد عظيمة جدا من الموالى فى الاسلام وظهور تفوقهم فى ميادين السياسة والحرب والعلم ، ومن هنا فاننا نلاحظ عند الاقلية العربية تخوفا من طغيان الموالى عليهم ، وهذا هو السر فيما صدر عن بعض العرب من أقوال وافعال اعتبرها بعضهم دليلا على احتقار العرب للموالى ، ولكن الدولة اعتبرت الموالى مواطنين والفقهاء اعتبروهم اخوة فى الدين ، وتحول الولاء شيئا فشيئا الى رابطة أخوة بين العرب وغيرهم

وفيما عدا الولاء العام للدولة كان هنـــاك الولاء لافراد ، فان الخلفاء مثـــلا كانوا يعتبرون ما صار اليهم فى الخمس من الموالى مواليهم خاصة، وكان هؤلاء الموالى يتمسكون بذلك الولاء ، حتى يصيروا من رجال صاحب الامر ، فصار لكل خليفـــة من خلفـــاء بنى أمية موال كثيرون يعيشون فى الاقاليم محتمين بولائه ، ومن أشهرهم موالى بنى أمية فى الاندلس ، وهم الذين أقاموا دولة عبد الرحمن الداخل ، وهناك موالى القواد والمحاربين ، وموالى من كان الخمس يقسم عليهم من أهل البيت والصحابة والقرشيين ومن اليهم، وهؤلاء كان ولاؤهم ينسب اما اليهم شخصيا أو الى قبائلهم ، فيقال مثلا مولى عبد الله بن عباس او مولى بنى هاشم ، ولم يكن هؤلاء رقيقا ولا عبيدا وانما عتقاء او اوليـــاء ، ولم تكن تبعيتهم لاصحـــاب ولائهم الا نوعا من الصلة المعنوية بينهم ، الا فى بعض حـــالات الارث . ثم لم تلبث هـــذه الصلة أن ضاعت على الزمن ، ولم يعد الولاء الا صلة عاطفية يحتفظ بها المولى ، لانها تربطه بالاصل العربى

انظر : عبد الوهاب النجار : الموالى فى الاسلام ــ القاهرة ١٩٤٨

احمد أمين : فجر الاسلام ــ الطبعة الخامسة ص ٨٤ وما يليها

والمراجع التى أوردها روبرت برونشفيج فى مادة « عبد » فى الطبعة الجـــديدة من دائرة المعارف الاسلامية ، ومادة « مولى » فى Handworterbuch des Islams

(١) ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ (٢) الدميرى ٤٩ ج ١

(٣) نفح الطيب ٢١٣ ج ١ (٤) ابن الاثير ١٩٩ ج ٦

(٥) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١

(*) المعلومات هنا مستقاة من مراجع شتى ، بعضها ليس مما يستند الى مافيه فى الاحكام التاريخية ، مثل حياة الحيوان للدميرى ، ثم أنها تتعلق بعصور متطاولة لم تكن الظروف فيها واحدة ، فهى تمتد من القرن الهجرى الاول الى زمن واقعة الارك وقد وقعت فى أوائل القرن السابع الهجرى . وغير خاف ان معاملة الاسرى تغيرت خلال هذه الاعصر الطويلة ، وخاصة ابتداء من القرن الثالث الهجرى بسبب اشتداد الحروب بين الدولة الاسلامية وخصومها من ناحية ، وانتقال الشئون العسكرية للدولة الاسلامية الى أجناس مثل الاتراك والسلاجقة لم يلتزموا كثيرا بما قرره السلف فى القرون الاولى

على أنهم كانوا يعدون البلد المفتوح عنوة ملكا للفاتحين ، بما فيه من الناس والدواب والبساتين والانهار والاشجار ، وقد تمسك بنو أمية بذلك وبالغوا فيه ، كقول سعيد بن العاص : « السواد بستان قريش » ، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتا : « ان مصر فتحت عنوة وأهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا » (١) (*)

والغالب فى عامة الجند من المسلمين أن يبيعوا أسراهم ويحرزوا أثمانهم ، لعجزهم عن القيام بمعاشهم ، فلم يكن يستبقى الاسرى فى حوزته عبيدا الا الامراء ، حتى يفتديهم اهلهم أو يعتقهم هو لسبب من الاسباب

ومن مصادر الرقيق فى الاسلام — غير الاسر — أن بعض العمال ، وخصوصا فى افريقية وتركستان ومصر ، كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق(٢) وكان بعض أهل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقا من أولادهم (٣) غير ما كان يقع فى أيدى المسلمين من الرقيق الاصلى فى جملة الغنائم (**)

أما أحكام الاسرى فى الاسلام فالخليفة (أو من يقوم مقامه) مخير بين أربعة اشياء : اما القتل ، واما الاسترقاق ، واما الفداء بمال أو اسرى ، واما المن عليهم بغير فداء ، فان أسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره فى أحد الثلاثة الباقية (٤) فكانوا يتصرفون فى ذلك على ما تقتضيه الاحوال

ومن ملك رقيقا بالاسر او الشراء أو غير ذلك كان مخيرا فى استبقائه أوبيعه أو المن عليه بالعتق ، ومن أعتق عبدا صار مولاه . وللعتق أسباب كثيرة ، اهمها فى الاسلام اظهار التقوى أو الغيرة على الدين ، فاذا أسلم العبد وأظهر التقوى أطلقه سيده ، فقد أعتق عبد الله بن عمر بن الخطاب على هذه الصورة الف عبد (٥) واعتق محمدبن سيلمان ٧٠,٠٠٠ مملوك ومملوكة (***) وقد يعتقونهم فداء عن يمين ، أو وفاء لنذر ، أو التماسا للثواب ، أو شكرا لله على

---

(١) ابن الاثير ٢٧٩ ج ٢

(*) لم يكن هذا هو الاساس ، وقد بسطنا حكم الشرع فى اهل البلد المفتوح فى تعليق سابق ، أما قول سعيد بن العاص ان السواد بستان قريش فقد انكره عليه الناس ولم يأخذ به أحد ، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتا مشكوك فيه

(٢) المقريزى ٣١٣ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٣ ج ٣

(**) ما يقوله المقريزى من ان بعض العمال كان يؤدى خراج بلده رقيقا غير صحيح ، فلم يحدث ابدا ان جبى الخراج رقيقا ، وانما الذى كان يحدث فى أوائل سنوات الفتح ان يرسل العامل الى الخليفة ما وقع فى الخمس من الرقيق . اما مايقوله ابن الاثير من ان بعض أهل الذمة من البربر كانوا يقدمون فى خراجهم أولادهم ، فلم يحدث الامرة واحدة ، عقب غزو عمرو بن العاص برقة ، ولم يقدم الاولاد فى الجزية ، بل كان لهم ان يبيعوا أولادهم ليؤدوا الجزيةبأثمانهم

(٤) الماوردى ١٢٥ (٥) ابن خلكان ٢٤٧ ج ١

(***) الاغلب ان المراد هنا محمد بن سليمان الكاتب وزير الخليفة المكتفى العباسى ، وهو الذى قضى على الحسين بن زكرويه القرمطى سنة ٢٩١ واستعاد مصر من الطولونيين فى السنة التالية . وكان أولئك المماليك من اسارى القرامطة ومن مماليك الطولونيين فأطلقهم

نعمة ، أو نحو ذلك . وكان بعض أهل الورع يبتاعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء مرضاة الله . واقسم عمر بن ابى ربيعة لما أسن أن لايقول بيت شعر الا أعتق رقبة ، وقد نظم وبر بقسمه غير مرة (١) ، وكانوا يعتقون العبيد ترغيبا لهم فى الجهاد ، كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن المرى صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك فى واقعة الشعب ، لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل ، فصاح فى العبيد : « أى عبد قاتل فهو حر » ، فقاتل العبيد قتالا اعجب منه الناس وانهزم الاعداء (٢) وكثيرا ماكانوا يرغبون العبيد فى نصرة الاسلام وهم عند أعدائهم بأن يعدوهم بالعتق ، كما فعل النبى (صلعم) يوم حصار الطائف ، اذ قال : « كل عبد نزل الى فهو حر » (٣) وكما فعل المسلمون فى بعض البلاد التى فتحوها ، فكانوا يعدون عبيدها بالعتق اذا أسلموا ، فيدخل بعضهم فى الاسلام على نية أن يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب ، ولكنهم لما أرادوا ذلك عدهم المسلمون مرتدين فحل حربهم

على أن الاسلام جاء رحمة للارقاء ، فأوصى النبى بهم خيرا بقوله : «لاتحملوا العبيد ما لا يطيقون ، واطعموهم مما تأكلون » (٤) وقال : « لايقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى »

وفى القرآن الكريم : «واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » . والاسلام من الجهة الاخرى يحرض العبد على التقوى وحسن العبادة (٥) وقد اختص العرب المسلمين بالنجاة من الرق والسبى بقول الائمة : « لا سبأ فى الاسلام ، ولا رق على عربى فى الاسلام » . ومن أحكام العبيد عندهم أن يعاملوا معاملة نصف الحر ، فالعبد اذا أذنب ضرب نصف مايضرب الحر (٦) واذا أحسن كانت جائزته لمولاه ، والاسرى الذين يقعون فى أيدى العرب بالفتوح من اهل البلاد المفتوحة فيهم النصرانى واليهودى والمجوسى والصابى والسامرى وغيرهم ، فهؤلاء اما أن يفتديهم أهلهم ، أو يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق ، أو يستبقوهم فى خدمتهم لقضاء حاجات المنازل ، أو رعاية الابل أو الماشية ، أو لبرى القسى ورمى النبل أو جمع النبال المتساقطة وقت القتال ، أو لرواية الشعر أو حفظ القرآن أو الحديث أو غير ذلك . فكانت قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته ، فالعبد الذى لا يعرف صناعة يساوى مائة دينار ، فاذا كان راعيا للابل يحسن القيام بها يقدرون قيمته بـ ٢٠٠ دينار ، فاذا كان عارفا بصناعة النبال والقسى يباع بأربعمائة دينار ، فاذا

---

(١) الاغانى ٦٤ ج١ (٢) ابن الاثير ٧٨ ج ٥ (٣) المعارف ٩٧
(٤) المقريزى ١٣٧ج١ (٥) البخارى ٥٩ ج ٢ (٦) الاغانى ١٥٢

كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار . تلك أثمان العبيــد فى أواسط دولة بنى أمية (١)

وأما القن فهو العبد الذى يشــتغل فى الارض ، وهو خاص بالقــرى ، ويسمى المزارع المقيم « فلاحا فرارا » ، فاذا أقطعت أرضه ، أوبيعت لأحد ، أو دخلت فى ملك أحد بالفتح أوغيره ، كانالفلاح تبعا لها وصار «عبدا قنا»، الا أنه لايرجو أن يباع أو يعتق ، ولا يستطيــع مولاه ذلك لو أراد ، بل هو قن ما بقى حيا ، وكذلك أولاده بعده ، فانهم يكونون عبيــدا لمالك الارض أو مقتطعها ، وقد أشرنا اليه فى كلامنا عن العبيد فى الجاهلية

الموالى فى الاسلام

والباقون فى الأسر اذا اعتنقوا الاسلام نجوا من الرق غالبا ، اذ يغلبأن يعتقوهم مكافأة لهم ، ومن أعتق منهم صــار مولى ، ولذلك كان الموالى من المسلمين غير العرب ، استنكافا من استرقاق المسلم ، ثم أطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربى ، فاذا قالوا « الموالى » أرادوا المسلمين منالفرس وغيرهم الذين كانوا مجوسا أو ذميين واعتنقوا الاسلام ، أو كانوا ممن لازم العربأو التجأوا اليهم ، ويسمونهــم « الحمــراء » فاذا قالوا « الحمــراء » أرادوا الموالى . والحمراء فى القاموس العجم ، وهم كل من سوى العرب

وأصبح الموالى فى الاسلام طبقة خاصة منطبقات الهيئة الاجتماعية ، كان لها شأن عظيــم فى تاريخ الاسلام ، ويمكن اعتبــارهم من قبيــل العصبية العربية ؛ لقول النبى (صلعم) : « مولى القوم منهم » (٢) وقوله : « من ادعى الى غير أبيهاو تولىغير مواليه فعليهلعنةالله والملائكة والناسأجمعين» (٣) وأهل الرجل عند العرب الموالى والذرارى . ويثق الرجــل بمولاه كما يثق بابنه ، لانه لم يعتقه الا حبا فيه ، والمولى يعد عتقه منة لمولاه عليه ، فيترك نسبه الى أهــله وينتسب الى مــولاه ، فيقال فلان مولى فلان ولا يقال ابن فلان . أو ينتسب الى قبيلته فيقال مثلا ابن سريج مولى بنى نوفل ، ومحرز مولى عبد الدار ، وحكم الوادى مولى الوليد بن عبد الملك ، وابن عياد مولىبنى مخزوم، وقس عليه . ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة ، وخصوصا من يعيش من الموالى فى بيت مواليهم ، ولكن الغالب أن يخرجوا لعمل يعملونه ، حتى اذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوائهم

وللموالى فضل كبير فى الاسلام ، لأن معظم الحفاظ وأهل التفسير واللغة والشعر وسائر العلماء وأكثر التابعين منهم ، لاشتغال العرب عن هذهالعلوم

---

(١) الاغانى ١٣٣ج١ (٢) العقد الفريد ١١١ج٢ (٣) ابن هشام ٧٧ج٣ والبيانوالتبيين١٦٤ج١

بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة (١) ومعظم الموالى الذين خـدموا العرب فى صدر الاسلام من بقايا الفيء والغنائم فى فارس وغيرها ، وأكثرهم كانوا غلمانا فى جملة السبى ، فربوا فى الاسلام ونبغوا فيه أو نبغ أولادهم ـ منهم أربعون غلاما كانوا يتعلمون الانجيل فى عـين التمر لما فتحها خالد ابن الوليد ، فغنمهم وبعثهم الى أبى بكر بالمدينة ففرقهم فى أهل البـلاد من جملة الغنائم ، فاعتنقوا الاسـلام وأعتقهم مواليهم فنبغ من أولادهم جماعـة كانوا عونا كبيرا للمسلمين فى السياسة والحرب والعلم والدين ، منهم موسى ابن نصير فاتح المغرب والاندلس فان أباه منهم ، وحمران مولى عثمـان بن عفان (٢) وأيضا محمد بن اسحق صاحب المغازى والسير فان جـده يسار منهم(٣) وقس على ذلك سائر مشاهير الموالى الذين أصلهم من السبى فى أثناء الفتح أو بعده

فأبو صفر من سبى دبا فى أيام أبى بكر(*)، وحماد الراوية أصل أبيه ديلمى من سبى مكنف بن زيد الخيل (٢) وسائب خاثر أصـله من فىء كسرى ، ومروان بن أبى حفصة الشاعر الشـهير أصله يهودى من سبى اصطخر (٤) والهروى اللغوى المشهور أسير وقع فى سهم عرب نشأوا فى البادية (٥) وابن الاعرابى سندى الاصل ، وأبو دلامة كوفى أسود كان عبـدا لرجل من بنى أسد فأعتقه (٦) وقل نحو ذلك عن سائر حملة العلم فى الاسلام

وقد يكون المولى من أصل رفيع واسترقه الأسر ولم يتوفق له الفداء ، فان بعض موالى المنصور من أولاد المرازبة (٧) وأبو على بن بذيمة الذى يروى عنه وأبو زهير جد المطلب بن زياد أصلهما من أبناء الاكاسرة ، وقعا فى الاسر يوم المدائن فأهداهما سعد الفاتح الى سمرة بن جنـادة الصـحابى فأعتقهما ابنه جابر (٨) . وانتقى أبو موسى الاشعرى ستين غلاما من أولاد الدهاقين من سبى بيروذ بفارس ، وفرق بعضهم فى المسلمين ، غير الذين افتداهم أهلهم (٩)

وكان للخلفاء والامراء ثقة كبرى بمواليهم ، يعهدون اليهم بكل شئونهم ، فأكثر حجاب الخلفاء الراشدين من مواليهم ، لا فرق فى أن يكون أصـلهم فارسيا أو ديلميا أو حبشيا أو روميا ، فموالى أبى بكر أولهم بلال بن رباح كان عبدا حبشيا لرجل من مكة ، اشـتراه أبو بكر بخمس أواق وأعتقـه . وهو أول من أذن فى المدينة ، وكان له مقام رفيع فى الاسلام ، وكذلك عامر

---

(١) الجزء الثالث من هذا الكتاب (٢) بن الاثير ١٩٢ ج ٢
(٣) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ والمعارف ١٦٨
(٤) المعارف ١٢٠ج٩ (٥) الاغانى ٣٦ج٩ (٦) ابن خلكان ٥٠١ج١ (٧) الاغانى ١٢٠ ج٩
(٨) الاغانى ٨٢ ج ٢٠ (٩) المعارف ١٠٣ (١٠) ابن الاثير ٢٣ ج ٣

ابن فهيرة ، وابو نافع ومرة بن أبى عثمـــان وغيرهم (١) وقس على ذلك موالى عمر وعثمان وعلى وغيرهم من الخلفاء وكبار الصحابة . وكلهم يستهلكون فى سبيل مواليهم ، لاعتقادهم الفضل لهم عليهم ، وفى التاريخ شـواهد كثيرة من هذا القبيل على اختـلاف الأعصر ــ من ذلك أن محمد بن يزيد المهلبى ، لما نشبت الفتنة بين الأمين والمأمون ، كان هو من حزب الأمين ، وأراد أن يحفظ له الاهواز من أصحاب طاهر بن الحسين قائد جنـد المأمون فباغته طاهر بجنده قبل أن يتحصن وضايقه ، فالتفت المهلبى المذكور الى مواليـــه وقال لهم : « ما رأيكم ؟ . انى أرى من معى قد انهزم ، ولست آمن خـذلانهم ولا أرجو رجعتهم ، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسى حتى يقضى الله بما أحب ، فمـن أراد الانصراف فلينصرف ، فوالله لأن تبقـوا أحب الى من أن تموتوا » . فقالوا : « والله ما أنصفناك اذن .. تكون قد أعتقتنا من الرق ، ورفعتنا من الضعة ، وأغنيتنا بعد القلة ، ثم نخذلك على هذا الحال ؟ فلعن الله الدنيا والعيش بعدك » . ثم نزلوا فعرقبوا دوابهم واستقتلوا بين يديه (٢)

على أن المولى لا يزال أحط مقاما من العربى . وكان الموالى فى صدر الاسلام يتولون كثيرا من مصالح الدولة التى تفتقر الى أمانة وثقة ، فضلا عن العلم والدين . ولهم الرواتب السنية (٣) لكنهم كانوا محرومين من المنـاصب الرفيعة التى تحتاج الى شرف وعصبية ، كالقضاء مثلا ، فانهم كانوا يعدونه فوق مرتبتهم ، فان عمر بن العزيز لما أراد أن يولى مكحولا القضاء أبى وقال : « قال النبى : لا يقضى بين الناس الا ذو الشرف فى قومه ، وأنا مولى » (٤)

---

(١) المعارف ٥٨ (٢) ابن الاثير ١٠٦ج٦ (٣) الاغانى ١٦٣ ج ١٠ (٤) العقد الفريد ٨ج١

سياسة الدولة
في عهد الأمويين
من سنة ٤١ ـ ١٣٢ هـ

قد رأيت مما تقدم ان سياسة الدولة فى أيام الراشدين انما كان قوامها الجامعة العربية ، وعمادها العدل والرفق والأريحية،ففتحوا العالم وأسسوا الدولة الاسلامية ، وأخضعوا معظم المعمور فى بضع وعشرين سنة ، ووجهتهم دينية وسلاحهم التقوى والحق ، والعمل بالكتاب والسنة،وغايتهم نشر الدين والتماس الثواب فى الآخرة ، وحكومتهم بالانتخاب والشورى ، وسترى فى سياسة بنى أمية ما يخالف ذلك من كل الوجوه

انتقال الخلافة الى الأمويين

لما طمع بنو أمية فى الخلافة ، كانت قد أفضت الى على بن أبى طالب صهر النبى وابن عمه ، والمسلمون يعتقدون أنه أحق الناس بها ، لقرابته من النبى وتقواه وشجاعته وعلمه ، وسابقته فى الاسلام وفضله فى تأييده . فتصدى له معاوية بن أبى سفيان ، وكان أبوه وأخوته من أشد الناس مقاومة للاسلام عند ظهوره ، ولم يسلموا الا بعد فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة ، وانما أقدموا على ذلك مضطرين ، لما رأوا الاسلام قد تأيد فى جزيرة العرب ولم يبق سبيل الى مقاومته

وكان أبو سفيان والد معاوية زعيم أهل مكة ، وقد حارب النبى فى عدة أماكن . وجاهر بعداوته وطعن فيه . فلما ظفر المسلمون فى غزواتهم ، واشتد آزرهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى أقبلوا عليها ، كان أبو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون . فلقيهم العباس عم النبى ، فقال له أبو سفيان وقد أسقط فى يده : « لقد أصبح أمر ابن أخيك عظيما »فأشار عليه العباس أن يستأمن ، فلم ير له حيلة فى غير ذلك فاستأمن ، ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الاسلام فأسلم هو وأولاده وفيهم معاوية ، وقد تألفهم النبى بالعطاء ليثبتوا فى اسلامهم (١)

المنافسة بين بنى أمية وبنى هاشم

والسبب فى طلب معاوية للخلافة متصل بالجاهلية . وذلك أن بنى عبد

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب

مناف هم أشرف بطون قريش وأكثرهم عددا وقوة ، وهم فخذان : بنو أمية وبنو هاشم ، وكان بنو أمية أكثر عددا من بنى هاشـم وأوفر رجالا ، وكان لهم قبل الاسلام شرف معروف انتهى الى حرب بن أميـة والد أبى سـفيان وجد معاوية • وكان حرب المذكور رئيسهم في واقعة الفجار قبل الاسلام ، وله جاه وشوكة فى الفخذين جميعا، فلما جاء الاسلام، والنبى من بنى هاشم شق ذلك على بنى أمية وكانوا من أقوى الساعين فى مقاومته ، فلم يفلحوا• ولكنهم حملوا النبى على الهجرة من مكة الى المدينة ، وقد نصره الانصار هناك وهم من القحطانية حتى استتب له الامر ، وقد مات عمه أبوطالب وهاجر بنوه مع النبى الى المدينة • ثم لحقهم أخوه حمزة ثم العباس وغيره من بنى عبدالمطلب وسائر بنى هاشم ، فخلا الجو لبنى أمية فى مكة ، واستغلظت رياسـتهم فى قريش ، وزادت سطوتهم بعد واقعة بدر اذ هلك فيها عظماء قريش من سائر البطون • فاستقل أبو سفيان بشرف أمية بمكة والتقـدم فى قريش ، وكان رئيسهم فى واقعة أحد وقائدهم فى واقعة الاحزاب وما بعدها• فلما استفحل أمر المسلمين وفتحوا مكة واسـتأمن أبو سـفيان كما تقدم ، رأى النبى من حسن السياسة أن يمن على قريش كافة بعد أن ملكهم بالفتـح عنوة ، فمن عليهم وأطلق سـبيلهم وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وفيهم معـاوية ، فأسلموا جميعا

فلما مات النبى وتولى الخلافة أبو بكر ، جاء القرشـيون ومعظمهم من بنى أمية ، وشكوا اليه ما وجدوه فى أنفسهم من التخلف عن رتب المهـاجرين والانصار ، فقال لهم أبو بكر : « لقـد جئتم الاسـلام متأخرين ، فأدركوا اخوانكم فى الجهاد » فجاهدوا فى حروب الردة • ولـما تولى عمر بن الخطاب أدرك ما فى نفوسهم ، فخاف بقاءهم فى المدينة ، فرمى بهم الروم ورغبهم فى الشام ، فاستعمل يزيد بن أبى سفيان عليها ، فانتقل معـه سائر قريش ، واستطابوا فاكهة الشام فأقاموا فيها حتى توفى يزيد المذكور ، فولى عمـر مكانه أخاه معاوية • ولما تولى عثمان سـنة ٢٣ هـ أقر معـاوية على الشام ، فاتصلت رياسة بنى أمية على قريش فى الاسلام كما كانت فى الجاهليـة ، وبنو هاشم مشتغلون بالنبوة وقد نبذوا الدنيا (*)

(*) يذهب المقريزى فى رسالته القيمة « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » (القاهرة ١٩٣٧) الى أن استيلاء بنى أمية على الامور يرجع الى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكر انه لـما توفى الرسول كان عماله على مكة واليمن والبحرين وتيماء وخيبر وفدك وتبوك كلهم من بنى أمية وحلفائهم. فلما تولى أبو بكر ترك بنو سعيد بن العاص أعمالهم وأتوا الى المدينة ، فأراد أبو بكر ردهم الى ولاياتهم ، فقالوا : « نحن بنو أبى أحيحة ، لا نعمل لاحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا » ثم مضوا الى الشام وقاتلوا وقتلوا فى مغازيها ، فيقال : « ما فتحت بالشام كورة من كوره الا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتا » . ثم ايد المقريزى كلامه برواية للواقدى ، وقال بعد ذلك : « فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسس هذا الاساس ، وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد ، كيف لا يقوى ظنهم ، ولا ينبسط رجاؤهم ، ولا يمتد فى الولاية أملهم ؟ أم كيف لا يضعف ظن بنى هاشم وينقبض رجاؤهم ويقصر املهم ، وكبيراهم العباس بن عبد المطلب وابن أخيه على ابن أبى طالب رضى الله عنهما يريد احدهما استعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته عن هذا الامر هل هو فيهم او فى غيرهم ويأبى الآخر ذلك ؟ .. » ثم يقول بعد ذلك بكثير: « فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى عمال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم ! فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وفتل أمراسهم » انظر : ص ٤٤ ــ ٥٦

وكان بنو أمية ينظرون الى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه، ويتوقعون فرصة للقبض على أزمة الملك • فلما قتل عمر بن الخطاب وأمر بالشورى ، اختار الصحابة عثمان بن عفان وهو من بنى أمية ، ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسيسة أموية•وكان عثمان ضعيفا يؤثرذوى قرابته فى مصالح الدولة ، فاغتنم الأمويون ضعفه وتولوا الاعمال واستأثروا بالأموال ، فشق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه ، ثم استشهد بعد ذلك على ما هو معروف

فاتخذ الأمويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة ، ورئيسهم معاوية بن أبى سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش • وكان أهل المدينة قد بايعوا على بن أبى طالب ، وجمهورهم الانصار • فأصبح المسلمون يومئذ حزبين رئيسيين : (١) الانصار ويريدون الخلافة لاهل بيت النبى (صلعم) جريا على نصرتهم اياه يوم هجرته (٢) بنو أمية فى الشام ويطلبونها لمعاوية ابن زعيمهم فى الجاهلية • وجمهور الصحابة يرون الحق لعلى ، فلم ير معاوية سبيلا الى نيل بغيته الا بالدهاء والتدبير . وكان أدهى أهل زمانه بلا منازع • فنظر فى الامر نظرة رجل يطلب الملك كما يطلبه أهل المطامع وطلاب السيادة فى كل عصر بلا علاقة بالدين ، وقد ساعده على ذلك أن خصمه عليا كان يعتبر الخلافة منصبا دينيا ، وهو زاهد فى الدنيا لامطمع له فى غير الثواب والحسنى • وان رجال معاوية قد ذهبت منهم حرمة الدين ، ونسوا دهشة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فاتسعت مطامعهم• فأثمرت مساعى معاوية فى اصطناع الاحزاب بقاعدة ذكرها فى حديث دار بينه وبين عمرو بن العاص . اذ قال معاوية : « لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقال عمرو : « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ » ، قال : « ان هم شدوا أرخيت ، واذا أرخوا شددت »

فأول شىء فعله معاوية أنه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدهم المؤرخون أدهى رجال العرب ــ ومعاوية أدهاهم جميعا ــ وهم : عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والمغيرة بن شعبة • ولولاهم لم يستتب له الامر ، لأن ابن العاص احتال فى نجاته من واقعة صفين ، بعد أن كادت الدائرة تدور عليه ، اذ ظهرت جيوش على على جيوشه ، فأشار عليه عمرو بن العاص أن يرفع المصاحف لايقاف الحرب ، ثم أشار بالتحكيم وخدع أبا موسى الاشعرى نائب على فى ذلك التحكيم فخلع عليا وبايع معاوية (*) . ونال عمرو فى مقابل

(*) يبدو ان مسألة التحكيم قد اختلط امرها على الرواة ، فرووها على صورة لا يقبلها العقل اذا نحن دققنا النظر فيها ، فالروايات تصور أبا موسى الاشعرى رجلا ساذجا يخدعه عمرو بن العاص بحيلة لا تجوز على طفل ، فهم يزعمون انه اتفق مع عمرو بن العاص على أن يخلع كل منهما صاحبه ، مع ان معاوية لم يكن اذ ذاك خليفة ولا مطالبا بالخلافة حتى يجوز خلعه فى مقابل خلع على الخليفة المبايع له المعترف به حتى من معاوية . والروايات تسدل على ذلك الموضوع نقابا من الابهام حتى ليعسر معرفة حقيقة ما وقع ، ويبدو ان الحكمين لم يتفقا على شىء ، فازداد الهرج ، وزعم دعاة بنى أمية ان أبا موسى خلع صاحبه . اما القول بأن ابا موسى بدأ فخلع عليا فبادر عمرو وقال انه يثبت صاحبه كما يثبت خاتما فى أصبعه ، فشىء اقرب الى

ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر (١) وزياد بن ابيه رجل لا يعرف له أب ، فلما رأى معاوية دهاءه قربه منه وادعى أنه أخوه ، واستلحقه بنسبه وسماه زياد بن أبى سفيان ، فى حديث طويل ذكرنا خلاصته فيما تقدم . واستلحاق زياد أول عمل ردت به أعلام الشريعة الاسلامية علانية (٢) وكان زياد عونا كبيرا لمعاوية فى حفظ العراق وفارس . أما المغيرة بن شعبة فهو أول من ضرب الزيوف فى الاسلام وأول من رشي (٣) وهو الذى حرض معاوية على مبايعة ابنه يزيد ، وجعل الخلافة وراثية فى نسله وساعده على ذلك

فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والأطماع، فأطعم ابن العاص مصر ، واطعم المغيرة فارس ، وجعل زيادا أخاه . وكان يتساهل فى محاسبة عماله ويغضى عن سيئاتهم (٤) ويبالغ فى اكرامهم . ولو رأوا من على بعض ذلك لكانوا معه ، ولكن عليا كان دقيقا فى محاسبتهم ، متصلبا فى رأيه لا يحيد عما يقتضيه ضميره ــ كذلك كان يفعل أبوبكر وعمر ، ولكن المسلمين كانوا فى أيامهما لا يزالون فى ابان الحمية الدينية والاريحيــة العربية ، ينصاعون لأوامر خليفتهم بكلمة ، ولذلك عدوا تصرف على ضعفا منه . فلما رأوا ضعفه انحازوا الى معاوية بعد أن كانوا معه ، وأولهم المغيرة ابن شعبة ، فهذا جاء عليا يوم بويع ومعاوية واقف له بالمرصاد ، فأشــار عليه أن يحاسن معاوية ولا يعزله عن عمله فى الشام ، ريثما يستتب له الأمر فيعزله اذا شاء ، فلم يطعه على ، فعاد اليه فى اليوم التالي وخادعه ، وأشار عليه أن يعزل معاوية ويفعل كما يشاء ، ثم انحاز المغيرة الى معاوية وصارمن اكبر انصاره

وقس على ذلك تصرف على مع ابن عمه عبد الله بن عباس ، وكيف كدره واخرجه من حوزته بتدقيقه كما تقدم . ولما قتل على خلفه ابنه الحسن ، فرأى نفسه عاجزا عن منازلة معاوية ، فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها . وسار بنو أمية بعده على خطته ، وسار العلويون على خطة على ، وكان الفوز دائما لأهل الدهاء ، فقضى العلويون معظم أيامهم خائفين شاردين ، ومات أكثرهم قتلا مع انهم أهل تقوى ودين وحق ،وأولئك على الضد من ذلك ــ مما يدلك على أن السياسة والدين لا يلتحمان الا نادرا ، وما التحامهما أيام الراشدين الا فلتة قلما يتفق مثلها . على أننا لا نعد دولة الراشدين حكومة سياسية ، وانما هى خلافة دينية (*)

القصص ، واولى بنا ان نسأل : فيم ثبت عمرو صاحبه ؟ فان قيل ثبته فى الخلافة فان معاوية لم يكن بخليفةولامطالبا بخلافة ، وان قيل ثبته فى ولاية الشام ، فليس عمرو بن العاص مندوب معاوية هو الذى يثبته فى الولاية . انما يكون التثبيت من جانب الخليفة على بن أبى طالب او مندوبه ، ويكون فى ولاية الشام وحدها

(١) المقريزى ٣٠٠ج١ (٢) ابن الاثير ٢٢٥ج٣ (٣) المعارف ١٨٩ (٤) ابن الاثير ٢٦٠ ج٣

(*) هذا هو رأى معظم المستشرقين ، وهم يصفون الدولة ايام الراشدين بأنها كانت حكومة دينية (ثيوقراطية) Theocracy

رغبة بنى أمية فى السيادة

ان المحور الذى كانت تدور عليه سياسة بنى أمية ، والغرض الذى كانوا يرمون اليه ، انما هو احراز الخلافة والرجوع الى السيادة التى كانت لهم فى الجاهلية ، بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية الى ذلك ، أو وخامة الاسباب التى تمسكوا بها . وقد فازوا بغايتهم ، فاتسعت المملكة الاسلامية فى أيامهم واشتدت شوكتها ، مالم تبلغ اليه دولة العباسيين بعدها (١) وكانوا يطلبون السلطة على أن لايشاركهم فيها أحد ، وكان أشدهم فتكا عبد الملك بن مروان يقول : « لا يجتمع فحلان فى أجمة » (٢)

فرغبة بنى أمية فى السلطة على هذه الصورة ، مع وجود من هو أحق منهم بها ، جرهم الى ارتكاب أمور آلت الى توجيه المطاعن اليهم . وقد ظهرت هذه الدولة وتغلبت على سائر طلاب الخلافة فى أيامهم بشيئين: العصبية القرشية ، واصطناع العصبيات أو الأحزاب الأخرى ، وهما أساس كل ماظهر من سياسة بنى أمية كما سترى

العصبية العربية فى عصر الامويين

العرب وقريش

كانت العصبية العربية فى الجاهلية بين القبائل بحسب الأنساب ، فلما جاء الاسلام تنوسيت تلك العصبية ، واجتمع العرب كافة باسم الاسلام أو الجامعة الاسلامية ، ومازالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول أيام الخلفاء الراشدين . حتى اذا طمع بنو أمية فى الملك ، وقبضوا على أزمة الخلافة ، استبدوا وتعصبوا للعرب ، وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها ، فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة فى سياستهم ، مع ذهاب مناقب البدو التى ذكرناها . وانما حفظوا من أحوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم « قريش » ، وايثار أهلهم على سواهم . فجاشت عوامل الحسد فى نفوس القبائل التى كان لها شأن فى الجاهلية وضاع فضلها فى الاسلام ، وخصوصا أهل البصرة والكوفة والشام ، لأن أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبى (صلعم) ، ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه ، مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها . فلما استفحلت الدولة اذا هم فى قبضة المهاجرين والأنصار ، من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم،

---

(١) الفخرى ٢٥ (٢) ابن الاثير ٩١ج٦

ومصـادمة فارس والروم ، مثل قبـائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة ، والازد من اليمن ، وتميم وقيس من مضر ، فصاروا الى الغض من قريش والأنفـة عليهم ، فعادت العصـبية الى نحو ما كانت عليـه فى الجاهلية

بدات هذه العصبية بتعصب العرب كافة على قريش ، حسدا لهم كما ذكرنا ، ولاستبدادهم بالسلطة دون سائر الصحابة أو التابعين معاستئثارهم بالفيء ــ الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية أو العدنانية . وأول خلاف وقع بين المسلمين من هذا القبيل حدث فى ايام عثمان ، ذلك أن سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة اختار وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل الكوفة لمجالسته ، فكانوا يسمرون عنده وفيهم جماعات من كل القبائل . وكان بنو أمية وغيرهم من الصحابة قد أخذوا فى امتلاك العقار وبناء المنازل ، وبنو أمية اطول باعا يومئذ فى ذلك لقرابتهم من الخليفة . فاتفق فى احـدى مسامراتهم عند سعيد بن العاص أن بعضهم ذكر جود طلحة بن عبيد الله احد كبار الصحابة ، فقال سعيد : « ان من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جوادا ، ولو كان لى مثله لأعاشكم الله به عيشا رغدا » . والنشاستج ضيعة فى الكوفة كانت لطلحة ، وهى عظيمة كثيرة الدخل اشتراها من أهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخيبر وعمرها فعظم دخلها (١)

فلما قال سعيد ذلك قام غلام من الحضور فقال له : « لوددت أن هـذا الملطاط لك » . والملطاط ماكان للأكاسرة على جانبى الفرات مما يلى الكوفة . فنهض بعض الحاضرين من غير قريش وانتهر الغلام فاعتذر أبوه عنه وقال : « غلام فلا تجازوه » . فقال : « كيف يتمنى له سوادنا ؟ » أى سواد العراق فقال سعيد : « السواد بستان قريش » . وكان الأشتر النخعى حاضرا ، وهو من اليمنية ، وكان شديد التعصب لعلى بن أبى طالب ، فغضب وقال لسعيد : « أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ » فقام عبد الرحمن الأسدى صاحب شرطة سعيد فقال للأشتر : « أتردون على الأمير مقالته ؟ » وأغلظ لهم ، فأشار الأشتر الى رفاقه فوثبـوا على الرجل فوطأوه وطأ شديدا حتى غشى عليـه ، ثم جروا برجله ونضحوه بالماء فأفاق ، فنظر الى سعيد وقال : « ان الذين انتخبتهم لمسامرتك قتلونى » . فقال سعيد : « والله لا يسمر عندى أحد أبدا » (٢)

فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين ، وخصـوصا بينهم وبين اليمنية ، ومنهم الأنصار . وثبت الانصار فى نصرة أهل البيت ضد أهلهم من قريش مثلما فعلوا فى أول الاسلام ، اذ جاءهم النبى مهاجـرا

---

(١) ياقوت ٧٨٣ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٧٢ و ٩٧ ج ٣

فرارا من اهله . ولما جرت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين على ومعاويةعدوها بين اليمنية « الأنصار » وقريش . فلما احتدم القتال فى تلك الواقعة قال رجل يمنى من انصار على : « أيها الناس هل من رائح الى الله تحت العوالى (أى السيوف) ؟ والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على تأويله (القرآن) كما قاتلناكم على تنزيله » ، وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله   واليوم نضربكم على تأويله
ضربا يزيل المهاب عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق الى سبيله (١)

القبائل اليمنية والمضرية

ثم صار أكثر اليمنية شيعة على وأنصاره ، الا الذين تألفهم معاوية بالعطاء، لعلمه أن اكتفاءه بقريش ونحوهم لايجديه نفعا ، فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بجدل أم يزيد ابنه ، واستنصرهم على قتلة عثمان لان امرأة عثمان كانت كلبية ، واستغواهم بالمال فحاربوا معه ، ولما فاز فى حروبه ورسخت قدمه فى الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن ، وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده لانهم أخواله

فلما مات يزيد وابن الزبير فى مكة يطالب بالخلافة ، واختلف بنو امية على اختيار خالد بن يزيد أو مروان بن الحكم (وكلاهما من أمية) ، ووقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بنى أمية ، كان أنصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير ، وأنصار بنى أمية بنو كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد لانه ابن أختهم . ونهض أناس من بنى أمية فاعترضوا على صغر سن خالد ، فأجمعوا على بيعة مروان لشيخوخته على أن تكون الخلافة بعده لخالد . ثم جرت واقعة مرج راهط بين أصحاب مروان وأصحاب ابن الزبير ، أى بين كلب وقيس ، وفاز مروان وثبتت قدمه فى الخلافة . ثم توفى مروان ولم يف لخالد ، فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة ،وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه ، وانقسم العرب فى سائر أنحاء المملكة الاسلامية بين هذين الحزبين : قيسية وكلبية ، أو مضرية ويمنية ، أونزارية وقحطانية . وقامت المنازعات بينهما فى الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وافريقية والاندلس . وفى كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان : مضرى ويمنى ، تختلف قوة أحدهما أو الآخر باختلاف الخلفاء أو الامراء أو العمال . فالعامل المضرى يقدم المضرية ، والعامل اليمنى يقدم اليمنية ،

---

(١) المسعودى ١٦ ج ٢

ويختلف ذلك باختلاف الاحوال ، وله تأثير فى كل شيء من تصاريف أحوالهم ، حتى فى تولية الخلفاء والأمراء وعزلهم ، وكثيرا ماكانت الولاية والعزل موقوفين على الانحياز الى أحد هذين الحزبين

فقد رأيت أن قبيلة قيس كانت على عبد الملك بن مروان ، ولكنها كانت أول نصير لابنه هشام ، فنصرته فقربها وألحقها بالديوان أى فرض لاهلها الرواتب والجرايات . وفى أيامه نقل كثير من بطونها وأفخاذها الى بلاد الاسلام وخصوصا مصر والشام . وفى أيام هشام ارتفع شأن القيسية ، وصارت سائر المضرية انصارا لبنى أمية ، ولاسيما لما قتل الوليد بن يزيد وأمه قيسية (١) فقام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يطالب بدمه رغبة فى نصرتهم ليشتد أزره بهم ، فأجمع المضرية على نصرة مروان ، وما زالوا كذلك الى آخر ايامه ، فلما قامت شيعة بنى العباس كانت اليمنية من أنصارها

وكان تحت هذين الحزبين الكبيرين أحزاب فرعية تتخاصم وتتحارب . على ان مقام قريش مازال فى كل حال محفوظا ومفضلا على مقام سائرالقبائل شرفا ونفوذا ، فكانوا اذا خافوا عصيان بعض الولايات على عاملها ولوا عليها عاملا من قريش ، فيذعنون له ويجمعون على طاعته (٢)

على أن قريشا كانوا منقسمين فيما بينهم ، وأهم انقساماتهم بين بنىأمية وبنى هاشم ، فكان الناس يتعصبون لاحدهما على الآخر تبعا لغرضه او وطنه، وكثيرا ماكانوا يتشاجرون فى هذا السبيل فيشغلونأوقاتهمبالمناظرةوالمفاخرة، حتى تحتدم نار الخصام وتتحول الى حرب يطير شرارها وتسفك فيها الدماء . وكانت قوة بنى هاشم فى الحجاز والعراق ، وقوة بنى أمية فى الشام،ويختلف هذا التحديد باختلاف العصور . وكثيرا ماكان الخصام يبدأ بين الشعراء ، واشتهر بعضهم على الخصوص فى هذه المطاعنات ، وأشهر مناظراتهم فىهذا السبيل ماكان بين سديف الشاعر ، الذى ينتسب بولائه الى بنى هاشم ، فقد كان يتعصب لهم ، وسياب الشاعر وكان يتعصب لبنى أمية ، فكان هذان الشاعران يخرجان الى ظاهر مكة يذكران المثالب والمعائب ، والناسينقسمون فى التعصب لهما ، حتى تولد من ذلك عصبتان كبيرتان عرفتا بالسديفية والسيابية ، وتواصل ذلك الى أيام الدولة العباسية ، وتغير أسماهما الى الحناطين والجزارين (٣) وسديف هذا هو الذى قال شعرا بين يدى السفاح قتل به سليمان بن هشام الأموى (*)

---

(١) ابن الاثير ١٥٩ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٧٨ ج ٥ (٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٤

(*) سديف هو المعروف بسديف مولى بنى هاشم . انظر عنه الاغانى ، طبعة الساسى ٤/٩٢ـ ٩٦ و ١٤/١٥٦ . وسياب هو ابو سيابة المذكور فى الاغانى ٥/٩ و ٤٤

عصبية العرب على العجم

وكما كان القرشيون فى أيام بنى أمية مقدمين على سائر قبائل العرب ، فان العرب على الاجمال كانوا مقدمين على سائر الامم الذين دانوا بالاسلام . ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك ، بل كانوا يعتقدون فضل العرب فى اقامة هذا الدين ، وانهم مادته وأصله ، ولا كانوا يأنفون من أن يسموا العرب أسيادهم ويعدوا أنفسهم من مواليهم ، بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضا واجبا عليهم ، عملا بالحديث المأثور : « من أبغض العرب أبغضه الله » (١) وكثيرا ماكانوا يعترفون بفضلهم عليهم فى العقل والحزم وسائر المناقب ، فان عبد الله ابن المقفع المنشىء الشهير — وكان عريقا فى النسب الفارسى — ضمه مجلس فى بيت بعض كبراء الفرس بالبصرة ، وفيه جماعة من أشراف العرب ، فتصدى هو للكلام فسأل بعض الحضور : « أى الامم أعقل ؟ » فظنوه يريد أمته فقالوا : « فارس » فقال : « كلا . . لانهم وان ملكوا الارض وضمت دولتهم الخلق لكنهم لم يستنبطوا شيئا بعقولهم » ، فقالوا : « الروم » ، فقال : « لا » حتى سئموا فقالوا : « قل أنت » ، قال : « العرب . واذا فاتنى حظى من النسبة اليهم فلا يفوتنى حظى من معرفتهم . ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت عليها ، أصحاب ابل وغنم وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ، ويشارك ميسوره ومعسوره ، ويصف الشىء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ماشاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم فى أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم »

العرب والموالى

فكان العرب يزدادون بأمثال هذه الاقوال افتخارا على سائر الامم ، وخصوصا على المسلمين منهم ، فكانوا يترفعون عنهم ويسمونهم الموالى كما تقدم . ومن أقوال أهل العصبية للعرب على العجم : « لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر ، واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان ، كما فى الاثر — ان قوما يقادون الى حظوظهم بالسواحير . وكما قال : عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل . على أننا تعرضنا للقتل فيهم ، فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك ؟ . فالله أمرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا فى مكاتبتكم »

---

(١) العقد الفريد ٤٢ ج ٢

وكانوا يكرهون أن يصلوا خلف الموالى ، واذا صلوا خلفهم قالوا : اننا نفعل ذلك تواضعا لله . وكان نافع بن جبير التابعى الشهير اذا مرت به جنازة قال : « من هذا ؟ » ، فاذا قالوا : « قرشي » قال : « وا قوماه ! » واذا قالوا : « عربى » قال : « وا بلوتاه ! » واذا قالوا : « مولى » قال : « هو مال الله يأخذ ماشاء ويدع ماشاء » (١) . وكانوا يقولون : « لايقطع الصلاة الا ثلاثة : حمار ، أو كلب ، أو مولى » . وكانوا لا يكنونهم بالكنى ، ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب ، ولا يمشون فى الصف معهم ، ولا يدعونهم يتقدمونهم فى المواكب ، وان حضروا طعاما قاموا على رؤوسهم ، وان أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه فى طريق الخباز ، لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر أحد من العرب — وسيأتى الكلام على أحكام الموالى فى هذا العصر

وكان العرب فى أيام هذه الدولة يترفعون عن سائر الامم من الموالى وأهل الذمة ، ويعدون انفسهم فوقهم جبلة وخلقة وفضلا ، وكانوا يسمونهم « الحمراء » كما تقدم ، وربما أرادوا بالحمراء الموالى على الخصوص . فكان العربى يعد نفسه سيدا على غير العربى ، ويرى أنه خلق للسيادة وذاك للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون فى صدر الاسلام الا بالسياسة والحكومة ، وتركوا سائر الاعمال لسواهم وخصوصا المهن والصناعات . ومن أمثالهم « ان الحمق فى الحاكة والمعلمين والغزالين» لانها صناعات أهل الذمة(٢)وتخاصم عربى ومولى بين يدى عبد الله بن عامر صاحب العراق فقال المولى : « لأكثر الله فينا مثلك » ، فقال العربى : « بل كثر الله فينا مثلك » ، فقيل له : «أيدعو عليك وتدعو له ؟ » ، قال : « نعم ، يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا » (٣)

ولم يكن العرب يعتنون بشىء من العلم غير الشعر والتاريخ ، لانه لازم للسيادة والفتح ، وأما الحساب والكتابة فقد كانت من صناعات الموالى وأهل الذمة ، ولذلك كان العمال فى أيام بنى أمية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين ، لانهم كانوا لايكتبون ولا يحسبون (٤)

وكان الامويون فى أيام معاوية يعدون الموالى أتباعا وأرقاء . فلما تكاثر الموالى أدرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب ، فهم أن يأمر بقتلهم كلهم أو بعضهم . وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الامراء من رجال بطانته، وفيهم الاحنف بن قيس وسمرة بن جندب ، فقال لهما : « انى رأيت هذه الحمراء (يعنى الموالى) وأراها قد قطعت على السلف ، وكأنى أنظر الى وثبة

(١) العقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٠٠ ج ١
(٣) العقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٤) المسعودى ١١٤ ج ٢

منهم على العرب والسلطان ، فرأيت أن أقتل شطرا وادع شطرا لاقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ » . فقال الاحنف : « أرى أن نفسى لا تطيب . . أخى لامى وخالى ومولاى وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب »، وأما سمرة فأشار بقتلهم وطلب أن يتولى ذلك هو بنفسه ، فرأى معاوية أن الحزم فى رأى الاحنف فكف عنهم . فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسواهم ، وكيف يخطر للخليفة أن يقتل شطرا منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الاغنام (*)

وكأن العرب سكروا بخمرة السيادة والنصر ، بارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك فى بضعة عشر عاما ، فتوهموا فى فطرتهم ماليس فى سواهم من المناقب والسجايا كما توهم الرومان قبلهم ، وكما يتوهم أهل هذا العصر فى بعض الامم السائدة فيعتقدون امتيازها بأصل فطرتها عن سائر الامم (**) فتوهم العرب فى أنفسهم الفضل على سائر الامم . . حتى فى أبدانهم وأمزجتهم فكانوا يعتقدون أنه لا تحمل فى سن الستين الا قرشية ، ولا تحمل لخمسين الا عربية كما تقدم ، وأن الفالج لا يصيب أبدانهم ولا يضرب احدا من أبنائهم (***) الا أن يبذروا بذورهم فى الروميات والصقلبيات وما أشبههن فيعرض الفالج لمن يلدنه (١) ولذلك كانوا فى أيام بنى أمية شديدى العناية فى حفظ أنسابهم من شوائب العجمة ، ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء ، فقالوا : « لا يصلح للقضاء الا عربى » (٢) وحرموا منصب الخلافة على ابن الامة ولو كان أبوه قرشيا ، وكان ذلك من جملة ما احتج به هشام على يزيد بن على بن الحسين ، اذ قام يطلب الخلافة لنفسه فقال له هشام بن عبد الملك : « بلغنى انك تخطب الخلافة ولاتصلح لها لانك ابن أمة » (٣) مع أن أمه من بنات ملوك فارس . وأول من ولى الخلافة من أبناء الاماء يزيد ابن الوليد الاموى سنة ١٠١ هـ ، وكانوا يسمون العربى من أم أعجمية « الهجين » ، ولا يزوجون الاعجمى عربية ولو كان أميرا وكانت هى من أحقر القبائل . فان بعض دهاقين الفرس أراد أن يتزوج امرأة من باهلة كانت فى بعض قصور الترك فأبت ، مع أن باهلة من أحقر قبائل العرب . ولم يكن

(*) كان دافعه الى ذلك كما هو ظاهر من النص هو الخوف من كثرة عدد الموالى ، فقد كانوا يزيدون على العرب أضعافا . وموقف العرب من الموالى منشؤه الاستعلاء على غيرهم ، ولكن لا ينبغى ان تفوتنا ملاحظة خوف العرب من الموالى

(**) يشير المؤلف هنا الى ما كان الانجلوسكسون مثلا يدعونه لانفسهم من الفضل على غيرهم ، وما زعمه أهل اوربا وامريكا من انهم آريون ممتازون على الساميين والحاميين ومن سواهم . وقد ذهبت هذه الدعوى الآن فى الظاهر ، أما فى الحقيقة فلا يزال أهل الغرب يشعرون بأنهم قادة الانسانية ، وهم يتصرفون على هذا الاساس

(***) أى أن الفالج لا يصيب ابناءهم الصرحاء . وقد كان هذا صحيحا بالنسبة لعرب الجاهلية ، لان الفالج يتأتى من زيادة ضغط الدم ، وهذا بدوره يتأتى فى الغالب ، من الاسراف فى أنواع معينة من الطعام ، وكان الجاهليون متقللين من الطعام ، فلم يكن الفالج يصيبهم ، وقد أشار الى ذلك ابن سينا فى « القانون »

(١) طبقات الاطباء ١٥٠ ج ١ والاغانى ٨٨ ج ١٥ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١

(٣) سراج الملوك على هامش مقدمة ابن خلدون ٢٨٨

اثقل على طباعهم من استرقاق العربي (١)

وكان فضل العرب على سواهم قضية مسلمة في صدر الاسلام لا تحتاج الى دليل ، فلما بالغ بنو أمية في الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت دهشة النبوة ، أخذ هؤلاء في التذمر ونصروا آل علي والخوارج وغيرهم من أعداء الامويين ، وهان عليهم الرد على العرب في مفاخراتهم ، فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعوبية ، لا يعترفون بفضل العرب على سواهم ، وتصدوا لدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب . ولم يكن الشعوبية يستطيعون الظهور في أيام بني أمية (٢) فلما أفضت الخلافة الى بني العباس وانحط شأن العرب بعد قتال الامين والمأمون ، ظهروا وألفوا الكتب في مثالب العرب ، كما سيأتي

آثار بني امية في الاسلام

فالدولة الاموية كانت شديدة الحرص على منزلة العرب ، كثيرة العناية في حفظ الانساب ، فجعلت في كل ديوان من دواوينها سجلا يقيدون فيه من يولد من أبناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة (٣) وهي التي جعلت الاسلام دولة ، وقد كان في أيام الراشدين دينا ، فصار على عهد الامويين عصبية وسيفا ، ثم صار دولة أيدوها بنشر اللغة العربية في المملكة الاسلامية ، بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد أن كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية ، أصبحت هذه البلاد بتوالي الاجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الاصلية ، وهي تعد الآن من البلاد العربية . واذا نزلها التركي أو الافرنجي أو غيرهما من أي أمة كانت وتوالد فيها عد نسله عربيا (*)

وظل العرب في أيام بني أمية على بداوتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم (٤) وظل كثير من عادات الجاهلية شائعا في أيامهم ، كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الاشعار في الاندية العامة ، فكان أشراف أهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون ويتذاكرون أيام الناس . وكان خارج البصرة بقعة يقال لها المربد ، يجتمع اليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون (٥) كما كانوا يفعلون في عكاظ . وكان في المربد حلقات للعلماء أو الشعراء يجتمع عليهم الطلبة أو المريدون ، في جملتها حلقة كانت لراعي

(١) ابن الاثير ٤٤ و ١٣١ ج ٥ (٢) الاغاني ١٢٥ ج ٤ (٣) المقريزي ٩٤ ج ١

(*) كان ذلك في الدولة العثمانية ، فقد كان الاتراك يعتبرون أنفسهم سادة أهل البلاد التي يحكمونها ، وكانوا يسمون من سواهم من سكانها عربا وأولاد عرب ماداموا مسلمين لا ينتسبون الى أصل تركي

(٤) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٥) الاغاني ١٥٣ ج ١٩

الابل (*) والفرزدق وجلسائهما بأعلى المربد (١) وقس على ذلك ما كان يقع هناك من المفاخرة والمناضلة ، كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه فى أيام هذه الدولة، وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا فى ممالك الارض

العصبية الوطنية فى عصر الأمويين

لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة وطنية يجتمعون بها أو يدافعون عنها ، لانهم كانوا لا يستقرون فى وطن ، لتغلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالغزو والرحلة . فلما اسلموا وفتحوا البلاد ومصروا الامصار وابتنوا المدن وأقاموا فيها ، تحضروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن والدفاع عنها والتعصب لها ، وهى ما عبرنا عنه بالعصبية الوطنية

تحضر العرب بعد الفتح

وقد تدرج العرب الى الحضارة تدريجا ، ولم يكن ذلك مقصودا فى بادىء الرأى وانما سيقوا اليه بطبيعة العمران ، لانهم كانوا فى صدر الاسلام لايزالون على بداوتهم ، واذا ساروا للفتح ساقوا معهم أولادهم ونساءهم وابلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون فى أيام جاهليتهم،واذا فتحوا بلدا نصبوا خيامهم فى ضواحيه والتمسوا المراعى لابلهم وخيلهم . وقد نهاهم عمر عن الزرع ، فكأنه نهاهم عن التحضر رغبة منه فى استبقائهم جندا محاربا ، لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء ، ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون فى معسكراتهم بضواحى المدن كما تقيم جيوش الاحتلال فى هذه الايام ، وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية أو الرابطة . فكان المسلمون فى عصر الراشدين فرقا تقيم كل فرقة فى ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جندا . وكانت عساكر الشام أربعة أجناد ، تقيم فى ضواحى دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلى جزيرة العرب ، فى معسكرين صارا بعدئذ مدينتين هما : البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم فى معسكر على ضفاف النيل

(*) راعى الابل هو ابو جندل عبيد النمرى القيسى المعروف بالراعى او راعى الابل ، وهو من شعراء النقائض ومن طبقة جرير والفرزدق والاخطل

انظر عنه : احمد الشايب : تاريخ النقائض فى الشعر العربى ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٢١ وما يليها

(١) الاغانى ١٦٩ ج ٢٠

فى سفح المقطم مما يلى بلاد العرب ، حيث بنيت الفسطاط بعد ذلك (*)

وكان العرب (أو المسلمون) يقيمون فى تلك المعسكرات بأولادهم ونسائهم ، لا يختلطون بأهل القرى ، حتى اذا جاء الربيع يسرحون خيولهم للمرعى فى القرى ، يسوقها الاتباع من الخدم أو العبيد ومعهم طوائف من السادات . فاذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا الى خيامهم ، وهم الى ذلك الحين أهل بداوة وغزو ، ومركز دولتهم فى المدينة وفيها مقر الخليفة واليها مرجع المسلمين عند الحاجة

فلما طال مقامهم فى تلك المعسكرات ، وافضت الخلافة الى بنى أمية ورغبوا فى الشام عن الحجاز ، هان على المسلمين اغفال أمر المدينة وسائر الحجاز ، وطاب لهم المقام فى الشام وسائر الامصار ، واغفلوا وصية عمر فاقتنوا الارض والضياع وغرسوا المغارس ، فتحولت تلك المعسكرات بتوالى الاجيال الى مدن عامرة ، أشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان من المدن التى بناها المسلمون ، غير المدن القديمة التى استوطنوها فى الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياع ، وابتنوا المنازل والقصور ، واشتغلوا بالزرع وتعلموا أشغال أهل المدن من تجارة وصناعة

تدرجوا الى ذلك فى أعوام متطاولة ، لاستغنائهم عن الريع لمعاشهم (**) لانهم كانوا فى صدر الاسلام شركاء فيما يرد على بيت المال من الفىء أو الغنائم من العراق وغيره من البلاد المفتوحة ، ولكل مسلم الحق فى ذلك الفىء حيثما كان مقامه . فأهل المدينة مثلا يتمتعون بفىء العراق ، وكذلك أهل الشام .

(*) الجند فى المصطلح العام هم العسكر ، اما فى مصطلح الدولة الاسلامية خلال عصر الراشدين والامويين فيراد بهم الجند العربى المدون فى الديوان ، الذى يفرض لرجاله العطاء (المرتبات) والارزاق (ما كان يعطى للجند علاوة على مرتبه من الزيت والقمح والعسل والنسيج) . أما فى المصطلح الادارى فالجند هو الاقليم العسكرى الذى تقوم بحراسته وتقيم فيه حامية عربية . وأول ناحية قسمت الى أجناد — اى ولايات عسكرية — هى الشام ، اذ قسم الى أربعة أجناد كما ذكر المؤلف . وقد اعتبرت البصرة والكوفة اول الامر جندين ، واعتبرت مصر جندا ، ثم تحولت البصرة والكوفة الى كورتين ، وقسمت مصر كورا ، ولم يعد العراق ومصر جندين ، أو ولايتين عسكريتين . أما الشام فقد ظل مقسما الى أجناد ، لان الدولة الاموية اعتبرت الشام كله اقليما عسكريا ، ومن الشام انتقل نظام الاجناد الى الاندلس ، فأنشئت فيه ست ولايات عسكرية عرفت بالاجناد . وفى غير الشام والاندلس لم يستمر نظام الاجناد ، بل حولت أراضى الدولة الاسلامية كلها الى كور ، أى الى أقسام زراعية مالية . وكانت الاجناد تخضع لنظام ادارى مالى خاص ، فكان قائد الجند يعتبر حاكم الاقليم فى حين ان الخلافة كانت تقيم على الولايات الاخرى عاملا مدنيا وقائدا للعسكر ، وقد يجمع الامران للعامل اذا كان من العسكريين . وبينما كانت الولايات تؤدى خراجا عن الارض كانت الاجناد تؤدى العشر فقط ، لان الذين كانوا يجمعون الضرائب ويؤدونها الى الدولة كانوا قواد الاجناد ، وهم عرب والعرب لا يدفعون الا العشر على اعتبار أنه صدقة لا خراج . وكان المزارعون يؤدون الخراج الى قائد الجند ، فيؤدى منه العشر ويستفضل الباقى ليوزعه على جنده . وقد اخذ العرب نظام الاجناد عن الروم ، فان البيزنطيين كانوا قد قسموا دولتهم ابتداء من ايام هرقل الى اقسام عسكرية يسمى واحدها تيما Thema وجمعها Themata وقد عربه العرب الى بند وبنود فيما يتصل بأقسام الدولة البيزنطية

(**) المراد بالريع هنا الاعطيات ونصيب كل جندى من الفىء اذا كان ممن يستحقونه

فلما بدأوا بالاستيطان فى أواخر عصر الراشدين ، وأراد أهل كل مصر أن يستقلوا بمصرهم ، كان ذلك مجحفا بأهل المدينة ، لان معاشهم من فىء البلاد المفتوحة ، فشكوا ذلك الى الخليفة اذ ذاك عثمان بن عفان ، وطالبوه بفيئهم من الارض بالعراق ، فاستبدله لهم من أهل العراق بأرض كانت لهؤلاء فى الحجاز أو اليمن أو غيرهما من بلاد العرب (١)

تعصب المدن الاسلامية بعضها على بعض

ومما زاد المسلمين ايغالا فى العصبية الوطنية انقسام الاحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن . وأول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذى وقع بين الشام والكوفة فى أيام عثمان بن عفان (٢) ثم حدث الانقسام الوطنى السياسى بعد مقتله ، وكان أساسه الميل الى أحد طلاب الخلافة يومئذ ،وهم على ومعاوية وطلحة والزبير ، فكان أهل الشام مع معاوية لانه أميرهم ومعظمهم من قريش ، وكان أهل المدينة مع على وهم الانصار وتبعتهم مصر ، وكان أهل الكوفة مع الزبير ، وأهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز أهل العراق الى على فضلا عن أهل المدينة ومصر ، وظل أهل الشام مع معاوية . ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧ هـ وغلب عمرو بن العاص بمكره ، بويع معاوية وتركت مصر لعمرو ابن العاص عندما صارت مصر فى حوزة معاوية . ولما قتل على سنة ٤٠ هـ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد ، استعان الحسين بأهل العراق وانتقل اليهم ، فبايع أهل الحجاز لابن الزبير . فأصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية.(*)

وقس على ذلك انحياز تلك البلاد الى الخلفاء باختلاف الاحوال ، فأصبح لكل بلد بتوالى الاعوام استقلال خاص وعوائد خاصة تميزه عن سواه ، على أنها كانت تمتاز بعضها عن بعض فى ذلك من أيام معاوية ، فقد سأل معاوية ابن الكواء عن أهل الامصار فقال : « أهل المدينة أحرص الامة على الشر وأعجزهم عنه ، وأهل الكوفة يردون جميعا ويصدرون شتى ، وأهل مصر أوفى الناس بشر وأسرعهم الى ندامة ، وأهل الشام أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم » (**)

---

(١) ابن الاثير ٥٢ ج ٣ وياقوت ٧٨٣ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٦٥ ج ٣

(*) وبعد مقتل الحسين بن على اختلف امر أهل العراق ، حتى بعث عبد الله بن الزبير اخاه مصعبا فحاز العراق له ، وبذلك اصبح العراق مع الحجاز لابن الزبير ، ثم انضمت اليه مصر بعد ذلك

(**) يلاحظ فى عبارة ابن الكواء تعصب ظاهر لاهل الشام ، وهذا طبيعى من رجل يحدث معاوية بن أبى سفيان زعيم أهل الشام اذ ذاك

وكان لاهل كل بلد غرض خاص فى السياسة عبرنا عنه بالعصبية الوطنية، وهى غير عصبية النسب ، اذ قد يجتمع أهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرفون بجامعة واحدة ، كأهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط ، وهم أخلاط من قبائل شتى . فكان لكل بلد فى عصر بنى أمية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسبا وعصبية ، وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعة وغيرها ، يقيم كل منها فى حى خاص بها يعرف باسمها ، فكانت البصرة مثلا مؤلفة من خمسة أقسام تعرف بالاخماس ، كل خمس لقبيلة ، وهى الازد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية . والمراد بأهل العالية بطون قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة (١) وقس على ذلك سائر البلاد

فاذا تحارب بلدان وقفت كل قبيلة من أهل البلد الواحد أمام مايقابلها من قبيلتها فى البلد الآخر . ففى واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة ، فلما انتشب القتال تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ،ونزلت قبائل مضر الى مضر ، وربيعة الى ربيعة . وكذلك فى واقعة صفين ، وهى بين أهل الشام وقائدهم معاوية ، وأهل العراق وقائدهم على . فلما التحم القتال سأل على عن أهل الشام فعرف مواقفهم ، فأخذ يستحث من معه من القبائل على اخوانهم فى معسكر عدوه ، فقال للأزد : «اكفونا الازد » ،وقال لخثعم : « اكفونا خثعم » ، وأمر كل قبيلة معه ان تكفيه اختها فى عسكر الشام . الا أن تكون قبيلة ليس لها بالشام أحد فيصرفها الى قبيلة أخرى فى الشام ليس بالعراق منها أحد (٢) — فتأمل كيف غلبت الجامعة الوطنية على جامعة النسب ، وانما غلبت لان الاحوال اقتضتها فرأى الناس فيها ما يسد مطامعهم (*)

---

(١) ابن الاثير ٣٤ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٢١ و ١٤٩ و ١٧١ ج ٣

(*) الاصوب ان تسمى النزعة التى يتحدث عنها المؤلف نزعة محلية لا وطنية ، فان عرب البصرة مثلا لم يكن يحركهم شعور « وطنى » وكذلك كان حال عرب الكوفة وعرب مصر وغيرهم . وقد كان كل فريق من العرب نزل قطرا من الاقطار قد أحب أن ينفرد بخيراته ويذود غيره من العرب عنه ، ويصور لنا هذا الشعور قول احد شيوخ عرب مصر عندما رأى القمح يحمل من مصر الى المدينة : « مالنا يحمل من بلادنا ؟ » ثم اخذ بخطام البعير وحال دون سير القافلة . كان العرب خلال هذا العصر الاول لا يتحمسون «للوطن» العراقى أو الوطن المصرى ، بل لما اكتسبوه من حقوق فى كل من القطرين . حتى النزاع بين الشام والعراق الذى ملأ العصر الاموى كله لم يكن نزاعا وطنيا ، بل محليا قبليا . بل اننا لا نستطيع أن نسمى حركات الانفصال التى قام بها عبد الرحمن الداخل فى الاندلس وابن طولون فى مصر حركات وطنية او قومية ، وانما هى نزعات محلية دفع اليها انانية الحكام ورغبتهم فى الانفراد بأقطارهم وخيراتها دون ان يشارك أهل البلاد الحقيقيون فى ذلك ، فان ابن طولون والاخشيد مثلا لم يتزعما حركتين مصريتين ، بل كان المصريون فى واد وهما فى واد . وادق تسمية للحركات التى ظهرت فى صدر الاسلام انها كانت نزعات محلية عصبية ، والتى ظهرت ابتداء من النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى انها كانت حركات انفصالية . أما الحركات القومية فلم تظهر الا فى القرن السادس عشر الميلادى ، عقب استيلاء الاتراك العثمانيين على البلاد الاسلامية واعتزازهم بتركيتهم او عثمانيتهم . فبدأ شعور العروبة يتحرك فى نفوس العرب من سكان الدولة الاسلامية ، بدأ فى صورة رد فعل لنزعة الاتراك العثمانيين ، ويمكن ان نصف هذه الحركة بأنها كانت قومية ، أى ان أقوام العرب تحركت للذياد عن عروبتها ، كما تحركت اقوام ايران للدفاع عن ايرانيتها ضد العثمانيين . وفيما يتصل بالحركات الوطنية فى العالم الاسلامى لا يمكن ان يقال انها بدأت قبل القرن التاسع عشر

على أن أهل البلد الواحد كانوا يختلفون عددا ونسبا باختلاف عصبية الامير أو الخليفة ، كما تقدم فى كلامنا عن عصبية النسب . ويختلف غرض البلد الواحد باختلاف تلك الاحوال مما لا ضابط له ، فتنشب الحروب بين البلدين كما تنشب بين القبيلتين . ومن أشهر حوادث الخلاف بين البلاد فى صدر الاسلام خلاف أهل الكوفة والبصرة ومفاخرتهما . ففى أيام على والخوارج كانت البصرة عثمانية ، والكوفة علوية ، والشام أموية ، والجزيرة خارجية ، والحجاز سنية (١) وتقلبت هذه الاحوال كثيرا ، واختلفت باختلاف الدول والعصور . فحدث بتوالى التقلبات السياسية تعدد الجامعات : أولها الجامعة العصبية أو جامعة النسب بين مضر واليمن ، والثانية جامعة الوطن بين العراق ومصر والشام ، والثالثة جامعة المذهب بين الفرق الاسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة ، وربما اجتمعت كل هذه الفرق فى رجلين (٢)

ومما ساعد على نشوء الجامعة الوطنية أن أهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين ويفاخرون المسلمين بهما ، لان الاسلام لا يستغنى عنهما وفيهما شيعة على ولاسيما المدينة . فكان الامويون — مع عداوتهم للعلويين — لايرون بدا من زيارة الحرمين ورعاية أهلهما ، فيقف ذلك حجرعثرةفى سبيل سلطانهم، وخصوصا بعد أن احتمى ابن الزبير بالكعبة وأخرج بنى أمية وأحزابهم من الحجاز ، فلم يستطع الامويون التغلب عليه الا بضرب الكعبة بالمنجنيق . ولهذا السبب خطر للأمويين أن ينقلوا منبر النبى من المدينة الى الشام ، ليجمعوا عندهم الدين والسياسة . ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء فى واسط لمثل هذه الغاية ، كما بنى المنصور فى بغداد بعد ذلك قبة خضراء على مسجدبغداد تصغيرا للكعبة (٣) والغرض من ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير أمر العلويين ، فلم يجدهم ذلك نفعا

اصطناع الاحزاب فى عصر الامويين

سياسة معاوية

ومما احتاج اليه بنو أمية فى سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الاحزاب ، كما فعل معاوية بن أبى سفيان فى اكتساب نصرة عمرو ابن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة ، اكتسبهم بالدهاء والعطاء ، ثم صار بعد ذلك قاعدة سار عليها بنو أمية فى تثبيت دعائم ملكهم ، والعلويون أبناء بنت النبى وأحفادها ينازعونهم عليه . على أنه لم يقم فى بنى أمية رجل مثل معاوية فى الدهاء والتعقل ، مما يعبر عنه أهل هذا الزمان بالسياسة .

---

(١) العقد الفريد ٢٧٧ ج ٣ (٢) ابن خلكان ١٠٠ ج ٢ (٣) المسعودى ١٦٦ ج ٢

واذا قسنا اعمال هذا الرجل بأعمال اعاظم رجال السياسة من أهل هـذا العصر وغيره ، لرايناه يفوق اكثرهم تعقلا وحكمة ودهاء ، وخصوصا اذا اعتبرنا موقفه بازاء طلاب الخلافة من أهل بيت النبى (صلعم) وأبناء عمه وابناء بنته ، والمسلمون يعتقدون حقهم فيها وأن معاوية طليـق لا تحل له الخلافة (١) وانه لم يعتنق الاسلام الا مكرها ، ومع هذا غلب عليهم جميعا فقبض على ازمة الملك وجعله ارثا فى نسله ، ولم يسفك فى سبيل ذلك دما كثيرا ، وانما كانت عمدته سعة الصدر والدهاء وبذل الاموال

أما سعة الصدر فانه كان يغضى عن مطاعن أهل البيت عليه ، ولو فعلوا ذلك بين يديه ، وبدلا من أن ينتقم منهم كان يبذل لهم الاموال ويقربهم . فربما دخل عليه الرجل منهم وهو فى مجلسه وبين أمرائه ، فيطعن فيه ويعرض باختلاسه الملك ويفضل عليا عليه ، فيلين له الجواب ويهبه الاموال فينقلب معه ولو كان من أقرباء على . ذكروا أن عقيلا أخا على بن أبى طالب وفد على معاوية وعلى لا يزال حيا ، فرحب به معاوية وسر بوروده لاختياره اياه على اخيه ، واوسعه حلما واحتمالا ، فقال له معاوية : « كيف تركت عليا ؟ » فقال: « تركته على ما يحب‌الله ورسوله ، والفيتك على ما يكره الله ورسوله » فقال معاوية : « لولا انك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جوابا تألم منه » . ثم احب معاوية أن يقطع الحديث مخافة ان يأتى بشىء يسوءه ، فوثب من مجلسه وامر له ان ينزل وأوصل اليه مالا عظيما . فلما كان من غد جلس معاوية وبعث الى عقيل وقال له : « كيف تركت عليا أخاك ؟ » . قال : « تركته خيرا لنفسه منك ، وانت خير لى منه » (٢)

واخبار معاوية مع صعصعة بن صوحان العبدى ، وغيره من رجال على ومريديه كثيرة ، تدل على سعة صدر وحلم . فان لم يكفه الحلم عمد الى المخادعة أو البذل ، فلا يلتقى به واحد ممن يخاف بطشهم الا رجع راضيا . وقد يأتيه‌الرجل مستجديا وهو يتعمد خداعه ، فينخدع له ويطاوعه ويجيزه. ذكروا ان ابن الزبير ــ قبل قيامه بالدعوة لنفسه ــ هرب من عبد الرحمن ابن أم الحكم الى معاوية ، وقد أحرق عبد الرحمن داره بالكوفة ، فجاء معاوية متظلما وقال له : « ان عبد الرحمن أحرق دارى » فقال معاوية : « وكم تساوى دارك ؟ » قال : « ١٠٠,٠٠٠ » ، فطلب منه شاهدا فأتاه بشاهد من اصدقائه ، فأمر له معاوية بالمال . فلما انصرف الرجلان قال معاوية لجلسائه: « أى الشيخين عندكم أكذب ؟ والله انى لاعرف داره ، وما هى الا خصائص قصب ، لكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فننخدع » (٣) وكان ذلك وأمثاله

---

(١) المسعودى ١٢ ج ٢ (٢) المسعودى ٥٤ ج ٢ (٣) الاغانى ٤٨ ج ١٣

مما أسكت ابن الزبير وغيره عن القيام لطلب الخلافة فى أيامه

فأين هذا من تدقيق على فى محاسبة عماله ، حتى أغضب أكثرهم وخسر نصرتهم ، وفى جملتهم ابن عمه عبد الله بن عباس بعد أن كان اكبر نصير له ، فأغضبه من أجل وشاية لا طائل تحتها كما تقدم ؟ على حين أن معاوية كان يهب لعماله الولايات طعمة لهم ، واذا وفد أحـــدهم عليه بالغ فى اكرامه والترحيب به ، فكان معاوية بن حديج اذا قدم على معاوية فى الشام زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيما لشأنه (١)

وكان معاوية يحتمل الطعن والنقد على الخصوص من رؤساء القبائل وأهل البيوتات وزعماء الاحزاب ولو أطلقوا ألسنتهم عليـــه . فالاحنف بن قيس التميمى ، أحد السادة التابعين وأهل النفوذ ، كان على رأى على وقد نصره فى واقعة صفين . فاتفق انه وفد على معاوية بعد ان استقر له الامر بالخلافة فلما دخل عليه قال له معاوية : « والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين الا كانت حزازة فى قلبى الى يوم القيامة » ، فقال له الاحنف : « والله يا معاوية ان القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا ، وان السيوف التى قاتلناك بها لفى اغمادها ، وان تدن من الحرب فترا ندن منها شبرا ، وان تمش اليها نهرول لها » ثم قام وخرج ولم يكلمه معاوية . وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين من هذا الذى يهدد ويتوعد ؟ » . قال : « هذا الذى اذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب » (٢)

على أن معاوية كان اذا خاف عدوا لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيـــع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسم ، كما فعل بعبد الرحمن بن خالد ابن الوليد ، وكان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا اليه بما عندهم من آثار أبيه ، ولغنائه فى بلاد الروم وشدة بأسه ، فخافه معاوية فأمر ابن الاثال الطبيب أن يحتال فى قتله ، وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص . فدس ابن الاثال اليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها ومات (٣) ونجا معـــاوية منه . وفعـــل نحو ذلك بالاشتر النخعى مالك بن الحارث ، وكان من أشد رجال على بطشا أو هو أشـــدهم جميعا ، وقد أبلى معه فى صفين بلاء حسنا . فلما اضطربت أحوال مصر بدسائس معاوية ، وكانت لا تزال فى حوزة على ، بعث الاشتر واليا عليها ، فعلم معاوية انه ان وليها امتنعت عليه ، فبعث الى المقدم على أهل الخراج فى القلزم — وهى فى طريق الاشتر لابد من مروره بها عند قدومه الى مصر —

---

(١) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٣ (٢) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ (٣) ابن الاثير ٢٢٩ ج ٣

وقال له : « ان الاشتر قد ولى مصر ، فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا مابقيت وبقيت » . فخرج حتى أتى القلزم وأقام به ، فلما جاء الاشتر استبقاه ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده ، فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه اياها ، فلما شربها مات . واخذ معاوية يقول لاهل الشام : « ان عليا قد وجه الاشتر الى مصر فادعوا الله عليه » فكانوا يدعون عليه كل يوم ، وأقبل الذى سقاه الى معاوية فأخبره بمهلك الاشتر ، فقام معاوية خطيبا وقال : « اما بعد فانه كان لعلى يمينان فقطعت احداهما بصفين (يعنى عمار بن ياسر) وقطعت الاخرى اليوم (يعنى الاشتر) »(١) فلما بلغ خبر الاشتر الى عمرو بن العاص قال : « ان لله جنودا من العسل » (٢)

عمرو بن العاص

فكان معاوية واصحابه لا يضيعون فرصة ، ولايبالون فى انفاذ أغراضهم مايرتكبون من القتل أو نحوه . أما على وأصحابه فكانوا لا يحيدون عن مناهج الدين ومقتضى الاريحية ، وكانت أريحيتهم هذه مساعدا كبيرا لفوز معاوية عليهم . ففى واقعة صفين كانت كفة النصر راجحة لعلى ، ولو تم له ذلك لقضى على معاوية واغراضه ، وذهبت مساعيه أدراج الرياح ، ولذهب أمر بنى أمية بذهابه واستتب الامر لعلى وأهل بيته . وانما منع من فوز على دهاء عمرو بن العاص ، لان معاوية لما احتدمت المعركة ، ورأى الضعف فى عسكره وايقن الخذلان ، لجأ الى عمرو بن العاص وكان محاربا معه وقال له : « هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا ، وتذكر ولاية مصر » . فأشار عليه عمرو يومئذ برفع المصاحف وأن ينادوا : « كتاب الله بيننا وبينكم ! من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم والترك ومن للكفار ؟ » فخدع رجال على بهذه الحيلة وأوقفوا القتال ، ثم اتفقوا على التحكيم وبه أتم ابن العاص حيلته ، فخلع عليا وبايع معاوية . فلولا عمرو بن العاص لفشل معاوية وذهب أمره ، ولولا أريحية أبداها على فى تلك المعركة لقتل عمرو قبل تدبير تلك الحيلة ، وذلك أن عمروا كان قد برز للنزال ، فبرز له على فلما التقيا عرفه على ، فشال السيف ليضربه ويتخلص منه ، فلما أيقن عمرو بالموت كشف عن عورته وقال : «مكره أخوك لا بطل » ، فثارت الاريحية فى نفس على فحول وجهه عنه وقال : « قبحت ! » ونجا عمرو بتلك الحيلة (٣) وذهب عمل عمرو هذا مثلا وفيه يقول الشاعر :

---

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ٢ (٢) القريزى ٣٠٠ ج ١ (٣) المسعودى ١٩ ج ٢

ولا خير فى صون الحياة بذلة   كما صانها يوما بذلته عمرو (*)

وكذلك كان أصحاب على من حيث الاريحية والتقوى وصدق اللهجة ، تلك كانت طبيعة الاسلام والمسلمين فى ذلك العصر الذهبى ، الا من طمع فى الدنيا وانحاز الى معاوية . وكانت هذه المناقب فى على على أقوى احوالها ، ولو تساهل فيها أو أغضى عن شيء منها لنجا من شرور كثيرة ، ولذلك قالت قريش : « ان ابن أبى طالب رجل شجاع ولكنه لا رأى له فى الحرب » (١)

فبالدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ، ثم صارت فى بنى مروان من أمية ، ولكنه لم يستطع قطع شأفة القاومين من طلاب الخلافة ، وهم كثيرون أهمهم اولاد على . على أنه كان يسكتهم بالمسالمة والبذل ، وكانوا يهابونه ويسكنون الى سياسته ويتوقعون من الجهة الاخرى رجوع الخلافة اليهم بعد موته

فلما رأوه نقلها الى ابنه يزيد ، ثار المطالبون بالخلافة فى الحجاز والعراق وغيرهما ، وكل منهم يزعم أنه صاحب الحق فيها . فاجتمع سنة ٦٨هـ أربعة ألوية فى عرفات ، كل منها لزعيم يطلب الخلافة لنفسه ، أحدها لبنى أمية ، والآخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية ، والثالث لعبد الله بن الزبير ، والرابع لنجدة الحرورى من الخوارج . ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك الا بنو أمية ، للعصبية العربية واصطناع الاحزاب . واليك الاسباب التى ساعدتهم على اصطناع الاحزاب ، غير ما تقدم ذكره من دهاء معاوية وضعف رأى على فى السياسة

بذل المال فى عصر الامويين

العطاء من بيت المال

العطاء من أكبر العوامل التى ساعدت بنى أمية فى اصطناع الرجال وكسر شوكة أعدائهم ، لان العطاء رواتب الجند أو رواتب المسلمين ، وكانوا فى صدر الاسلام كلهم جندا ، ولكل منهم راتب يختلف باختلاف نسبه من النبى ، أو سابقته فى الاسلام ، أو غير ذلك مما تراه مفصلا فى كلامنا عن الديوان فى أيام عمر (٢) وترى الرواتب فيه للمسلمين على اختلاف طبقاتهم

(*) ويروى ايضا :

ولا خير فى دفع الردى بمذلة   كما رده يوما بسوأته عمرو

وواضح أن القصة كلها مخترعة ، وكذلك معظم ما يرد فى الكتب من الحكايات عن هذه الفترة

(١) الاغانى ١٥ ج ١٥   (٢) الجزء الاول من هذا الكتاب

حتى النساء والاولاد . وأصل هذا العطاء من أموال الفيء ، وهناك طبقة اخرى من المسلمين الذين لا يستطيعون الحرب ، فهم من الفقراء ويأخذون اعطيتهم من اموال الصدقة وهى الزكاة ، ولكل من الصدقة والفيء ديوان خاص وحساب خاص

فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين ، فيجدر بهم أن يتقربوا منه أو يتزلفوا اليه . فاذا قبض عليه رجل حكيم مثل معاوية يعرف كيف يعطى ولمن يعطى ، أغناه ذلك عما سواه . فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه او يقطعه على حسب الاقتضاء ، والغالب ان يبذل الاموال ويضاعف الاعطية حيث يتوسم نفعا ، وأخوف ما كان يخافه فى خلافته قيام العلويين أو غيرهم من أهل بيت النبى ينازعونه الخلافة ، فبذل لهم العطاء بسخاء . فبعد أن كان عطاء الحسن والحسين بحسب ديوان عمر ٥٠٠٠ درهم فى السنة جعلها معاوية مليون درهم ، أى انه ضاعفها ٢٠٠ مرة ، وأعطى مثل هذا المبلغ أيضا الى عبد الله بن عباس لانه ابن عم النبى ويخشى منه . وكذلك عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وغيرهم من كبار أبناء الصحابة أهل النفوذ فى الاسلام ممن يقيمون فى المدينة . فكان من جهة يتألفهم بالاموال ويشغلهم بالرخاء عن النهوض للمطالبة ، ومن جهة أخرى يتألف بهم أهل المدينة لانهم كانوا ينفقون تلك الاموال فى أهلها للتمتع بملاذ الحياة ، ومنهم من كان ينفق عطاءه على المغنين والشعراء . وأكثرهم سخاء وبذلا من هذا القبيل عبد الله ابن جعفر ، وهو ابن عم الحسن والحسين ، فانه كان يفد على معاوية فى الشام فيدفع اليه عطاءه فيعود الى المدينة فيفرقه فى أهلها . وكان معاوية يعلم ذلك فيقربه ويحسن اليه ليستألف أهل المدينة به

ويقال انه قدم على يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة ، فقال له يزيد: «كم كان عطاؤك ؟ » فقال : « ألف ألف درهم » ، قال : « قد أضعفناها لك » ، قال: « فداك أبى وأمى ، ما قلتها لاحد قبلك » ، قال: « قد أضعفناها لك ثانية » فقيل ليزيد : « اتعطى رجلا واحدا ٤٠٠٠٠٠٠ درهم ؟ » فقال : « ويحكم انى أعطيتها اهل المدينة اجمعين ، فما يده فيها الا عارية » (١)

وقس على ذلك بذل معاوية فى تألف القبائل ، فقد كان يفرض للقبائل التى تحارب معه ، ولو بعدت عن نسبه كاليمن مثلا ، فانه كان يتألفها بالاموال خوفا من بطشها . وكان يفرض لها ولا يفرض لقيس وهى أقرب اليه ، لانه لم يكن يخاف بأسها ، حتى ان أحد رجالها كان يأتى معاوية يطلب منه أن يفرض له فيأبى ، كما فعل بمسكين الدارمى ، فانه طلب من معاوية أن يفرض

---

(١) العقد الفريد ١١٠ ج ١

له فأبى ، فقال شعرا يعاتبه فيه ويذكره بما بينهما من النسب ، ومن ذلك قوله :

أخاك أخاك ان من لا أخا له ... كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء – فاعلم – جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح ؟
وما طالب الحاجات الا مغرر ... وما نال شيئا طالب كنجاح

فلم يعبأ به لانه انما كان ينظر الى مصلحة نفسه . فاعتزت اليمن واشتد بأسها واستطالت على الدولة ، وتضعضعت قيس وسائر عدنان . فبلغ معاوية أن رجلا من اليمن قال يوما : « لهممت أن لا أدع بالشام أحدا من مضر ، بل هممت ان لا احل حبوتى حتى اخرج كل نزارى بالشام » فخاف معاوية بأس اليمنية ، ورأى أن يضربهم بالمضرية ، ففرض من وقته لاربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان ، وبعث الى مسكين يقول له : « لقد فرضنا لك وأنت فى بلدك ، فاذا شئت أن تقيم بها أو عندنا فافعل ، فان عطاءك سيأتيك » . وصار معاوية يغزى اليمن فى البحر وقيسا فى البر (١) ولولا دهاؤه وحسن أسلوبه لما استطاع التوفيق بينهما

ويقال نحو ذلك فى زيادة العطاء للذين شهدوا الوقائع الهامة ونصروا الامويين ، كواقعة صفين فان معاوية زاد عطاء اصحابها (٢) كما فعل عمر فيمن شهد القادسية . وسار خلفاء بنى أمية على خطوات معاوية ، فأعطوا أحزابهم حتى فرضوا الاعطية للشعراء ، التماسا لقطع السنتهم أو ليتقربوا الى قلوب الناس . وكان أهل التقوى يرون ذلك مجحفا بحقوق بيت المال ، ويعترضون على اعطاء الناس من مال الفيء فانه مال الله أو مال المسلمين . وكان ذلك من جملة ما غير أصحاب على على معاوية يوم صفين (٣) فلما تولى عمر بن عبد العزيز وسار على نهج الخلفاء الراشدين منع العطاء عن الشعراء ، فلما مات عادوا الى ماكانوا عليه

وكانوا يفرضون لاى من جاءهم ، ولو كان أعرابيا ، حتى كان أهل البادية كثيرا ما يبيعون ابلهم ويأوون الى المدن يطلبون الفرض لهم . ومع ذلك فأهل الانفة منهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من استعباد النفوس ، لغرض يعتقدون أنه ضد الحق ، وانه تأييد لدعوة القائمين على أهل البيت فتعافه نفوسهم . يحكى أن امرأة جيها الاشجعى من أهل البادية حرضت زوجها على الذهاب الى المدينة ليبيع ابله ويفترض فى العطاء ، فأطاعها وساق ابله حتى اذا دنا من المدينة شرعها بحوض ليسقيها ، فحنت ناقة منها ثم نزعت ، وتبعها الابل ،

---

(١) الاغانى ٦٩ ج ١٨ (٢) المسعودى ١٥٧ ج ٢ (٣) ابن الاثير ١٥٠ ج ٣

وطلبها ففاتته فقال لزوجته : « هذه الابل لا تعقل وتحن الى أوطانها » (*) ثم قال شعرا :

قالت انيسة : دع بلادك والتمس ... دارا بطيبة ربة الآطام
تكتب عيالك فى العطاء وتفترض ... وكذاك يفعل حازم الاقوام
فهممت ثم ذكرت ليل لقاحنا ... بذوى عنيزة أو بقف بشام
اذ هن عن حسبى مذاود كلما ... نزل الظلام بعصبة أغنام
ان المدينة لا مدينة فالزمى ... حقف الستاد وقبة الارحام
يجلب لك اللبن القريض وينتزع ... بالعيس عن يمن اليك وشام
وتجاورى النفر الذين ينبلهم ... أرمى العدو واذا نهضت مرام
الباذلين اذا طلبت بلادهم ... والمانعى ظهرى من الغرام (١)

ومن أقوال عبد الملك بن مروان : « أنعم الناس عيشا من له ما يكفيه ، وزوجة ترضيه ، ولا يعرف أبوابنا الخبيثة فنؤذيه » (٢)

وكان هم بنو امية أهل المدينة ، لانهم شيعة على وفيهم الانصار ونخبة القرشيين ، فكان عامل بنى أمية فيها اذا اجتمع اليه مال الصدقة من الاطراف اقرض من أراد من قريش منه ، وكتب بذلك صكا عليه فيستعبدهم به ويختلفون اليه ويدارونه . فاذا غضب على احد منهم استخرج المال منه ، وما زال هذا شأنهم الى أيام الرشيد ، فكلمه عبد الله بن مصعب فى صكوك بقيت من ذلك فحرقت (٣)

وكانوا اذا عصاهم أحد من المسلمين قطعوا عطاءه ، ولو كان العاصون بلدا برمتها ، كما فعل الوليد لما ثار عليه زيد بن على ، فقطع عطاء أهل الحرمين جميعا (٤) وحرم الوليد آل حزم من العطاء ، لان قتلة عثمان دخلوا اليه من دارهم فى المدينة ، وقبض أموالهم وضياعهم ، وظلوا كذلك الى أيام المنصورة فأفرج عنهم (٥) وكثيرا ما كان الانصار يمكثون بلا عطاء (٦) ولا ذنب لهم الا أنهم ينصرون أهل البيت . وقطع عبد الملك بن مروان أعطية آل سفيان ، مع أنهم أمويون مثله ، وانما فعل ذلك لموجدة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية (٧)

فلا غرو اذا اضطر الناس الى مسايرتهم والاذعان لهم ، وهم يعلمون أنهم

(*) الخبر هنا مختصر اختصارا شديدا ، وقد وجدته فى طبعة الساسى ج ١٦ ص ١٤١ ، ونصه : « حدثنى عمى عن سليمان بن عياش قال : قالت زوجة جبها الاشجعى له : لو هاجرت بنا الى المدينة وبعت ابلك وافترضت فى العطاء كان خيرا لك ، فقال : افعل . فأقبل بها وبابله حتى اذا كان بحرة واقم من شرقى المدينة شرعها بحوض واقم ليسقيها ، فحنت ناقة منها ثم نزعت ، وتبعتها الابل ، وطلبها ففاتته ، فقال لزوجته : « هذه ابل لا تعقل تحن الى أوطانها ، ونحن أحق بالحنين منها . أنت طالق ان لم ترجعى ، وفعل الله بك! » . وردها وقال .. »

(١) الاغانى ١٤١ ج ١٦ (٢) ابن الاثير ١٨٣ ج ١٠ (٣) الاغانى ١٠٥ ج ١٣
(٤) الاغانى ١١١ ج ٦ (٥) العقد الفريد ٤١ ج ٣ (٦) الاغانى ٦٢ ج ١٠
(٧) العقد الفريد ١٣٢ ج ١

يخالفون الحق باذعانهم ، وقد يصرحون بذلك فيما بينهم . كما حدث لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد ، فأقعده فى قبة حمراء واقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة ، ثم على ابنه يزيد بولاية العهد ، حتى جاء رجل منهم فسلم على الاثنين ، ثم رجع الى معاوية فقال : « يا أمير المؤمنين، أعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لاضعتها » . وكان الاحنف بن قيس التميمى حاضرا ، فقال له معاوية : « مابالك لا تقول يا أبا بحر ؟ » فقال : « أخاف الله اذا كذبت ، وأخافكم اذا صدقت » ، فقال معاوية : « جزاك الله على الطاعة خيرا » ، وأمر له بمال . فلما خرج لقيه ذلك الرجل فقال له : « يا أبا بحر ، انى لاعلم أن شر من خلق الله هذا وابنه ، ولكنهم استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال ، فليس يطمع فى استخراجها الا بما سمعت » (١)

تدقيق على وبخل ابن الزبير

ومما ساعد الامويين على اصطناع الرجال بالاموال ، أن مناظريهم أهل البيت وعبد الله بن الزبير كانوا قليلى العطاء ، اما عن امساك أو عن ورع ، حتى قالوا : « وما رؤى فى الناس أبخل من أهل البيت ، ولا من عبد الله بن الزبير » (٢) وكثيرا ما كان امساكهم سببا فى فشلهم وانحياز الناس الى بنى أمية ، فمن أمثلة ذلك أن مصقلة بن هبيرة الشيبانى كان عاملا لعلى على أزدشيرخره ، فرأى اسرى كان بعض رجال لعلى قد اسرهم ، فاشتراهم منه شفقة عليهم ، وهم ٥٠٠ انسان بخمسمائة الف ، وأطلق سراحهم . فطالبه على بالمال ، فأدى نحو النصف وطمع فى الباقى ، فألح عليه أصحاب على فقال مصقلة : « أما والله لو كان ابن هند (يعنى معاوية) ما طالبنى بها ، ولو كان ابن عفان لوهبها لى » ، فقالوا : « ان عليا لايترك شيئا » ، فهرب مصقلة من ليلته ولحق بمعاوية (٣)

ومن أمثلة بخل ابن الزبير الذى أفسد عليه الامر ، أن أخاه مصعبا لما قتل المختار بن أبى عبيد فى العراق ، وأخضع العراق لاخيه ، وقد ساعده على ذلك وجوه أهل العراق ، فجاء بهم حتى أتى أخاه فى مكة وكان لائذا بالكعبة وقال له : « يا أمير المؤمنين ، جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيرا لتعطيهم من هذا المال » فقال عبد الله : « جئتنى بعبيد أهل العراق لاعطيهم مال الله ؟ والله لا فعلت » . فلما علموا ذلك وسمعوا منه جفاء انصرفوا من عنده وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب (٤) وكان ذلك سببا فى ذهاب دولة ابن الزبير

(١) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ (٢) الاغانى ١٠٥ ج ١٣
(٣) ابن الاثير ١٨٨ ج ٣ (٤) العقد الفريد ١١٩ ج ١

وقس على ذلك بخل العلويين فى فرض العطاء ، الا لاهل التقوى أو من فى معناهم . على حين أن بنى امية كانوا يفرضون للرجل ولاهله وأولاده ، فقد فرض عبد الملك لعامر الشعبى (وما هو من رجال الحرب) ألفين فى العطاء ، وجعل عشرين من ولده وأهل بيته فى ألفين ألفين من أجل حديث حدثه اياه (١) وكانوا يفرضون للشعراء أعطية معينة يقبضونها فى أوقاتها غير الجوائز ، فمنهم من عطاؤه ألفان أو أكثر أو أقل . واذا مدحوهم زادوا اعطيتهم ترغيبا لهم فى مدحهم ، وكذلك كان يفعل عمالهم فى سائر أنحاء المملكة الاموية . وأهل التقى من الخلفاء لا يرون للشعراء حقا فى بيت المال (٢) فعمر بن عبد العزيز كان اذا احرجه شاعر ولم ير مناصا منه اعطاه من ماله الخاص (٣)

على ان غير الاتقياء منهم كانوا يقطعون عطاء الشاعر اذا حاد عما يريدونه ، كما فعل عبد الملك بن مروان بابن قيس الرقيات لما مدحه ، فقال له عبد الملك : « والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء » (٤) وكان عمر بن الخطاب يحرض القراء على التماس الرزق من عند أنفسهم والا يكونوا عالة على الناس (٥) فكيف بالشعراء !

الاستكثار من الاموال فى عصر الامويين

وبذل الاموال لاصطناع الاحزاب جر بنى أمية الى خرق كثير من القواعد التى وضعها الخلفاء الراشدون لاقتضاء الاموال وانفاقها . فقد كانت الاموال التى ترد على بيت المال تعد ملكا للمسلمين ، وليس الخليفة أو عامله الا حافظا لها ، لينفقها فى مصالحهم وتدبير شؤونهم ، وله منها راتب معين يتناوله مثل سائر المسلمين ، وقد رايت ان ابابكر توفى وليس فى بيت ماله غير دينار ، وان عمر كان اذا احتاج الى المال فوق راتبه استقرضه من بيت المال حتى يؤديه من عطائه . وكان عمر يرى أنه لا ينبغى أن يبقى فى بيت المال شيء ، ونهى عن اختزان المال ، وقد أشرنا الى غرابة هذا الرأى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب . ونهى عمر أيضا عن الزرع ، وحرم على المسلمين اقتناء الضياع ، لان أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع من بيت المال . أراد بذلك أن يبقوا جندا على أهبة الرحيل ، وان تبقى البلاد التى فتحوها فيئا يؤخذ من خراجها وجزية أهلها للانفاق على المسلمين . ووضعوا لكل من الخراج والجزية والصدقة احكاما لجمعها وتفريقها على مقتضى الشرع (٦)

---

(١) الاغانى ١٧١ ج ٩ (٢) الاغانى ٩٩ ج ١٠ (٣) الاغانى ١١٨ ج ١٧
(٤) الفرج بعد الشدة ١٢٣ ج ٢ والاغانى ١٥٩ ج ٤ (٥) العقد الفريد ٢٣٦ ج ١
(٦) الجزء الاول من هذا الكتاب

عمال بنى امية

فلما اضطر بنو أمية الى اصطناع الرجال وجمع الاحزاب واسترضاء القبائل وبناء المدن ، أغضوا عن كثير من تلك الاحكام ، وتوفقوا الى عمال أشداء لا يبالون بالدين ولا أحكامه فى سبيل أغراضهم ، مثل زياد بن أبيه عامل معاوية ، وعبيد الله بن زياد عامل ابنه يزيد ، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان ، وخالد القسرى عامل هشام بن عبد الملك وغيرهم . فكان الخلفاء يكتبون الى عمالهم بجمع الاموال وحشدها ، والعمال لا يبالون كيف يجمعونها . فقد كتب معاوية الى زياد يقول : « اصطف لى الصفراء والبيضاء » فكتب زياد الى عماله بذلك وأوصاهم أن يوافوه بالمال ولايقسموا بين المسلمين ذهبا ولا فضة (١) وكان العمال من الجهة الاخرى يختصون أنفسهم بجانب من تلك الاموال وليس ثمة من يحاسبهم ، وقد أطلق الخلفاء أيديهم فى الاعمال ترغيبا لهم فى البقاء على ولائهم ، فكان العمال يختزنون لانفسهم الاموال الطائلة ، حتى بلغت غلة أحدهم عشرة ملايين درهم فى السنة وزادت ثروته على مائة مليون درهم (٢) وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة ، ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة ، حتى كتب أمية بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان يقول : « ان خراج خراسان لا يفى بمطبخى » (٣) فلما رأى الخلفاء استئثار العمال بالاموال عمدوا الى مصادرتهم ، فكانوا اذا علموا بمال عند أحدهم أنفذوا اليه من يقبض امواله ويتولى العمل مكانه ، والكل طامعون فى الكسب لانفسهم

وكان العمال لا يرون حرجا فى ابتزاز الاموال من أهل البلاد التى فتحوها عنوة ، لاعتقادهم أنها فىء لهم كما تقدم . وكقول عامل بنى أمية فى العراق : « السواد بستان قريش ، ماشئنا أخذنا منه وماشئنا تركناه » . وقدسأل صاحب اخنا بمصر عمرو بن العاص أن يخبره بما عليه من الجزية فأجابه: « لو أعطيتنى من الارض الى السقف ما أخبرتك بما عليك ، انما أنتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم » (٤) ومن قال ذلك يعد مصر فتحت عنوة. وقال غيره : « الصغد بستان أمير المؤمنين »

الاسلام والجزية

فكان العمال يبذلون الجهد فى جمع الاموال باية وسيلة كانت ، ومصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور . وأهمها فى أول الاسلام

(١) العقد الفريد ١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٣٧ ج ٣
(٢) الاغانى ٦٢ ج ١٩ وابن خلكان ٣٦١ ج ٢
(٣) الاغانى ٥٦ ج١٣ (٤) المقريزى ٧٧ ج ١

الجزية لكثرة أهل الذمة ، فكان عمال بنى أمية يشددون فى تحصيلها ، فأخذ اهل الذمة يدخلون فى الاسلام ، فلم يكن ذلك لينجيهم منها ، لان العمال عدوا اسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبة فى الاسلام ، فطالبوهم بالجزية بعد اسلامهم . وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف (١) واقتدى به غيره من عمال بنى أمية فى افريقية وخراسان وما وراء النهر ، فارتد الناس عن الاسلام وهم يودون البقاء فيه ، وخصوصا أهل خراسان وما وراء النهر ، فانهم ظلوا الى أواخر أيام بنى أمية لا يمنعهم عن الاسلام الا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد اسلامهم ، فبعث اليهم رجلا اسمه أبو الصيداء فقال الرجل : « أخرج اليهم على شريطة ان من أسلم لاتؤخذ منه الجزية » فقال أشرس : « نعم » فشخص الى سمرقند ودعا أهلها الى الاسلام على أن توضع الجزية عنهم . فسارع الناس الى الاسلام وقل الخراج ، فكتب عاملها الى أشرس : « ان الخراج قد انكسر » ، فأجابه : « ان فى الخراج قوة للمسلمين ، وقد بلغنى أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة فى الاسلام ، وانما أسلموا تعوذا من الجزية ، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه » ففعل الناس ذلك وبنوا المساجد ، وكتب العمال بذلك الى أشرس فأجابهم : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » فأعادوا الجزية على من أسلم ، فامتنعوا واعتزلوا فى سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند ، وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الاسلام بسببها أهل الصغد وبخارا واستجاش الترك . ومازالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ ، فأعلن سنة ١٢١ هـ أنه وضع الجزية عمن أسلم ، وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين ، فلم يمض أسبوع حتى أتاه ٣٠،٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية (٢)

ناهيك بما كان يرتكبه بنو أمية من زيادة الخراج وضرب الضرائب (٣) والاستئثار بالفيء . ولم يقم من خلفائهم من نهى عن ذلك الا عمر بن عبد العزيز ، فانه لم ينفق من بيت المال درهما على نفسه ولا أخذ منه شيئا (٤) وأمر أهله بذلك فلم يلق سامعا . وهو الذى كتب الى عماله لما ولى الخلافة : « ضعوا الجزية عمن أسلم ، ان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » ولم تطل مدة حكمه (٥) وأراد يزيد بن الوليد ان يتشبه به فتبعه . وكان فى جملة ضرائبهم أن يأخذ الخليفة لنفسه نصف دية المعاهد ، فأبطلها عمر بن عبد العزيز (٦) .

---

(١) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن الاثير ٢٦١ ج ٤ و ٦٨ و ١١١ ج ٥
(٣) الجزء الثانى من هذا الكتاب (٤) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢
(٥) المقريزى ٧٨ ج ١ (٦) الاغانى ١٣ ج ١٥

واضطر الامويون للاستكثار من الاموال ان يمدوا ايديهم الى امـــوال الصدقة ، وهى الزكاة تؤخذ من أغنياء المسلمين وتنفق فى فقرائهم ، خلافا لسائر أموال الدولة كالفىء والغنيمة والجزية فانها تفرق فى المقاتلة والجند. فكان بنو امية كثيرا مايعطون جوائز الشعراء ونحوهم من أموال الصدقة (١) وحقها أن تعطى من مال الخليفة الخاص ، أو من مال الفىء ونحوه باعتبـار أن تلك الجائزة مما ينفع المسلمين فى تأييد دولتهم . أو لعل الخليفة اعتبـر الشعراء من فقراء المسلمين فأعطاهم من الصدقة ، وهو خلاف المألوف لانه انما أجازهم لانهم مدحوه فعليه أن يجيزهم من ماله الخاص . وكانوا أيضا كثيرا ما يعطون أرزاق المسلمين من مال الصدقة ، والمحاربون يستنكفون من ذلك ويعدونه حطة فى مقامهم ، كما اتفق لاهل المدينة وقد جاءهم الخليفة عبد الملك حاجا وأمر للناس بالعطاء ، فخرجت البدر مكتوب عليها «الصدقة» فأبى أهل المدينة قبولها ، وعدوا ذلك اهانة لهم تعمدها عبد الملك ، لان أهل المدينة من أنصار أهل البيت وقالوا : « انما عطاؤنا من الفىء » فضرب عبد الملك مثلا كشف لهم به عما بينه وبينهم من التضاغن من عهد مقتل عثمان ويوم الحرة

وكانوا كثيرا ما يعمدون اذا أعوزهم المال الى بيع الولايات بالرشـــوة ، وخصوصا فى أيام ضعفهم وفساد دولتهم . فان الوليد بن يزيد لما تولى الخلافة زاد أعطيات الناس ترغيبا لهم فى طاعته ، فلم يجد مالا يكفيه ، ولم يكن عنده من العمال الاشداء من يوافيه بالاموال حالا ، فكان من جملة ما استعان به على جمع الاموال أنه باع ولاية خراسان وأعمالها ليوسف بن عمر ، وصارت الولايات فى أيامه بالرشى للخليفة وأصحابه (٢) وكانت الولايات تعطى فى أيام أسلافه جزاء على خدمة ، كما أعطى معاوية عمرو بن العاص مصر مكافأة لنصرته على على ، فاقتدى به خلفاؤه . فكانوا اذا التمس أحدهم الاحزاب أطمع رؤساءها بالولايات ، وصار ذلك مشهورا حتى أصبح الامير اذا دعى لنصرة أحد الخلفاء اشترط مالا أو ولاية معينة . ومما يحكى أن عبد الملك بن مروان ، فى أثناء محاربته مصعب بن الزبير فى العراق ، بعث الى أهل الكوفة والبصرة يدعوهم الى نفسه ويمنيهم ، فأجابوه وشرطوا عليه شروطا وسألوه الولايات . ومن غريب الاتفاق أن أربعين رجلا منـهم سألوه ولاية أصبهان ، فقال عبد الملك لمن حضره : « ويحكم ! ما أصبهـان هذه ؟ » تعجبا ممن يطلبها (٣)

---

(١) الاغانى ١٥٦ ج ١١ (٢) ابن الاثير ١٢٥ و ١٢٦ و ١٣٢ ج ٥
(٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٧

الاستخفاف بالدين وأهله

لما طلب الامويون الخلافة لانفسهم ، وهم يعلمون أن أهل البيت أحق بها منهم ، وأن حجة اهل البيت فى طلبها مبنية على اساس صحيح ، كان أكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم ، ولكن العصبية كانت مع الامويين ، والقوة غالبة . أما الفقهاء وسائر أهل التقوى فكانوا لا ينفكون عند سنوح الفرصة عن تفضيل أهل البيت ، وتذكير الامويين بما يرتكبونه فى سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدى ، ويعظونهم ويذكرونهم بتقوى الله . وكان معاوية لحلمه ودهائه يغضى عن أقوالهم ، ويقطع ألسنتهم بالعطاء والمحاسنة والحلم . فتعودوا ذلك وبالغوا فيه ، حتى اذا أفضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان عمد الى الشدة والعنف ، فحج سنة ٧٥ هـ بعد مقتل ابن الزبير ، ولما جاء المدينة وفيها أنصار أهل البيت خطب فيها خطابا قال فيه :

« أما بعد فانى لست بالخليفة المستضعف (يعنى عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعنى معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يعنى يزيد) . ألا وانى لا أداوى هذه الامة الا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم . وانكم تحفظون أعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل أعمالهم . وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم . والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا الا ضربت عنقه » . فهو أول من نهى عن المعروف (١) فعظم ذلك على أعداء بنى أمية حتى تحسروا على أيام معاوية ، وقالوا قول ابن الزبير فيه لما جاءه نعيه : « رحم الله معاوية ، انا كنا لنخدعه فيتخادع لنا »

استهانة بعض الامويين بالمقدسات

أما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ، ولو خالف احكام الدين . وقد يتبادر الى الذهن أنه فعل ذلك اقتداء بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف ، ولا نظنه مقتديا بذلك لانه صرح باستهانة الدين منذ ولى الخلافة ، وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولاها استهوته الدنيا . ذكروا أنه لما جاءوه بخبر الخلافة كان قاعدا والمصحف فى حجره فأطبقه وقال : « هذا آخر العهد بك » أو « هذا فراق بينى وبينك » (٢) فلا غرو بعد ذلك اذا أباح لعامله الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق وان يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة (٣) والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا فى جوارها ، فأحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثا ، وهدموا الكعبة ، وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها (٤)

---

(١) ابن الاثير ١٩٠ و ٢٥١ ج ٤
(٢) ابو الفداء ٢٠٥ ج ١ وسراج الملوك ٩٦
(٣) العقد الفريد ٢٥٦ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٣٦ ج ٥

مما لم يحدث مثله فى الاسلام ، ودخلوا المدينة وهى احد الحرمين وقاتلوا أهلها وسفكوا دماءهم ، لم يغلق لها باب الا أحرق مافيه ، حتى أن الاقباط والانباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن وخلاخلهن من أرجلهن ، بسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت أرجلهن (١) (*)

ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين وأهل التقوى صبرا ، وانما أرادوا بذلك تحقير أمر على وشيعته تأييدا لسلطانهم . ولهذا السبب أيضا لعنوه على المنابر ، وأمروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه . وأول من قتل صبرا فى هذا السبيل حجر بن عدى الكندى فى أيام معاوية (٢) وظلوا يلعنون عليا على المنابر الى أيام عمر بن عبد العزيز فأبطل ذلك

الخلافة والنبوة فى رأى بعض العمال

وفق بنو أمية الى عمال أشداء زادوهم استبدادا وشدة ، بما توخوه

---

(١) ابن خلكان ٢٧٤ ج ٢

(*) يلاحظ ان معظم هذه الاخبار التى روتها كتب التاريخ ظاهر الاختلاق والوضع ، وضعها فى الغالب دعاة للاحزاب التى كانت تتصارع على السلطان ، ففى اثناء الصراع بين على ومعاوية كثرت الدعاية من الجانبين ، ومن هنا حفلت كتب التاريخ باخبار غريبة تؤيد عليا تارة ومعاوية تارة اخرى ، وكان الامويون امهر فى الدعاية واعرف بأساليبها ، وقد رأيناهم يغدقون على الشعراء ليمدحوهم ، وعلى رؤساء الناس ليؤيدوهم ، وعلى أهل العلم ليسكتوا عنهم ، ومن ناحية اخرى نلاحظ ظهور القصاص وان صنع القصص وروايتها فى المجتمعات أصبحت عملا يتخصص فيه بعض الناس ، وقد أصبحت وظيفة القاص وظيفة رسمية يتقاضى صاحبها راتبا من خزانة الدولة ، ولم يكن عمل هؤلاء القصاص مجرد حكاية أقاصيص التقى والورع ، بل حكاية الاخبار المؤيدة للدولة واصحابها واسنادها الى كبار الرواة الموثوق فيهم ، ومن هنا كثرت القصص وامتلأت بها كتب التاريخ وشوهت بذلك حقيقة الحوادث . وقد كثرت خلال العصر الاموى القصص التى تظهر فضائل معاوية ومروان وعبد الملك بن مروان ومن اليهم ، فلما جاء العصر العباسى ، عمد المؤرخون والرواة الى تعديل هذه القصص بما يوافق صالح الدولة الجديدة ، وحذف معظم ما وضع فى مدح الامويين من كتب التاريخ التى كتبت فى الشرق أيام العباسيين ، ولم يبق فيها الا ما يبرز مساوىء الامويين ويظهر فضائل العباسيين والعلويين . واذا أردنا ان نأخذ فكرة عما وضع من الاقاصيص فى مدح بنى أمية فلنقرأ العقد الفريد لابن عبد ربه ، فهذا كتاب وضعه مولى من موالى بنى أمية الاندلسيين ، وكان حريصا على اظهار محاسنهم ومحاسن اسلافهم من الامويين فى المشرق . ونجد هذه الاخبار متواردة فى معظم كتب التاريخ التى كتبت فى الاندلس، واظهر مثال لذلك أبو محمد على بن حزم الذى يدافع عن الامويين دفاعا عظيما وأبو بكر بن العربى الذى ذهب فى كتابه « العواصم من القواصم » الى درجة انه أيد يزيد فى قتله للحسين ابن على رضى الله عنه

وتتضح هذه الظاهرة فى كتاب فى التاريخ لم ينشر بعد لعبد الملك بن حبيب الفقيه الاندلسى ، فقد ملأ كتابه هذا بفضائل الامويين والتعصب لهم ، ولا شك انه كانت فى المشرق كتب كثيرة كهذه، ثم اعدمت او شوهت ايام العباسيين . وبديهى ان خبرا مثل هذا الذى نعلق عليه ظاهر الاختراع، فليس بمعقول ان عبد الملك بن مروان خاطب المصحف بقوله يوم أتته الولاية : « هذا آخر العهد بك ! » كأنه قد كفر بالاسلام وبالقرآن ، ولا شك أن الذى وضع هذا الخبر اراد هذا المعنى تقربا به للعباسيين والعلويين

ومن أواسط العصر العباسى نجد فى كتب التاريخ كلها نزعة شيعية ظاهرة ، حتى لو كان مؤلفوها من أهل السنة ، فقد كان الشعور العام أن امتداح على وبنيه من أعمال التقى ، ونلاحظ هذا عند كبار المؤرخين وصغارهم ممن كتبوا بعد القرن الرابع الهجرى ، نلاحظه عند ابن خلدون وتلاميذه وخاصة المقريزى وابن حجر العسقلانى ، ونلاحظه عند السخاوى ومن تابعه . وقد ظل التعصب للعلويين غالبا حتى العصر الحديث

(٢) المسعودى ٣٩ ج ٢

من تمليقهم بالتعظيم والتغرير مما يخالف أحكام الدين . وأول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك ، فانه سمى الخليفة « خليفة الله » ، وعظم امر الخلافة حتى فضلها على النبوة فكان يقول : « ما قامت السموات والارض الا بالخلافة ، وان الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين ، لان الله خلق آدم بيده وأسجد له الملائكة وأسكنه جنته ثم أهبطه الى الارض وجعله خليفة ، وجعل الملائكة رسلا » . واذا حاجه أحد فى ذلك قال : « أخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله فى حاجته ؟ » . وكان عبد الملك اذا سمع ذلك اعجب به (١) واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الاشداء كخالد القسرى عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج، وخطب الناس فى مكة مرة فقال : « أيها الناس ، أيهما أعظم ، أخليفة الرجل على اهله أم رسوله اليهم ؟ » يعرض ان هشاما خير من النبى (٢) واقتدى بالعمال سائر الملقين من وجوه الدولة ، وفيهم جماعة كبيرة انما أسلموا رغبة فى الدنيافزادوا الامور فسادا. وكانوا يملقون العمال منهذا القبيل ويجرئونهم على خرق حرمة الدين : ذكروا أن خالد القسرى كان قليل العناية فى حفظ القرآن ، فاذا تلا آية اخطأ فيها والحن فى نطقها ، فوقف مرة للخطابة فقال واخطأ ، ثم ارتج عليه وفشل ، فنهض صديق له من تغلب فقال : « خفض عليك أيها الامير ولا يهولنك ، فما رأيت قط عاقلا حفظ القرآن ، وانمايحفظه الحمقى من الرجال » فقال خالد : « صدقت ، يرحمك الله ! » (٣) (*)

فلا غرو بعد ذلك اذا قيل لنا أن الوليد بن يزيد ، سكير بنى مروان ، رمى القرآن بالنشاب وهو فىمجونه وسكره . فقد ذكروا انه عاد ذات ليلةبمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) فأمر بالمصحف فعلقوه واخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال :

أتوعد كل جبـــار عنيد ؟ فهـــا أنا ذاك جبار عنيـــد !
اذا لاقيت ربك يوم حشر فقل الله : مزقنى الوليد ! (٤)

---

(١) العقد الفريد ١٨ ج ٣ والمسعودى ١٠٤ ج ٢
(٢) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٤ و ١٣٠ ج ٥ والاغانى ٦٠ ج ١٩
(٣) الاغانى ٦٣ ج ١٩
(*) واضح جدا ان هاتين الحكايتين موضوعتان ، ويلاحظ ان صاحب العقد روى الخبر المذكور عن الحجاج بن يوسف لانه كان ـ رغم مشايعته للامويين ـ يستبيح نقد رجالهم وعمالهم، بل كان هو نفسه ساخطا على عمال بنى أمية فى الاندلس كثير الخلاف والنقد لهم . وقد وجدت الخبر الذى يورده المؤلف فى طبعة لجنة التأليف من العقد (٣/٣٥٤) هكذا بعد ان روى اخبار أربعة ممن حادوا عن الدين وتقرب الحجاج الى الله بقتلهم :
« وقال ناقل الحديث : ونسى الحجاج نفسه ، وهو خامس هؤلاء الاربعة ، بل هو أشدهم كفرا واعظمهم الحادا حين كتب الى عبد الملك بن مروان .. وكتابه اليه : ان خليفة الرجل فى أهله اكرم عليه من رسوله اليهم ، وكذلك الخلفاء يا امير المؤمنين اعلى منزلة من المرسلين »
(٤) الاغانى ١٢٥ ج ٦ والمسعودى ١٣٤ ج ٢

فلم يكن يهم بنى أمية نشر الاسلام ، وانما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الاموال ، فتوقف نشر الاسلام على عهدهم فى الاطراف البعيدة كالسند وتركستان مع رغبة أهلهما فيه ، وانما نفرهم منه شدة بنى أمية وجشعهم، فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعا لما يرونه من المعاملة الحسنة أو السيئة . فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقى الورع ، وسار على خطوات سميه ابن الخطاب، كتب الى ملوك السند وغيرهم يدعوهم الى الاسلام على أن يملكهم بلادهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ماعليهم ، وكانت سيرته قد بلغتهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . فلما قتل عمر المذكور سنة ١٠١ هـ وعاد بنو أمية الى سابق سيرتهم ارتد اولئك عن الاسلام (١)

وقس على ذلك ما ارتكبه الامويون من قتل أبناء على وصلبهم والمثلة بهم ، غير من قتلوه من التابعين وأهل الصلاح صبرا ، وأكثرهم اقداما على ذلك عاملهم الحجاج بن يوسف

الفتك والبطش فى عصر الامويين

كان المسلمون فى أيام الراشدين يرون الطاعة للامام واجبة ، لا يحتاجون فى سياسة شؤونهم الى حيلة أو عنف ، ولا يحيدون عن الحق فى أعمالهم او أقوالهم . اذا أذنب أحدهم اعترف بذنبه وأذعن لما يفرضه الخليفة عليه من القصاص ونحوه ، فلم تكن الاحكام تحتاج الى بحث أو نقض أو حيلة، ولا تنفيذها يفتقر الى شدة أو عنف . وربما اقتصر القصاص على التوبيخ أو اللوم ، واذا أخطأ الخليفة حكم على نفسه كما يحكم على رعيته . ولم يكن عندهم سجن يحبس فيه الناس ، وأول من وضع السجن معاوية ، وهو أيضا وضع الحرس (٢) لقلة الحاجة الى ذلك فى عصر الراشدين ، فكان عمر بن الخطاب يأمر القائد من كبار الصحابة أن يأتيه فيأتى صاغرا ، مع علمه أنه لو امتنع عن المجىء لعجز الخليفة عن استقدامه . وقد يأمر بجلد الرجل منهم فيذعن مطيعا . وكان عمر لا يتغاضى عن الذنب الصغير خوفا من الذنب الكبير ، ولذلك اشتهر بالحزم والصرامة

فلما تولى الخلافة معاوية ، وسلم الاعمال الى دهاته فى العراق وفارس ومصر وغيرها ، والمسلمون لايزالون فى أريحيتهم وأنفتهم ، وقد أطلق معاوية السنتهم بحلمه وسعة صدره ، خاف العمال أن يجر ذلك الى استفحال الامر فعمدوا الى الشدة . وأول من توخى الشدة والعنف زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق ، زعم أنه يفعل ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب فى اقامة السياسات بالصرامة والحزم ، ولكنه أسرف وتجاوز الحد . وهو أول من شدد

---

(١) ابن الاثير ٢٧٣ ج ٤ و ٥٦ ج ٥ (٢) المقريزى ١٨٧ ج ٢

أمر السلطة واكد الملك لمعاوية ، فجرد سيفه وأخذبالظنة وعاقبعلىالشبهة(١) وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد فى خلافة يزيد بن معاوية ، وفىأيامه قام الحسين بن على يطالب بالخلافة ، وقد نقض بيعة يزيد وحمل علىالعراق، فكتب يزيد الى ابن زياد : « احبس على التهمة ، وخذ بالظنة ، غير أن لاتقتل الا من قاتلك » (٢)

ولما أفضت ولاية العراق الى الحجاج بن يوسف فى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) وقد كثر المطالبون بالخلافة ، أراد الحجاج أن يتشبه بزياد وابنه فى الشدة والعنف ، فبالغ فى ذلك حتى أهلك ودمر (٣) ولم يكن الحجاج أشد وطأة من زياد أو ابنه ، ولكن زيادا كان يزجره حلم معاوية ،وابن زياد يزجره أمر يزيد أن لا يقاتل الا من قاتله . وأما الحجاج فقد أعانته شدة عبد الملك على المبالغة فى الشدة ، فأكبر المسلمون ذلك ونقموا على تلك الدولة ، وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين . ومن اقوال الخوارج فيهم : « ان بنى أمية فرقة بطشهم بطش جبارين : يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب » (٤)

بسر بن ارطاة وقتل الاطفال

على أن سياسة بنى أمية كانت منأولأمرها مبنية على الشدة والحزم ، على ما تقتضيه سياسة الممالك فى ذلك العصر ، ثم تجاوزوا الحدود ولم يبالوا بالفتك والقتل فى سبيل تأييد دعوتهم والتغلب على أعدائهم.فكانوا يطلقون أيدى عمالهم فى الاحكام ، يقتلون ويصلبون على ما يتراءى لهم بدون مشورة الخليفة ، مع أن ذلك لم يكن جائزا فى أيام الراشدين ، لأن الخليفة منهمكان وهو مقيم فى المدينة يدير شؤون الرعايا فى أطراف المملكة ، وهذا الذى اراد عمر بن عبد العزيز ان يرجع اليه فى أيام خلافته فلم يفسح له الاجل (٥) فلما ماتكتب خليفته يزيد بن عبد الملك الى عماله أن يعودوا الى ما كانوا عليه قبلا من الشدة والبطش(٦)

فكان الخلفاء من بنى أمية يرون فى اطلاق أيدى عمالهم أو قوادهم تشجيعا لهم وتنفيذا لأغراضهم . وربما حرضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة ، حتى فى أيام معاوية ، فانه أرسل بسر بن أرطاة بعد تحكيم الحكمين وعلى بنأبى طالب يومئذ حى ، وأرسل معه جيشا . ويقال انه أوصاهم أن يسيروا فى الارض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة على ، ولا يكفوا أيديهم عن النساء

(١) ابن الاثير ٢٢٨ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٨ ج ٤
(٣) ابن خلكان ١٢٤ ج ١ والبيان للجاحظ ١٧٥ ج ١ والعقد الفريد ٣ ج ٣
(٤) البيان والتبيين ١٩٥ ج ١
(٥) ابن الاثير ٢٩ ج ٥ (٦) العقد الفريد ٢٦٥ ج ٢

والصبيان . فسار بسر على وجهه حتى انتهى الى المدينة ، فقتل فيها أناسا من أصحاب على وهدم دورهم ، ومضى الى مكة وغيرها يقتل ويهدم ، حتى اتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل على وابن عمه ، وكان غائبا فرارا من القتل ، فوجد بسر ابنين له صبيين اسماهما عبد الرحمن وقثم ، فأخذهما وذبحهما بيده بمدية كانت معه (١) . وذكروا ان الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية ، فلما أراد بسر قتلهما قال الكنانى : « تقتل هذين ولا ذنب لهما ؟ فان كنت قاتلهما فاقتلنى معهما » فقتله وقتلهما معه ، فصاحت امرأة من كنانة : « يا هذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين ؟ والله ما كانوا يقتلون فى الجاهلية ولا الاسلام ، والله يا ابن أرطاة ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبى الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء » . وقالت أم الصبيين شعرا فى رثائهما كانت تنشده فى المواسم مطلعه :

يا من أحس بابنى اللذين هما   كالدرتين تشظى عنهما الصدف

على أننا لا نظن معاوية كان راضيا عن ذلك العمل الفظيع ، لأنه يخالف دهاءه وحلمه ، ونظنه أطلق يد بسر ولم يعين له حدودا ، وكان بسر سفاكا للدماء فلم يستثن طفلا ولا شيخا . ويؤيد ذلك ما أراد فعله بأولاد زياد بن أبيه بعد موت على ، اذ خاف معاوية زيادا وكان عامله على فارس فأمر بسر أن يستقدمه اليه ، فأمسك بسر أولاد زياد وكتب اليه : « اما تأتى حالا او اقتل اولادك » ، فلما بلغ معاوية ذلك منع بسرا من قتلهم (٢)

فاذا كان هذا حال العمال فى أيام معاوية مع حلمه وطول أناته ، فكيف فى أيام عبد الملك مع شدته وفتكه . فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبرا ولو كانوا ١٢٠,٠٠٠ وهل يستبعد أن يكون فى حبسه عند موته ٥٠,٠٠٠ رجل و ٣٠,٠٠٠ امرأة ؟ (٣) وكان عبد الملك أشد وطأة منه وأجرأ على الغدر والفتك ، بل هو أول من غدر فى الاسلام بعد أن أعطى الأمان ــ وذلك أن عمرو بن سعيد الأشدق أحد أمراء عبد الملك طمع فى الملك لنفسه ، فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩هـ لحرب مصعب ابن الزبير فى العراق ، وجاء الى الشام ووضع يده عليها . فبلغ عبد الملك ذلك وهو فى الطريق ، فرجع حالا الى دمشق وقاتل عمرا أياما فلم يقدر عليه، فخاف على سلطانه فاحتال فى عقد الصلح فرضى عمرو وكتبا بينهما كتابا فيه أمان عبد الملك له . فاطمأن خاطر عمرو المذكور ، وخرج الى الخليفة حتى

---

(١) الاغانى ٤٤ ج ١٥   (٢) ابن الاثير ١٩٥ و ٢١١ ج ٣
(٣) المسعودى ١١٣ ج ٢ والكشكول ٣٢

أوطأ فرسه أطناب عبد الملك ، ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق

وبعد دخوله بأربعة أيام أرسل الى عمرو فأجابه أنه آت العشية ، وأتاه فى مئة من مواليه ، ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بنى مروان ، وقدبقى مواليه خارجا • فاستقبله عبد الملك حتى أجلسه معه على السرير وجعل يحادثه ، ثم أمر أحد الغلمان أن يأخذ سيفه وقال له : « أتطمع أن تجلس معى متقلدا سيفك ؟ » فأعطاه السيف . ثم قال عبد الملك : « يا أبا أمية (عمرو) انك حينما خلعتنى آليت بيمين ان أنا ملأت عينى منك وأنا مالك لك أن أجعلك فى جامعة » فقال له الحضور من بنى مروان : « ثم تطلقه يا أمير المؤمنين ؟ » ، قال : «نعم ، وما عسيت أن أصنع بأبى أمية ؟ » . فقال بنو مروان لعمرو : « أبر قسم أمير المؤمنين » ، فقال : « قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين » • فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال : « يا غلام قم فاجمعه فيها » ، فقام الغلام فجمعه فيها فقال عمرو : « أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجنى فيها على رؤوس الناس » ، فقال : « أمكر يا أبا أمية عند الموت ؟ لا والله ماكنا لنخرجك فى جامعة على رؤوس الناس » . ثم جذبه جذبة فوقع وأصاب فمه السرير فكسر ثنيته ، فقال عمرو : « اذكر الله ياأمير المؤمنين ، كسر عظم منى فلا تركب ما هو أعظم من ذلك » ، فقال عبد الملك: « والله لو أعلم أنك تبقى على لو أبقيت عليك وتصلح قريش لأطلقتك ، ولكن ما اجتمع رجلان فى بلدة قط على ما نحن عليه الا أخرج أحدهما صاحبه »• فلما رأى أنه يريد قتله قال : « أغدر يا ابن الزرقاء ؟ » ثم قتله عبد الملك (١)

وترى مما دار بينهما أن الذى جر عبد الملك الى هذا الغدر كثرة الطامعين فى السلطة ، ولا رادع لهم من عند أنفسهم كماكانوا فى عصر الدين والتقوى، فأصبح القوى يأكل الضعيف ومن سبق الى قتل صاحبه ملك ، وهى سياسة الفتك . وقد نفعتهم هذه السياسة فى تأييد سلطانهم ، ثم صارت سنة فيمن ملك بعدهم من بنى العباس وغيرهم • وآخر حادثة جرت من هذا القبيل فتك محمد على باشا بالمماليك ، وقد عمد بنو أمية الى ذلك استعجالا للنصر وتخلصا من أسباب النزاع ، فاذا خرج عليهم خارج جعلوا همهم قتله ، لعلمهم أنه اذا قتل تفرق أصحابه ، واذا لم يتفرقوا استرضوهم بالأموال أو نحوها

خزانة الرؤوس

وكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلاهم ارهابا لأحزابهم، فيقطعون رأس الرجل ويطوفون به من بلد الى بلد أو يصلبون الجثة حيث تزدحم الاقدام — كانوا يفعلون ذلك على الخصوص برؤساء الأحزاب ولا سيما العلويين ،

(١) ابن الاثير ١٤٦ ج ٤

فكان العامل الأموى يقتل الخارج على الدولة ويبعث برأســه الى الخليفة فى الشام ليطاف به فى الاسواق · وأول رأس حمل من بلد الى بلد رأس عمر ابن الحمق الخزاعى (١) احد قتلة عثمان ، وأول رأس طيف به فى الاسواق رأس محمد بن أبى بكر (٢) وأول رأس حمل الى الخلفاء رأسا هانىء وابن عقيل من أشياع الحسين فى الكوفة ، ثم رأس الحسين بن على ، أرسله ابن زياد من الكوفة الى يزيد بن معاوية فى الشام ، وكـذلك فعـل المختار برؤوس قتلة الحسين ، فانه أرسلها الى محمد بن الحنفية (٣) . وهكذا فعل الحجاج برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس أصحابه ، فانه أرسلها من مكة الى عبـد الملك بن مروان فى الشام · وكذلك فعل عبد الملك برأس مصـعب بن الزبير ، فانه سيره من الكوفة الى الشام فنصب فيها (٤)

ومن غريب ما يحكى أنهم لما جاءوا الى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير ، وهو جالس فى طاق بالكوفة ، كان ابن عمير اللخمى حاضرا عنده ، فلما رأى الرأس بين يدى عبد الملك ارتعد · فقال له عبد الملك : « مالك ؟ » ، قال : « أعيذ بالله أمير المؤمنين ! كنت فى هذا الطاق بهذا الموضع مع عبيـد الله ابن زياد فرأيت رأس الحسين بن على بين يديه فى هذا المكان ، ثم كنت مع المختار بن أبى عبيد الثقفى فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه ، ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه، ثم هـــذا رأس مصعب بن الزبير بين يديك ! » فتشاءم عبد الملك من ذلك ، وقام فأمر بهدم ذلك الطاق (٥)

وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنة فى عصر بنى أميـة ومن جاء بعدهم من بنى العباس ، وصار للرؤوس فى دار الخـلافة خزانة يحفظونهـا فيها : كل رأس فى سفط خاص (٦) وجرت العـــادة أيضا بصلب الجثث أو الرؤوس · لكنهم لم يكونوا ينصبون الا رؤوس الخوارج (٧) ويطوفون بهـا على رمح ، وكان بنو أمية يعدون العلويين خوارج ، فكانوا اذا قتلوا أحـدهم صلبوه

ومن هذا القبيل تشديدهم فى العذاب قبل القتل ، ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لارهاب أعدائه واخضاعهم بالعنف · فمن ضروب التعـذيب أنه كان يأتى بالقصب الفارسى فيشقه ويشده على الرجل وهو عار ، ثم يسله قصبة قصبة حتى يقطع جسـده ، ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت (٨) فعل ذلك ببعض الذين حاربوه مع ابن الأشعث ارهابا لسواهم · وكان الخوارج

---

(١) المعارف ١٨٧ وطبعة القاهرة ١٩٣٥ ص ٢٤١
(٢) العقد الفريد ٣٩ ج ١ (٣) ابن الاثير ١١٩ ج ٤
(٤) ابن الاثير ١٦٢ ج ٤ (٥) ابن خلكان ٢٨٦ ج ١
(٦) الفخرى ٢٤٨ ج ٢ (٧) العقد الفريد ٢٧٢ ج ٢
(٨) المعارف ١١٥

أيضا يفعلون نحو ذلك بمن ظفروا به من أعدائهم ، حتى لقد يضعون الأطفال في القدور وهي تفور (١) اما اشتفاء أو انتقاما أو ارهابا

الموالي وأحكامهم في عصر الامويين

تكاثر الموالي

أفضت الخلافة الى الأمويين في أواسط القرن الأول للهجرة ، وعدد الموالي آخذ في الزيادة بموالاة الفتح وتكاثر الرقيق بالاسر أو الاهداء • لأن العمال كثيرا ما كانوا يبعثون بمئات أو ألوف من الرقيق الابيض والأسود الى بلاط الخليفة هدية أو بدلا من الخراج أو نحوه (٢) والخليفة يفرق ذلك في أهل بطانته أو قواده ، وهؤلاء يفرقونه فيمن حولهم أو يبيعونه فينتقل الى الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمن أنجب من أولئك الأرقاء أو أعتق لسبب من الأسباب صار مولى ، وذلك كثير وعادى يومئذ ــ غير الذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد وغيره • فتزايد عدد الموالي في عصر الأمويين زيادة عظيمة ، وصاروا يتقربون من مواليهم بما يحتاجون اليه من شؤونهم ، فاستخدمهم العرب في مصالحهم الصناعية أو الزراعية أو الدينية أو العلمية ، واشتغلوا هم بالرياسة والسياسة ، ولذلك كان أكثر القراء والشعراء والمغنين والكتاب والحجاب من الموالي

وقد يثرى المولى فيبتاع العبيد ويعتقهم فيصيرون من مواليه ، وهؤلاء اذا استطاع أحدهم أو بعض أولاده اقتناء العبيد واعتاقهم صاروا مواليه ، وهكذا حتى يتفق أحيانا أن يكون الرجل مولى مولى ، أو مولى مولى مولى أو أكثر ــ فعبد الله بن وهب الفقيه المالكي الشهير كان مولى يزيد بن رمانة ، وهذا مولى يزيد بن أنس الفهرى • وكذلك حماد بن سامة، والليث بن سعد ، وأبو أسامة وغيرهم • وكان ابن مناذر الشاعر مولى سليمان القهرمان ، وسليمان مولى عبيد الله بن أبي بكرة ، وعبيد الله من موالي النبي (صلعم) (٣) • وأغرب من ذلك أن عبيد الله هذا ادعى أنه عربي من ثقيف ، وادعى سليمان القهرمان أنه عربي من تميم ، وادعى ابن مناذر أنه عربي من بني جبير بن يربوع ، فيكون ابن مناذر مولى مولى مولى ، ودعيا لمولى لمولى دعي مولى دعي . وقد بلغت نسبة الولاء عندهم الى خمس درجات ، فداود بن خالد بن دينار واخوته من أهل الحديث ، وكلهم من موالي آل حنين ، وآل حنين موالي مثقب ، ومثقب مولى مسحل ، ومسحل مولى شماس، وشماس مولى العباس بن عبد المطلب (٤) فهو مولى مولى مولى مولى مولى • وقس على ذلك ، مما يدل على تكاثر الموالي

---

(١) المسعودى ١٢٣ ج ٢ (٢) المسعودى ٣٥٤ ج ٢
(٣) الاغانى ٩ ج ١٧ (٤) المعارف ١٩٧

فى ذلك العصر ، وفيهم الفارسى والفرغانى والتركى والديلمى والخراسانى والرومى والبربرى والسندى وغيرهم ، يشتغلون بما يحتاج اليه العرب من المهن والصناعات والآداب

ناهيك بالموالى المحاربين ، فقد كان فى كل قبيلة من العرب عدد كبير منهم، ربما زاد على عددها ، فاذا خرجت للحرب خرجوا معها ، وحاربوا فى سبيل نصرتها • واختلف عدد الموالى بالنسبة الى مواليهم باختلاف الأعصر ، ففى أيام على كانت نسبة الموالى الاحرار ممن يخرجون الى الحرب كنسبة واحد الى خمسة (١) ثم تكاثر الموالى فى عصر الامويين حتى زاد عددهم على عدد الاحرار • وبنو أمية مع ذلك يحتقروتهم ويضطهدونهم ، وهم يصبرون على ذلك أو يفرون من سلطانهم الى أطراف المملكة • وممن فر من جور بنى أمية ميمون جد ابراهيم الموصلى المغنى المشهور (٢)

نقمة الموالى على العرب

فلما تكاثر الموالى ورأوا ماكان فيه الامويون من التعصب للعرب على سواهم — ولاسيما الموالى ، حتى كانوا يستخدمونهم فى الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاء ولا شيئا من الغنائم أو الفيء — عظم ذلك عليهم ، ورأوا فى نفوسهم قوة فنفرت قلوبهم من بنى أمية ، وأصبحوا عونا لكل من خلع الطاعة أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج • فكل من قام لمحاربة الأمويين استعان عليهم بالموالى والعبيد ، وهم الفئة المظلومة • وأشهر من حاربهم بالموالى والعبيد المختار بن أبى عبيد الذى قام فى العراق للمطالبة بدم الحسين سنة ٦٦ هـ ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية — فالمختار المذكور أطمع موالى العراق فى الغنيمة وأركبهم على الدوآب ، وكانوا ناقمين على أسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم ، فجاءوه متطوعين وجاءه عدد كبير من أباق العبيد وفيهم من ترك الاسلام غيظا من بنى أمية • فكان عدد الموالى فى جند المختار أضعاف عدد الاحرار (٣) وقد أبلوا فى الحرب معه أكثر من بلاء الاحرار ، لنقمتهم على أسيادهم • ولذلك كان أكثر القتلى فى تلك الحرب من الموالى ، فقد بلغ عدد قتلاهم فى معركة سنة ٦٧ هـ ٦٠٠٠ ، ليس فيهم من العرب الاحرار الا ٧٠٠، وسائرهم من الموالى (٤) وفاز المختار بالانتقام للحسين فوزا حسنا وقتل قتلته • ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار بمواليهم وعبيدهم بعثوا اليه يقولون : « انك آذيتنا بموالينا ، فحملتهم على الدواب وأعطيتهم فيئنا » فأجابهم : « ان أنا تركت مواليكم ، وجعلت فيئكم لكم ، تقاتلون معى بنى

(١) ابن الاثير ١٧٣ ج ٣ — (٢) الاغانى ٢ ج ٥
(٣) ابن الاثير ١٢١ ج ٤ — (٤) ابن الاثير ١٣٦ ج ٤

أمية وابن الزبير ، وتعطونني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما أطمئن اليه من الايمان ؟ » فلم يرضوا . والمختار أول من جند الموالي وفاز بهم ، فجرأهم ذلك على الدولة واستخفوا بها ونصروا أعداءها ، وأصبح الخلفاء العقلاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه.وأول من فرض لهم العطاء من بني أمية معاوية ، فانه جعل لكل واحد ١٥ درهما ، فعبد الملك جعلها ٢٠ ، ثم أبلغها سليمان الى ٢٥ ، وجعلها هشام ٣٠ (١) على أن ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم ، لأن العمال كانوا يستخدمونهم غالبا بلا عطاء ولا رزق (٢)

والمولى اذا آنس من مولاه رضاء ومحاسنة استهلك في نصرته ، وكان لسيده ثقة فيه ، حتى خلفاء بني أمية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليهم ، يعهدون اليهم بمهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم في أمورهم ، والموالي يخلصون لهم ويستميتون في الدفاع عنهم ، كما كان موالي بني هاشم يستميتون في نصرة مواليهم ، وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين ،وأشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها

وقد يكون المولى من أصل رفيع ، أو يرتقي الى أعلى المراتب ، حتى في أيام بني أمية رغم اضطهادهم وتعصبهم عليهم ، وأعظم موالي العراق وأشهرهم فيروز مولى أهل الخشخاش،فانه ولي الولايات وخرج مع ابن الاشعث على الحجاج ، فقال الحجاج : « من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » فقال فيروز : « من جاءني برأس بالحجاج فله ١٠٠٫٠٠٠ درهم » . فلما غلب ابن الاشعث هرب فيروز الى خراسان ، فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به الى الحجاج فقتله بعد أن عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه (٣) (*)

---

(١) العقد الفريد ٢٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٤ ج ٥
(٣) المعارف ١١٥

(*) لا زالت سياسة الامويين مع الموالي في حاجة الى دراسة ، فقد بالغ المؤرخون في القول بظلمهم واحتقارهم اياهم مبالغة ينكرها الواقع ، فقد كان الكثيرون من رجال بني أمية من الموالي، ومثال ذلك موسى بن نصير وطارق بن زياد اللذان فتحا الاندلس ، فقد كانا موليين . وكان لكل خليفة من خلفاء بني أمية طائفة من مواليه تخدمه وتخلص له ، فهناك موالي عبد الملك وموالي هشام والوليد وسليمان اولاده ، وكلهم كانوا مخلصين لهم متمسكين بولائهم . وعندما زالت دولة بني أمية في المشرق كان مواليهم هم الذين اقاموا دولتهم في الاندلس بسواعدهم واخلصوا لهم اخلاصا عظيما . وكان بنو أمية الاندلسيون يقدرون مواليهم ويثقون فيهم أكثر مما يثقون في رجالهم من العرب . فلو أن سياسة بني أمية مع الموالي كانت بهذا السوء الذي يصفه المؤرخون لما أخلص الموالي لهم هذا الاخلاص . والحقيقة أن هذه الصورة التي لدينا عن سياسة الامويين مع الموالي ترجع الى العصر العباسي ، وهي جزء من دعاية العباسيين ضد الامويين ، وقد ناقش هذه الناحية مناقشة موجزة ـ ولكنها عميقة ـ يوليوس فلهاوزن في كتابه عن الدولة العربية وسقوطها ، في فصل « عمر بن عبد العزيز والموالي » ، وهو فصل حقيق بأن يراجعه كل معنى بدراسة تاريخ الدولة الاسلامية ، وخاصة بعد ان ظهرت ترجمتان عربيتان لهذا الكتاب القيم ، الاولى في دمشق قام بها الدكتور يوسف العش والثانية في القاهرة قام بها الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة ، وقد راجعناها . والدراسة التي نشرها الاستاذ عبد الوهاب النجار بعنوان « الموالي في عصر بني أمية » في حاجة الى مراجعة واستدراك ، لانه جرى فيها على أسلوب الاصول العربية القديمة دون تمحيص كثير

على أن الموالى فى أيام بنى أمية كانوا على الاجمال أعداء الدولة ، يقومون عليها مع القائمين انتقاما لما كانوا يقاســونه من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم ، فازداد الأمويون تحقيرا لهم · فبعد أن قال النبى : « مولى القوم منهم » منعوا زواجهم بالعربيات ، كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الاسلام (١) فاذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره الى الوالى طلقها منه ، كما حدث لأعراب بنى سليم فى الروحاء ، فانهم جاءوا الروحاء فخطب اليهم بعض مواليها احدى بناتهم فزوجوه ، فوشى بعضــهم الى والى المدينة بذلك ، ففرق الوالى بين الزوجين وضرب المولى مائتى ســوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير الخارجى فى ذلك بعد مدح عمل الوالى واسمه أبو الوليد :

حمى حدبا لحوم بنـــات قوم ... وهم تحت التراب أبو الوليــد
وفى المئتـــين للمــولى نكال ... وفى ســلب الحواجب والخدود
اذا كافأتهم ببنـــات كسرى ... فهل يجـــد الموالى من مزيد ؟
فأى الحــق أنصف للمــوالى ... من اصهار العبيد الى العبيد ؟(٢)

وكثيرا ما كانوا يفعلون مثــل ذلك بالموالى ، ولو كانوا من أهل المنزلة الرفيعة أو أهل العلم والتقوى ، فان عبد الله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى ، فتزوج عربية فضربه بلال بن أبى بردة بالسياط (٣)

على أن ذلك المنع كان شائعا قبل الاسلام ، وظل العرب يستنكفون منــه رغم ما كان من نص الحديث المذكور وغيره · فسلمان الفارسى نصر المسلمين فى حروبهم من أيام النبى ، وله فضل كبير فى الاسلام ، فخطب الى عمر بن الخطاب ابنته فوعده بها لأنه لم ير فى زواجه بها بأسا ، أما ابنه عبد الله فلما بلغه ذلك غضب وشكاه الى عمرو بن العاص فقــال له : « هنيئا لك يا أبا عبد الله ، ان أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل فى تزويجك بابنته » فغضب سلمان وقال : « لا والله لا تزوجت اليه أبدا » (٤)

فتزويج المولى بالعربيــة بالغ الامويون فى تقبيحه تعصبا للعرب على سواهم ، وهو عندهم اقبح من زواج العربى بغير العربية . ولكن ذلك لم يكن محرما فى الدين ولا اعتبره أهل التقوى ، فعلى بن الحســين بن على المعروف بزين العابدين ــ وهو أحد الأئمة الاثنى عشر ومن سادات التابعين ــ كانت أمه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس ، فلما توفى أبوه زوجها

(١) المسعودى ١٩٦ ج ١ — (٢) الاغانى ١٥٠ ج ١٤
(٣) المعارف ١٦٧ — (٤) العقد الفريد ١٣٢ ج ٣

بشريد مولى أبيه وأعتق جارية له وتزوجها ، فكتب اليه عبد الملك بن مروان يعيره بذلك . فكتب اليه زين العابدين : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، وقد أعتق رسول الله صفية بنت حيى بن أخطب وتزوجها ، وأعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش »

فالاسلام يرفع منزلة المولى ، وأما الامويون فرأوا تحقيره باعتبار انه غير عربى ، وشاع ذلك فى أيامهم وأصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالى . ومن أشعارهم فى رجل من بنى عبد القيس بالبحرين زوج ابنته من أحد الموالى قول أبى بجير يؤنب آل عبد القيس لتزويجهم الموالى ومنهم الزارع والتاجر قال :

أمن قلة صرتم الى أن قبلتم ... دعارة زراع وآخر تاجر ؟
وأصهب رومى وأسود فاحم ... وأبيض جعد من سراة الاحامر ؟
شكولهم شتى وكل نسيبكم ... لقد جئتم فى الناس احدى المناكر
متى قال انى منكم فمصدق ... وان كان زنجيا غليظ المشافر
أكلهم وافى النساء جدوده ... وكلهم أوفى بصدق المعاذر
وكلهم قد كان فى أوليه ... له نسبة معروفة فى العشائر
على علمكم أن سوف ينكح فيكم ... فجدعا ورغما للأنوف الصواغر
فهلا أتيتم عفة وتكرما ... وهلا وجلتم من مقالة شاعر ؟
تعيبون أمرا ظاهرا فى بناتكم ... وفخركم قد جاز كل مفاخر
متى شاء منكم مغرم كان جده ... عمارة عبس خير تلك العمائر
وحصن بن بدر أو زرارة دارم ... وزبان زبان الرئيس بن جابر
فقدصرت لاادرى وان كنت ناسيا ... لعل تجارا من هلال بن عامر
وعل رجال الترك من آل مذحج ... وعل تميما عصبة من يحامر
وعل رجال العجم من آل عالج ... وعل البوادى بدلت بالحواضر
زعمتم بأن الهند أولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل ... وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم ... وأولى بقربان ملوك الاكاسر
أالطمع فى صهرى دعيا مجاهرا ... ولم تر شرا من دعى مجاهر ؟
ويشتم لؤما عرضه وعشيره ... ويمدح جهلا طاهرا وابن طاهر (١)

وغرس هذا الاعتقاد فى اذهان الناس حتى ان الموالى انفسهم كانوا يستنكفون من تزويج المولى بالعربية. ذكروا أن ابنا لنصيب المغنى الشهير — وهو مولى — أحب بنت مولاه وكان مولاه قد مات ، فخطبها من أخيه فأجابه

---

(١) العقد الفريد ٢٣٢ ج ٣

الى طلبه ، فعرف نصيب بذلك فجمع وجوه الحى فلما حضروا اقبل نصيب الى أخى مولاه وقال له : « أزوجت ابنى هذا من ابنـــة أخيك ؟ » قال : « نعم » ، فقال نصيب لعبيد له سود : « خذوا برجل ابنى هذا فجروه فاضربوه ضربا مبرحا » ففعلوا ، ثم قال لأخى مولاه : « لولا انى أكره أذاك لألحقتك به » . ثم نظر الى شاب من أشراف الحى فزوجه الفتاة ، وانفق على العقد من جيبه (١)

ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب امرأة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجل ما لم يستشر مولاه ، فاذا أحب رجل أن يخطب فتاة من بنات الموالى لايذهب الى أبيها ولا الى أخيها وانما يخطبها من مواليها ، فان رضى مولاها زوجت والا فلا . وان زوجها الأب أو الأخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح ، وان كان قد دخل بها عد ذلك سفاحا (٢)

وجملة القول ان تعصب بنى أمية للعرب جرهم الى تحقــير غير العرب وخصوصا الموالى ، فنقم هؤلاء عليهم وكانوا أكبر المســاعدين فى اخراج الدولة من أيديهم

أهل الذمة واحكامهم فى عصر الامويين

عهود أهل الذمة فى أول الاسلام

الذمة فى اللغة العهد والامان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الاسلام من غير المسلمين . قيل لهم ذلك لأنهم دفعوا الجزية فأمنــوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، وأكثرهم من النصارى واليهود ، وقد دعاهم القرآن « أهل الكتاب » نسبة الى الكتاب المقدس التوراة والانجيل ، وقد أثنى عليهم وأوصى بهم خيرا(*) . وفى الحــديث النبوى أقوال كثيرة

---

(١) الاغانى ١٣٦ ج ١ (٢) العقد الفريد ٧٣ ج ٢

(*) يتجه كثير من آيات القرآن الكريم الى التقريب بين المسلمين والنصارى كقوله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى » (المائدة ٨٢) وقد كان موقف النصارى من الاسلام على عهد الرسول موقف حياد ، بل تأييد فى بعض الاحيان ، ومال نصارى جزيرة العرب الى الدخول فى الاسلام وانتهى أمرهم بالدخول فيه جميعا . أما اليهود فكان له منهم موقف آخر : بدأوا بعداء الاسلام والانضمام الى قريش طوال الفترة المكية ، فلما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة بدأوا يصانعونه ، وأراد الرسول ان يطمئنهم فعقد معهم الكتاب المشهور الذى أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم ومصالحهم ، ولكنهم بدأوا يتغيرون عليه ، وقد عرف انهم يدبرون عليه ويؤازرون أعداءه ويصانعونه على دخن ، ولكنه تركهم أملا فى تغيير قلوبهم ودخولهم الاسلام . فلما كانت غزوة الخندق انقلبوا على المسلمين وآزروا أعداءهم علانية ، فلم يكد الاحزاب ينصرفون حتى اعلن عليهم الحرب وبدأ باجلائهم عن المدينة . وموقف القرآن الكريم منهم خلال الفترة المدنية على العموم موقف عداء صريح ، قال تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » (البقرة ١٢٠) ، وقال : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » (المائدة ٦٤) وقال : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » (المائدة ٨٢) . ولكن الشرع ساوى بينهم وبين النصارى فى المعاملة واعتبرهم جميعا أهل كتاب ، وأضفت عليهم الدولة الاسلامية حمايتها وعاشوا فى ظلها فى أمان . فبينما كانت أوروبا تضطهدهم كان لهم فى العالم الاسلامى مكانة وثروة ، وكان اليهود يهاجرون من نواحى أوروبا الى بلاد الاسلام هربا من الاضطهاد هناك ، وخاصـــة الى الاندلس حيث كانوا ينعمون بكل طمأنينة . ولولا ذلك لباد اليهود من الارض ، ومع ذلك ، فلم تكد أحوالهم تتحسن فى العصر الحديث حتى انقلبوا على المسلمين وأعلنوا عليهم حربا شعواء بلغت ذروتها فى مأساة فلسطين .

بمحاسنة أهل الذمة ، وخصوصا قبط مصر ، فقد رووا عن النبى (صلعم) انه قال : « اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبـــط خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » اشارة الى أن أم اسماعيل أبى العرب منهم ، وقال : « الله الله فى أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا »

وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشا للفتح أوصوا قوادهم بأهل الذمة خيرا ، ولا سيما النصارى ورهبانهم . واذا جاءهم أهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية ، فى مقـــابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم . ويختلف مقدار الجزية ونوعها باختلاف الاحوال ، وعلى مقتضى التراضى بين المسلمين وأهل الكتاب ، ولكل صلح شروط تختلف باختـــلاف البلاد ، ولكنها فى كل حال تقضى على المسلمين بحماية أهل الذمة والدفاع عنهم . فاذا امتنعوا عن أداء الجزية امتنع المسلمون عن حمـــايتهم ، واذا عرض للمسلمين ما يمنع حمايتهم جاز لأهل الذمة الامساك عن الدفع (١)

وفى تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة ، عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل أعمالهم ، فى مقابل ما يؤدونه من الجزية ، ككتاب النبى (صلعم) الى صاحب أيلة (فى العقبة) والى أهل أذرح فى أثناء غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة . وهاك كتاب النبى (صلعم) الى صاحب ايلة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ومحمد رسول الله ليحيى ابن رؤبة وأهل أيلة : سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشـــام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يردونه من بر أو بحر » (٢)

وهاك كتابه الى أهل أذرح وأهل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى بنى حبيبة وأهل مقنا : سلم أنتم ، فانه أنزل على أنكم راجعون الى قريتكم ، فاذا جاءكم كتابى هذا فانكم آمنون ، ولكم ذمة الله وذمة رسوله ، وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به . لاشريك لكم فى قريتكم الا رسول الله أو رسول رسول الله ، وانه لا ظلم عليكم ولا عدوان ، وان رسول الله صلى اللهعليه وسلم يجيركم مما يجير منه نفسه ، فان لرسولالله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة ، الا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله ، وان

---

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن هشام ٤٠ ج ٣

عليكم بعدذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادتعركم وربعماغتزلت نســاؤكم ، وانكم قد ثريتم بعــد ذلك ورفعكم رســول الله عن كل جزية وسخرة ، فان سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ، ومن ائتمر فى بنى حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له ، ومن أطلعهم بشر فهو شر له ، وليس عليكم أمير الا من انفسكم أو أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكتب على بن أبى طالب فى السنة التاسعة » (١) (*)

واقتــدى بالنبى (صلعم) قواده فى أثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس ، وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم فى مقابل الجزية ــ منها عهد خالد بن الوليد الذى كتبه لأهل الشام ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق : اذا دخلها أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لايهدم ، ولا يسكن شيء من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم الا بخير الا اذا أعطوا الجزية » (٢)

واليك صورة عهد أبى عبيدة الى أهل بعلبك :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك ، رومها وفرسها وعربها ، على انفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم ، وأهل المدينــة وخارجها وعلى أرحائهم ، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ، ولا ينزلوا قرية عامرة ، فان مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث شاءوا ، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ماعلينا ، ولتجارهم أن يسافروا الىحيث أرادوا من البلاد التىصالحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيدا » (٣)

وقس عليه عهود سائر الفاتحين ، مثل عمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص وغيرهما ، فى مصر والعراق وفلسطين وفارس وافريقيــة والاندلس وغيرها ، على أنهم كانوا يشترطون فى الجزية أن يؤديها أهل الذمة عن يد وهم صاغرون (**)

أما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقا باختلاف البلاد والاحوال

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ٦٠

(*) فى النسخة التى نراجع عليها : « سنة تسع »

(٢) البلاذرى ١٢١ (٣) البلاذرى ١٣٠

(**) المراد بعبارة « عن يد » أى يعطون الجزية بانفسهم ولا يرسلونها ، أما « صاغرون » فمعناها « وهم على الطاعة » . وخلاصة الآية كلها انه لايجوز لهم ان يخرجوا على الطاعة ويعتصموا ببلدهم ثم يرسلوا الجزية

التى فتحت بها ، فصلح مصر يختلف عن صلح الشام ، وصلح الشـــام غير صلح العراق

العهدة النبوية

وبين أيدى الناس نسخ من عهـــد يقولون أن النبى (صلعم) كتبه الى النصارى ورهبانهم يسمونه « العهدة النبوية » ، والنسخ المذكورة تختلف نصا وتتفق مغزى . ويقولون ان العهـد المذكور كتب بخط على بن أبى طالب ، ووضع فى مسجد النبى فى السنة الثانية للهجرة ، وحملت منه نسخ الى الاديار ، ومن ذلك نسخة كانت محفوظة فى دير طورسينا ، فنقلهـــا السلطان سليم الفاتح العثمانى الى الاستانة فى أوائل القرن السادس عشر للميلاد ، بعد أن عرضها على مجلس شرعى ، فنقلوها الى اللغـــة التركية ، وأبقوا النسخة التركية فى الدير وصورة الاصل العربى مع عهـــود برعاية حقوقهم الواردة فى نص ذلك العهد ، وحملوا النسخة العربية الاصلية الى الاستانة (١) ــ واليك نص العهدة النبوية نقلا عن كتاب «منشآت سلاطين» لأفريدون بك بعد البسملة : (٢)

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله الى كافة الناس أجمعين ، رســوله مبشرا ونذيرا ومؤتمنا على وديعة الله فى خلقه ، لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ، كتبه لأهلّ ملة النصارى ولمن تنحلّ دين النصرانية ، من مشارق الأرض ومغاربها قريبها وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها ، جعل لهم عهدا فمن نكث العهد الذى فيه وخالفه الى غيره وتعدى ما أمره ، كان لعهد الله ناكثا ولميثاقه ناقضا وبدينه مستهزئا وللعنته مستوجبا ، سلطانا كان أم غيره من المسلمين ــ وان احتمى راهب أو سائح فى جبل أو واد أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو بيعة ، فأنا أكون من ورائهم أذب عنـــهم من كل غيرة لهم بنفسى وأعوانى وأهلى وملتى وأتباعى ، لأنهم رعيتى وأهل ذمتى وأنا أعزل عنهم الاذى فى المؤن التى يحمل أهل العهد منالقيام بالخراج (*) الا ماطابت له نفوسهم ، وليس عليهم جبر ولا اكراه على شىء من ذلك ، ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته ، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ، ولا يدخل شىء من مال كنائسهم فى بناء مساجد المسلمين ولا فى بناء منازلهم ، فمن فعل شيئا من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله . ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة ، وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر أو بحر فى

---

(١) الهلالان ١٥ و ١٧ من السنة السابعة (٢) قاموس الادارة والقضاء (مادة بطركخانة)

(*) نظن أن الاصوب هنا : من بعد القيام بالخراج

المشرق أو المغرب والجنوب والشمال ، وهم فى ذمتى وميثاقى وأمانى من كل مكروه ، وكذلك من ينفرد بالعبادة فى الجبال والمواضع المباركة لايلزمهم مما يزرعونه لا خراج ولا عشر ، ولا يشاطرون لكونه برسم أفواههم ، ولا يعاونون عند ادراك الغلة ، ولا يلزمون بخروج فى حرب وقيام بجبرية ، ولا من أصحاب الخراج وذوى الاموال والعقارات والتجارات مما هو أكثر من اثنى عشر درهما بالجملة فى كل عام ، ولا يكلف احد منهم شططا ولايجادلون الا بالتى هى أحسن ، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة ، يكف عنهم اذية المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا — وان صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها ويمكنها من الصلاة فى بيعها ، ولا يحال بينهما وبين هوى دينها ، ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ، ويعاونون على مرمة بيعهم ومواضعهم ، وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ، ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبون عنهم ، ولا يخالف هذا العهد أبدا الى حين تقوم الساعة وتنقضى الدنيا » اهـ

والغالب فى اعتقادنا أن النبى (صلعم) اذا كان قد أعطى عهدا للنصارى والرهبان عموما فهو غير هذا العهد ، أو لعله كان مختصرا وطولوه ، أوتنوسى وضاع أصله فكتبوه من عندهم ، أو أن النصارى وضعوا هذا العهد من عند أنفسهم لغرض سياسى ، اذ لم يذكر خبر هذا العهد أحد من مؤرخى الفتوح أو غيرهم من كتاب المسلمين فى الازمنة الاولى ، فضلا عما فى عبارته وألفاظه مما لم يكن معروفا فى صدر الاسلام وخصوصا فى السنة الثانية للهجرة

عهد عمر

ويذكرون أيضا عهدا يعرف بعهد عمر بن الخطاب لأهل الشام ، أشار اليه غير واحد من مؤرخى المسلمين ، وقد أورده بعضهم بنصه منهم أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى المالكى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ، أورده فى كتاب « سراج الملوك » نقلا عن عبد الرحمن بن غنم الاشعرى المتوفى سنة ٧٨ ، واليك صورة العهد المذكور برواية ابن غنم قال :

« كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة (كذا) انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا الا نحدث فى مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها فى خطط المسلمين فى ليل ولا نهار . وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا نؤوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ، ولا نكتم غشا للمسلمين ، ولا

نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ، ولا ندعو اليه أحدا ، وألا نمنع احدا من ذوى قرابتنا الدخول فى الاسلام ان أراد ، وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم فى شىء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتنى بكناهم ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور . وأن نجز مقادم رؤوسنا ونلزم زينا حيثما كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا الا ضربا خفيفا ، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع الى منازلهم) فلما أتيت عمر رضى الله عنه بالكتاب زاد فيه (ولانضرب أحدا من المسلمين ، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان، فان نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم وضمنا على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق) فكتب اليه عمر (أمض ماسألوه والحق فيه حرفين أشترطهما عليهم مع ما شرطوه على أنفسهم : أنلايشتروا شيئا من سبايا المسلمين ، ومنضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده» اه (١) (*)

ويلحق بالعهد المذكور أحكام تتعلق بالكنائس وضعها عمر أيضا ، وذلك أنه أمر فهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ، ومنع من أن تحدث كنيسة بعد الاسلام ، وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه (٢)

وترى فى نص هذا العهد ضغطا على النصارى وتصغيرا لهم ، خلافا لما جاء فى سائر عهود الامان أو كتب الصلح فى صدر الاسلام ، وخلافا لما هو معروف من عدل عمر بن الخطاب ورفقه بأهل الذمة ، كما يستدل من سيرة حياته فانها تدل على صدق لهجته فى الفكر والقول والعمل ، فكان اذا أساء مسلم الى مسيحى اقتص له منه ولو كان المسلم من كبار الصحابة ، كما اقتص لذلك القبطى من عمرو بن العاص وابنه وقال لعمر : «ياعمرو مذ كم

---

(١) سراج الملوك ٢٨٣

(*) ظاهر ان هذا النص موضوع ، وضع بعد ايام عمر بن الخطاب بزمن طويل ، وقد اثبت نفر من المستشرقين ذلك . وابسط دلائل وضعه أنه لم يروه الا أبو بكر الطرطوشى فى «السراج» ؛ والطرطوشى من أهل القرن السادس الهجرى ومن طرطوشة بشمال شرقى الاندلس ، وهو يسنده الى عبد الرحمن بن غنم وهو من أهل القرن الهجرى الاول ، وهو الذى فتح أقصى شمالى الشام وارمينية ، وما بين الطرطوشى وابن غنم كثير فى الزمان والمكان

(٢) سراج الملوك ٢٨٦

تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » (١)

فنرى لاول وهلة تناقضا بين هذه المناقب ونص هذا العهد ، فيتبادر الى الذهن أنه موضوع بعد عصر عمر بأزمان ، كما قلنا عن نص العهدة النبوية ، ولكن حاله يختلف عن حالها بما يرجح صحته . فلننظر اولا فى صحة نسبته الى عمر ، ثم فى سبب التناقض الظاهر بينه وبين مناقبه

نسبة هذا العهد الى عمر

الارجح فى اعتقادنا أن عمر كتب عهدا لنصارى الشام ، ان لم يكن هذا هو بنصه فهو بمعناه على الاقل ، وسبب هذا الترجيح :

١ ــ أن العهد المذكور وارد فى كتب المسلمين بنصه الاصلى بطريق الاسناد، فالطرطوشى وان كان من أهل القرن السادس للهجرة فانه أورد نص العهد بطريق الاسناد الى الراوى الاصلى ، على عادة المؤرخين المحققين فى أوائل الاسلام ، مما يدل على أنه نقله من كتاب قديم

٢ ــ ان « سراج الملوك » الذى أورد نص هذا العهد هو من كتب الادب والسياسة المهمة ، وليس من كتب الفكاهة ، ومؤلفه من اكبر علماء الاندلس، صحب أبا الوليد الباجي وأخذ عنه مسائل الخلاف وأجاز له ، وقرأ الفرائض والحساب والادب ، وجاء بغداد ومصر وتفقه على أبى بكر الشاشى وعلى أبى أحمد الجرجانى ، وأتى الشام وسكنها ودرس بها وكان اماما فقيها عالما زاهدا ورعا . وكان مع ذلك متعصبا على النصارى يرى تحقيرهم ، واتفق انه دخل على الافضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بمصر وبجانب الافضل رجل نصرانى فوعظ الافضل حتى بكى ثم أنشد :

يا ذا الذى طاعته قربة ... وحقه مفترض واجب
انالذى شرفت منأجله ... يزعم هـذا أنه كاذب

وأشار الى النصرانى فأقامه الفضلمن موضعه (٢) ولعل تعصبه هذاحمله على اثبات هذا العهد فى كتابه ، مع رغبة أكثر الذين سبقوه فى اغفاله لما توهموا فيه من المغايرة لمناقب الخلفاء الراشدين . ولا يقال ان الطرطوشى وضع هذا العهد من عند نفسه ، لان من كان فى منزلته من الزهد والتقوى ينزه نفسه عن الكذب

٣ ــ ان أكثر مواد هذا العهد واردة فى كتب الفقه من أحكام أهل الذمة ، كما وردت فى هذا العهد بمعناها الحرفى تقريبا (٣) وأكثر هذه الاحكام كتب قبل زمن الطرطوشى . ناهيك بما جاء من ذلك فى كتب السياسة والادارة ،

---

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب (٢) ابن خلكان ٤٧٩ ج ١
(٣) الهداية ٥٧٤

وبعضها أشار الى هذا العهد اشارة صريحة وأورد بعض نصه . فقد جاء فى كتاب الاحكام السلطانية للماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (أى قبل الطرطوشى بخمس وسبعين سنة) بباب الجزية والخراج قوله : « واذا صولحوا ــ النصارى ــ على ضيافة من مر بهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة أيام لا يزادون عليها ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون ، ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة ، وتبيت دوابهم من غير شعير ، وجعل ذلك على أهل السواد دون المدن ــ الى أن قال ــ ويشترط عليهم فى عقد الجزية شرطان : مستحق ومستحب ، أما المستحق فستة شروط :

١ ــ أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له
٢ ــ أن لا يذكروا رسول الله «صلعم» بتكذيب له ولا ازدراء
٣ ــ أن لا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه
٤ ــ أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح
٥ ــ أن لا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه
٦ ــ أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يؤووا أغنياءهم

فهذه الستة الحقوق ملتزمة فتلزم بغير شرط ، وانما تشترط اشعارا لهم وتأكيدا لتغليظ العهد عليهم ، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم
وأما المستحب فستة أشياء :

١ ــ تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار
٢ ــ أن لا يعلوا على المسلمين فى الابنية
٣ ــ أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم
٤ ــ أن لا يجاهروهم بشرب الخمر ولا باظهار صلبانهم
٥ ــ أن يخفوا دفن موتاهم
٦ ــ أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهجانا الخ (١)

فقول الماوردى هذا يكاد يكون نص عهد عمر حرفيا بعد الترتيب والتبويب

فالعهد المذكور كان معروفا قبل كتاب سراج الملوك . ويؤيد ذلك أن ابن الاثير اشار اليه اشارة تدل على اعترافه بفحواه وبنسبه الى عمر ، كقوله فى حوادث سنة ٤٨٤ هـ : « وأخرج توقيع الخليفة بالزام أهل الذمة بالغيار ولبس ماشرطه عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » (٢)

---

(١) الماوردى ١٣٨ (٢) ابن الاثير ٧٦ ج ١٠

٤ ــ ان الخلفاء الاولين فى القرون الاولى للاسلام كانوا اذا أرادوا تجديد عهود أهل الذمة ، ولا سيما النصارى ، فرضوا عليهم مثل فحوى هذا العهد من تغيير الزى ونحوه ، مما يدل على اتصال هذا العهد بالقرن الاول،وأقدمهم عمر بن عبد العزيز الخليفة التقى المشهور باقتفائه آثار سميه وجده لامه عمر بن الخطاب ، وهو أول خليفة أموى أراد رد النصارى الى ما شرطه عليهم عمر ، وكانوا قد أغفلوا أكثر شروطه وخصوصا من حيث اللباس وتشبهوا بالمسلمين بلبس العمامة ، فأمرهم أن يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام . وقس على ذلك سائر الخلفاء الذين اضطهدوا النصارى ، فانهم كانوا يرجعون الى فحوى عهد عمر كما سترى (*)

عهد عمر ومناقبه

اما ما يظهر من التناقض بين هذا العهد ومناقب عمر ففيه نظر ، ولابد فى بيانه من المقابلة بين مناقب عمر وفحوى ذلك العهد :

مناقب عمر بن الخطاب

أظهر مناقب عمر العدل مع الصراحة وحرية الضمير والشدة ، والتقوى مع الغيرة الشديدة على الاسلام والرغبة فى تأييده ونشره ، فقد كان عادلا حتى لا يبالى أن يحكم على ابنه أو على نفسه ، فهو مثال للعدل مجسم لا يزال

(*) تطورت معاملة أهل الذمة مع الزمن تطورا عظيما ، ففي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبمقتضى الكتاب الذى كتبه مع اليهود ، كان هؤلاء الاخيرون معتبرين مساوين للمسلمين حلفاء للامة الاسلامية ، وفى العهد الذى كتبه الرسول لاهل نجران ضمن لهم حرية العقيدة فى مقابل جزية يؤدونها ، وفى السنة التاسعة للهجرة تقرر ألا يبقى فى جزيرة العرب الا المسلمون ، وأصبحت الشروط الخاصة بأهل الذمة جارية على من هم خارج الجزيرة ، وجرى ابو بكر وعمر على سنن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد نعم النصارى واليهود بكل ما كان ينعم به المسلمون فيما عدا جزية الرءوس ، ولم يشترط عمر عليهم الا عدم بناء كنائس جديدة فى أرض المسلمين ، ولم يعرف لهم فى عهده أو عهد بنى أمية ملبس خاص أو مركب خاص ، بل كان فى بلاط الامويين عدد كبير من النصارى يتمتعون بمكانة عظيمة ، منهم الاخطل الشاعر ويوحنا الدمشقى وغيرهما . وقد بدأ الوضع يتغير خلال العصر العباسى ، وكلما اضطرب أمر الدولة زادت القيود الموضوعة على النصارى ، وكلها من تشريع الخلفاء والفقهاء ، دون سند صريح من سنة الرسول والراشدين ، حتى اذا وصلنا الى أيام الماوردى ، فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، كان التضييق قد بلغ حدا عظيما ، وقد زاد بعد ذلك على أيام السلاجقة والاتراك والمماليك ووضعت عهود نسبت الى السلف ، ورويت أحاديث موضوعة تتنافى مع تسامح الاسلام

ولم يدرس الموضوع أحد من مؤرخى المسلمين المحدثين ، ولكن كثيرا من المستشرقين كتبوا فيه ، أهمهم Tritton فى مقالات كتبها فى المجلة الشرقية الملكية سنوات ١٩٢٨ و ١٩٢٩ و ١٩٣١ وقد ترجمها الدكتور حسن حبشى ونشرها فى كتاب عنوانه : «اهل الذمة فى الاسلام» ، وينبغى ان نلاحظ ان تريتون نفسه أصله من رجال الدين ولا يخلو من تعصب على الاسلام وأهله .

وقد قلنا ان النص المنسوب الى عمر بن الخطاب موضوع ، ويغلب انه وضع فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، لاننا لا نجد اشارة اليه قبل ذلك ، ومن الغريب أننا لانجده عند البلاذرى أوالطبرى أو ابن الاثير ، ولهذا نستطيع القطع بأن كل مافى الاصول من اشارات الى عهد عمر او معاملة عمر موضوع ولا اساس له .

المسلمون الى اليوم يتمثلون بأحكامه ويحاولون الاقتداء به ، ولم يستطع احد منهم أن يدرك شأوه . وكانت غيرته على الاسلام لا مثيل لها ، فلا يعمل عملا أو يقول قولا الا وهو ينظر من ورائه الى نشر الاسلام ورفع مناره وجمع كلمة العرب فى نصرته . فالعدل يقضى عليه أن ينصف أهل الذمة ويحاسنهم، ولكن رغبته فى نشر الاسلام كانت تظهر من خلال ذلك الانصاف. فقد أطلق حرية الدين فى مملكته ، وابقى أهل الذمة على ما كانوا عليه من أمر دينهم وطقوسهم وقسسهم وكنائسهم ، ولكنه منعهم من احداث كنائس جديدة لكى تنحصر النصرانية فيتغلب الاسلام عليها ثم يمحوها . والعدل قضى عليه أن يحسن الى نصارى العرب مكافأة لنصرتهم المسلمين فى العراق ، ففرض عليهم الصدقة بدلا من الجزية ، ولكن رغبته فى جمع كلمة العرب تحت لواء الاسلام قضت بالاشتراط عليهم أن لا ينصروا أولادهم(١)

فحوى عهد عمر :

وفحوى العهد المذكور يرجع الى أربعة شروط أولية وهى :

١ ــ الا يحدث النصارى معبدا

٢ ــ أن ينزلوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام

٣ ــ الا يؤووا فى كنائسهم جاسوسا ولا يكتموا غشا للمسلمين

٤ ــ ألا يقلدوا المسلمين بشىء من اللباس أو الركوب أو تعلم القرآن أو نقش اسمهم بالعربية على أختامهم

وانه بغير هذه الشروط لا يكون لهم أمان على أنفسهم وذراريهم وأموالهم

فالشرط الاول ينطبق على رغبة عمر فى تأييد الاسلام ونشره كما تقدم

والشرط الثانى تستلزمه حال المسلمين فى بلاد الفتح ، فقد كانوا غرباء بين أهل الذمة ، والعرب أهل ضيافة ولم يكن أهل تلك البلاد يألفون تلك العادة، فجعلها عمر شرطا واجبا عليهم رحمة بالمسلمين فى أسفارهم للحرب وغيرها (*)

---

(١) المعارف ١٩٣ والبلاذرى ١٨٣ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٢

(*) نزول الجنود على أهل البلاد وعيشهم على نفقتهم تقليد عسكرى قديم مجحف بالناس ، فقد كان جند الرومان مثلا اذا نزلوا بلدا استحلوا دخول بيوته وارغموا أهله على اطعامهم واطعام دوابهم ، وكانوا يسمون ذلك « ضيافة » ، Hospitalitas ، وكان الجنود ينتهزون هذه الفرصة ويرهقون الاهالى بمطالبهم من الطعام وما اليه . وقد حاول أباطرة الرومان ان يحددوا الضيافة بثلاثة ايام وبأنواع معينة من الطعام فلم يستطيعوا أن يحملوا الجند على ذلك . وعندما غزا الجرمان أراضى الدولة الرومانية استغلوا حق الضيافة وقاسموا الاهلين أموالهم واملاكهم على أساس الثلثين للجرمانى والثلث للرومانى ، وظل ذلك عرفا مقررا للمحاربين فى أوروبا طوال العصور الوسطى ، وكان يعرف بحق الايواء droit de gîte ، أما فى المصطلح الاسلامى فيعرف بالنزالة ولم يقرر المسلمون لجنودهم حق النزالة على أيام الراشدين ، بل لم نسمع عنه ايام بنى أمية ، ومن هنا فاننا نستبعد ان يكون هذا العهد قد كتب فى أيام عمر ، ويلاحظ أن تحديد النزالة بثلاثة ايام واعفاء الناس من تقديم أصناف معينة للجنود كالدجاج وما اليه ، واعفاءهم من تقديم شعير للدواب ، كل ذلك كان من صالح أهل البلاد وحماية لهم من الجند ، وقد وضع فى زمن متأخر على كل حال .

أما الشرطان الثالث والرابع فلابد فى تطبيقهما على أخلاق عمر من مقدمة صغيرة ...

نصارى الشام وقيصر الروم

أول ما يلاحظ فى هذا العهد أن عمر أخذه على نصارى الشام دون سائر أهل الذمة فى الشام ودون نصارى سائر الامصار . فهو لا يسرى على قبط مصر او نبط العراق ، ولا على صابئة حران ولا مجوس فارس ، ولا على اليهود فى بلد من البلاد . فلابد لذلك من سبب متصل بما حواه ذلك العهد من الشدة ، والا فلماذا لم يجعله عاما على سائر بلاد الاسلام ؟ ولماذا لم يدخل فيه اليهود والصابئة وغيرهم من أهل الذمة ؟ وزد على ذلك أنهم ينسبون الى عمر عهدا (١) آخر لأهل الذمة كافة ، وليس فيه ضغط ولا تضييق وانما مرجعه الى التسامح والرعاية والحماية ، ويشبه العهدة النبوية فى أكثر نصوصه ، ورأينا فيه مثل رأينا فى تلك العهدة : لان عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام ، ولم يذكره أحد من كتاب المسلمين القدماء ، ولكنه يوافق روح ذلك العصر بفحواه لمشابهته أكثر عهود الصلح التى كتبت يومئذ وذكرنا بعضها فيما تقدم . فمن المعقول أن يعطى عمر لاهل الذمة عهدا بهذا المعنى، لانه ينطبق على عدله ورفقه فى معاملتهم ، وهو عام لهم يشمل كل طوائفهم

أما العهد الذى نحن بصدده فقد أعطى لنصارى الشام على الخصوص ، وكأنه اختصهم بالتضييق . فهو لم يفعل ذلك الا لسبب دعاه اليه . والغالب فى اعتقادنا أنه اشترط هذه الشروط صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعى أهلها النصارى ، اذ يكونون عيونا للروم على المسلمين ، لمابينهم وبين الروم من الرابطة الدينية ، وهى أقوى الجامعات فى الشرق من أقدم أزمانه الى هذا اليوم . فكل طائفة من الطوائف الشرقية تفضل أن يحكمها حاكم من مذهبها ولو كان ظالما ، على أن تخضع لحاكم من غير دينها ولو كان عادلا . وفى التواريخ شواهد كثيرة تؤيد هذا القول حتى فى عصرنا الحاضر ، مع ما داخل نفوس المشارقة من التسامح الدينى . فان كل طائفة من أهله تفضل أن يحكمها ابن دينها ، لا تبالى بعدله أو ظلمه . النصرانى يفضل حاكما مسيحيا ، والمسلم يفضل حاكما مسلما ، فكيف بتلك العصور والدين مرتبط بالسياسة ؟

ونصارى الشام أذعنوا للجزية ، ودخلوا فى سلطان المسلمين ، وظلوا على ما كانوا فيه من حيث الدين وطقوسه ، يقيمون الصلاة فى كنائسهم كما كانوا يقيمونها قبل الاسلام ، يأتيهم القسس والاساقفة من القسطنطينية أو

---

(١) قاموس الادارة والقضاء « مادة بطركخانة » نقلا من منشآت سلاطين

انطاكية ، ولسانهم لسان دولة الروم ومعتقدهم مثل معتقدها . وقد بينا فى غير هذا المكان أن الفتح الاسلامى كان فى صدر الاسلام احتلالا عسكريا ، ولم يكن المسلمون يتعرضون للمسيحيين فى شيء من طقوسهم الدينية ولأحوالهم الشخصية ولا أحكامهم القضائية ، وكانوا يعترفون لصاحب القسطنطينية بسيادته فى ذلك على نصارى الشام . فاذا حدث ما يمس هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة ، وخصوصا من حيث الكنائس . وكان الخلفاء يراعون عهودهم فى هذا الشأن ، حتى اذا استفحل أمر بنى أمية خرقوا حرمة تلك العهود كما خرقوا سواها مما أقره الراشدون

ذكروا أن الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس فقال : « ما هذا ؟ » قيل : « بيعة » فأمر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون فرفع النصارى أمرهم الى قيصر القسطنطينية فكتب الى الوليد : « أن هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك ، فان يكونوا اصابوا فقد أخطأت ، وان تكن أصبت فقد أخطأوا » (١) ولم يجد اعتراضه نفعا . ولكن ذلك يدل على أن نصارى الشام كانوا فى صدر الاسلام تحت حماية الروم ، أو هم يعدون قيصر الروم حاميا لكنائسهم ، كما يعتقدون الآن فى بعض دول أوربا . فضلا عما غرس فى قلوبهم من حب دولة الروم بواسطة كهنتهم وتعاليمهم . وهب أنهم كانوا ناقمين على تلك الدولة من بعض الوجوه الدينية ، فأصبحوا بعد دخولهم فى سلطة العرب يفضلون بقاء القديم على قدمه ، وذلك عادى فى الامم التى تعودت الرضوخ لسواها ، فانها لا تستقر على حال ولا يهون اخضاعها الا بطريق الدين . ناهيك بما كان يجدده الكهنة والاساقفة من أسباب الميل الى قيصر القسطنطينية ، والفتح يومئذ حديث والقيصر يرجو استرجاع تلك البلاد الى سلطانه ، على أن يستعين على ذلك بأهل مذهبه المقيمين بجوار المسلمين فيتخذهم عيونا له عليهم

وكان بعض نصارى الشام لا يدخرون وسعا فى هذا السبيل ، فينقلون أخبار المسلمين الى الروم ، واذا جاء جواسيس الروم آووهم فى منازلهم وأعانوهم فى أستطلاع الاخبار . فربما دخل النصرانى بين المسلمين وهو فى مثل لباسهم ، وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم ، وحفظ شيئا من القرآن ليوهم المسلمين أنه منهم . والشام لم يتم فتحها بعد ، وعمر لا يزال يخاف انتقاضها لبعدها عن مركز الخلافة . فخوفا من مثل ذلك اشترط على أهلها أن لايتشبهوا بالمسلمين فى شيء من اللباس أو الركوب وغيره ، وان لايؤووا احدا من جواسيس الروم ، ولا يكتموا غشا للمسلمين

ولنحو هذا السبب أيضا أوصى عمر أن لا يستعملوا أهل الكتاب ، لانهم أهل رشى ولان بعضهم أولياء بعض . ويقال أن أصل هذا المنع منقول عن النبى فى حديث جرى له يوم خروجه الى بدر (٢) على ان هذه الوصية

---

(١) المسعودى ١١٣ ج ٢ (٢) سراج الملوك ٢٨٤

لم يمكن العمل بها لاضطرار المسلمين الى من يعرف الحســـاب والكتابة ، وخصوصا فى أول الاسلام اذ كانت الدواوين لا تزال بلغاتها الاصلية

فالارجح عندنا ان عمر كتب عهدا لنصارى الشام (أو استكتبهم عهدا) ان لم يكن هذا نصه فهو فحواه ، ولا يستبعد وقوع بعض التغيير فى نصـــه بعد ذلك . ان السبب فيما حواه من الشدة خوفه من نصارى الشام ، لانهم أقرب نصارى الشرق الى كنيسة القسطنطينية . أما القبط فقد كانوا أعداء تلك الكنيسة ، وهم الذين واطأوا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح . وانه لم يفعل ذلك للتضييق على النصارى تعصبا للدين او كرها للنصرانية . ثم أطلق المسلمون هذا العهد على سائر اهل الذمة (*)

(*) ليست لدينا أى اشارة صريحة الى ذلك العهد فى أى من مراجعنا الرئيسية ، ولم يقل مؤرخ بأن عمر سلم بأن يكون ولاء نصارى الشام لقيصر القسطنطينية . بل انه من الثابت ان دخول المسلمين الشام كان معناه انفصال كنائسه عن كنيسة القسطنطينية . وانما حدث فيما بعد ، خلال القرن الرابع الهجرى ، عندما تفككت أوصال الدولة العباسية وتقدم البيزنطيون فاستعادوا أنطاكية لفترة قصيرة ، ودخلوا حلب واخرجوا منها أكثر من مرة ، أن كسبت الكنيسة البيزنطية بعض الحقوق على نصارى الشام ، وقد سلم لهم بذلك الحمدانيون أصحاب حلب والموصل بسبب ضعفهم وعجزهم عن حماية رعاياهم . وقد بلغ ذلك التيار ذروته فى استيلاء الصليبيين على الشام ، فقد اجتهد اباطرة الدولة البيزنطية فى ان يكون لكنيسة القسطنطينية اشراف على كنائس الشام ، وقد دام ذلك حتى تم اخراج الصليبيين من الشام على يد صلاح الدين ومن أتى بعده من الايوبيين والمماليك

أما القول بأن كنيسة القسطنطينية كان لها أشراف على كنائس الشام وضعته بعض الدول الاوروبية أثناء ضعف الدولة العثمانية ، فقد كانت هذه الدول تتنافس فى اقتســـام أراضى الامبراطورية العثمانية ، وحرصت كل دولة اوروبية على ان يكون لها ولاء النصارى الذين على مذهب كنيستها ، وسلمت لهم الدولة العثمانية فى ضعفها بذلك ، فأصبح لكنيسة القسطنطينية اشراف على كنائس الروم الارثوذكس ، وهم غالبية نصارى الشام ، واجتهدت فرنسا فى تقوية الموارنة وربطتهم بالكرسى البابوى ، وحرص الانجليز والامريكيون على تقوية البروتستانتية واتباع كنائسها لكنائس بلادها . واجتهد مستشرقو كل من هذه البلاد فى التماس ادلة تاريخية تؤيد دعوى اشراف كنائس بلادهم على النصارى الذين على مذهبهم ، معتمدين على تصريح كان سلاطين آل عثمان قد أعطوه لملوك فرنسا يبيح لهم حق رعاية رعايا الدولة الذين على مذهبهم . وقد وجد أولئك المستشرقون فى بعض كتب النصارى التى كتبت فى الاعصر المتأخرة عهودا موضوعة ومنسوبة الى عمر بن الخطاب أو الى خلفاء بنى العباس ، فاعتمدوا عليها تأييدا لدعوى بلادهم السياسية ، ولهذا ، فبينما نجد المنصفين من المؤرخين من أمثال فلهاوزن لايشيرون الى هذه العهود ، نجد المتعصبين منهم من امثال هنرى لامنس وليونى كايتانى يتمسكون بها ، مع عدم وجودها فى أى مرجع من المراجع الرئيسية التى نعتمد عليها ، بل ليس لها أثر عند ابن عساكر ، وهو صاحب أطول تاريخ للشام وأكثره تفصيلا ، وكذلك القلانسى صاحب تاريخ دمشق ، بل ليس لها أثر فى « تاريخ بطاركة الاسكندرية » لساويرس بن المقفع (نشره زايبولد ثم نشر جزءا منه الدكتور سوريال عطية)

انظر ، خلاف المراجع العربية المعروفة :

De Goeje, Mémoire sur la conquête de la Syrie. Leyde 1900.
Wellhausen, Das arabische Reich und sein Sturz. Berlin 1902
L. Caetani, Annali dell'Islam, Vol. III.
H. Lammens, Etudes sur le règne du calife Umayade Moawiya Ier, Beyrouth, 190
L. Bréhier, L'Eglise et l'Orient au Moyen-Age. 1907
De Vogüe, Les Eglises de Terre-Sainte, Paris 1860.
Gaudefroy-Demombynes. La Syrie à l'époque des Mamlouks. Paris 1923.
H. Lammens, Relations officielles entre la Cour romaine et les Sultans mamlouks d'Egypte. Dans: Revue de l'Orient Chrétien, 1863.
Testa, Recueil des Traités de la porte Ottomane avec les puissances étrangères. 6 Vol. Paris 1864.

الامويون وأهل الذمة

كذلك كانت احكام أهل الذمة لما أفضت الخلافة الى بنى أميـــة ، وكانوا لا يخافون الروم على الشام ، لان مقر خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطىء وتغلبوا على أهلها ، وصاروا يغزون الروم فى البحر . عى انهم ضيقوا على أهل الذمة من جهة الجزية فى جملة مساعيهم فى حشد الاموال لاصطنـــاع الاحزاب والتمتع بأسباب الدنيا ، فزادوا الجزية والخراج وشـــــددوا فى تحصيلهما ، وضيقوا على الناس حتى أخذوا الجزية ممن أسلم . وأما من بقى على دينه من أهل الكتا بفكانوا يسومونهم سوء العذاب ، ويحتقرونهم لانهم ليسوا عربا ولا مسلمين . ولا غرابة فى ذلك بعد ما علمت من احتقار بنى أمية لغير العرب من المسلمين . وكانوا يعدون الناس ثلاث درجات أولها العرب ، ثم الموالى ، ثم أهل الذمة . ويؤيد ذلك رأى معاوية فى أهل مصر ، قال : « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف : فثلث ناس ، وثلث يشبه الناس ، وثلث لا ناس . فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب ، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالى ، والثلث الذين هم لاناس فالمسالمة » يعنى القبـــط (١) (*)

ولما رأى القبط أن الاسلام لا ينجيهم من الجزية أو العنف فى تحصيلها ، عمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة ، والرهبان لا جزية عليهم ، فأدرك عمال بنى أمية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان ، وازدادوا غيظا منهم حتى اراد بعضهم اقتضاءها من الاموات فضلا عن الاحياء ، بأن يجعلوا جزية الموتى على أحيائهم (٢) وأمثال هذه الحوادث كثيرة فى عهد بنى أمية ، ذكرنا كثيرا منها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب مع الطرق التى كان يتخذها عمال بنى أمية لابتزاز الاموال من أهل الذمة (**)

---

(١) المقريزى ٥٠ ج ١

(*) روى ذلك الخبـــر المقريزى فى الخطط ، وظاهر ان القول موضوع على لسان معاوية ، فهو أولا لم يزر مصر حتى يستطيع أن يقول : وجدت أهل مصر ، ومن أين يتأتى له العلم بأهل مصر وطبقاتهم اذا كان لم يعرفها معرفة مباشرة ؟ وثانيا : لم يكن الموالى فى مصر من الكثرة بحيث يكونون طبقة من طبقات السكان ، فلم يدخل فى ولاء العرب من أهل مصر الا نفر قليل جدا . والموالي القليلون الذين كانوا فيها هم موالى العرب ، وثالثا : ان عبارة « لاناس » ليست عربية فصيحة تصدر عن مثل معاوية ، وقد أخذ الناس بعد أيام معاوية بمائة وخمسين سنة على ابى نواس استعماله عبارة شبيهة بهذه

(٢) المقريزى ٢٩٥ ج ١

(**) لم يكن المراد بذلك جباية جزية على الاموات ، بل المراد ان المال المفـــروض على كل قرية تقرر جملة واحدة أول الامر بدون تفصيل خراج أو جزية ، وقد قام الاقباط بعد ذلك بتقسيمه على أفراد أهل القرية ، وكان العرب يريدون أن يأخذوا هذه المبالغ المقررة كل عام دون النظر الى مايحدث من تغيير فى وضع بعض الناس كدخولهم الاسلام أو ترهبهم أو انتقالهم من القرية ، فضلا عمن كان يموت منهم . وقد طالب القبط باحتساب هذه التغيرات وحطها من قيمة الخراج فرفض العرب ، حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأمر بوضع الجزية عمن اسلم ، ثم بدأ بعد ذلك حساب الضرائب على أساس الواقع ، ولم يكن من ذلك بد ، خاصة بعد أن أسلم الكثيرون ولم يعودوا خاضعين للجزية وتغير وضع أراضيهم فأصبحت عشرية بعد أن كانت خراجية

فعل الامويون ذلك واغضوا عن شروط عمر ، حتى اذا أفضت الخلافة الى حفيده ومريده عمر بن عبد العزيز كان من جملة ما قلده فيه أنه كتب الى عماله باحياء ذلك العهد كقوله : « وأمروا من كان على غير الاسلام أن يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ، ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ، ولا تتركوا أحدا من الكفار يستخدم أحدا من المسلمين ، ولا تستخدموا أحدا من أهل الذمة » (١) ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الاذان (*)

ونظرا لاهتمام بنى أمية بجمع الاموال للاسباب التى قدمناها ، وأهل الذمة أقدر على مساعدتهم فى جمعها من سواهم ، لاقتدارهم فى الحساب والكتابة واعمال الخراج ، استخدموهم فى هذا السبيل رغم ارادتهم ، ولم يكن يهمهم ذلك من وجه دينى لنشر الاسلام أو حصر النصرانية ، ولولا ذلك ما ولوا خالدا القسرى العراقين ، وأمه نصرانية رومية كان يراعى جانبها ويكرم النصارى من أجلها ، فاعتز النصارى فى أيامه . وأراد خالد أمه على الاسلام فلم تسلم ، فابتنى لها بيعة فى ظهر القبلة بالمسجد الجامع فى الكوفة، فكان المؤذن اذا أراد أن يؤذن ضرب لها بالناقوس (٢) وكان خالد يولى النصارى والمجوس على المسلمين عكس وصية عمر بن عبد العزيز ، ويطلق أيديهم فى الحكومة فيستبدون بالمسلمين . وعمر بن أبى ربيعة الشاعر المشهور كانت أمه نصرانية ماتت والصليب فى عنقها (٣) وكان النصارى فى أيام بنى أمية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم أحد . وكان الاخطل الشاعر النصرانى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن ، وهو سكران وفى صدره صليب ولا يعترضه أحد ، ولا يستنكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون به فى هجو الانصار (٤)

على أن الخلفاء من بنى أمية كانوا اذا قربوا نصرانيا أو يهوديا طلبوا اليه أن يدخل فى الاسلام ، فلا يمنعه من الرفض مانع ، الا من يغضب الخليفة

---

(١) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ وابن الاثير ٣١ ج ٥

(*) روى ذلك أيضا المقريزى فى الخطط (١/٩٨) وابو المحاسن بن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » (١/٢١٠) وساويرس بن المقفع فى « سير الآباء البطاركة » ، ج ٥ ص ٧١ — ٧٢ ، وهذا الاخير يحمل على عمر بن عبد العزيز حملة شديدة بسبب ذلك ويقول انه « كان يفعل خيرا عظيما أمام الناس ويفعل السوء أمام الله » اذ أمر باعفاء الاساقفة والكنائس من الخراج وعمر المدن التى خربت وأبطل الجبايات (الضرائب غير الشرعية) ، فعاش الاقباط فى أمن وهدوء ، ولكنه مالبث أن أرسل كتابا يأمر فيه الاقباط بالتخلى عن أعمالهم فى الدولة ، ماداموا على دينهم ، أما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله فليكن على الاسلام . ولهذا سلم الاقباط مابيدهم من الوظائف والاعمال الى المسلمين » . ويقول الكندى : انه فى خلافة عمر بن عبد العزيز « نزعت موازيت (رئاسة القرى) القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها » (كتاب القضاة ص ٧١) . غير أن الواقع ان هذه الاوامر لم تنفذ ، فاحدى الاوراق البردية المحفوظة فى هيدلبرج وتاريخها سنة ١٧١ هـ فيها اسم مازوت قبطى .
أنظر سيدة اسماعيل الكاشف : « مصر فى فجر الاسلام » (القاهرة ١٩٤٧) ص ٢٠٠ — ٢٠١

(٢) الاغانى ٥٩ ج ١٩ (٣) الاغانى ٣٢ ج ١ (٤) الاغانى ٧٤ و ١٧٨ ج ٧

عليه ولم يكن يحتاج اليه فينتقم منه ، كما أصاب شمعلة وكان من رهط الفرس نصرانيا ، فدخل على بعض خلفاء بنى أمية فقال له : « أسلم يا شمعلة » قال : « لا والله لا أسلم أبدا ، ولا أسلم الا طائعا اذا شئت » فغضب وأمر فقعطت بضعة من فخذه وشويت بالنار وأطعمها . أما الاخطل فان عبد الملك قال له مرة : « ألا تسلم فنفرض لك فى الفىء ونعطيك عشرة آلاف ؟ » قال : « كيف بالخمر ؟ » قال : « وما نصنع بهـا ؟ وان أولها لمر وآخرها لسكر » فقال : « اما اذا قلت ذلك فان بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها الا كلعقة من الفرات بالاصبع » فضحك

أما عمال بنى أمية فكانوا يضايقون النصارى فى استخراج الاموال ، فمن سهل لهم استخراجها اكرموه . وفى خطط المقريزى فصول فى انتقاض القبط فلتراجع هناك (١)

الخلاصــــة

وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية أساس سياستها طلب السلطة والتغلب ، فاستعان أصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الاحزاب. فجرتهم تلك العصبية الى انقسام العرب الى قبائلها كما كانت فى الجاهلية وانقسمت أيضا الى عصبيات وطنية . وبالغوا فى التعصب للعرب وامتهان غير العرب من الموالى وأهل الذمة . وأعوزهم اصطناع الاحزاب الى الاستكثار من الاموال لانفاقها فى اجتذاب قلوب الرجال . والاستكثار منها بعثهم على الظلم فى تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل ، ومدوا أيديهم الى أموال الصدقة وغيرها ، واستأثروا بالفىء ، ورأوا أعداءهم العلويين يطلبون الخلافة بالحق ، وسلاحهم الدين والتقوى واذا جادلوهم غلبوهم ، فاستخفوا بالدين تحقيرا لاهله وعمدوا الى الدهاء والحيلة والاغضاء عن الاريحيـــة ، وبالغوا فى الشدة والعنف واشتهر ذلك عنهم ولم ينكره أحد من المؤرخين حتى أهلهم من أعقابهم . فأبو الفرج صاحب الاغانى اموى (٢) وأكثر مايعرف من مساوىء بنى أمية مقتبس من كتابه

والفضل فى ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتهروا بالدهاء والسياسة والتدبير ، حكم كل منهم نحو عشرين سنة وهم : معاوية بن أبى سفيان (حكم من سنة ٤١ ــ ٦٠ هـ) وعبد الملك بن مروان (من ٦٥ ــ ٨٦ هـ) وهشام ابن عبد الملك (من سنة ١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) وكا نالمنصور العباسى لما أفضت الخلافة اليه يتتبع هشام فى سياسته (٣) وأما عمر بن عبد العزيز فقد كان أحسنهم تدينا ، ولكنه جاءفى غير أوانه فلم يطل مقامه . ولولا هؤلاءالسواس

---

(١) المقريزى ٧٩ و ٣٠٢ و ٤٩٣ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٢٩ ج ٨ (٣) المسعودى ١٣٢ ج ٢

لذهبت الدولة من أيديهم عاجلا ، لما تداول الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء أهل الترف واللهو والقصف . وأولهم يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٤ هـ فقد كان مغرما بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقرودوالفهود، وكان يحب الطرب والمنادمة على الشراب ، فجرى عماله على مثاله واظهروا الشراب ، وفى أيامه ظهر الغناء فى مكة والمدينة واستعملت الملاهى ، ولم يكن المسلمون يعرفونها من قبل ذلك (١)

ومنهم يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٠٥ هـ ويسمونه خليع بنى أمية ، فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وسار فى طريق غير طريقه ، فشغف بجاريتين اسم احداهما سلامة والاخرى حبابة فقطع معهما زمانه، وغنت يوما حبابة :

بين التراقى واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال : « أريد أن أطير » وأهوى ليطير فقالت : « يا أمير المؤمنين لنا فيك حاجة » فقال : « والله لأطيرن » فقالت : « على من تدع الامة ؟ » قال : «عليك» وقبل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : « سخنت عينك فما أسخفك ! » . وخرج يوما ليتنزه فى ناحية الاردن ومعه حبابة ، وبينما هما فى الشراب رماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت . فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها ، حتى أنتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر اليها ويبكى ، فكلموه فى أمرها حتى أذن بدفنها وعاد الى قصره كئيبا حزينا وسمع جارية له تتمثل بعدها :

كفى حزنا بالهائم الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى ، وبقى بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس ، أشار عليه اخوه مسلمة بذلك مخافة ان يظهر منه ما يسفهه عند الناس (٢) ولم يحكم الا أربع سنوات

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦ هـ وكان خليعا سكيرا همه الصيد وشرب الخمر ، حتى جعل الخمر فى برك يغوص فيها ويشرب (٣) واول شيء فعله لما ولى الخلافة انه بعث الى المغنين فى المدينة ومكة واشخصهم اليه ، واستقدم أهل المجون والخلاعة ونادمهم ، وبالغ فى التهتك والمكر ولكنه لم يحكم الا سنة واحدة

على أن العرب أعظموا تهتك بنى أمية من أيام يزيد بن معاوية ، واستغربوا

---

(١) المسعودى ٦٨ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٥٧ ج ٥ (٣) الاغانى ٩٨ ج ٣

البيعة له ، فكيف بعد الذى شاهدوه من يزيد والوليد وغيرهما ، حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم :

ان البـرية قد ملت سياستكم   فاستمسكوا بعمودالدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم   ان الذئاب اذا ما الحمت رتعـوا
لا تبقـــرن بأيديكم بطـونكم   فثم لا حسرة تغنى ولا جـــزع

فأين هؤلاء من دهاة بنى أميـة الذين ذكرناهم ، ولم يكن فيهم من يمس الخمر أو يتماجن أو يتخالع ؟ حتى هشام بن عبد الملك ، مع انه جاء فىأواخر الدولة ، فكان لا يشرب الخمر ولا يسقى احدا فى حضرته مسكرا ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه (١)

فلما انغمس بنو أمية فى الترف والقصف ، مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالى واساءتهم الى أهل الذمة وسائر أهل القرى ، بما كانوا يسومونهم اياه من نهب غلتهم فى أثناء السفر ــ اذ كان جند المسلمين فى أواخر ايام بنى أمية اذا مروا بقرية غصبوا من يمرون بهم أموالهم (٢) ــ فأصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم ، ولم يمض الا سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها (*)

---

(١) الاغانى ١٦٧ ج ٥   (٢) ابن الاثير ١٤٦ ج ٥

(*) حملت الدولة الاموية من أول الامر اسباب زوالها فى صلب تكوينها ، فقد انتزع معاوية بن أبى سفيان الخلافة انتزاعا دون نظر الى رأى عامة المسلمين او ما جرى عليه العرف الى ذلك الحين فى تولية الخلفاء ، وكان الرأى العام الاسلامى لايرى له فيها حقا ، حتى الذين كانوا لا يريدون عليا لم يقولوا بأن معاوية احق بها من غيره ، وكان هو نفسه يشـعر انه اغتصـب الامر اغتصاباً ، ولهذا لجأ الى المصانعة واسكات اصوات المعارضين بالمال حينا وبالقـوة حينا آخر ، لا لمجرد أنه امتاز بهذه الصفة غير محددة المعنى ، التى يصفه بها المؤرخون وهى « الحلم » ، بل لانه لم يكن يستطيع الا ان يكون حليما ، فان الناس من حوله كانوا يستكثرون الامر عليه ، ويرون انه اغتصبه ليستمتع بخيراته ، فأقبل يشرك الناس فيما يصل اليه من الاموال ، حتى يشعروا انه وان كان قد حاز الخلافة الا ان لهم من خيراتها نصيبا ، فمضى يعطى بملء اليدين ، وكان اكرم على خصومه منه على انصاره ، مما أشعر الخصـوم بأنهم ، مهما كان الامر ، قد كسبوا من خلافته شيئاً . ومادام معاوية لم يستند الى رأى المسلمين أو الى عواطفهم فقد جعل قاعدة خلافته تلك القبائل التى اعانته على النصر ، ولهذا فانه لم يكن خليفة بقدر ما كان شيخا قبليا ، وكانت سياسته سياسة شيخ قبيلة ، واهدافه أهداف شيخ قبيلة ايضا ، فهو اذا كان قد اقام خلافة من نوع جديد لم يعرفه المسلمون ، وهى الخلافة الملكية ، فانه لم يعرف كيف يضع أسسا لهذه الدولة ، فلا هو نظم جيشها ولا ماليتها ولا اداراتها ، وانما مضى الامر فى أيامه على هواه ، وكلما عرضت مشكلة حاول ان يحلها حلا مؤقتا : باعطاء المال او بارسال جيش ، وقد ترك معظم المشاكل دون حل . فلم يكد يموت حتى تجددت فى شكل اشد حدة ، وجرؤ الناس على ابنه وكثرت الثورات ، واضطر يزيد الى اخمادها بوسائل زادتها تعقيدا ، فمقتل الحسين مثلا خلق مشكلة اعوص من مشكلة مجرد مطالب بالخلافة ، بل خلق مشكلة الشيعة كاملة

وكان المروانيون أبعد عن سياسة الملك من السفيانيين ، فقد كان مروان بن الحكم شيخا قبليا صرفا لا يعرف الا الحيلة والحرب ، والدول لا تساس بالحيلة والحرب ، ثم جاء ابنهعبدالملك وكان قاسيا عنيفا ، لايتصف بما اتصف به معاوية ، فمضى يضرب خصومه حتى امتلأت القلوب

العصر الفارسي الأول

العصر الفارسي الأول

من خلافة السفاح سنة ١٣٢ هـ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ

دعونا هذا العصر فارسيا مع أنه داخل فى عصر الدولة العباسية ، لان تلك الدولة على كونها عربية من حيث خلفائها ولغتها وديانتها ، فهى فارسية من

حقدا عليه وعلى بيته ، وكان حقد العرب عليه اكبر من حقد الموالى ، ومات هو ايضا مخلفا مشاكل عويصة دون حل ، فلا الدولة وضع لها نظام ، ولا المسلمون رضوا عنه ، ولا خرج الامر عن انه اغتصاب قبائل معينة للامر بالقوة والقهر

واذ كان اعتماد بنى أمية على عرب الشام ، فان أى انكسار فى وحدة هذه القبائل كان معناه ضياع الدولة . وقد كان التنافس بين مضر واليمن قائما من ايام معاوية ، ولكنه لم يظهر فى صورة خطرة الا بعد عمر بن عبد العزيز ، واول صورة مريرة نشهدها له كانت فى النزاع بين يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك ، وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تعليل هذا النزاع ، ولكن سببه الحقيقى هو التنافس بين كبار رجال الدولة وامراء البيت الاموى ، فان رجالا مثل زياد بن أبيه وابنه عبد الله بن زياد والمغيرة بن شعبة والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبى صفرة وابنه يزيد كانوا يرون انهم أعمدة الدولة ، وانها قائمة بهم لابأمراء البيت الاموى ، وكان لهم من المكانة والوجاهة والسلطان والمال مايضاهى ما للخلفاء انفسهم ، ولهذا فقد كانوا يتعالون على أمراء البيت الاموى ولا يستمعون الى مطالبهم ، على اعتبار ان هؤلاء الامراء لن يصير منهم الى الخلافة الا من يريد رجال الدولة ، ولهذا فقد كان الامراء موغرى الصدور من هؤلاء الرجال ، لايكاد احد منهم يتولى الخلافة حتى يعصف بمن كان يرفض مطالبه منهم ، كما فعل سليمان بن عبد الملك مع موسى بن نصير ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وآل الحجاج ، وكما فعل هشام بخالد بن عبد الله القسرى . وشيئا فشيئا خلت الدولة من الرجال ، فلا نجد منهم ايام الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد احدا . ويصور لنا ذلك التنافس بين رجال الدولة وامراء بنى أمية قصة يحكيها ابن الاثير ، ونستشهد بها هنا ، لا على انها حقيقة بل على انها رمز ، فقد روى ان يزيد بن المهلب خرج يوما من الحمام فى عهد سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغالية ، فمر بيزيد بن عبد الملك ، وهو الى جانب عمر بن عبد العزيز ، فقال يزيد : « قبح الله الدنيا ! لوددت ان مثقال الغالية بألف دينار ، فلا ينالها الا كل شريف » ، فسمع المهلب قوله فقال له : « بل وددت ان الغالية لاتكون الا فى جبهة الاسد ، فلا ينالها الا مثلى » فقال له يزيد : « لئن وليت يوما لاقتلنك » فقال له ابن المهلب : « والله لئن وليت هذا الامر وانا حى لاضربن وجهك بخمسين الف سيف ! »

واذ لم يكن لدولة بنى أمية عماد من القانون فلم يكن لها بد من الاستناد الى القوة ، وكانت قوتهم فى اتحاد عرب الشام حولهم ، فلما اتجهوا الى التفريق بين المضرية والقيسية ضعف العماد ووهى بنيان الدولة ، فكان لابد ان تسقط

ثم ان اغتصاب بنى أمية للامر جعل الناس جميعا أعداء لهم ، فعداء العراق لهم معروف ، وكذلك كان حالهم مع الحجاز ومصر ، وثار بهم العلويون والخوارج ، واقبل الناس يؤيدون الثائرين ، فجعل الامويون يرمون خصومهم بالجيش بعد الجيش ، وقد انتصرت جيوشهم فى معظم الوقائع ، ولكن كل واقعة منها كانت تستهلك جانبا من حماتهم ، حتى اذا كانت ايام مروان بن محمد كانت الوقائع قد استهلكت حماتهم ، فضعفت جيوشهم وسهل على ابى مسلم الخراسانى ان يهزمهم

أما الترف واللهو فليسا بسببين حقيقيين من اسباب زوال الدولة ، وقد كان معظم خلفاء بنى أمية بعيدين عن الاسراف فى المتاع ، واذا كانت دولة بنى امية قد دامت نحو التسعين سنة ، فان معاوية بن ابى سفيان وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك وحدهم حكموا منها ستين ، وحكم مروان سنتين ، والوليد بن عبد الملك عشرا ، وسليمان اربعا ، وعمر بن عبد العزيز سنتين ، ومروان بن محمد خمسا ، ومجموع هذه ثلاث وعشرون ، اذا أضيفت الى الستين كان المجموع ستا وثمانين سنة ، تولى الامر فيها خلفاء بعيدون عن اللهو والترف ، والباقى اربع سنوات هى التى حكم خلالها يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد ، وهما وحدهما اشتهرا من بين بنى أمية بالمجون واللهو

واذا كان الخلفاء الراشدون خلفاء حقا ، فقد كان الامويون ملوكا لاخلفاء ، وبدأ العباسيون خلفاء ملوكا ثم صاروا ملوكا خلفاء ، ثم أصبح الامر ملكا وسلطنة وزعامة عسكرية بعد ذلك

حيث سياستها وادارتها ، لان الفرس نصروها وأيدوها ، ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شؤونها ، ومنهم وزراؤها وكتابها وحجابها . وقد حملهم على القيام بنصرتها ماعلمته من عصبية بنى أمية على غير العرب ، واحتقار الموالى وأكثرهم من الفرس ، فكانوا ينصرون كل ناقم على تلك الدولة من الشيعة والخوارج. على أنهم كانوا أكثر رغبة فى نصرة الشيعة ، لما رأوه فى دعوتهم من قوة الحجة يومئذ ، لانهم يدعون الى بيعة صهر النبى أو أبناء بنت النبى . فكان العلويون يبثون دعايتهم فى العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد البعيدة عن مركز الخلافة الاموية ، والفرس يبايعونهم وينصرونهم على أمل التخلص من ظلم بنى أمية

ثم قام بنو العباس لطلب الخلافة ، وفازوا بها على يد أبى مسلم الخراسانى، واستعانوا بانقسام العرب يومئذ ونقمة اليمنية على بنى امية ، ولم يبق من العرب من ينصر الامويين الا مضر ، فاستعان أبو مسلم باليمنية على الامويين، حتى فاز بمشروعه . واليك البيان

انتقال الخلافة الى العباسيين

الشيعة العلوية

ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا وآل على بن ابى طالب يطالبون بالخلافة ويسعون فى ادراكها . وأول من طلبها بعد على ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هـ ، فغضب أشياع العلويين فى الكوفة من تنازله وهاجوا ــ وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير ، فشدد فى اخماد الثورة وقتل جماعة من أشياع على ، فيهم حجر بن عدى وأصحابه . فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية ، لعل انتخاب الامة يقع على واحد من أبناء على فترجع الخلافة الى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه . فلما علموا ببيعته نقموا عليه ، وزادهم نقمة ماعلموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة ــ ومن قول عبد الله بن هشام السلولى فى ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بنى أميـــة ما روينـــا
لقـــد ضاعت رعيتـكم وأنتم تصيدون الارانب غافلينـــا (١)

وكان أوجه العلويين يومئذ الحسين بن على ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هـ وتولى ابنه يزيد أبى الحسين أن يبايعه . على أن أكثر الذين بايعوه من أهل التقوى عدوا بيعتهم خرقا لحرمة الدين (٢) . وكان الحسين فى المدينة ، فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فر الى مكة ، وأكثر شيعته فى الكوفة ، فكتبوا اليه وحرضوه على القدوم اليهم لينصروه فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا

---

(١) المسعودى ٥٠ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٥٢ ج ٣

عن نصرته . . وبعث اليه أمير الكوفة يومئذ عبد الله بن زياد جندا حاربه ، فدافع عن نفسه واهله حتى قتل قتلته المشهورة فى كربلاء ، يوم عاشوراء من سنة ٦١ هـ

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ يطالبون بدمه وسموا انفسهم « التوابين » ، وأمير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد ، فأخرجوه منها وولوا عليهم رجلا منهم . فتغلب ابن زياد عليه . فنهض المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وهو من جملة الذين طمعوا فى السيادة لابتزاز الاموال فى أثناء تلك الفوضى واختلال الاحوال . وكان المختار عالى الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو الى بيعة محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه . فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » ، وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله وقتل اكثر قتلة الحسين . ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضيا عن تلك الدعوة ، فبعث الى المختار يتبرأ منه . فحول المختار دعوته الى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين ، لان أباه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين فى الخلافة بعد مقتل عثمان كماتقدم، وأقام عبد الله فى مكة يدعو الى نفسه . على أن المختار لم يخلص النية فىدعوته لاحد ، لانه انما كان يريدها لنفسه . فلما علم ابن الزبير بفرضه ، بعث أخاه مصعبا على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هـ

أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين الى فرقتين ، احداهما تقول ان الحق فى الخلافة لولد على من فاطمة بنت النبى ، والاخرى تقول بتحولها بعد الحسن والحسين الى أخيهما محمد بن الحنفية ، وهى الفرقة الكيسانية . وأكثرهما ظهورا وتصديا الفرقة الاولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده فى أعقابه حتى صار الائمة ١٢ اماما وهم : على، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ،ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلى الرضا ، ومحمد التقى ،وعلى النقى ، وحسن العسكرى ، ومحمد المهدى (*) . وتفرع من الشيعة العلوية أيضا فرق أخر ، بايعت غير واحد من أعقاب على ، كالزيدية نسبة الى زيد ابن على بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وفرق أخر لا محل لذكرها

وكان بنو أمية اذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم فى قتله ،

(*) اللقب الغالب لمحمد التقى هو محمد الجواد ، ولعلى النقى على الهادى ، ومحمد المهدى يعرف بالمهدى المنتظر . وقد اختفى هذا الاخير سنة ٢٦٠ هـ وذهب شيعته الى أنه ارتفع الى السماء وسيعود ، ولا زالت الشيعة الاثنا عشرية فى انتظاره على الرغم من ظهور كثيرين ادعى كل منهم انه المهدى المنتظر

فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر وصلبوا آخرين ، فأصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم . فلاقى العلويون فى أيام بنى أمية ضنكا شديدا ، وكادوا يهلكون جوعا وأصبح هم أحدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسرى عامل بنى أمية المتوفى سنة ١٢٦ هـ فأعطاهم الاموال ورفق بهم ، فعادوا الى طلب الخلافة (١) وخالد هذا غريب الاخلاق ، فمع كونه من عمال بنى أمية فقد كان ينصر العلويين ويستعمل أهل الذمة كما تقدم

الشيعة العباسية

وكان من جملة المطالبين بالخلافة من أهل البيت بنو العباس عم النبى ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والامويون فى ابان دولتهم ، وانما كانوا يدعون الى انفسهم سرا . وكان العلويون والعباسيون فى أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون لانهم من بنى هاشم ، وكلا الرهطين أعداء بنى أمية من قبل الاسلام ـ والمضطهدون يتقاربون على أى حال

وظل العباسيون يتسترون فى دعوتهم ، وهم مقيمون فى الحميمة من أعمال البلقاء بالشام ، حتى ضعف شأن بنى أمية فهموا بالنهوض . واتفق فى أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده الى ابنه أبى هاشم ، وكان أبو هاشم هذا يفد على خلفاء بنى أمية من المدينة الى الشام ، فيمر فى أثناء الطريق بالحميمة . ففى بعض وفداته على هشام بن عبد الملك ، آنس هشام منه فصاحة وقوة ورياسة ، مع علمه بطمعه فى الخلافة ، فدس اليه فى أثناء رجوعه الى المدينة رجلا سمه فى لبن . فشعر أبو هاشم بالسم وهو فى بعض الطريق ، فعرج الى الحميمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فنزل عنده . ولما أحس بدنو الاجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى الى محمد المذكور بالخلافة بعده . وكان معه جماعة من شيعته ، سلمهم اليه وأوصاه بهم . فلما مات أبو هاشم ، تهوس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لانه اكتسب حزب الكيسانية جميعا ، فأخذ فى بث الدعاة سرا . ثم توفى وقد أوصى بالخلافة بعده الى ابنه ابراهيم ، وعرف بالامام

فأخذ ابراهيم الامام فى بث دعاته ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الامصار ، ولان الشيعة الكيسانية أكثرهم من خراسان والعراق ، وقد نصروا العلويين مرارا . فبعث اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبى هاشم ، وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » أى أهل النبى ، ولم يعين العلويين ولا العباسيين . وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الاموية،

---

(١) ابن الاثير ١٢٩ ج ٥

فهان عليهم ان يبايعوا لآل محمد ، وهم يحسبون الامر يكون مشتركا بين العباسيين والعلويين . وتوفق ابراهيم الامام فى أثناء ذلك الى أبى مسلم الخراسانى القائد العجيب ، فأتم أمرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور

بيعة المنصور للعلويين ونكثه

وكان بنو هاشم — العلويون والعباسيون — لما رأوا اختلال أمر بنى أمية ، اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بنى هاشم ، علويهم وعباسيهم ، وتداولوا فى قرب انحلال دولة الامويين ، وفيمن يخلفهم من أهل البيت . وكان فى جملة الحضور أبو العباس المعروف بالسفاح ، وأخوه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس ، وهو أبو جعفر المنصور ، وغيرهما من آل العباس . فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يومئذ ، وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن على ، الملقب بالنفس الزكية . فبايعوه لتقدمه فيهم ، ولما علموه له من الفضل عليهم ، وبايعه ابو جعفر المنصور فى جملتهم (١) ولعل هذه المبايعة هى التى أسكتت العلويين عن طلب الخلافة ، فى أثناء انتشار دعاة العباسيين فى طلبها ، كأنهم اتفقوا ان تكون الخلافة مشتركة فى أهل البيت . لان العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » ، وليس باسم الامام ابراهيم أو غيره من بنى العباس

اما دعاة الشيعة العلوية ، الذين كانوا يدعون للعلويين فى العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة الى العباسيين ، فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين . وفى جملتهم ابو سلمة الخلال المثرى الفارسى الشهير ، وكان يقيم فى حمام أعين بضواحى الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجاهه فى سبيل نشرها . فلما سمع بانتقال البيعة الى بنى العباس، كظم غضبه وتربص ليرى مايقول الناس . ثم علم ان ابراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله الى خراسان ومعه الوصية المشهورة (من اتهمته فاقتله) وقد أطاعه النقباء فأطاعه أبو سلمة فى جملتهم ، وهو يتوقع أن تكون البيعة شورى بين الشيعيين (٢) ولما بلغه ان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قتل ابراهيم الامام ، اضمر الرجوع الى الدعوة العلوية (٣) ثم جاءه أخوه الامام ، وفيهم أبو العباس السفاح واخوته وسائر أهل بيته وقد انتقلت البيعة الى أبى العباس المذكور ، فأنزلهم أبو سلمة عنده ورأى نفسه عاجزا عن نقل البيعة ، فسكت فبقيت لآل العباس . وكان أبو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الامويين فى خراسان وفارس والعراق ، فلما غلبوهم وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس ، فسكت العلويون خوفا على أنفسهم

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الاثير ٢٤٣ ج ٥ والفخرى ١٤٧
(٢) الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢ (٣) المسعودى ١٥٠ ج ٢

من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شورى بين الرهطين

وعلم العباسيون بما كان يضمره أبو سلمة من نقل الخلافة الى العلويين، فشكوه الى أبى مسلم سرا . فدس اليه رجلا قتله بالكوفة غيلة ، واشاعوا ان بعض الخوارج قتله ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا فى اخلاصهم ، حتى تم الامر لهم

أما آل الحسن بن على ، الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله فى المدينة وبايعه معهم سائر بنى هاشم ومنهم أبو جعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بنى أمية ومبايعة أبى العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ جاءوا اليه فى الكوفة يطالبونه ببيعتهم ، فاسترضاهم أبو العباس بالاموال وقطع لهم القطائع . وكان فى جملة القادمين اليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة فأكرم السفاح وفادته وعرض عليه مايرضاه من المال وقال له : « احتكم على» فقال عبد الله : « بألف ألف درهم ، فانى لم أرها قط . . » ولم يكن هذا المال موجودا عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل صيرفى اسمه ابن أبى مقرن ودفعه اليه . واتفق ــ وعبد الله المذكور عند السفاح ــ ان بعض الناس جاءه بالجواهر التى كانت عساكر العباسيين قد اغتنمتها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر اليها ويبكى ، فسأله عن السبب فقال : « هذا عند بنات مروان ، وما رأت بنات عمك مثله قط . . » فحباه به ، ثم أمر الصيرفى ان يبتاعه منه فابتاعه بثمانين ألف دينار (نحو مليون درهم) وأمر أبو العباس باكرام عبد الله وانزاله على الرحب والسعة ، وهو يتوجس مما فى ضميره ، فبث عليه العيون فآنس عنده طمعا فزاده عطاء ، فعاد عبد الله الى المدينة مثقلا بالاموال ففرقها فى أهله ، وكانوا أهل فاقة فلما رأوا تلك الاموال سروا

وأما عبد الله فما زال مضمرا المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ماتمت المبايعة عليه ، والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر أهله بالاموال كما رأيت . فلما توفى السفاح سنة ١٣٦ هـ خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، وكان رجلا شديد البطش لا يبالى بما يرتكبه فى سبيل تأييد سلطانه . فكان همه قبل كل شىء أن يتحقق مافى نفس بنى الحسن فى المدينة، لان لهم فى عنقه بيعة ، فبث عليهم العيون وأراد اختبارهم ، فبعث بعطاء أهل المدينة على جارى العادة من قبل ، وكتب الى عامله فيها : « أعط الناس فى أيديهم ولا تبعث الى أحد بعطائه ، وتفقد بنى هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بمحمد وابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فلم

---

(١) العقد الفريد ٢٧ ج ٣

يتخلف عن العطاء الا محمد وابراهيم المذكوران ، فكتب اليه بذلك ، فتحقق المنصور انهما ينويان القيام عليه ، وقد سكتا فى أثناء خلافة أخيه لانه كان يكرمهما ويغدق عليهما والمنصور لا يرى ذلك ، فلما رأوا تضييقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعاة فى خراسان وغيرها يدعون شيعتهم الى بيعتهم . فعلم ابو جعفر بذلك ، فبعث من يقبض على كتبهم فى الطريق ، واحتال فى استطلاع اسرارهم ، وأراد استقدام ابنى عبد الله وكتب اليه يستقدمه بهما ، فأنكر عبد الله أنه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصا بنى الحسن وهم يقيمون فى المدينة ، فبعث الى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعا ، ثم أمره أن ينقلهم الى العراق، فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والاغلال فى أرجلهم وأعناقهم ، وقد حملهم على محامل بغير وطاء ، ولكن ليس فيهم محمد ولا ابراهيم ابنا عبدالله لاستتارهما فجاءوا ببنى الحسن وعدتهم بضعة عشر رجلا ، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا الا بضعة قليلة

أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة فلم يقع فى الفخ ، فبعث المنصور الى عامله فى المدينة يشدد فى طلبه ، فلم ير محمد بدا من القيام . فظهر بالدعوة، فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا أمامهم مالك بن أنس ، فأفتاهم بالخروج معه فقالوا : « ان فى أعناقنا بيعة لابى جعفر » فقال : « انكم بايعتموه مكرهين، وان بيعة محمد بن عبد الله أصح منها لانها انعقدت قبلها » (١) وكان أبوحنيفة أيضا على هذا الرأى ، يقول بفضل محمد هذا ويحتج الى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول فتأدت اليهما المحنة بسبب ذلك . فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ أصبح من أكبر المضطهدين لهما فضرب مالكا على الفتيا فى طلاق المكره ، وحبس أبا حنيفة على القضاء كما هو مشهور

وكان لنكث المنصور بيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم فى أذهان العلويين ، لانها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون أن ذلك لايصدر من أهل البيت كما صدر من بنى أمية ، فتحسروا على أيام بنى أمية وتمنوا رجوعها ــ ذكروا عن محمد ابن عبد الله ، فى أثناء قيامه على المنصور ، أنه سمع شاعرا يرثى بنى أمية فبكى ، فقال له عمه : « أتبكى على بنى أمية وأنت تريد ببنى العباس ماتريد؟» فقال له : « ياعم ، لقد كنا نقمنا على بنى أمية مانقمنا ، فما بنو العباس الا أقل خوفا لله منهم ، وان الحجة على بنى العباس أوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لابى جعفر » (٢)

سياسة العباسيين فى تأييد سلطتهم

القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بنى العباس قاموا يدعون الى أنفسهم وهم بين

(١) ابن الاثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤ (٢) الاغانى ١٠٦ ج ١٠

خطرين عظيمين : الاول أن يحاربوا بنى أمية ويتغلبوا على أحزابهم ، والثانى أن يأمنوا جانب العلويين فى مسابقتهم الى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم أن الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط ، كما قامت فى عصر الراشدين وكما أرادها بنو على ، وان العلويين انما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم فى دعوتهم على شرف نسبهم وصدق تدينهم ، وان معاوية لم يغلب الا بالدهاء والحيلة ، وان عبد الملك لم يستطع استبقاءها الا بالفتك وشدة البطش . فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين ، بمبايعة أبى هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن على العباسى كما تقدم ، ثم أفضت بعده الى ابنه ابراهيم الامام ، وتوفق هذا الى أبى مسلم الخراسانى ورأى فيه الشدة والدهاء ، جعله قائدا على نقبائه ودعاته وأوصاه وصية هى محور سياسة العباسيين فى تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتى : انظر الى هذا الحى من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم . واتهم ربيعة فى أمرهم . وأما مضر فانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه . وان استطعت أن لاتدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل . وأيما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله . . » (١)

فخرج أبو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها وعول عليها ، فكان يقتل كل من اتهمه أوشك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم فى سبيل هذه الدعوة ٦٠٠ر٠٠٠ نفس قتلوا صبرا (٢) بدون حرب فى بضع سنين ،وفى جملتهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة ، كأبى سلمة الخلال الذى نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لابى مسلم أمير آل محمد . فحالما استشار السفاح أبا مسلم فى شأنه واتهمه بنقل الخلافة الى العلويين ، أشار أبو مسلم بقتله فقتلوه وقتلوا عماله على الاطراف . وفعل نحو ذلك أيضا بسليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله ، وكان شيخا جليلا لم يدخر وسعا فى نصرة تلك الدعوة . فبعد قتل أبى سلمة بلغ أبا مسلم عنه مثل مابلغه عن أبى سلمة ، فأحضره اليه وقال له : « أتحفظ قول الامام لى : من اتهمته فاقتله ؟ » قال : « نعم » قال : « فانى قد اتهمتك ! » فخاف سليمان وقال : « أناشدك الله . . » قال : « لا تناشدنى ، فأنت منطو على غش الامام » وامر بضرب عنقه (٣) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة ، وفيهم الامراء والقواد . قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر ، ومنهم الكرمانى وأولاده وكبار رجاله (٤) وغيرهم بشر كثير ، حتى سئم الناس

(١) ابن الاثير ١٦٥ ج ٥ (٢) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٢
(٣) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٥ (٤) ابن الاثير ١٨٣ ج ٥

فعله وملوا سفك الدماء ، وأصبح المسلمون — حتى رجاله — لا يدعى أحدهم الى مقابلته الا أوصى وتكفن وتحنط . وثار من ذلك بعض الامراء من شيعة بنى العباس وصاح فى رجاله : « ماعلى هذا اتبعنا آل محمد : أن تسفك الدماء وأن يعمل بغير الحق .. » فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠٫٠٠٠ رجل ، فوجه اليهم ابو مسلم جندا قاتلهم وقتلهم

المنصور والدولة العباسية

فبهذا وأمثاله مهد أبو مسلم الخلافة لبنى العباس ، فساعدهم أولا على اخراجها من بنى أمية الى أهل البيت ، ولم يكتف ببيعة أبى العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ولكنه حرضهم على قتل من بقى من بنى أمية بالاغراء أو التخويف على ألسنة الشعراء . ويقال انه هو الذى أوعز الى سديف الشاعر مولى بنى هاشم أن يقول ذلك الشعر فى مجلس السفاح ، وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد أمنه واكرمه وأمن سائر بنى أمية — فيقال ان سديفا دخل يوما على السفاح وعنده سليمان ابن هشام فأنشد سديف قوله :

لا يغرنك ما ترى من رجال   ان تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى   لا ترى فوق ظهرها أمويا

فتأثر السفاح وأمر بسليمان فقتل . ودخل شاعر آخر فقال شعرا آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بنى امية، فقتله وبسطت له النطوع على جثثهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا (١) وقيل فى كيفية قتلهم غير ذلك ، وأن الذى قتلهم عبد الله بن على عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبنى أمية وشدة نقمته عليهم ، ولكن لا خلاف فى أنهم قتلوا غدرا سنة ١٣٢ هـ وهم آمنون كما قتل الامراء المماليك بمصر فى أوائل القرن الماضى

والغالب أن أبا مسلم أوعز الى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا فى سبيل دولتهم، فأشار الى سديف أن يحرضهم على ذلك بشعره . ولم يقل سديف ذلك حبا ببنى العباس بل كرها لبنى أمية وانتقاما لآل على ، لانه من الشيعة العلوية وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعتين . فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك ، نقم على العباسيين وهجاهم بأشعار بلغ خبرها المنصور ، فكتب الى عامله أن يأخذ سديفا فيدفنه حيا ففعل (٢)

---

(١) الفخرى ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢   (٢) العقد الفريد ٣٢ ج ٣

وبعد أن قتل العباسيون من كان فى قبضتهم من الامويين ، عمدوا الى استئصال شأفتهم من سائر البلاد . ولم ينج منهم الا قليلون ، اهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففر الى المغرب وأسس دولة بنى أمية بالاندلس كما سيأتى . وتولى استئصال شأفة الامويين من بنى العباس عبد الله بن على ، فبالغ فى ذلك حتى نبش قبورهم ومثل بجثثهم ، انتقاما لما فعلوه قبلا بالائمة من آل على ، وخصوصا زيد بن زين العابدين . فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبل ، فضربه ثمانين سوطا ثم أحرقه (١)

وبعد أن تخلص المنصور من الامويين ، لم يدخر أبو مسلم وسعا فى تخليص الدولة من أقربائه آل العباس انفسهم ، وفى جملتهم عبد الله بن على المتقدم ذكره ، وقد طمع فى الخلافة فحاربه بأمر المنصور وغلبه ، واستولى على مافى عسكره من الغنائم والاسلحة . فأراد المنصور أن يوجه همه الى بنى الحسن منافسيه فى الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبى مسلم وأصبح خائفا منه على سلطانه ، بعد مابلغ الية من النفوذ والشهرة والدالة . ولم يكن همه الا قتله ليفرغ للعلويين ، فاتهمه بأنه ينوى اخراج الملك منهم فاستحق القتل عملا بوصية الامام

وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله ، من عهد خلافة أخيه أبى العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك . فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه فى حرب عمه عبد الله بن على ، فضرب عدويه أحدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله . فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن على ، احتال المنصور فى استقدامه اليه من خراسان فى حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد أكمن له أناسا بالسلاح وراء الستر ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرج من العتاب الى التوبيخ ، حتى اذا أزفت الساعة صفق المنصور ، فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هـ فأمر به فلفوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خاصته وشاورهم فى قتله ــ ولم يقل انه قتله ــ فقال له أحدهم: « ان كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقتله » فأشار المنصور الى البساط ، فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق موته قال : « عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك . . » (٢)

ولما فرغ المنصور من أبى مسلم ، لبث يتوقع ما يبدو من رجالة الخراسانية ، لعلمه انه ركب بقتله خطرا عظيما ، فما عتم أن ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية ، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل

---

(١) ابن خلكان ٢٠٥ ج٢ (٢) المسعودى ١٦٧ ج ٢

الراوندية جميعا ، ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثـــورة ، فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة ، ثم عمـــد الى تخليص الخلافة من آل على ، فحارب محمد بن عبد الله وقتله • ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها ، منهم عمه عبد الله ، وكان أبو مسلم قد غلبـــه ولكنه لم يتمكن من قتله ، فاحتال المنصور فى استقدامه بأمان بعثه اليه مع ولديه ، فجاء فحبسه عنده • ثم علم سرا أن ابن عمه عيسى بن موسى ينوى الخروج عن طاعته ، وكان واليا على الكوفة ، فتجاهل وبعث اليه وقد دبر أمرا كتمه عن رجال بطانته ، فلما جاء عيسى استقبله المنصوربالترحاب والاكرام، ثم أخرج من كان فى حضرته من الحاشية واستبقاه وحده ، وأقبل عليه وقال: « يا ابن العم •• انى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ، ولا أرى سواك مساعدا لى على حمل ثقله، فهل أنت فى موضع ظنى بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى ؟ » فقال له عيسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ، ونفسى طوع أمره ونهيه •• » فقال المنصور : « ان عمى وعمك عبد الله قد فســدت بطانته ، واعتمد على ما بعضه يبيح دمه ، وفى قتله صلاح ملكنا • فخـــذه اليك واقتله سرا •• » فأطاعه عيسى ، فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة • وأضمر المنصور أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصـــاص ، وسلمه الى أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به ، فيكون قد استراح من الاثنين معا • أما عيسى فكأنه شك فى نية المنصور ، والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضا خوفا من وصية الامام ، فاستشار بعض ذوى مشورته فحذروه من عاقبة ذلك ، فحبس عمه ولم يقتله • ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حيا ، فقتله فى بيت جعل أساسه على الملح (١)

وأمثلة ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك فى تأسيس دولته كثيرة • وكان يعطى الأمان ثم ينكث ، كما رأيت فعله بعمه عبد الله ، وكما فعل بابن هبيرة عامل بنى أمية على واسط ، لما بويع السفاح وأرسل أخاه المنصور لمحاربته، فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة فى أمان بنى العباس ، فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيـــه العلماء حتى تحقق صحته ورضى به ، فبعثه الى أبى جعفر ، فأنفذه أبو جعفر الى أبى العباس فأمره بامضائه • وكان رأى أبى جعفـر فى بادىء الامر أن يفى بما أعطاه ، ولكن أبا مسلم (وكان لا يزال حيا) أشار على السفاح أن يقتله قائلا : « ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة فسد • لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة •• » فبعد أن جاء ابن هبيرة الى أبى جعفر مستأمنا غدر به وقتله (٢) لانه اتهمه ، ثم اتهم أبا مسلم وقتله بعد أن أمنه كما رأيت • وشاع نكث

---

(١) المستطرف ٦٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٧ ج ٥ (٢) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢

الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس . فلما قام محمد بن عبد الله العلوى فى المدينة ، خافه المنصور كما تقدم ، فبعث اليه يعرض عليه الأمان ويعده خيرا ، فأجابه محمد : « أى أمان تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله ، أم أمان أبى مسلم ؟ » (١)

وظل المنصور وأبو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما فى الدهاء والفتك . على انهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون الا بمن نازعهم على الخلافة ، فهذا يقتلونه على الشك . أما أحكامهم فيما خلا ذلك ففى نهاية العدل والرفق ، كماسيأتى . أما من كان فى نفسه مطمع فى الخلافة أو ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين، فكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لأحد كانت حياته فى خطر ، فاذا دعى للمثول بين يدى الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للموت

وكان المنصور أيضا قدوة لعبد الرحمن بن معاوية ، مؤسس دولة بنى امية فى الاندلس ، وقد فر من العراق فالشام الى المغرب خوفا من القتل ، فنصره رجاله وخصوصا مولى له اسمه بدر ، سعى فى تأييد سلطانه مثل سعى أبى مسلم فى الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه ثم أقصاه حتى مات ، وفعل نحو ذلك فى رؤساء الاحزاب الذين نصروه ، وسيأتى الكلام على ذلك

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم فى تأييد دولتهم ، حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى فى نصرة اخيه المأمون ، وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته ، كتب اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلم انه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الا السيف ، فانظر لنفسك أو دع . . » (٢) وفى الواقع أن المأمون لما استتب له الأمر فى الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبى مسلم ، فأهدى له خادما كان رباه وأمره أن يسمه ففعل (٣)

سياسة الدولة العباسية فى معاملة الرعية

الموالى الفرس

قد رأيت ان الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا ، وفيهم الموالى وأهل الذمة وكانوا ناقمين على دولة بنى أمية ، فنصروا أهل البيت انتقاما منها ، والجمهور الأهم منهم الفرس

---

(١) ابن الاثير ٢٥٤ ج٥ (٢) المسعودى ٢١٣ج٢ (٣) ابن خلكان ٢٣٧ ج ١

الفرس أهل سياسة وسلطان ، وقد انشأوا الدول وساسوا النـاس ووضعوا الاحكام من قديم الزمان • وضخمت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان والرومان ، ونبغ فيهم القواد والعلماء والحكماء ، وترجموا العلم والفلسفة ، وكان لهم شأن كبير فى التاريخ القديم ، واشتهر فيهم فضلا عن الأسر المالكة والدهاقين والأساورة بيوتات شريفة ، أشهرها سبعة كان الشرف فيها • وعلى أطلال اصطخر عاصمة الفرس القدماء ، وغيرها من بقايا مدنهم القديمة ، نقوش كتابية ، مثل التى خلفها الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم

وكان فى مملكة فارس قبائل كثيرة من العرب ، يقيمون على حدودها بين النهرين فى العراق والجزيرة ، وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس ، وهم المناذرة فى الحيرة • وكثيرا ما كان الفرس يتعلمون لغة العرب وينظمون الشعر العربى ، حتى ملوكهم فانهم لم يكونوا يستنكفون من ذلك ــ حكى أن بهرام بن يزدجرد بن سابور نشأ بين العرب بالحيرة وتعلم العربية ونظم فيها شعرا (١) وكانوا يستخدمون العرب فى دواوينهم ، للكتابة أو الترجمة بينهم وبين من يفد على ملك الفرس من عرب الحجاز أو اليمن أو نجد ، وخصوصا بعد أن دخلت اليمن فى حوزتهم على عهد كسرى أنوشروان

وأشهر كتاب العرب فى دواوين الفرس آل عدى بن زيد من المضرية ، وكان عدى وأبوه وجده من مهرة الكتاب ، على قلة من يحسن الكتابة من العرب فى ذلك العهد ، وكانوا يخدمون الفرس فى دواوينهم • فجده حماز بن زيد ابن أيوب كان كاتبا عند النعمان فى الحيرة ، وتقرب من الفرس وولد له زيد، فأوصى به الى دهقان كان صـديقا له وهو من أهل الدولة ، فرباه الدهقان وعلمه الفارسية فنبغ فى اللسانين ، فتقدم الدهقان الى كسرى أن يوليـه البريد • ولم يكن ينال هذا المنصب الا أبناء المرازبة ، فتقدم يزيد فى الدولة حتى صار كسرى يستشيره فى مهامه ، وولد لزيد ابنه عدى وتثقف وتعلم مثل أبناء الأساورة ، وأتقن ألعاب الفرس على الخيل بالصوالجة ، فقربه كسرى وجعله كاتبا فى ديوانه بالمدائن ، وصار من أصحاب السطوة والكلمة النافذة، وكسرى يأذن له مع الخاصة ويبعث به فى المهمات الكبرى الى ملك الروم وغيره. واذا فسد العرب على الفرس وتمردوا توسط عدى فى اصلاحهم ، واذا مات ملك العرب فى الحيرة لا يولى كسرى من يخلفه الا بمشورة عدى • فشق ذلك على ملوك الحيرة حسدا له ، لانهم يمنية وعدى مضرى (*) ، فوشى به بعضهم

---

(١) المسعودى ١١٣ ج١

(*) هكذا تقول المراجع وهو مستبعد ، لانه من غير الثابت ان عدى بن زيد كان مضريا ، ثم ان الخلاف بين المضرية واليمنية لم يكن فى ذلك العصر معروفا على الصورة التى صار اليها بعد الاسلام ، كما سبق ان ذكرنا فى تعليقاتنا • واخيرا لايستطيع أحد القطع بأن أصل ملوك الحيرة يمنى • وقد بسطنا القول فى ذلك فى تعليقاتنا على الطبعة الجديدة من تاريخ العرب قبل الاسلام للمؤلف

الى كسرى حتى قتل ، وتولى بعده ابنه زيد بن عدى فى المكاتبة عن كسرى الى ملوك العرب فى أمورها وفى خواص أمور الملك • وكانت لكسرى وظائف يؤديها اليه العرب كل عام ، فكان زيد يتولى ذلك وغيره (١)

وجملة القول أن العرب كانوا يخدمون الفرس فى أيام دولتهم قبل الاسلام، كما خدم الفرس العرب فى أيام دولتهم بعد الاسلام ، على ان الفرس بلغ من ضخامة سلطانهم وسعة ملكهم قبل الاسلام أن كانوا يسمون أنفسهم الاحرار والأسياد ويعدون سائر الناس عبيدا لهم ، أى انهم أصيبوا بما أصاب العرب بعد ذلك ، وبما يصاب به غيرهم من الامم التى توفق الى السيادة فيغلب عليها الغرور وتترفع عن سواها

فلما ظهر الاسلام وقامت دولة الخلفاء مقام دولة الأكاسرة ، كان ذلك شديدا على الفرس ، وخصوصا بعد ما لاقوه من ضغط بنى أمية واحتقارهم، فكانوا ينتقضون فيحاربهم الأمويون، ويبالغون فى اهانتهم وظلمهم ويضربون مدائنهم بالمجانيق ويقتلون أهاليها ، حتى أفنوا أكثر البيوتات القديمة ووجوه الأساورة الذين كانوا يأوون الى اصخر (٢) فلا لوم عليهم بعد ذلك اذا نصروا كل قائم على الدولة الاموية • على أنهم لم يفوزوا الا بطلبها للعباسيين كما رأيت ، وكانوا يعدون ذلك فوزا لأنفسهم ، تخلصا من عصبية العرب عليهم، وطمعا فى الرجوع الى ما كانوا عليه من السلطة والشوكة

استخدام الموالى الفرس

فلما قبض العباسيون على أزمة الملك ، جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم فى العراق ، فأقاموا أولا فى الكوفة ثم فى الهاشمية ، حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة • وقربوا الموالى الفرس ، وخصوصا أهل خراسان ، فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم ، ولاسيما الذين حاربوا مع أبى مسلم فى طلب الخلافة لهم • وأشهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة ، فانه كان من قواد جند أبى مسلم ، وشهد معه الوقائع وأبلى بلاء حسنا فى نصرة أهل البيت ، وكان أبوه برمك من مجوس بلخ ، وكان يخدم بيتا من بيوت النار هناك اسمه النوبهار ، اشتهر هو وبنوه بسدانته ،وكان برمك عظيم المقدار عند الفرس • فأسلم خالد ودخل فى جند أبى مسلم ، وكان عاقلا حازما فلم يجعل للعباسيين محلا للشك فى صداقته ، كما فعل أبو مسلم • فقدمه أبو العباس وولاه الوزارة ، ثم تولاها للمنصور وخدمه بعد مقتل أبى مسلم فى محاربة الاكراد ، وكانوا قد تغلبوا على فارس (٣)

---

(١) الاغانى ٢ج٢ (٢) ابن الاثير ٤٩ ج ٣ (٣) ابن خلكان ١٠٦ ج١

رتوالت الوزارة فى أعقابه الى يحيى ابنه ، فجعفر ابن ابنه ، وهو الذى نكب البرامكة على عهده لسبب سنذكره

وكذلك فعل العباسيون فى استخدام الموالى فى مهماتهم . وأول من استخدمهم لذلك المنصور ، فانه استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته وقدمهم على العرب ، فاقتدى به الخلفاء بعده حتى سقطت دولة العرب ، كما سيجىء . ولما حضرته الوفاة أوصى بثلث ماله لمواليه (١) وأوصى باكرامهم . ومن أقواله فى وصيته لابنه المهدى : « وانظر الى مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم ، فانهم مادتك لشدتك ان نزلت بك .. وأوصيك بأهل خراسان ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده»(٢)(*)

ولا غرو اذا أكرم العباسيون أهل خراسان ، بعد أن آثروهم على أهلهم وأبنائهم وقتلوا من خالفهم . ولكن العرب كانوا يستغربون ذلك لأول وهلة ، فكانوا اذا جاءوا مجلس الخليفة رأوا الخراسانيين يذهبون ويجيئون ويدخلون على الخليفة كأنهم من أهله ، والعرب يقفون ببابه لا يؤذن لهم الا بمشقة — ذكروا أن أبا نخيلة الشاعر العربى وفد على أبى جعفر المنصور ، ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له ، وهو يرى الخراسانية تدخل وتخرج وتهزأ به ، فيرون شيخا أعرابيا جلفا فيعبثون به ، فسأله صديق له رآه فى تلك الحال : « كيف ترى ما أنت فيه من هذه الدولة ؟ » فقال :

أكثر خلق الله من لا يدرى ... من أى خلق الله حين يلقى
وحلة تنشر ثم تطوى ... وطيلسان يشترى فيغلى

---

(١) الفخرى ١٢٠ (٢) ابن الاثير ٧ج٦

(*) لانبالغ اذا قلنا ان معظم هذه الوصايا موضوع : فوصية الخليفة كما نجدها فى الكتب اما أن تكون من صنع بعض اهل المتوف أو بطانته ، ليضمنوا لانفسهم حقوقا يزعمون ان صاحب الامر أوصى بها ، أو من صنع بعض الصالحين بنية الحث على الخلال الحميدة ، أو من اختراع دعاة الدولة ، وربما كانت من صنع المؤرخين انفسهم . ووصية المنصور لابنه المهدى نموذج طيب لما نقول ، فقد رويت فى صور شتى ، ففى الصورة الاولى يقول ابن الاثير : « فلما كان اليوم الذى ارتحل فيه (أى مات فيه المنصور) قال له (أى لابنه المهدى) : انى لم أدع شيئا الا وقد تقدمت اليك فيه ، وسأوصيك بخصال ما أظنك تفعل واحدة منها ، وكان له سفط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لايفتحه غيره ، فقال للمهدى : انظر الى هذا السفط فاحتفظ به فان فيه علم آبائك ، ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة ، فان أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الكبير ، فان أصبت فيه ماتريد والا ففى الثانى أو الثالث ، حتى بلغ سبعة ، فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة، فانك واجد فيها ماتريد ، وما اظنك تفعل ... » . فهذا كلام ظاهر الاختراع ، ومن الطريف أن المنصور نفسه لم يستفد من هذه الكراريس ، بل لم ينتفع بالملخص ، وقضى حياته كلها قلقا متخوفا ، لايدرى ماسيحدث له بعد ساعة ، فضلا عن « ماهو كائن الى يوم القيامة ! » . والوصية كلها فى أسلوب سخيف ، ويغلب على ظنى أنها من وضع أحد خدم القصر

والصورة الثانية التى يرويها ابن الاثير يبدو بوضوح أن واضعها أحد الفقهاء المحترفين فى

لعبـــد عبـــــد أو لمولى مولى يا ويح بيت المال ماذا يلقى (١)

وكان المهدى بن المنصور اذا أراد الشورى جمع خاصته للمداولة ، وأول من يتكلم منهم الموالى (٢) وقس على ذلك فى سائر الاحوال . فأصبحت بطانة الخليفة ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالى الفرس ، وهم نظموا الحكومة ودواوينها ، ورتبوا أحوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب كأنها دولتهم ، لان الغالب فى هذه المناصب أن تنتقل من الرجل الى بعض أولاده ، مثل منصب الخلافة ، فاشتهر بعض البيوتات بالوزارة أو الولاية ، كآل برمك وآل وهب وآل قحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم

وكانت أمور الدولة ترجع الى الوزراء : يولون ويعـــزلون ، واذا تولاها أحدهم ولى الاعمال رجالا من أصحابه أو مريديه ، ومن ناحية أخرى تغيرت الاحوال على اهل البلاد ، واطمأنت خواطرهم وتفرغوا للعمل فى التجـارة أو الصناعة أو الزراعة ، ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بنى أمية واستبدادهم، وأطلقت حرية العمل وحرية الدين ، وذهبت عصبية العرب ورتع الناس فى بحبوحة الأمن

ولما استبد الاتراك في الدولة وضعفت شـوكة الفرس ، بعد المأمون كما سيأتى ، ظل الموالى من أصحاب النفوذ فيدولة الخلفاء ، يعتمد عليهم الخليفة فى أموره الخاصة والعامة من الكتابة الى القيادة ، ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خاص ، ولكنهم أصبحوا أخلاطا منهم ومن سواهم ، وانما تجمعهم كلمة الموالى ويتفانون فى خدمة الخليفة أو الامير

أهل الذمة فى الدولة العباسية

لما أخذ الموالى الفرس فى تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها، أحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة فى العراق والشام ، وكانوا أهل معرفة فى الحساب والكتابة والخراج فضلا عن العلوم ، فأطمعوهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم أسباب المعيشة وقربوهم وأكرموهم • فاطمأنوا لتـلك الدولة وتقاطروا الى بغداد ، وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم ، بما آنسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين لهم ، فاستخدمهم العباسيون فى دواوينهم وولوهم خزائنهم وضياعهم

فالجهابذة (الصيارف) كان أكثرهم من آليهود ، والكتاب كان فيهم جماعة

القصر ، وكلها نصائح ومواعظ ، ومن أطرف مافيها قول المنصور : « واياك والدم الحرام فانه حوب عند الله عظيم ، وعار فى الدنيا لازم مقيم » ، والمعروف ان المنصور كان من أكثر الناس سفكا للدماء بغير حق ، فكأن واضع الوصية اراد ان يسخر منه او يحذر ابنه من الوقوع فيما وقع فيه أبوه

أنظر : الكامل فى التاريخ ، طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٧ ، جـ ٥ ص ٤٣ – ٤٤

(١) الاغانى ١٤٨ ج١٨ (٢) العقد الفريد ٥٣ ج ١

كبيرة من النصارى • وكثيرا ما كان النصارى يتقلدون ديوان الجيش ، وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان ــ وهو نصرانى ــ حتى يتسابق أكابر رجال الدولة من المسلمين الى تقبيل يده • وممن تقلدوا ديوان الجيش من النصارى فى الدولة العباسية ملك بن الوليد ، قلده اياه المعتضد بالله ، واسرائيل النصرانى ، قلده اياه الناصر لدين الله • وقد أدرك بعضهم رتبة الوزارة ، فتقلد أمرها أبو العلاء صاعد بن ثابت فى أيام المتقى بالله (١)

وسرى ذلك الاعتدال والتسامح فى الدين الى الدولة الفاطمية بمصر ، وكان لاهل الذمة فيها شأن عظيم ، فتقلد الوَزارة أو الكتابة (وهى كالوزارة فى مصر) غير واحد منهم ، وقويت شوكتهم فى الدولة ، فاستوزر العزيز بالله الفاطمى رجلا نصرانيا اسمه عيسى بن نسطوروس ، وآخر يهوديا اسمه منشا ، فعز النصارى واليهود فى أيامهما (٢) ومن نافذى الكلمة فى الدولة الفاطمية من أهل الذمة ، فهد بن ابراهيم النصرانى كاتب برجوان ، صاحب النفوذ الاعظم فى أيام الحاكم بأمر الله • فكان فهد هذا يوقع عن برجوان ، ويخاطب بالرئيس ، وله نفوذ عظيم • وارتفع شأن النصارى فى أيامه، حتى كادت الدولة تكون فى أيديهم (٣) على أن الكتابيين ــ أهل الذمة ــ كانوا فى أيام الحاكم هم أهل الدولة ، وكذلك فى أيام الحافظ (٤) وكتاب الجيش فى أكثر الأحايين من اليهود

ناهيك بمن كان الخلفاء والأمراء يستخدمونهم من أطباء أهل الذمة وحكمائهم وتراجمتهم وكتابهم ، وخصوصا نصارى الشام ، فانهم خدموا التمدن الاسلامي فى نقل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية ، على ما فصلناه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وبينا ما كان من محاسنة الخلفاء لهم وتقديمهم ورعاية جانبهم واكرامهم ، وفيهم النصرانى واليهودى والمجوسى والسامرى والصابى وغيرهم ، والكل راتعون فى بحبوحة السكينة والطمأنينة يتكسبون من خزائن الخلفاء والأمراء

وكان الخلفاء فى صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويجالسونهم• فالهادى كان يستدعى اليه الأسقف تيموثاوس فى أكثر الايام ويحاوره فى الدين ، ويبحث معه ويناظره ، ويطرح عليه كثيرا من المشكلات ، وله معه مباحث طويلة ضمنها كتابا ألفه الأسقف المذكور فى هذا الموضوع ، وكذلك كان يفعل معه هرون الرشيد (٥) وغيره ، وأغضوا عن بعض ما فى عهد عمر ابن الخطاب من التضييق على النصارى ، كمنعهم من احداث الكنائس (٦) أو الاحتفال بالاعياد ، أو منعهم من خدمة الدولة ، وسهلوا لهم الاختلاط بهم

---

(١) تاريخ الوزراء ٩٥ والفرج ١٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٣٢ ج ٩ والسيوطى ١٧ ج ٢
(٣) المقريزى ٤ و ٢١ ج ٢ (٤) المقريزى ٤٠٦ج١ (٥) تاريخ المشارقة (خط) ١٤٣
(٦) المقريزى ١١٥ ج٢

وأظهروا احترام مذهبهم ، حتى أصبح النصارى يهدون الخلفاء أيقونات بعض القديسين فيقبلونها منهم ، وكثيرا ما كان الاساقفة يطلبون من الخلفاء أن يثبتوهم فى مناصبهم للاعتزاز بذلك على أخصامهم أو منازعيهم

اضطهاد أهل الذمة فى العصر العباسى

على أن ذلك لم يمنع تضييق بعض الخلفاء على النصارى ، بمقتضى عهد عمر ، وهدم كنائسهم — فان الملوك المستبدين (*) تختلف سياستهم باختلاف أخلاقهم وأطوارهم ، فقد يتراءى لبعضهم التضييق على النصارى لسبب أو لغير سبب ، كما فعل هرون الرشيد والمتوكل من خلفاء بنى العباس (**) فالمتوكل المتوفى سنة ٢٤٧ هـ كان شديد الوطأة على النصارى ، ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم ، لانه أمر بهدم الكنائس المحدثة بعد الاسلام، ونهى أن يستعان بهم فى الاعمال ، أو أن يظهروا الصلبان فى شعانينهم ، وأمر أن يجعل على أبوابهم صور شياطين من الخشب ، وأن يلبسوا الطيالسة العسلية ، ويشدوا الزنار ، ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين فى مؤخر السرج ، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ، قدر كل واحدة أربع أصابع ولون كل واحدة غير لون الاخرى ، ومن خرج من نسائهم تلبس ازارا عسليا ، ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك (١)

ولا يستغرب هذا التضييق من المتوكل ، فانه نقم مثل هذه النقمة على سائر أهل الدولة وغيرهم ، وشدد النكير على الشيعة وأهلك العلماء والكتاب. وكان شديد التعصب على الشيعة ، فاضطهدهم وعذبهم ، ولاقى أهل الذمة منه الشدائد (٢) على أنه لم يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا اليه ، فقد حمله عليه انتصار النصارى لأعداء الدولة — وذلك أن أهل حمص المسلمين وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ هـ فأعانهم النصارى عليه ، فكتب العامل الى المتوكل فأمره باخراج النصارى وهدم كنائسهم، وكان هذا من أسباب نقمته عليهم(٣)

ويقال نحو ذلك فيما صدر فى أيام الرشيد من الاوامر بهدم الكنائس فى الثغور ، وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم (٤) — فعل الرشيد ذلك على أثر رجوعه من حرب الروم فى هرقلة ، فالظاهر أن

(*) يريد بالمستبدين هنا المنفردين بالسلطان فى دولهم ، لا المستبدين بمعنى الظالمين

(**) راجع ماقرره الرشيد على النصارى عند الطبرى ، طبعة اوربا ج٣ ص ٧١٣ ، وما قرره المتوكل — نفس المصدر والطبعة والجزء ص ١٣٨٩ وخطط القريزى جـ ٢ ص ٤٩٤ ، والنجوم الزاهرة لابى المحاسن جـ ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥

(١) ابن خلدون ٢٧٥ ج ٣ وابن الاثير ٢٠ج٧ والمقريزى٤٩٤ ج ٢

(٢) تاريخ المشارقة (خط) ١٤٦ (٣) ابن الاثير ٢٩ج٧ (٤) ابن الاثير ٨٢ ج ٦

نصارى الثغور (الحدود بين مملكة الروم ومملكة الاسلام) ساعدوا أبناء طائفتهم الروم فى التجسس على أحوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية ، فأمر الرشيد بالتضييق عليهم انتقاما منهم ، وخصص أمره هذا بأهل الثغور على الحدود ، وشدد على الخصوص فى مخالفتهم هيئة المسلمين فى لباسهم ، دفعا لتنكرهم وتجسس أحوال المسلمين — والا فالرشيد من أحسن خلفاء بنى العباس عدلا ورفقا بأهل الذمة ، وكان أحد عمال أخيه الهادى قد هدم بعض الكنائس بمصر ، فلما أفضت الخلافة اليه أمر باعادة بنيانها (١)

وهكذا يقال فى اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية ، مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم • وأقدم ما قاسوه من تضييق الحكام فى طقوسهم وكنائسهم فى أيام الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى فى مصالح الدولة فى أيامه حتى صاروا كالوزراء، وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم ، فتزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين ، فغضب الحاكم بأمر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه الى حد الجنون • فأمر بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فأمرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار فى أوساطهم ، ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عادتهم فيه ، وقبض على ما فى الكنائس وأدخله فى الديوان ، ومنع النصارى من شراء العبيد ، وهدم كنائسهم وأجبرهم على الاسلام ، وغير ذلك من التشديد والعنف (٢) مما لم يقاس النصارى مثله من قبل ، ولعله أعظم ما أصابهم من الاضطهاد فى ابان التمدن الاسلامى • ولا جناح على التمدن الاسلامى منه ، لان مرتكبه أتاه عن حمق أو جنون

وقد سوغ للحاكم المبالغة فى اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ ، فخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان فى القسطنطينية ، فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على أهل مذهبهم فى بلاده،وكان فى جملة ماهدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بعد الحاكم ، عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على اعادة بناء جامع القسطنطينية ، وأن يعاد بناء كنيسة القيامة ، وأن يؤذن لمن أظهر الاسلام فى أيام الحاكم أن يعود الى النصرانية اذا شاء ، فرجع اليها كثيرون (٣)

وربما كان السبب الذى حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفا ، فعظمه

---

(١) المقريزى ٥١١ ج ٢ (٢) المقريزى ٤٩٥ ج ٢ (٣) المقريزى ٣٥٥ ج ١

تعصبه وحمقه فأمر بالهدم والقتل . على أنه كثيرا ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم امورا مضحكة تشبه الجنون الصريح ، كاصداره المنشورات بمنعهم من أكل الملوخيا أو من البقلة المسماة بالجرجير ، أو منعهم من عمل الفقاع ، ومنع النساء من التبرج أو المسير فى الطرق ، والامر بسب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك على المساجد وأبواب الحوانيت وعلى المقابر ، ونحو ذلك من الاوامر التى تدل على اختلال فى عقله . على أننا قلما نراه أتى أمرا الا لسبب ، وان كان ضعيفا — فالسبب فى منعه الناس من أكل الملوخيا مثلا أن معاوية بن أبى سفيان عدو الشيعة كان يحبها ، والدولة الفاطمية شيعية . ومنعهم من أكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة أم المؤمنين ، ومنعهم من أكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من اعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان على بن أبى طالب كان يكرهه (١) وقس على ذلك سائر ضروب الحماقة والغرابة ، ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على أنه عاد ، لسبب طفيف أو بلا سبب ، فأمر ببناء تلك الكنائس (٢) وخير النصارى فى الرجوع الى دينهم فارتد كثير منهم — وقد تقدم ان ذلك كان فى أيام ابنه الظاهر . ومن أعماله الغريبة أنه ابتنى المدارس ، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها ، وألزم الناس باغلاق الاسواق نهارا وفتحها ليلا ، فظل الناس على ذلك دهرا طويلا (٣) فمن كانت هذه أعماله لايستغرب منه اضطهاد، ولا يعد اضطهاده عارا على الدولة أو الامة

على أن أفظع ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد ، انما كان فى دور الاضمحلال أو التقهقر فى العصور الاسلامية الوسطى ، وخصوصا بعد الحروب الصليبية ، لانها كانت سببا كبيرا فى اثارة التعصب بين الامتين. فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم ، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الافرنج سرا ، فبالغ أمراء المسلمين فى الفتك بهم . فنصارى « قارا » مثلا — بين دمشق وحمص — كانوا يسرقون المسلمين فى أثناء تلك الحرب ، ويبيعونهم خفية للافرنج ، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر فى أثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم ، واتخذ صبيانهم مماليك فتربوا بين الاتراك فى الديار المصرية ، فصار منهم اجناد وأمراء (٤) كما فعل العثمانيون بتجنيد الانكشارية بعد ذلك بزمن غير بعيد

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين وأهل الذمة فى بلادهم ،

(١) المقريزى ٣٤١ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٨٦ ج٩ (٣) السيوطى ١٧ ج٢
(٤) أبو الفداء ٤ ج ٤

حتى أصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها فى أذى الاخرى ، ولما كانت الحكومة اسلامية فالنصارى هم المغلوبون . فاذا احترقت حارة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود باحراقها ، فتأمر الحكومة باحراقهم أو احراق كنائسهم (١) وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة ، لان الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين فى بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشد منها . وكثيرا ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل أو يتنصروا (٢) واذا دخلوا بلدا اسلاميا بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم فى الجوامع (٣) ولما تغلب نصارى الاندلس على المسلمين أجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن (*) ولما غلبوهم فى آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم (٤)

تعصب العامة على النصارى

قلنا ان الخلفاء والامراء قدموا النصارى فى مصالح الدولة ، وأغدقوا عليهم الاموال وأكرموهم ورفعوا منزلتهم ، وأنهم فعلوا ذلك لاحتياجهم اليهم فى ابان ذلك التمدن ، لنقل العلوم أو الطب أو الحساب أو الكتابة أو غيرها مما تحتاج اليه الدولة فى تنظيم شؤونها ، لاشتغال المسلمين يومئذ بالرياسة . وكان أولو الامر من الجهة الاخرى يقدمون المسلمين فى المعاملات الرسمية على سواهم من أهل الذمة ، كما كان الامويون يقدمون العرب على غير العرب ، فنشأ التحاسد بين عامة المسلمين وعامة المسيحيين . وذلك طبيعى فى كل مملكة يتنازع العمل فيها ملتان أو طائفتان ، ولا يزال ذلك جاريا على نحو هذا الشكل الى يومنا هذا

نشأ هذا التحاسد أولا بين العامة ونحوهم من أهل المهن العلمية أو الحرف الصناعية ، الذين يحومون حول الخلفاء والامراء للارتزاق بما يعوزهم من أسباب المدنية ، أو يرضيهم من عوامل الرخاء والترف كالشعر والغناء والكتابة والحساب وغيرها . وأما أهل الطبقة العليا (الشرفاء) والاغنياء ورجال الدولة ، فقلما كانوا يتعصبون أو يتباغضون ، وانما كانوا ينظرون الى الرجال من حيث هم بقطع النظر عن مذاهبهم ، فالشريف الرضى الذى كتب الى الخليفة القادر بالله :

---

(١) المقريزى ٨ج٢ وابو الفداء ١١٧ ج٤ وسراج الملوك ١٨٩ (٢) ابن الاثير ٢٩ ج٧
(٣) ابن الاثير ٦٢ج٨
(*) أهل الدجن هم المسلمون الذين دجنوا ، اى اقاموا خاضعين تحت حكم النصارى فى الاندلس بعد سقوط بلادها فى أيديهم ، ويسمون أيضا المدجنين ، ودخلت الكلمة فى اللغة الاسبانية فى صورة mudejares, mudejar
(٤) نفح الطيب ١٢٦٩ ج ٢

عطفا أمير المؤمنين فاننـــا   فى دوحة العليــاء لا نتفرق
مابيننا يوم الفخار تفــاوت   أبدا ، كلانا فى المعالى معــرق
الا الخـلافة ميزتك فاننى   أنا عاطل منها وانت مطـوق

رثى أبا اسحق الصابى بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

أرأيت من حملوا على الاعــواد   أرأيت كيف خبا ضياء النادى

فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة ، فعابه بعضهم لكونه شريفـا يرثى صابئا فقال له : « انما رثيت فضله » (١)

وأما العامة ومن جرى مجراهم ، أو استعان بهـم على بعض المصالح أو المناصب ، فكانوا يظهرون التعصب على النصارى ، ويسعون فى أذيتهم لدى ولاة الامور ، فاذا كان صاحب الامر حازما لا يصغى للوشاية ـ ذكروا أن رجلا نصرانيا من أهل بغداد اتهمه بعض المسلمين سنة ٢٨٤ هـ أنه شـتم النبى (صلعم) فاجتمع أهل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عبيد الله وزيرالمعتضد بالله يومئذ وطالبوه باقامة الحد عليه ، وكأنه اعتقد براءة الرجـل فلم يجب طلبهم (٢) واتصل الامر بالخليفة وكان له شأن كبير . والحكم صاحب الاندلس فى أوائل القرن الثالث للهجرة صلب أحد عماله لانه ظلم أبناء أهل الذمة (٣)

فلما اقتربت الدولة من الشيخوخة اخذ هذا التعصب يسرى من العـامة الى الخاصة ، لرغبة الناس يومئذ فى التقرب من رجال الدولة بالتزلفوالتملق التماسا للكسب ، فينتحلون الاسباب المساعدة على ذلك ، ويتسابقون الى دس الدسائس واختلاق الوشايات . وأســـهل وســائل التزلف فى الدولة الاسلامية التدين ، لاشتراك الدين والسياسة فى مصالحها ، فكان بعضـــهم يستعينون فى اظهار التدين والغيرة على الاسلام بالطعن فى الاديان الاخرى ، فاذا كان صاحب الامر ضعيفا انطلى عليه ذلك ، واضطهد أهل تلك الاديان . ولذلك كان التعصب على أهل الذمة ، ولاسيما النصارى ، يزداد بتقدم الدولة الاسلامية نحو الشيخوخة . وقد اشتد فى الاجيال الاسلامية الوسطى على أثر الحروب الصليبية ، فأصبح الحكام وأرباب المناصبالعلميةوغيرهايجاهرون باحتقار غير المسلمين ، ويبالغون فى اضطهادهم ويعاملونهم معاملة الاعـداء . وتمكنت العداوة بين الفئتين ، وكل منهما تحاول أذية الاخرى ، حتى أصبح النصارى يودون التخلص من دولتهم بأية وسيلة كانت . فلما جاء التتر لفتح بغداد سنة ٦٥٦ هـ كان هوى أهل الذمة معهم . وتعاظم هذا التباغض على الخصوص قبيل النهضة الاخيرة ، أى منذ قرن وبعض القرن ، حتىفىالمعاملات

---

(١) ابن خلكان ٣ ١ ج١ و ٢ج٢ ص ١٣٦   (٢) ابن الاثير ١٩٢ ج٧   (٣) ابن الاثير ١٥٧ ج٦

الرسمية ولاسيما فى البلاد البعيدة عن المدنية ـ فقد أطلعنا صديق عالم على صورة رخصة من جانب الشرع الشريف فى ديار بكر ، بدفن رجل مسيحى توفى فيها ننشرها لغرابة عبارتها وهى :

«من جانب الشرع الشريف فى ديار بكر الى مطران طائفة كفرة السريان .

« أيها المكروه بالنظر والمعتقد ، أن يعقوب الكافر من طائفتكم المكروهة حيث أن الملعون قد فطس وهلك ، فلأجل ادخال جثته الكريهة ضمن الارض ، قد صدر الاسترحام من مرشد محلته وجرى أخذ الخراج ، وأن تكن الارض لا تقبل جثته الخبيثة ، ولكى لا تكون سببا لفساد الهواء ، قد أعطيناه الرخصة بعنوان الشرع الشريف أن تدفن ، ضمن مدينتكم المخصوصة بموجب مذهبكم الباطل الى زمرة جهنم . اقتضى اعطاء هذه الرخصة لكى لايكون مانع من طرف أحد فى ٢٦ جمادى الاولى سنة ١٢٠٣ » انتهى

فأى مسلم أو مسيحى من أهل هذا العصر يطلع على هـذا ولا ينكره أو يستغربه ؟ ولولا ثقتنا بصدق الناقل لانكرناه نحن ايضا . وقد هون علينا تصديقه أن صديقا آخر مقيما فى القاهرة أكد لنا وجود رخص كثيرة فى بعض البطركخانات بمصر فى مثل هذه العبارة . وقد أخذ هذا التعصب فى الزوال من بدء هذه النهضة ، ومتى نضجت نرجو أن يزول تماما باذن الله (*)

تحاسد النصارى

على أنك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الاذى فى ابان التمدن الاسلامى لرأيت سببه فى كثير من الاحوال وشاية بعض طـوائف النصرانية بالبعض الآخر ، كالنساطرة واليعاقبة فى العراق . وكثيرا ماكان أهل النفوذ من النصارى أنفسهم أشد وطأة على أهل دينهم من حكامهم المسلمين ، كما كان عيسى بن

(*) لم ينكر المسلمون أول الامر الا تولية الولاة لنفر من النصارى فى الوظائف ، وقد بدأ ذلك من عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، اذ يحكى انه لما عرف ان لابى موسى الاشعرى كاتبا نصرانيا ضرب فخذه وقال : « الا اتخذت رجلا حنيفا ! » ولكن العمال لم يراعوا ذلك بعد عصر الراشدين ، فكثرت تولية المسيحيين الوظائف ، على ان الغالب انهم كانوا يولون قبل القرن الثالث على اهل ملتهم ، وفى خلال القرن الثالث أنكر الناس على الوزراء مرتين تولية رجلين من النصارى ديوان الجيش ـ وديوان الجيش ليس الجيش، فليس معنى ذلك ان قائد جيش الخلافة كان نصرانيا ، وانما معناه ان الكاتب الموكل بالشؤون الحسابية والادارية كان نصرانيا . وقد بالغ المؤرخون فى تصوير ذلك ، فقال ابو هلال الصابى فى كتاب الوزراء ان الناس لاموا الوزير لانه « جعل أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون امره » (ص ٩٥) ، ولما كان كل موظف فى الدولة يقسم ايمانا بالامانة قبل ان يتولى عمله فقد استحدثت فى ايام الرشيد ايمان خاصة باليهود الذين يتولون شيئا من اعمال الدولة ، وفى أواخر القرن الثالث كان النصارى قد علا أمرهم وغلبوا على الكتاب ، فأمر المقتدر بما كان المتوكل قد أمر به من اخراجهم من الوظائف، وكان ذلك عام ٢٩٦ هـ ٩٠٩ م . ثم امر المقتدر بعد ذلك الا يستخدم احد من اليهود والنصارى الا فى الطب والجهبذة . غير ان ذلك كله كان مؤقتـا ، فما اسرع ما كانت الدولة تعود الى استخدامهم ، لان شعور الود والتآخى كان سائدا بين الناس ، وكانت روح التسامح هى الغالبة .
وكان المثقفون من المسلمين يعلمون ان المسيحية قد حثت على المحبة ورقة القلب ، ولكنهم

شهلا الطبيب لما تولى الطبابة (*) ونال منصبا فى دار الخلافة ، فاغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والاساقفة يأخذ أموالهم لنفسه ، حتى انه كتب الى مطران نصيبين كتابا يلتمس منه فيه من آلات البيعة أشياء عظيمة المقدار ويهدده ، ومن أقواله له : « ألست تعلم أن أمر الملك بيدى ، ان شئت أمرضته وان شئت عافيته ؟ » فبعث المطران بالكتاب الى الربيع حاجب الخليفة فانتقم الخليفة منه

واعتبر ما أجراه بختيشوع بن جبرائيل الطبيب مع حنين بن اسحق المترجم الشهير ، لما رأى من منزلته عند الخليفة المتوكل ، فحسده عليها وعمل على الكيد له من طريق الدين ، وذلك أنه اصطنع ايقونة (صورة) للسيدة العذراء وفى حجرها السيد المسيح . وأوعز الى بعض خاصته أن يحملها هدية الى الخليفة فى وقت عينه له ، وذهب الى مجلس الخليفة فى الميعاد المضروب ، وكان هو المستقبل للايقونة من يد الخادم والحامل لها ، وهو الذى وضعها بين يدى المتوكل ، فاستحسنها المتوكل جدا ، وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مرارا كثيرة ، فقال له المتوكل : « لم تقبلها ؟ » فقال له : « يامولانا اذا لم أقبل صورة سيدة العالمين فمن أقبل ؟ » فقال له المتوكل : « وكل النصارى يفعلون

كانوا يرون ان النصارى قلما يعملون بذلك ، ومن امثلة ذلك قول الجاحظ : « وكل خصاء فى الدنيا فانما اصله من قبل الروم ، ومن العجب انهم نصارى ، وهم يدعون من الرحمة والرأفة ورقة القلب والكبد مالا يدعيه احد من جميع الاصناف ، وحسبك بالخصاء مثلة ، وحسبك بصنيع الخاصى قسوة » (كتاب الحيوان ، ص ٥٦) . ويفهم مما كتبه المقدسى عن الشام ومما قاله يحيى بن سعيد البطريق ان عدد العمال النصارى هناك كان عظيما جدا ، ومما يدل على خلو قلوب الناس من العصبية ان نصر بن هارون وزير عضد الدولة استأذن سيده فى عمارة البيع والاديرة ، وفى اطلاق المال لفقراء النصارى فاذن له ، بل افتى بعض كبار فقهاء الاسلام بانه يجوز ان يكون وزير التنفيذ ــ لا وزير التفويض ــ من اهل الذمة

وربما جاز القول بأنه ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجرى بدأ التعصب بين المسلمين والنصارى يظهر بصورة اصبحت مهددة للامن ، والسبب فى ذلك هبوط المستوى المعيشى والثقافى للناس جميعا ، وسيطرة الجهلاء والرعاع وادعياء الدين . وفى ذلك الحين ايضا ظهر تعصب الجماهير حول الحنابلة وكثرت مهاجمتهم لغير أهل مذهبهم من المسلمين فضلا عن النصارى واليهود ، حتى اختل الامن فى بغداد وأصبحت ميدانا للفوضى والسلب والنهب ، وكلما زادت الحالة السياسية والاقتصادية والثقافية سوءا زادت البلية حتى كان ذلك من أسباب خراب بغداد ، وكان خرابها مقدمة سقوطها .

وكانت الحروب الصليبية ذات أثر حاسم فى تطور العلاقات بين المسلمين والنصارى فى الشرق الاسلامى ، فقد كانت من النصرانية على الاسلام ، وأعلن الذين قاموا بها انهم يفعلون ذلك انتقاما من المسلمين واستردادا للاراضى المقدسة منهم ، فأثاروا بدعوتهم تلك وبأفاعيلهم فى المسلمين مشاعر هؤلاء وفسدت العلاقات بينهم وبين اخوانهم النصارى ، ولم تعد العلاقات بين الجانبين الى ما كانت عليه من الصفاء الى اواخر العصور الوسطى

ثم جاء الاحتلال الاوروبى من أواخر القرن الثامن عشر ، واجتهد فى التفريق بين المسلمين والنصارى ، مما كان له أسوأ الاثر فى بعض البلاد العربية ، ولكن الحال تحسن بعد خروج المستعمرين وتنبه العرب الى ضرورة الوحدة وترك الخلاف فى مسائل الدين ، وقالوا : الوطن للجميع والدين لله ، وأخذ التسامح يحل من جديد رغم محاولات المستعمرين التى لازالت مستمرة الى اليوم .

انظر : آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، طبعة ١ ، القاهرة ١٩٤٧ ــ الفصل الرابع : اليهود والنصارى ص ٣٤ وما يليها

(*) يراد بالطبابة هنا تعيينه طبيبا خاصا للخليفة ، وهى وظيفة ، وتختلف عن الطب وهو علم الطب وصنعته بصفة عامة

كذلك ؟ » فقال : « نعم يا أمير المؤمنين وافضل منى ، لانى أنا قصرت حيث أنا بين يديك . ومع تفضيلنا معشر النصارى ، فانى أعرف رجلا من النصارى فى خدمتك ، وافضالك وأرزاقك جارية عليه ، يتهاون بها ويبصق عليها، وهو زنديق ملحد لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة ، يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسل » فقال له المتوكل : « من هذا الذى هذه صفته ؟ » فقال له : « حنين المترجم » فقال المتوكل : « أوجه أحضره ، فان كان الامر على ما وصفت نكلت به وخلدته فى المطبق ، مع ما اتقدم به فى أمره من التضييق عليه وتجديد العذاب » فقال : « انا احب أن يؤخر مولاى أمير المؤمنين أمره الى أن أخرج وأقيم ساعة ، ثم تأمر باحضاره » فقال : « انى أفعل ذلك » . وخرج بختيشوع توا الى حنين وأخبره : « ان الخليفة أهديت اليه ايقونة كذا ، وقد استحسنها . وأن نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه ، احتقرنا وقال لنا : هذا ربكم وأمه مصوران . وقد سألنى أمير المؤمنين عن رأيى فيها ، فقلت له : مثلها يكون فى الحمامات والكنائس وغيرها مما لا نبالى به . فطلب الى أن ابصق عليها فبصقت ، فاذا دعا بك افعل مثل فعلى » فصدقه حنين. ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع ، فحالما بصق على الايقونة أمر الخليفة بحبسه ، ووجه الى ثيودوسيوس الجاثليق يومئذ فأحضره ، فلما رأى الايقونة وقع عليها وقبلها ، ولم يزل يقبلها ويبكى طويلا ، ثم اخذها بيده وقام قائما ، فدعا لامير المؤمنين وأطنب فى دعائه ، فدعاه الى الجلوس والايقونة فى حجره ، فطلب الجاثليق اليه أن يتركها له . ثم سأله الخليفة عما يستحق الذى يبصق عليها ، فقال : « اذا كان مسيحيا عارفا فانى أحرمه دخول الكنيسة ومن القربان ، وأمنع النصارى من ملامسته وكلامه وأضيق عليه » فأعطى الخليفة الايقونة للجاثليق مع جائزة ، وأمر بحنين فجلد بالسياط والحبال ، وأمر بنقض منازله وحبسه ، ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج الى مشورته فأفرج عنه (١)

فاذا كان هذا فعل المتوكل فى هذه الحال ، وهو كما وصفناه من شدة وطأته على النصارى وغيرهم من أهل الذمة ، فكيف فى غيره من الخلفاء المعتدلين ؟. وقد رأيت من حديث حنين هذا أن الخلفاء كانوا يفرضون على النصارى صدق التدين فى النصرانية ، فضلا عن اعفائهم من الاسلام ، الا من أراده باختياره . وكانوا ايضا يشاركون النصارى فى احتفالاتهم بالاعياد الكبرى ، كالميلاد والشعانين ، ويخرجون معهم الى أماكن النزهة كأنهم أمة واحدة (٢) ولم يكن ذلك مقصورا على العراق والشام ، فان المصريين كانوا يحتفلون بأعياد النصارى السنوية كما يحتفل بها النصارى أنفسهم ، وكان الخليفة يفرق فى الناس الهدايا فى عيد الميلاد والغطاس ، ويفرح المصريون جميعهم معا (٣)

---

(١) طبقات الاطباء ١٩٤ ج ١ (٢) ابن الاثير ١١٣ ج ٨ والفرج ١٥٦ ج ٣ (٣) المقريزى ٤٩٤ ج ١

وكانت الحكومة اذا انشأت معهدا خيريا كان حظ أهل الذمة منه مثل حظ المسلمين ، وخصوصا المستشفيات ودور المرضى ، فانها كانت تبنى لمعالجة المسلم والذمى ، فاذا لم يكن فيها ما يكفى الاثنين قدموا المسلم (١)

على ان المسلمين فى ابان تمدنهم أطلقوا حرية الدين لرعاياهم ، على اختلاف طوائفهم ونحلهم ، فلم يسمع انهم اكرهوا طائفة من الطوائف على الاسلام تعصبا للدين ، حتى فى أيام بنى امية مع ضغطهم على غير العرب فى طلب المال ، فقد رأيت ما كان من خالد القسرى وغيره . وأما بنو العباس فكانوا أقرب الى الاعتدال وحرية الدين ، ولذلك تعددت البدع الدينية فى أيامهم من المجوس وغيرهم ، ناهيك بالفرق الاسلامية وتعددها . وكان أكثر الخلفاء تسامحا فى الدين المأمون ، فكان هو نفسه شيعيا ، وكان وزيره يحيى بن أكثم سنيا ، ووزيره أحمد بن أبى داود معتزليا (٢) يكفيك من تسامحه فى الدين انتصاره للمعتزلة فى القول بخلق القرآن — وأول من قال بذلك رجل يهودى اسمه لبيد الاعصم ، الذى يقال انه سحر النبى (صلعم) . فكان لبيد يقول ان التوراة مخلوقة ، ثم قال بخلق القرآن ، وعنه أخذ طالوت ابن أخته ، وأخذه ابان بن سمعان عن طالوت ، وأخذه الجعد بن درهم عن أبان فى أيام هشام بن عبد الملك الاموى ، وأظهر مقالته فى خلق القرآن وانكار ما فيه ، وان فصاحته لا تعجز الناس بل يقدرون على مثلها وأحسن منها (٣) فغضب عليه هشام وبعث به الى خالد القسرى أمير العراقيين وأمره بقتله ، فحبسه ولم يقتله . فألح عليه ، فأخرجه يوم الاضحى ، وبعد أن صلى قال : « أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم ، فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا » ثم ذبحه (٤) . ولما تولى مروان بن محمد كان يقول بخلق القرآن مثل الجعد (٥) حتى اذا تولى المأمون نصر المعتزلة — ولعله أخذ الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه — وتبعه الواثق بالله فقال مثل قوله فعظم ذلك على عامة المسلمين وانكروه وسموا الواثق كافرا (٦) كما سموا المأمون أمير الكافرين (٧) وكان ما كان من المحنة فى ذلك أيام المتوكل . وانقسم المسلمون الى حزبين ، والخلفاء ضد المعتزلة وقد شددوا النكير على القائلين بخلق القرآن ، وتناشدت الشعراء ذلك طعنا فيهم وتكفيرا لهم ، كقول أبى خلف المعافرى :

لا والذى رفع السماء بلا عماد للنظر

---

(١) طبقات الاطباء ٢٢١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢
(٣) المقريزى ٣٤٦ ج ٢ (٤) ابن الاثير ١٢٣ ج ٥و٢٨ ج ٧
(٥) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٥ (٦) ابن الاثير ٨ ج ٧ (٧) ابن الاثير ١٣١ ج ٦

ما قال خلق فى القرآ ن بخلقــه الا كفــر
لــكن كــلام منــزل من عند خــلاق البشر (١)

وبالجملة فقد كانت الافكار من حيث الدين مطلقة الحرية فى تلك العصور، لا يكره الرجل على معتقده أو مذهبـــه ، فربما اجتمع عدة اخوة فى بيت واحد وكل منهم على مذهب . فأولاد أبى الجعد ستة ، كان منهم اثنـــان يتشيعان واثنان مرجئين واثنان خارجيين (٢)

فسياسة الدولة العباسية فى معاملة الرعايا من المسلمين وأهل الذمة انما هى المحاسنة والعدل والرفق . وقد اتينا بأمثلة من عدل الخلفاء الاولين من بنى العباس ورفقهم فى الجزء الثانى من هذا الكتاب . وكانوا يحاســـنون الفرس وسائر أهل النفوذ من الموالى على الخصوص ، ولا سيما بعـــد أن صارت الحكومة اليهم وقبضوا على جندها ومالها ، فكان الخلفاء يقدمونهم ويكرمونهم ويطلقون أيديهم فى شؤون الدولة ، فاذا داخلهم شك فى اخلاصهم ولو على سبيل الوشاية فتكوا بهم فتكا ذريعا ، كما اتفق للبرامكة وغيرهم من وزراء العصر العباسى الاول

العصبية العربية فى العصر العباسى

سياسة التقسيم (*)

على ان المنصور كان همه منصرفا الى العرب ، لأنهم أهل عصبيـــة اذا اجتمعوا تغلبوا على الدولة وفعلوا ما أرادوه ، لما يعلمه من جرأتهم فى طلب الحق وتقبيح الظلم جهارا ولا يحملون ضيما ، وهو كما علمت بما ارتكبه فى تأسيس دولته من الغدر والفتك ، مما لا تصبر عليه النفوس الأبيـــة . وقد زاده حذرا منهم ما كان يسمعه من أقوالهم الدالة على اباء الضيم ولو كان فيه ما يســـوءه ، كما اتفق له وهو فى بعض حجاته ، وكان يطوف بالكعبة ليلا ، اذ سمع قائلا يقول : « اللهم أشـــكو اليك ظهور البغى والفساد فى الارض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع » فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله ، فطلب أن يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه . فقـــال له : « ان الذى حال بين الحق وأهله هو أنت يا أمير المؤمنـــين » . قال المنصـــور : « ويحك ! وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى ، والحلو والحامض عندى ؟ » . فقال الرجل : « لأن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد وحجابا معهم الاســـلحة وأمرتهم ألا يدخل عليك الا فلان وفلان ، ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع

---

(١) نفح الطيب ١٥٨ ج ٣ (٢) المعارف ١٥٦

(*) المقصود بالتقسيم هنا التفريق بين الناس وجعلهم أحزابا متعادية حتى يسهل على الخليفة قيادهم

والعارى ولا الضعيف والفقير ، وما أحد الا وله من هذا المال حق.. الخ »

فهذا وأمثاله نبه المنصور لجراة العرب ، فجعل يفكر فى اذلالهم ويستنبط له الحيل ، وكان للعرب ديوان خاص لهم فيه الرواتب على أنسابهم ومراتبهم، وفيهم اليمنية والمضرية . فلما فرغ المنصور من تأييد دولته بمقاتلة العلويين والخوارج وغيرهم ، وقد بنى بغداد وحصنها وأنشأ فيها منازل الجند ، نظر الى من حوله منهم على الاجمال ، فاذا هم ثلاث فرق كبرى : اليمنية والمضرية والخراسانية ، فاتفق سنة ١٥١ هـ أن بعض الجند شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب ، وهو قصره فى بغداد ، فأوجس خيفة من تكرار ذلك ، لعلمه أن دولته انما قامت بالجند ، فاذا اجتمعوا عليه أخرجوها من يده ، وهو يعلم أيضا ان لكل من هذه الفرق هوى مع بعض دعاة الخلافة العلويين أو غيرهم ، فليس أهون عليهم من ردها الى دولة جديدة

وكان كبير بنى العباس يومئذ قثم بن العباس بن عبيد الله بن عباس ، وهو شيخهم وله الحرمة والتقدم عندهم ، فاستشاره المنصور فى ذلك قائلا: « أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ؟ وقد خفت أن تجتمع كلمة هؤلاء فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فماذا ترى ؟ » . قال : « يا أمير المؤمنين عندى رأى ان أظهرته لك فسد ، وان تركته امضيته وصلحت خلافتك وهابك جندك » . قال له : « أفتمضى فى خلافتى شيئا لا أعلمه؟» قال له : « ان كنت عندك متهما فلا تشاورنى ، فان كنت مأمونا عليها فدعنى أفعل رأيى » . فقال له المنصور : « فامضه » . فانصرف قثم الى منزله فدعا غلاما له فقال : « اذا كان الغد فتقدمنى واجلس فى دار أمير المؤمنين ، فاذا رأيتنى قد دخلت وتوسطت أصحاب المراتب ، فانهض وخذ بعنان بغلتى ، واستحلفنى بحق رسول الله وبحق العباس وبحق أمير المؤمنين الا ما وقفت لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها ، فانى سأنتهرك عند ذلك وأغلظ لك فلا تخف وعاود المسألة ، فانى سأضربك فعاود وقل لى : أى الحيين أشرف ، اليمن أم مضر ؟ فاذا أجبتك فاترك البغلة وانت حر » . ففعل الغلام كما أمره ، وفعل قثم به ما قاله ، الى أن قال : «مضر أشرف، لأن منها رسول الله (صلعم) وفيها كتاب الله ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله » . فامتعضت اليمن من قوله ، لأنه لم يذكر لهم شيئا ، وقال بعض قوادهم : « ليس الأمر كذلك مطلقا بغير فضيلة لليمن » . ثم قال لغلام له : « قم الى بغلة الشيخ فاكبحها » ففعل حتى كاد يعقبها ، فامتعضت مضر وقالوا : « يفعل هذا بشيخنا ؟ » فأمر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها ، فنفر الحيان ودخل قثم على المنصور . وافترق الجند العربى من ذلك الحين ، فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة ، وقال

قثم للمنصور : « قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزابا ، كل حزب منهم يخاف أن يحدث حدثا فتضربه بالآخر » (١) (*)

وكان المهدى بن المنصور قد جاء من خراسان ، فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها ، فهنأوه بمقدمه فأجازهم وكساهم ، وفعل المنصور بهم مثل ذلك ، فقال قثم للمنصور : « قد بقى عليك بالتدبير بقية ، وهى أن تعبر بابنك « المهدى » فتنزله فى ذلك الجانب من بغداد ، وتحول معه قطعة من جيشك ، فيصير ذلك بلدا وهذا بلدا ، فان فسد عليك أولئك ضربتهم بهؤلاء ، وان فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك ، وان فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبائل الاخرى » فقبل رأيه واستقام ملكه ، وبنى المهدى بلدا سماه الرصافة ـ فاستعان المهدى فى استبقاء دولته بسياسة التقسيم

وما زال شأن العرب يضعف فى الدولة العباسية تدريجا ، وحزب الفرس يقوى حتى أصبحت الدولة فى أيام الرشيد بين عاملين كبيرين : أحدهما فارسى والآخر عربى كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة . وكانت بطانة الخليفة أيضا حزبين ، أحدهما ينتمى الى الفرس والآخر الى العرب ، مرجعهما الى ابنى الرشيد الامين والمأمون ، لأن الاول أمه عربية هاشمية (زبيدة) وأم الثانى أمة فارسية يقال ان الرشيد اشتراها لتلد له لأن امرأته زبيدة أبطأت فى الحمل ، فولدت له عبد الله المأمون ، ثم حملت زبيدة فولدت محمدا الامين (٢) فوقع بين الوالدتين من التحاسد مثل الذى وقع بين سارة وهاجر امرأتى ابراهيم الخليل . وسرى هذا التحاسد فى البطانة ومنه الى سائر رجال الدولة ، وهوى بنى هاشم وسائر العرب مع الأمين ، وهوى سائر رجال الدولة من الفرس وغيرهم مع المأمون . وكان زعيم الحزب العربى الربيع بن يونس وأبناؤه من بعده

والربيع يتصل نسبه بكيسان مولى الحرث مولى عثمان بن عفان ، فجده مولى مولى . ودخل الربيع فى جملة موالى المنصور ، فولاه حجابته ثم جعله وزيره ، وكان المنصور شديد الميل اليه حسن الاعتماد عليه ، فسأله يوما عما يتمناه منه فقال : « أن تحب ابنى الفضل » . فقال المنصور : « كيف اخترت له المحبة دون كل شىء ؟ » . فقال : « لأنك اذا أحببته كبر عندك

---

(١) ابن الاثير ٢٨٥ ج ٥

(*) روى هذا الخبر الطبرى ج ٩ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ ، وعنه نقله ابن الاثير بتحريف بسيط ، ومن رأينا أن عداوة مضر واليمن لم تثر بهذه القصة ، وانما كانت موجودة بالفعل قبل ايام العباسيين ، وقد روى المؤلف ما كان من شأنها فى العصر الاموى . واذا كان ولابد ان نقبلها ففى حدود ، وهى انها دبرت للايقاع بين المضرية واليمنية من جند المنصور

(٢) المسعودى ٢١١ ج ٢

صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته » . ومات الربيع فى أيام الهادى سنة ١٧٠ هـ . ولما تولى الرشيد الخلافة واستوزر البرامكة ، سقط فى يد الفضل بن الربيع لخروج الوزارة من يده ، فرام التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم ، فكان فى نفسه منهم احن وشحناء ، فسعى بهم عند الرشيد ، وكان سعيه من جملة أسباب نكبتهم

ذهاب عصبية العرب بذهاب دولة الامين

وكان المأمون ، فضلا عن نسبه الفارسى من أمه ، قد ربى فى حجر جعفر بن يحيى البرمكى ، وهو الذى سعى له فى ولاية العهد (١) ورباه على حب الفرس . والفضل بن الربيع سعى فى تأييد بيعة الأمين . ولما توفى الرشيد بعد مقتل البرامكة ، كان الفضل بن الربيع هو الذى حمل الامين على نقض بيعة المأمون (٢) واختلف الاخوان على البيعة ، وكان المأمون عند أخواله بخراسان ، والأمين فى أهله ببغداد ، وانتشب القتال بين الفريقين — وهو قتال بين الفرس والعرب ، لأن العرب فى معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الأمين (٣) . وقد نصر الخراسانيون ابن أختهم المأمون ، بتدبير الفضل بن سهل . وكان الأمين يحرض جنده فى بغداد بمشورة الفضل بن الربيع . وكان العرب من الجند العباسى قد أنهكتهم الحضارة والترف ، وتبددوا بسياسة التقسيم ، فلم يستطيعوا دفاعا . فلما ضاق الحال بالأمين ، ولم يبق عنده مال للتجنيد ، استنجد رعاع أهل بغداد ، وفيهم العيارون والشطار وكانوا طوائف كبيرة . وأمر بعض قواده أن يتتبعوا أصحاب الأموال والودائع والذخائر من أهل الملة وغيرهم ، فلم يزده ذلك الا ضعفا . وانقضت تلك الحروب بفوز المأمون ، وسيأتى تفصيل ذلك . فأخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها الى المأمون ، كما أخرجوها قبلا من بنى أمية وسلموها الى أجداده

فاستفحل أمر الفرس فى أيام المأمون وازداد العرب ضعفا ، حتى كثيرا ما كانوا يتعرضون له فى الشوارع يشكون أغضاءه عنهم ، ومن أقوالهم : « يا أمير المؤمنين ، انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان . . » (٤)

فلما أفضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد جمع ما جمعه من الاتراك والفراغنة ، كانت الضربة القاضية على العرب فى الدولة العباسية ، لانه كتب الى عماله فى الاطراف باسقاط من فى دواوينهم من العرب وقطع

---

(١) ابن الاثير ٩٤ ج٦ (٢) ابن الاثير ٨٩ ج ٦ (٣) المقريزى ١٧٨ ج ١
(٤) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦

العطاء عنهم ، ففعلوا وهم يستعيذون بالله من ذلك ، وانحط شأن العرب من ذلك الحين (١) ومنعوا من الولايات . وآخر من ولى مصر منهم عنبسة ابن اسحق ، صرف عنها سنة ٢٤٢ هـ (٢) فتمكن الفرس من الدولة وزادت رغبتهم فى نزعها من العرب على الاطلاق ، فقام مرداويج فى اصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة الى الفرس ويبطل دولة العرب (٣) فلم يفلح ، على ان النفوذ تحول بالتدريج الى الخدم ، كما سترى (*)

---

(١) القريزى ٩٤ و ٣١١ و ٣١٣ ج ١ وابن خلدون ١٣٠ ج١ (٢) القريزى ٢٩٤ ج ٢

(٣) الفخرى ٢٥٢

(*) لم تكن الفتنة بين الامين والمأمون فى اول امرها فتنة بين العرب والفرس ، فقد كان حول كل منهما عرب وفرس ، وكان بين العرب المحيطين بالمأمون من لايقل اخلاصا له عمن حوله من الفرس ، وكذلك كان الفرس المحيطون بالامين لايقل اخلاص بعضهم له عن اخلاص العرب ، وانما الخلاف فى أساسه خلاف بين أخوين على الملك ، فان ولاية عهد الرشيد كانت للمأمون اولا ، ولكن الامين عدا على حق اخيه وبايع لنفسه ، ولم يكتف بذلك ، بل خلع المأمون من ولاية العهد وبايع لابنه فكانت الحرب . بل ان بعض العرب المحيطين بالامين كانوا لايرون خلع المأمون عن ولاية العهد ، فبينما كان الفضل بن الربيع (وهو مولى) وعلى بن عيسى بن ماهان والسندى وغيرهم من الفرس يحثون الامين على خلع اخيه ، كان عبد الله بن خازم (وهو عربى) يحذره من ذلك . وكان فى عسكر المأمون المؤيد له رافع بن الليث بن مضر بن سيار وهرثمة ابن اعين وهما عربيان ، بل ان الكثير من العرب المحيطين بالامين كانوا أميل الى المأمون ، مثال ذلك العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن على العباسى ، فقد ارسله الامين فى وفد ليقنع المأمون بالتنازل عن حقه فى ولاية العهد ، فلم يلبث أن انضم الى المأمون

هذا ولم يكن المأمون فارسى الميول ، ولا الامين عربيها ، وانما كانا كغيرهما من أهل العصر يعيشون فى وسط فيه عرب وفرس ، وكان كل منهما يحس انه عربى هاشمى خالص العروبة ، وربما كان ذلك اظهر فى المأمون منه فى الامين . ولم يتحمس جند العرب للامين ويعتقدوا انه يمثلهم ، ولم ينفر العرب من المأمون ويعتبروه خصما لهم ، وكانت أمور الامين بيد مولى فارسى هو الفضل بن الربيع ، وامور المأمون بيد مولى فارسى آخر هو الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين

ولم يكن فى جيش الامين من العرب نفر كبير ، وقد وصف طاهر بن الحسين قائد المأمون هذا النفر فى قوله يصف عسكر الامين : « ان أهل الرى لعلى (بن عيسى بن ماهان) لهائبون ومن سطوته مشفقون ، ومعه من اعراب البوادى وصعاليك الجبال والقرى كثير ، ولست آمن ان اقمت بالرى أن يثب اهلها بنا خوفا من على » . وهذا يدل ايضا على خوف قائد المأمون من انقلاب اهل الرى عليه (وهم فرس)

وانما تطور الامر بعض الشىء بعد انتصار طاهر بن الحسين على على بن ماهان عند الرى ، فقد كانت الهزيمة وسط بلاد الفرس ، فتشجع الفرس وتزاحموا على جيشه ، وتخاذل انصار الامين من الفرس ، وانضم الكثير منهم الى المأمون ، بل اضطرب جند الامين فى بغداد نفسها ، قال ابن الاثير : « ومشى القواد بعضهم الى بعض فى النصف من شوال ، فاتفقوا على طلب الارزاق والشغب ، ففرق فيهم مالا كثيرا ، بعد ان قاتلهم عبد الله بن خازم ، فمنعه الامين »

وقد تأكد انصراف قواد الفرس عن الامين بعد هزيمة عبد الرحمن بن جبلة وهو القائد الثانى الذى عينه الامين على جنده بعد قتل على بن عيسى بن ماهان ، فهنا نجد الفرس ينصرفون عن الامين ، لا عن عصبية للمأمون ، بل ميلا الى اخوانهم الذين انتصروا على الامين ، وكان قواد الجند فى تلك الاعصر مع الغالب دائما . ولم يجد الامين بعد ذلك قوادا من الفرس يوليهم ، فولى عربا من امثال أسد بن يزيد بن مزيد واخيه احمد وعبد الله بن حميد بن قحطبة ، ومع ذلك فقد كان الذى يتولى الامر للامين هو الفضل بن الربيع وهو مولى كما قلنا ، وكان يشكو من عدم اكتراث الامين للامر ولهوه ، وهو المسئول عن ذلك ، لانه هو الذى هون عليه امر أخيه المأمون وشجعه على عزله ، ومع ذلك فقد أراد أن يتنصل من المسئولية ويلقى التبعة كلها على الامين ،

وفى أيام المأمون ومن جاء بعده تظاهر الشعوبية بالطعن على العرب، وكان المأمون يقربهم ويجعلهم من بطانته ويجيزهم ، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة ، وكان شديد التعصب على العرب - وأبو عبيدة الراوية الشهير ، وعلان الشعوبى . والف الشعوبية الكتب فى ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الأمم

والشعوبية يقولون بالمساواة بين بنى الانسان ، ولذلك سموهم أيضا : « أهل التسوية » ، ومن أقوالهم فى الرد على العرب أن النبى (صلعم) نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف جنسياتهم بقوله : « المسلمون اخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ». وقوله فى خطبة حجة الوداع : « ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى » . وما جاء فى القرآن : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . والشعوبية ينوبون بدفاعهم عن كل أمم الارض فى ذلك العهد ، الا العرب ، فاذا افتخروا (أى الشعوبية) بملوكهم ذكروا الفراعنة والنماردة والعمالقة والاكاسرة والقياصرة، وافتخروا بسليمان الحكيم والاسكندر الكبير وبملوك الهند . واذا فاخروهم بالانبياء والمرسلين ذكروا الانبياء من آدم الى أيامهم ، وانهم جميعا من غير العرب ، الا أربعة هم : هود ، وصالح ، واسماعيل ، ومحمد (صلعم) . واذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة ، ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة القبان والاسطرلاب ، وفخروا بفلسفة اليونان واشعارهم وسائر علومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم . وبلغ من جسارة بعض الشعوبية فى بعض ردوده أن قال : « فما الذى تفخر به العرب على العجم ؟ فانما هى

فقال لاسد بن يزيد بن مزيد : « ان هذا الرجل قد القى بيده القاء الامة الوكعاء ، يشاور الناس ويعزم على الرؤيا ، وقد امكن مامعه من اهل اللهو والجسارة ، فهم يعدونه الظفر ويمنونه عقب الايام ، والهلاك أسرع اليه من السيل الى قيعان الوحل (كذا) ، وقد خشيت والله أن نهلك بهلاكه ونعطب بعطبه ، وانت فارس العرب وابن فارسها ، وقد فزع اليك فى هذا الامر ولقاء هذا الرجل .. » . ولم يتم الاتفاق بين الامين ويزيد بن مزيد فحبسه واستلمى اخاه أحمد بن مزيد وسيره فى ٢٠ الف وسير عبد الله بن حميد بن قحطبة فى ٢٠ الف أخرى ، ولكنهما اختلفا ، فعادا دون قتال ، والغالب ان معظم الخلاف وقع بين من معهما من جنسد العرب والفرس وتبين بوضوح ان الامين لم يعد يستطيع الاعتماد على الفرس . وهنا لجأ الامين الى عبد الملك بن صالح ، وكان محبوسا من ايام الرشيد ، فأطلقه وولاه القيادة واستشاره فنصحه بالاعتزاز بعرب الشام ، وقال له : « يا أمير المؤمنين ، أرى الناس قد طمعوا فيك ، وجندك قد أعيتهم الهوام واضعفتهم الحروب وامتلأت قلوبهم هيبة لعدوك ، فان سيرتهم الى طاهر غلب بقليل ممن معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم ، واهل الشام قوم قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد ، وكلهم منقاد الى متنازع الى طاعتى ، وان وجهنى امير المؤمنين اتخذت له منهم جندا يعظم نكايتهم فى عدوه » . فولاه الامين الشام ، وأصبح الامر بهذا صراعا بين العرب والفرس ، وخاصة بعد أن وقع النفور بين من بقى على طاعة الامين من جند الفرس وجنده من العرب . فلما دارت الدائرة أخيرا على الامين بدا الامر وكأنه من أوله صراع بين العرب والفرس

كالذئاب العادية والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضا ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون فى حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل » (١) واستشهدوا على ذلك بأبيات من أقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وقالوا : « لايفلح العربى ان لم يكن معه نبى ينصره » (٢) وعيروهم باستلحاق الأدعياء ونظموا الأشعار طعنا فيهم . وممن نظم المطاعن عليهم الحسن بن هانىء وبشار بن برد وغيرهما ، على أن بشارا كان تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء

وقام المتعصبون للعرب فألفوا الكتب فى الرد على الشعوبية . ومن أشهر ما الف فى ذلك كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة ، وقد رد الشعوبية عليه فى مناظرات يطول شرحها . وعلى أى حال فان السياسة وطبيعة العمران قضت بذهاب دولة العرب (*)

---

(١) العقد الفريد ٦٩ ج ٢ — (٢) ابن الاثير ٥٧ ج ٧

(*) الدراسات عن الشعوبية كثيرة ، وأحسن من تحدث عنها فى العصر الحديث الاستاذ أحمد أمين فى « ضحى الاسلام » ، ومن المستشرقين اجناتس جولدتسيهر ، اذ له فى الموضوع بحثان مهمان هما : الشعوبية Die Shu'ubiyya فى كتابه : دراسات اسلامية Mohammedanische Studien ج ١ ص ١٤٧ — ٢١٦ و « الشعوبية بين مسلمى الاندلس :
Die Shu'ubiyya unter den Mohammedanern in Spanien
نشره فى مجلة جمعية المستشرقين الالمان ZDMG مجلد ٦٣ ص ٦٠١ — ٦٢٠

نكبة الوزراء الفرس

الوزراء الفرس قبل البرامكة

قد رأيت أن الخلفاء العباسيين قربوا الموالى الفرس وولوهم المناصب الكبرى ، فاتخذوا منهم الوزراء والعمال ، فاعتز الفرس وتاقت نفوسهم الى الاستبداد بالدولة والرجوع الى ما كانوا فيه على عهد الاكاسرة . وهم يعلمون ان ذلك لا يتيسر لهم فى الاسلام الا بصبغة دينية تحت راية الخلافة الاسلامية . وربما كان ذلك الأمل فى جملة ما حملهم على التشيع لأهل البيت فى أيام بنى أمية ونصرتهم فى طلب الخلافة

فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة ، ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين ، وقاتل آل الحسن وقتلهم بعد أن قتل أبا مسلم وغيره من شيعته ، لم ير الفرس بدا من الرضوخ لسلطانه خوفا من بأسه . على أنهم ظلوا على مذهب الشيعة ، وتربصوا يتوقعون فرصة يثبون فيها على الدولة أو ينشئون لأنفسهم دولة شيعية

وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه ، فيستخدمون الفرس فى اكبر مصالح الدولة على حذر . فاذا رأوا من احدهم ميلا الى التشيع عزلوه أو قتلوه ، ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم ، والخلفاء يبثون عليهم العيون فى منازلهم ، كما فعل المهدى بوزيره يعقوب بن داود ، واصله من موالى العرب ، وكان فى بادىء أمره كاتبا عند ابراهيم بن عبد الله العلوى الحسنى أخى محمد بن عبد الله الذى قام فى المدينة وقتله المنصور . وكان يعقوب قد خرج مع محمد هذا على المنصور ، ثم رجع فى جملة الراجعين ، وكتم ميله واتصل بالمهدى فاستخدمه واحبه كثيرا ووثق به ، حتى آخاه واعلن ذلك فى الدواوين ، فقال سلم الخاسر فى ذلك :

قل للامام الذى جاءت خلافته تهدى اليه بحق غير مردود
نعم القرين على التقوى أعنت به أخوك فى الله يعقوب بن داود

واحرز يعقوب المذكور نفوذا عظيما ، حتى غلب على أمور المهدى وسهل له الاسراف والاشتغال عن مصالح الدولة ، وتفرغ هو للعمل ، والعرب لا يعجبهم ذلك ، فجعلوا يعرضون به بالاشعار ونحوها ، والمهدى يسمع اقوالهم ولا يبالى بها — روى ان المهدى حج مرة فمر بمكان عليه كتابة قرأها فاذا هى :

لله درك يا مهدى من رجل لولا اتخاذك يعقوب بن داود

فقال المهدى لمن معه اكتبوا تحته : « على رغم انف الكاتب لهذا وتعسا لجده »

فلما لم يجد أعداؤه حيلة فى تغيير قلب المهدى عليه تحولوا الى الوشاية من جهة لا بد للخليفة أن يتنبه لها ، فقالوا له : « ان يعقوب يميل الى العلوية ، وانه كان معهم عند قيامهم على أبيه » فاشتغل خاطره ، وكان يعقوب يكتم ذلك عنه ، فأراد أن يمتحنه . فدعا به يوما وهو فى مجلس فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية جميلة ، ثم أظهر المهدى أنه مسرور منه فأهداه المجلس بما فيه والجارية أيضا ، ثم تقدم اليه بمهمة طلب قضاءها — وهى أن رجلا من العلوية يريد المهدى أن يتخلص منه ، فأوصى يعقوب أن يقتله ، فوعده بذلك بعد أن أقسم الايمان . وذهب الى منزله واستقدم ذلك العلوى وكلمه فرآه لبيبا ، وتوسل الرجل اليه أن يحقن دمه ، فحن له يعقوب وعفا عنه وأوصاه بالفرار وساعده بالمال . وكانت الجارية فى بعض جوانب البيت تسمع ما جرى ، فنقلت الحكاية كما جرت . فبعث المهدى حتى قبض على الرجل وخبأه ، وأتى بيعقوب فاعترف له بما فعله فحبسه بالمطبق عدة سنين ، ولم يخرج الا فى السنة السادسة من خلافة الرشيد ، شفع له يحيى بن خالد البرمكى ، لأنهما من طينة واحدة ومذهب واحد ، وكان يعقوب قد عجز فخيره الرشيد فى الاقامة حيث يشاء ، فاختار مكة فسيروه اليها وتوفى فيها سنة ١٨٧ هـ وهى السنة التى نكب فيها البرامكة (*)

الوزراء البرامكة

مرتبتهم فى الدولة

لما توفى المهدى والهادى وأفضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة ، لأن خالدا جدهم من قواد أبى مسلم ، وقد جاهد فى نصرة العباسيين جهادا حسنا ، فاستوزره أبو العباس واستعمله المنصور فى الحروب كما تقدم . وكان خالد كبير العقل واسع الصدر ، لم يبلغ أحد من ولده مبلغه فى الجود والرأى والبأس والعلم ، واشتهر ابنه يحيى بموفور العقل وسداد الرأى ، وكان مقربا من المهدى يعول على رأيه . وولد ليحيى سنة ١٤٨ هـ غلامه الفضل ، قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام ، وربى الطفلان معا

(*) روى هذه الاخبار محمد بن عبدوس الجهشيارى فى كتاب الوزراء ، القاهرة ١٩٣٨ ص ١٦٠ — ١٦١

فأرضعت الخيزران الفضل من لبن ابنها ، فكان الفضل بن يحيى اخا الرشيد من الرضاعة ، وفى ذلك يقول سلم الخاسر : (١)

أصبح الفضل والخليفة هرو ن رضيعى لبان خير النســاء

ولما ترعرع هرون عهد المهدى الى يحيى بتربيته ، فشب الرشيد فى حجره وكان يدعوه : « يا أبت » ، فلما مات المهدى سنة ١٦٩ هـ فى جرجان كان أكبر رجال الدولة المقربين يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس . وخاف الرشيد اختلال الأمر اذا علم الناس بموت أبيه وهم فى تلك الحال ، فاستشار يحيى فأشار عليه برأى كان فيه الصواب ، حتى رجعوا الى بغداد وقد هاج الناس ، وفيها الخيزران أم الهادى والرشيد ، فبعثت الى الربيع ويحيى لتشاورهما ، فأجابها الربيع ولم يجبها يحيى ، وأوصاه أن يقوم بأمر الرشيد كما كان فى أيام أبيه ووبخ الربيع (*)

وأول شيء خطر للهــــادى بعد قبضه على أزمة الخلافة أن يخلع أخــــاه الرشيد من ولاية العهد ، ويحول الارث الى ابنه لتبقى الخلافة فى نسله ، كما كان يفعل معظم الخلفاء فى مثل هذه الحال . فأعلن الهادى عزمه لبعض خاصته

---

(١) ابن الاثير ٢٧٧ ج ٥

(*) الخبر مختصر هنا بعض الشيء ، ولا بأس من روايته بنصه كما ساقه ابن الاثير (٥/ ٧٣ ــ ٧٤) لانه ينبيء عما كانت الدولة العباسية تعانيه فى ذلك الوقت المبكر من الاضطراب فى مسألة وراثة العهد والخوف من الجند واختلاف الوزراء والناصحين فيما بينهم . وقد روى ابن الاثير هذا الخبر بعد حكايته لموت المهدى بماسبذان من أعمال جرجان : « ولما توفى المهدى كان الرشيد معه بماسبذان ، فأتاه الموالى والقواد وقالوا له : ان علم الجند بوفاة المهدى يؤمن الشغب ، والرأى أن تنادى فيهم بالرجوع حتى تواريه ببغداد » ، فقال هارون : ادعوا الى أبى يحيى بن خالد (البرمكى) ، وكان يحيى يتولى ماكان الى الرشيد من اعمال المغرب من الانبار الى افريقية (أى الجزء الغربى من الدولة) ، فاستدعى بيحيى الى الرشيد ، فقال : ماتقول فيما رأى هؤلاء ؟ وأخبره الخبر (أى كتمان أمر وفاة المهدى) قال : لا ارى ذلك ، لان هذا لايخفى ، ولا آمن اذا علم الجند ان يتعلقوا بمحمله ويقولوا : لانخلى حتى نعطى لثلاث سنين أو أكثر ، أو يتحكموا ويشتطوا ، ولكنى أرى أن يوارى رحمه الله ههنا ، وتوجه نصيرا (أحد الموالى) الى أمير المؤمنين الهادى بالخاتم والقضيب والتعزية والتهنئة ، فان الناس لاينكرون خروجه ، اذ هو (أى نصير) على بريد الناحية ، وان تأمر لمن تبعك من الجنـد بجوائز مائتين مائتين ، وتنادى فيهم بالرجوع ، فلا تكون لهم همة سوى أهلهم . ففعل ذلك ، فلما قبض الجند الدراهم تنادوا : بغداد ! بغداد !

فلما بلغوها ، وعلموا خبر المهدى أتوا باب الربيع (بن يونس) واحرقوه (غضبا عليه ، وقد كان الربيع وزير المهدى ، فظنوا انه هو الذى كتم عليهم الخبر وضيع عليهم فرصة المطالبة بمال أكثر) واخرجوا من كان فى الحبوس وطالبوا بالارزاق . فلما قدم الرشيد ارسلت الخيزران الى الربيع والى يحيى بن خالد تستدعيهما لتشاورهما فى ذلك (وكانت الخيزران أميل الى تولية الرشيد) ، فأما الربيع فدخل عليها ، واما يحيى فامتنع لما يعلم من غيرة الهادى . وجمع الاموال حتى اعطى الجند لسنتين فسكتوا . وكتب الهادى الى الربيع كتابا يتهدده بالقتل ، وكتب الى يحيى يشكره ، ويأمره بأن يقوم بأمر الرشيد . وكان الربيع يود يحيى ويثق به ، فاستشاره فيما يفعل خوفا من الهادى ، فأشار عليه بأن يرسل ولده الفضل الى الهادى بالهدايا والتحف ، ويعتذر اليه ، ففعل ورضى الهادى عنه . وكان الربيع قد اوصى الى يحيى بن خالد ، وأخذت البيعة للهادى ببغداد . وكتب الرشيد الى الآفاق بوفاة المهدى ، واخذ البيعة للهادى وسار نصير الوصيف الى الهادى بجرجان ، فعلم بوفاة المهدى والبيعة له ، فنادى بالرحيل وركب على البريد مجدا ، فبلغ بغداد فى ٢٠ يوما ، ولما قدمها استوزر الربيع ، وفى هذه السنة أيضا هلك الربيع »

فوافقوه ، وخلعوا هرون وبايعوا جعفر بن الهادى ، وتنقصوا من الرشيد في مجلس الجماعة . فأمر الهادى الا يسار بين يديه بالحربة ، على جارى العادة فى المسير بين يدى ولى العهد ، فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه ، ورضى هو بذلك . ولكن يحيى لم يرض ، بل حرضه على التمسك بحقه فى ذلك ، فوشي بعضهم الى الهادى أن يحيى يفسد الرشيد عليه ،فبعث الهادى الى يحيى فقال له : « يا يحيى ، مالى ولك ؟ » . قال : « مايكون من العبد الى مولاه الا طاعته » . فقال : « لم تدخل بينى وبين اخى وتفسده على؟» فقال : « من أنا حتى أدخل بينكما ؟ انما صيرنى المهدى معه ، ثم أمرتنى أنت بالقيام بأمره فانتهيت الى أمرك » . فطابت نفس الهادى بهذا القول. فاغتنم يحيى رضاءه وقال : « يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم ، وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة » ، قال : « صدقت » وصرفه

فلما لقى الهادى القواد الذين خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع ، فبعث الى يحيى فحبسه ، فكتب اليه يحيى وهو فى الحبس : « ان عندى نصيحة » فأحضره وسأله عما عنده فقال يحيى : « يا أمير المؤمنين ، أرأيت ان كان الأمر الذى لا نبلغه ونسأل الله أن يعدمنا قبله ؟ (يعنى موت الهادى) اتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشد ، أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ » . قال : « ما أظن ذلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو اليها أكابر أهلك مثل فلان ، ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك ؟ والله ان هذا الأمر لو لم يعقده المهدى لأخيك لقد كان ينبغى أن تعقده أنت له ، فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى ؟ ولكنى أرى أن تقر الأمر على أخيك ، فاذا بلغ (جعفر) أشده أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه » فقبل الهادى قوله وعمل به (١)

وتوفى الهادى ولم يملك الا سنة ، وأفضت الخلافة الى الرشيد ، ويحيى أول من بشره بها وأتاه بالخاتم وهو نائم ، فعرف الرشيد فضله فى ذلك وقال له : « يا أبت أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر » . ودفع اليه خاتمه وجعل اصدار الأمور وايرادها اليه . وكان يعظمه ، فاذا ذكره قال : « أبى » وفى هذه الوزارة يقول الشاعر :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولى هرون أشرق نورها ؟
بيمن أمين الله هرون ذى الندى ... فهرون واليها ويحيى وزيرها (*)

(١) ابن الاثير ٣٩ ج ٦
(*) ابن الاثير : الكامل ٨٢/٥ ، وقد ورد البيتان فى الاغانى (٣٨/٥) بصورة اخرى :
ألم تر ان الشمس كانت مريضة ... فلما ولى هارون أشرق نورها
فألبست الدنيا جمالا بوجهه ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وخلف يحيى أولادا أحسنهم الفضل فى جوده ونزاهته ، وجعفر فى كتابته وفصاحة لسانه ، ومحمد فى بعد همته ، وموسى فى شجاعته وبأسه . وقد تولوا أرفع المناصب وتصرفوا فى الدولة ، وخصوصا جعفر والفضل ، فضلا عما اشتهروا به من الجود والسخاء ، وكان أبوهم يحيى جوادا مثلهم ، فاشتق الناس من اسمهم فعلا للسخاء فقالوا : « تبرمك الرجل » اى جاد وسخا (*)

وأراد الرشيد اكرام يحيى ، فولى ابنيه الفضل وجعفر اعظم الاعمال ، فقسم المملكة بينهما ، فجعل جعفر عاملا على الغرب كله من الانبار الى افريقية ، وقلد الفضل الشرق كله من شيروان الى أقصى بلاد الترك . فشخص الفضل الى خراسان سنة ١٧٦ هـ فجعلها مركز عمله ، وأزال سيرة الجور منها وبنى المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر البقايا (**) وزاد الجند ووصل الزوار والقواد والكتاب ، لكنه لم يقم فيها الا قليلا ، فاستخلف على عمله وشخص الى العراق سنة ١٧٩ هـ ، فاكرمه الرشيد ثم ولاه الوزارة ، ورأى بعد قليل أن ينقلها الى جعفر فخاطب اباهما قائلا: « قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر ، وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب أنت اليه » . فكتب يحيى الى الفضل : «قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك» ، فأجابه الفضل : « قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى ، وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه » (١)

وتمكن جعفر عند الرشيد وغلب على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى اتخذ الرشيد ثوبا له زيقان ، فكان يلبسه هو وجعفر جملة . وتصرف جعفر فى المملكة تصرفا مطلقا ، لم يكن يمضى أمرا الا أمضاه الرشيد ، ولو كان فيه هبة نصف مملكته أو تزويج بعض بناته . وفى حكايته مع عبد الملك بن صالح الهاشمى ما يمثل ذلك الاطلاق أحسن تمثيل : كان الرشيد متغيرا على عبد الملك لأنه من بنى عمه وله طمع فى الخلافة ، فاتفق أن عبد الملك المذكور كان مرة فى مجلس شراب بمنزل جعفر ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : « أذكر حوائجك » فشكا اليه أن الرشيد متغير عليه ، فقال له : « قد رضى عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك » ، فقال : «وعلى ٤٠٠٠٠٠٠ درهم دينا» ، قال : « تقضى عنك وأنها لحاضرة ،

(*) ويقال أيضا : تبرمك الرجل ، أى ساد وبلغ من السلطان مبلغا عظيما وتصرف فى الامور وادركه البطر . انظر دوزى : ملحق القواميس ، مادة : برمك

(**) أى بقايا الضرائب المتخلفة من الاعوام الماضية ، وكان العمال يطالبون الناس بها ويرهقونهم . ويسمى الغاء البقايا ايضا بالمسامحة

(١) الفخرى ١٨٦

ولـكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك » . قال : « وابراهيم ابنى أحب أن أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة » . قال : « قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته » . قال : « وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه » . قال : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » . وخرج عبد الملك والحضور يعجبون من اقدام جعفر على ذلك من عند نفسه ، وخافوا أن يغضب الرشيد من هذه الجسارة ، فما عتم أن علموا بامضاء الرشيد كل ذلك وهو يقول : « أحسن أحسن » (١)

ناهيك بما كان من اطلاق يده فى خزائن الدولة وفى رقاب الناس . ومع ذلك فان الرشيد حالما أوجس منه على سلطانه نكبه ونكب سائر أهله نكبتهم المشهورة ، واختلف المؤرخون فى سببها وهو ما نذكره

نكبة البرامكة

الرشيد والشيعة

كان البرامكة من الشيعة ، وكان جدهم خالد قد بايع للعلويين قبل العباسيين مثل سائر أهل خراسان وفارس • فلما غلب العباسيون وشاهد فتكهم بأبى سلمة ثم بأبى مسلم وسواه ممن يريد الخلافة للعلويين ، رأى من الحكمة وسداد الرأى أن يغضى عن ذلك الامر ، وأخلص الخدمة للسفاح ثم للمنصور • وسار ابنه يحيى وأولاده على نحو ذلك ، وهواهم لا يزال مع الشيعة العلوية من ايثار آل على ، لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصا فى خلافة الرشيد ، لانه كان شديد الوطأة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم ويقتلهم (٢) وكان يكره الشيعة منذ صباه ، وهم يخافونه من قبل الخلافة. فلما تولى الخلافة أمر باخراج الطالبيين جميعا من بغداد الى المدينة (٣)

واشتهر بذلك حتى أصبح الشعراء يتقربون اليه بهجائهم ، وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب ، وهم لا يجسرون على الظهور فى حياته • فلما مات ودفن فى طوس ، قال دعبل بن على يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعا بقتل العلويين ، من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد ، وأشار الى اجتماع القبرين فى طوس ــ قبر الرشيد وقبر الرضا ــ قال :

وليس حى من الاحياء نعلمه	من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء فى دمائهم	كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة	فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا	ولا أرى لبنى العباس من عذر

(١) ابن خلكان ١٦ ج ١ (٢) العقد الفريد ١٤٢ ج ١ (٣) ابن الاثير ٤٧ ج ٦

أربع بطوس على القبر الزكى اذا ... ما كنت تربع من دير الى وطر
قبران فى طوس : خير الناس كلهم ... وقبر شرهم ، هذا من العبر !
ماينفع الرجس من قرب الزكى ولا ... على الزكى بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ما شئت أو فذر (١) (*)

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية، ويعدون عمله حراما (٢) ويكظمون . على أنهم كانوا يساعدون الشيعة سرا بما يبلغ اليه امكانهم ، وكان كبارهم يجتمعون الى جعفر ، وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الأعلى عند الرشيد ، ويذكرون أعمال الرشيد ، وجعفر يحاذر أن يبلغ ذلك اليه ، ولكن حساده فى بلاط الخليفة ـ وأكثرهم من العرب أو من ينتمى اليهم ـ كانوا يسعون به الى الرشيد ، وأشدهم غيظا منه وأقدرهم على الكيد به زبيدة أم الأمين ، لانه فضل ابن ضرتها المأمون على ابنها . وقد اضطغنت عليه مذ كانوا فى الكعبة ، وقد جاءها لتعليق كتابى العهد للأمين والمأمون ، فلما حلف الأمين اليمين على جارى العادة وهم بالخروج من الكعبة ، رده جعفر وقال له : « ان غدرت بأخيك خذلك الله » وطلب اليه أن يحلف على ذلك ثلاثا ، فشق طلبه على أمه زبيدة فحقدتها عليه ، وكانت من جملة من حرض الرشيد على الايقاع به (٣) فضلا عما بينهما من العداوة العنصرية ، وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب ، وخصوصا آل الربيع وآل مزيد الشيبانى ، فان البرامكة أضعفوا نفوذهم فى الدولة واغروا الرشيد بهم (٤) غير حسادهم من الفرس ، حتى عمهم محمد بن خالد ، فانه كان من جملة حسادهم والساعين فى أذاهم (٥)

هؤلاء جميعا كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر ، تارة من حيث تشيعه وطورا من حيث استبداده بالدولة ، وآونة من حيث استئثاره هو وأهله بالاموال ، والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره ، وقد غلب عليه ما غرس فى نفسه من أفضال يحيى عليه ، وآثار أبنائه فى تنظيم دولته واحياء معالمها ، وان يكن ساءه ما يبديه جعفر أحيانا من نصرة العلويين أو استنصارهم، فان جعفر

---

(١) الاغانى ٥٧ ج ١٨

(*) قال ابو الفرج بعد ان روى هذه الابيات لدعبل الخزاعى : « يعنى قبر الرشيد وقبر (على) الرضا عليه السلام ، فهذه واحدة ، واما الثانية فان المأمون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجهه حتى دس اليه قوله ... الخ » . وقد روى الاصفهانى هذا الخبر فى معرض الكلام عن تعلق دعبل بالعلويين وانه على رغم احسان الرشيد اليه لم يكد يسمع بموته حتى قال فيه هذا الشعر يهجوه . وقد فعل دعبل مثل ذلك مع المأمون ، فان هذا قد استرضاه وأحسن اليه ، فاقبل عليه وانشده الشعر ، ولكنه قال رغم ذلك شعرا فى هجائه

(٢) الاغانى ٧٦ ج ٢٠ (٣) المسعودى ١٩٥ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٥٧ ج ٦ وابن خلكان ١٧٩ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٧١ ج ٦

لما ولاه الرشيد المغرب استخلف على مصر رجلا شيعيا .(١) فكان الرشيد صابرا على ذلك يترقب الفرص

الشيعة العلوية بخراسان

وكان الخراسانيون ومن والاهم من أهل طبرستان والديلم ـ قبل قيام العباسيين ـ من شيعة علي ، وانما بايعوا للعباسيين مجاراة لأبي مسلم .أو خوفا منه . فلما رأوا ما حل به من القتل غدراً ، غضبوا وتعاقدوا على الأخذ بثأره ، ثم رأوا المنصور فتك بالراوندية اخوانهم وهم من أصحاب أبي مسلم، ثم بنى بغداد وتحصن فيها ، فتربصوا واذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم ، وفر من بقي من ولد علي الى أطراف المملكة الاسلامية في خراسان والمغرب ، وأخذوا يبثون دعاتهم وينشرون دعوتهم سرا ، فكان الخراسانيون من أقوى أنصارهم انتقاما من المنصور ، لقتله أبي مسلم وعملا بتعاقدهم عليه

فكان العباسيون انما يخافون على دولتهم من خراسان ، لانها شيعة العلويين وأهلها أشداء ولهم رهبة في قلوب الناس ، منذ نقلوا الخلافة من بني أمية الى بني العباس . وكان داعية الشيعة هناك في أيام الرشيد يحيى أخا محمد ابن عبد الله الذي حاربه المنصور وقتله . فظهر يحيى هذا في الديلم سنة ١٧٦ هـ وقويت شوكته حتى خافه الرشيد ، فسرح اليه الفضل بن يحيى ، فاستنزله الفضل من بلاد الديلم بالحسنى ، على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه ، فكتب له أمانا أمضاه الرشيد وجلة بني هاشم ، وجاء الفضل ومعه يحيى الى بغداد ، فوفى له الرشيد بكل ما أحب وأجرى له أرزاقا سنية

ثم خطر له أن يحبسه خوفا منه ، ولعل بعض الأعداء الشيعة حرضوه على حبسه ، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعهد الأمان الذي بيده . فاستشار الفقهاء في الأمان فقال بعضهم : الأمان صحيح ، فحاجه الرشيد فقال الآخر ـ وهو أبو البختري القاضي : هذا أمان منتقض من وجه كذا ، فمزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل ، فدفعه الى جعفر فحبسه وهو يرى انه مظلوم ، لانه جاء على الامان وقد نكث الرشيد الامان ، فحدثته نفسه أن يطلقه بما له من النفوذ والدالة ، ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنه . فبعث الى يحيى المذكور من الحبس فخاطبه ، فتوسل الرجل اليه وقال : « اتق الله في امري ولا تتعرض ان يكون غدا خصمك محمد (صلعم) فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت محدثا » فرق له جعفر وقال: « اذهب حيث شئت من بلاد الله » . قال : «وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ ؟ » فوجه معه من أداه الى مأمنه (٢)

---

(١) السيوطي ١٠ ج ٢ (٢) ابن خلدون ٨ ج ٤ وابن الاثير ٥٠ و ٧٠ ج ٦

وكان حساد جعفر يراقبون حركاته ، وخصوصا الفضل بن الربيع ، لانه كان يرشح نفسه للوزارة بعد أبيه فسبقه اليها أولئك العجم،وكانت لهعيون على جعفر فأخبروه بما فعله ، فرفع الخبر الى الرشيد فأنكره ، ولكنه انتهر الفضل وأظهر أن جعفر انما فعله بأمره · ثم بعث الى جعفر فدعاه الى الطعام معه ، وجعل يلقمه ويحادثه ثم سأل عن يحيى فقالّ : « هو بحاله فى الحبس» فقال : « بحياتى ؟ » ففطن جعفر فقال : « لا وحياتك ·· » ، وقص عليه أمره وقال : « قد علمت أنه لا مكروه عنده » ، فقال الرشيد : « نعم مافعلت، ما عدوت ما فى نفسى » · وقد كظم غيظه وعزم على الايقاع به من ذلكالحين· ولما قام جعفر عنه قال فى نفسه : « قتلنى الله ان لم أقتلك ! » ولكنه مكث يترقب الفرص ويدبر الحيل ، لما يعلمه من نفوذ البرامكة بما يبذلونه من الاموال للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى بنى هاشم أنفسهم

وأراد أن يغالطه لئلا ينتبه جعفر لما فى نفس الرشيد عليه ، فأظهر أنه يريد أن يوليه خراسان ، فأخذ الخاتم ودفعه الى أبيه يحيى ، وعقد له على خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يوما (١) فهو اما ولاه اياها تمويها أو ولاه ثم خافه

وكان فى جملة حساد البرامكة على بن عيسى بن ماهان ، فسعى بموسى ابن يحيى أخى جعفر واتهمه فى أمر خراسان ، وأعلم الرشيد أنه يكاتبهم ليسير اليهم ويحرضهم على خلع الطاعة ، فصدق الرشيد الوشاية فحبسه ثم أطلقه ، ولكنه تغير على البرامكة جميعا وظهر ذلك فى بعض معاملاته · فكان يحيى بن خالد مثلا يدخل على الرشيد بغير اذن ، فعرض الرشيد فى بعض حديثه استهجانه ذلك فكف يحيى عنه · وكان يحيى اذا دخل على الرشيد قام له الغلمان ، فأوصى الرشيد مسرورا خادمه ألا يقوموا له ، فشعر يحيى بهذا التغير وتناقل الناس خبر ذلك ، ولبثوا يتوقعون شرا يصيب البرامكة وليس من يجرؤ على اخبارهم به · على انهم كانوا يعرضون فى أثناء الغناء بما يخافونه عليهم ــ ومن ذلك ما كان يغنيه ابن بكار أحيانا :

ما يريد الناس منا ؟ ما تنام الناس عنا ؟
انما همهم أن يظهروا ما قد دفنا

وكان الرشيد يستعظم الاقدام على ذلك الامر ، ويخاف أنصار البرامكة اذا هو فتك بهم ، فأراد أن يستطلع أفكار خاصته فى هذا الشأن ليرى وقعه

(٢) ابن الاثير ٦١ ج ٦

فى قلوبهم ، والمغنون أحسن وسيلة لذلك لمخالطتهم الناس فى حال سكرهم وطربهم ، والسكر يبعث صاحبه على الافشاء بما فى ضميره والتصريح بما يجول فى خاطره • فسأل الرشيد مغنية اسحق الموصلى مرة : « بأى شىء يتحدث الناس ؟ » فقال : « يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة وتولى الفضل ابن الربيع الوزارة » فأظهر الرشيد الغضب وصاح به : « ما أنت وذاك ؟ ويلك ! » فأمسك (١)

وكان للرشيد عيون على البرامكة فى منازلهم ودواوينهم ، يحصون عليهم أنفاسهم فلا يخلو أن تبدر منهم بادرة تلميحا أو تصريحا ، والوشاة يعظمونها له

وكان فى جملة جواسيس الرشيد خادمان خزريان رباهما وأهداهما الى جعفر ، فكانا ينقلان اليه كل ما يدور فى مجالس جعفر يوميا • وكان لجعفر مجلس أنس يعقده فى منزله مرة فى الاسبوع ، يحضره أرباب الدولة وأهل الوجاهة من الفرس ، يلبسون أثوابا لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبس هو مثلهم • ففى أحد هذه المجالس دار الكلام على أبى مسلم وبطشه ، وكيف استطاع وحده أن ينقل الدولة الاسلامية من عائلة الى عائلة • فقال جعفر : « لا يستغرب ذلك منه ولا فضل له به ، لانه لم يدركه الا بقتل ٦٠٠ر٠٠٠ نفس سفك دماءهم صبرا ، وانما الرجل من ينقل الدولة من قوم الى قوم بغير سفك دم » (٢) وكان الغلامان الخزريان يسمعان قوله فنقلاه الى الرشيد ، وأفهماه انه يعرض بنقل الدولة من العباسيين الىالفرس أو العلويين ، فازداد خوف الرشيد منه

فلما كانت السنة التى نكبوا فيها (سنة ١٨٧ هـ) كان الرشيد قادما من الحج وقد صمم على الفتك بجعفر ، فأظهر رضاءه عنه وولاه كورة خراسان ، أراد بذلك أن يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية ، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان • فضرب الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر ، وفيهم نخبة من أصحاب جعفر ، وبقى هو ببغداد يتأهب للحاق بهم

وكان له صديق من الهاشميين غيور عليه اسمه اسماعيل بن يحيى ، قد علم ما فى نفس الرشيد على جعفر وأهله ، فأراد أن يتوسط فى اصلاح ما بينهما ، فجاء جعفر فى أثناء تأهبه للخروج الى خراسان ، وخلا به وحادثه فى شؤون شتى حتى تطرق الى الموضوع الذى جاء من أجله ، فقال له : « يا سيدى أنت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الاقطار عظيمة

---

(١) الاغانى ١١٣ ج ٥ (٢) زينة المجالس (فارسى)

المملكة ، فلو صيرت بعض ضـياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده » . فلما سمع جعفر قوله غضب كأن ما يجول فى نفس الرشـيد لم يخطر بباله وقال : « والله يا اسـماعيل ما آكل الخبز ابن عمـك الا بفضلى ، ولا قامت هذه الدولة الا بنا . أما كفى أنى تركته لا يهتم بشىء من أمرنفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيـوت أمواله مالا ، وما زلت للامور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه الى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى بعدى ، وداخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ؟ والله لئن سألنى شيئا من ذلك ليكونن وبالا عليه ! » كأنه يهدده بذهاب خراسان . فلما سمع اسماعيل تهديده ورأى غضبه ، خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد ، لأنه صار متهما عندهما

فسمع ذلك الحديث أحد جواسيس الرشيد ونقله اليه ، فصمم على الفتك به . ولعله كان ينوى القبض عليه وحبسه فقط ، فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله . وأكبر الاقدام على ذلك ، فاستشار زبيدة امرأته،وصرح بما يجول فى خاطره قائلا : « انى خائف ان تمكن هؤلاء من خراسان أن يخرج الامر من يدى » فحرضته على سرعة الفتك به ، ويقال انها ذكرت له أمورا ارتكبها جعفر فى بيت الرشيد (١) تتعلق بالعباسة أخته . فاغتنم الرشيد بعد جعفر عن رجاله ومريديه ، وهم فى عسكره بالنهروان وهو فى بغداد،وبعث خادمه مسرورا ليأتيه برأسه ، فذهب اليه وقتله كما هو مشهور . ووجه الرشيد من أحاط بأبيه يحيى وسائر أولاده وبأخيه الفضل ليلا ، فحبسهم وقبض ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، وأرسل الى سائر البلاديقبض على أموالهم ووكلائهم ورقيقهم وأسبابهم ، ولم يتعـرض لمحمد بن خالد لانه كان من جملة الساعين بهم ، وأسند الوزارة بعدهم الى الفضل بن الربيـع عدوهم . ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان اذا ذكرهم بكى (٢) وقـد أصاب جعفر من الرشيد كما أصاب بزرجمهر وزير كسرى ابرويز ، اذ اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله (٣)

فالرشيد فتك بالبرامكة لانه خافهم على سلطانه،عملا بسياسة العباسيين فى تأييد دولتهم ، اذ اتهم جعفر وشك فيه فقتله . وهى غير سياسـتهم فى معاملة رعاياهم ، فانها كانت مؤسسة غالبا على ما تقتضيه الشريعةالاسلامية ويستدعيه الحق ، مع رفق وحلم وبذل ومحاسنة ، ولا سيما الرشيد فقد كان اذا وعظته بكى ، واذا استعطفته عفا واذا استجديته سخا ، حتى جرى خبره مجـرى الامثـال . أما العلويون فكان لا يخـاف الله فيهم (٤) ولا فيمـن

---

(١) الاتليدى ١١٣ (٢) الاغانى ٧٤ ج ١٧ (٣) المسعودى ١١٩ ج ١
(٤) الفخرى ١٧

يدعو اليهم أو ينصرهم (*)

الأمين والمأمون
أو العرب والفرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب أهل خراسان وتضاعفت نقمتهم على الدولة العباسية ، وتعاقدوا على الاخذ بثأر أبى مسلم والبرامكة ، وتربصوا يترقبون الفرص • وتوجهت آمالهم الى المأمون لان أمه فارسية ، وقد شب في حجر جعفر البرمكى على الميل الى الشيعة العلوية • ولم تكن الشيعة يومئذ مذهبا دينيا كما هى اليوم ، وانما كانت حزبا سياسيا يراد

(*) لاتهمنا قضية البرامكة هنا من حيث ماوقع بينهم وبين الرشيد ، فهذه مسألة مكانها كتاب فى التاريخ السياسى العام للدولة الاسلامية ، ولكنها تهمنا من حيث دلالاتها الاجتماعية ، فان تاريخ آل برمك يمضى بنا فى أعماق تكوين الادارة العباسية ، ويطلعنا على حقائق كثيرة تتعلق بطبيعة رجالها وأساليبهم فى العمل وغاياتهم من ورائه • والبرامكة خير نموذج لمثل هذه الدراسة ، فان بيتهم يسير موازيا لبيت العباسيين من اول الامر ، ولم يبالغ جعفر بن يحيى البرمكى عندما امتن على الرشيد بأفضاله عليه وافضال أهل بيته على البيت العباسى ، ففى محاذاة كل عباسى نجد برمكيا لايقل عنه مهارة او قدرة ، بل ان تاريخهم فى الاسلام يرجع الى ماقبل الدولة العباسية بكثير ، يرجع الى أيام الفتح نفسه • والرأى السائد أن آل برمك كانوا أول أمرهم مجوسا ، وأنهم كانوا سدنة لبيت النار المسمى نوبهار • وقد أثبت بارتولد ان نوبهار لم يكن بيت نار ، بل ديرا لرهبان البوذيين ، وقد تحدث عنه السائح الصينى هيووانج شوانج ، ووصفه فى القرن الثامن الميلادى ، وترجم الوصف St. Julien فى كتابيه :

Mémoires sur les contrées occidentales, I, 30 sqq.
Histoire de la vie de Hiouen-Thsang, p. 64.

وانظر ايضا :

Browne, A literary history of Percia, p. 257.

وقد استولى العرب على بلخ وخربوا النوبهار عام ٦٦٣/٤٢ ـ ٦٦٤ • ويقال ان برمك رئيس الدير أسلم اذ ذاك ، ولكن ذلك مشكوك فيه • وقد دخل برمك فى خدمة المسلمين منذ أيام الامويين ، ويقال ان زوج برمك وقعت أسيرة بيد قتيبة بن مسلم فتسراها أخوه عبد الملك ، وحملت منه بخالد ، ثم أطلقها بعد ذلك ، وهناك من يقول ان خالدا فارسى الاب والام ، وأن أمه أبنة أمير الصاغانيان • ويقال ان برمك كان ماهرا فى الطب ، وانه شفى الامير مسلمة بن عبد الملك ، ودخل فى خدمة عبد الملك بن مروان • اما صلة البرامكة بالعباسيين فترجع الى ايام الدعوة السرية الاولى ، ايام كان الدعاة يدعون للرضا من اهل البيت ، دون نص على عباسى او علوى وكاد يصيب برمك ما أصاب ابا سلمة الخلال عند قيام الدولة ، ومن المعروف ان ابا سلمة راح ضحية الحركة السريعة التى قام بها ابو العباس واعمامه فاختطفوا بها الخلافة بواسطة ابى مسلم ، ولم يقر الكثيرون من انصار الدعوة ذلك ، او فوجئوا به فترددوا بين ما كانوا يدعون له من العلوية وما صار اليه الامر بالفعل من العباسية ، فتخلص ابو العباس من المترددين فى سرعة وقسوة ، وكان من الضحايا ابو مسلمة وغيره • واذا كان برمك قد تردد ، فان ابنه خالدا لم يتردد فى الالقاء بطاعته كاملة الى العباسيين ، وتذهب الروايات الى أنه ربى فى بيت العباسيين ، وتقص فى ذلك قصصا طويلا يحتاج الى دراسة • والثابت ان خالدا بلغ مبلغا عظيما من السلطان ايام المنصور ، وولى له الوزارة • وقد قدم خالد للمنصور هدية قدرها ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ درهم ليفوز لنفسه بولاية الموصل ، ولابنه يحيى بولاية آذربيجان • وعندما تولى الرشيد ترك يحيى آذربيجان واقبل ليتولى وزارة الرشيد ، وقد اطلق له الرشيد الامر ، فأصبح صاحب سلطان مطلق خطر ، وهو لايسأل عن ذلك ، وانما يسأل عنه الرشيد فهو الذى سلم اليه ذلك ، وكان الرشيد اذ ذاك صغيرا لاتتجاوز سنه الثالثة والعشرين ، وقد استعان يحيى بابنيه الفضل وجعفر ، فاما الفضل فكان حذرا قليل الاختلاط بالرشيد فى حين أن جعفر أسرف فى ذلك اسرافا كانت نتيجته هلاكه • وليس من الضرورى ان نرد انقلاب الرشيد على جعفر

به جماعة الفرس أو غيرهم من أنصار العلويين • فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة أظفاره ، وكان يحيى بن خالد قد اختار الفضل ابن سهل السرخسى لخدمة المأمون • والفضل أصله من مجوس خراسان ، أسلم على يد المأمون (١) سنة ١٩٠ هـ وتشيع طمعا فى نصرة الفرس فى خراسان ، وكان هماما فقدمه يحيى فى الدولة حتى صار من خاصته ، ثم جعله قهرمانا له • وتوسم الفضل فى المأمون نجابة وتعقلا ، فتوقع أن تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب منه • وكان المأمون يجله ويقدمه، ولم يكن الفضل طامعا فى أقل من الوزارة – يحكى أن مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه فى الفضل واكرامه اياه ، نقل ذلك للفضل وقال له : « لا أستبعد أن يحصل لك منه ١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم » فاغتاظ الفضل وقال : « والله ما صحبته لأكتسب منه مالا قل أو جل ، ولكنى صحبته ليمضى حكم خاتمى هذا فى الشرق والغرب » (٢)

وكان الرشيد لما بايع لاولاده بولاية العهد جعل للأمين العراق والشام الى آخر المغرب وهو الخليفة بعده ، وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق (٣) على أن يتولى الخلافة بعد أخيه الأمين • وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من أحزاب الشيعة ، وفى جملتهم الفضل بن سهل ، وأراد الرشيد سنة ١٩٢ هـ أن يسير الى خراسان ، فأمر ابنه المأمون أن يبقى فى بغداد حتى يرجع • وكان الرشيد مريضا ، فخاف الفضل أن يموت الرشيد فى الطريق فيذهب سعيه هدرا ، فجاء الى المأمون وقال له : « لست تدرى ما يحدث بالرشيد ، وخراسان ولايتك ومحمد الأمين المقدم عليك ، وان أحسن ما يصنعه بك أن يخلعك ، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها كما تعلم ،

الى علوية كان يسترها جعفر ، فقد كان بعيدا عن هذه النواحى العاطفية ، وكان يتمتع بسلطان لا مزيد عليه ، وليس من الضرورى أيضا أن نلقى بالا الى مايقال من صلة جعفر بالعباسة ، فهذه أسطورة مستبعدة الحدوث ، وليس هناك مايؤيد مسلك جعفر فى مسألة يحيى بن عبد الله العلوى ، فقد روى المؤرخون مثلها تماما فيما يتصل بالمهدى واحد العلويين ، وانما الحقيقة ان السلطان الذى وصل اليه جعفر كان عظيما جدا ، ومسئوليته خطيرة ، وكلما مضى الزمن زاد تمكن جعفر وسلطانه وكثرت وشايات الحساد فيه ، وكان بلاط العباسيين حافلا بالحسد والحساد ، وكانت الكراهية بين رجال البلاط عظيمة ، وكل منهم يقيم الجواسيس على الآخر . وكان فى خلق الرشيد عاطفية وخجل واضطغان . أضف الى ذلك أن منافسات الحريم كانت على أقصاها ، وكل واحدة من نساء الرشيد ترجو ان يكون الامر لابنها ، وقد اتخذ يحيى من اول الامر موقفا معارضا لزبيدة ام الامين ، فعملت على التخلص منه . ومما يلاحظ أن الرشيد لم يغضب على البرامكة كلهم ، بل على جعفر فقط ، ثم أخذ الباقين بجريرته ، ثم اسف على مافعل بعد فوات الفرصة

انظر – بالاضافة الى الطبرى ، وهو اوسع المؤرخين تفصيلا فى هذه الناحية – ضياء الدين البرنى : « أخبارى برمكيان » ، قطعة نشرها Schefer فى Christomatie Persane 11, 2-54 والمسعودى : « مروج الذهب » ٤/ ٣٦١ – ٣٦٢ وانظر مادتى الرشيد وجعفر عند ابن خلكان

(١) ابن خلكان ٤١٣ ج ١ وابن الاثير ٧٩ ج ٦ (٢) الفخرى ٢٠٣ (٣) ابن الاثير ٦٩ ج ٦

فاطلب الى أمير المؤمنين أن تسير معه » • فطلب المأمون ذلك من أبيه فامتنع أولا ، ثم أجاب ـ ولابد لامتناعه من سبب كان يجول فى خاطره ، وهويتوقع قرب أجله ويرى لاولاده عليه رقباء (١) يحصون أنفاسه ويستطيلون بقاءه

فسار المأمون مع أبيه والفضل معهما ، واهتم الفضل فى أثناء الطريق بتأييد أمر المأمون ، فأخذ له البيعة على كل من فى عسكر الرشيد من القواد وغيرهم ، وأقر له الرشيد وهو فى طوس والأمين فى بغداد ، وله عيون مع الرشيد أشدهم غيرة عليه الفضل بن الربيع ، وزير الرشيد بعد البرامكة • فلما بلغ الأمين اشتداد المرض على أبيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته • فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان فى ذلك العسكر ، والمأمون غائب فى مرو وحرضهم على اللحاق بالامين• فأطاعوه رغبة منهم فى الرجوع الى أهلهم وأولادهم فى بغداد ، وأغفلوا العهود التى أخذت عليهم للمأمون ، وحملوا ما كان فى عسكر الرشيد الى الأمين ، وتمت البيعة له • ثم حسن الفضل بن الربيع للأمين أن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد ، ففعل

الفضل بن سهل وعلى الرضا

فلما بلغ المأمون موت أبيه ، ورجوع رجاله الى أخيه بالاموال والاحمال وقد نكثوا عهده ، خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو وشاورهم فى الامر ، وأظهر لهم ضعفه وانه لا يقوى على أخيه ، فنشطوه ووعدوه خيرا • وقال له الفضل بن سهل : « أنت نازل فى أخوالك وبيعتك فى أعناقهم • اصبر وأنا أضمن لك الخلافة » ، فاطمأن خاطر المأمون بهذا الوعد الصريح وقال له : « قد صبرت وجعلت الامر اليك فقم به » وسماه ذا الرياستين ، أى رياسة السيف ورياسة القلم

فبذل الفضل جهده فى نصرة المأمون ، لأنه انما يعمل لنفسه ووطنه وأمته ، واستمال الناس وضبط الثغور • وتعاظمت العداوة بين الأخوين ، وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان ، وأبطل كل منهما اسم أخيه من الخطبة ، وتجردت الجيوش وحدثت معارك هائلة فاز فيها جند المأمون ، وهم الفرس بقيادة طاهر بن الحسين ، وانتهت الحرب بفتح بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ، وقد حملوا رأسه الى المأمون فى خراسان • فلما تحقق المأمون صدق ما عاهده الفضل عليه ، أصبح آلة بيده لا يخالفه فى شيء • فاستبد الفضل فى الدولة ، وولى أخاه الحسن بن سهل كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن ، على أن يكون مقامه فى بغداد . ثم اغتنم

(١) ابن الاثير ٨٣ ج ٦

هذه الفرصة لنقل الخلافة الى العلويين • وكان داعيتهم يومئذ في خراسان علي بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، المعروف بعلي الرضا • فبذل الفضل جهده في تحريض المأمون على بيعة علي الرضا بولاية العهد بعده ، أي أن يخرج الخلافة من بني العباس الى العلويين • وربما جعل تلك البيعة شرطا لمساعدته في استرجاع الخلافة له ، أو أنه حسن له ذلك ولم يشترطه • فأجابه المأمون الى طلبه ، اما وفاء لوعده ، أو مجاراة له للمكر به ، أو انه فعله عن حسن ظن في العلويين ، لأنه رضع حب الشيعة من طفولته وكان يظهر التشيع (١) فبايع لعلي الرضا سنة ٢٠١ هـ وجعله الخليفة بعده ، ولقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد لباس العباسيين ولبس الخضرة ، وكتب بذلك الى الآفاق

فلما بلغ ذلك الخبر الى بغداد ضج الهاشميون وأتباعهم ، وأعظموا الامر وامتنعوا عن البيعة لعلي المذكور ، وقالوا : لا تخرج الخلافة من ولد العباس ، وقد تحققوا أن تلك البيعة انما هي دسيسة من الفضل بن سهل ، فأنكروا ولاية أخيه الحسن بن سهل على بغداد • وأقروا أخيرا على خلع المأمون وبيعة عمه ابراهيم بن المهدي ، فبايعوه ولقبوه « المبارك » ، وبعث الهاشميون الى المأمون يهددونه بالقتل اذا بقي على عزمه

وكان الفضل بن سهل يخفي هذه الاخبار عن المأمون ، لئلا يخاف فيندم وينكث البيعة فيخلع عليا فيذهب سعيه عبثا . وكان علي الرضا مطلعا على ما حدث في بغداد ، وأبت نفسه أن يحدث ذلك بسببه ، ولا يطلع المأمون عليه فجاءه بنفسه وأخبره بما صار اليه حال بغداد ، وأنهم بايعوا ابراهيم ابن المهدي • فاستغرب المأمون الخبر ولم يصدقه وقال : « بل هم ولوه عليهم في أثناء غيابي ، كذلك أخبرني الفضل » • فقال له : « ان الفضل قد كذبك » فأدرك المأمون دسيسة الفضل ، وأنه انما نصره لهذا الغرض ،وشك فيه فحل قتله عنده ، فدس اليه أناسا قتلوه في الحمام بسرخس مغافصة ثم حاكمهم على قتله وقتلهم به (٢)

وفكر في بيعة علي الرضا ، فأعظم أن يرجع عنها وخاف اذا رجع أن يثور عليه أهل خراسان ويقتلوه ، فعمد الى سياسة الفتك فدس اليه من أطعمه عنبا مسموما فمات (٣) فذهبت الاسباب التي أغضبت أهل بغداد ، فخلعوا ابراهيم بن المهدي وعادوا الى بيعة المأمون • فهرب ابراهيم والفضل بن الربيع وسائر الذين كانوا مع الأمين في تلك الثورة ، وجاء المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ واستقر بها • ودفعا للشبهة فيما اشتهر به من حب آل أبي طالب، اضطهدهم

---

(١) المسعودي ٢٢٤ ج ٢

(٢) ابن الاثير ١٤٣ ج ٦ والفخري ١٩٩ والاغاني ٢١ ج ٩ وابن خلكان ٤١٤ ج ١

(٣) ابن الاثير ١٤٤ ج ٦ والفخري ١٩٩

ومنعهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد (١)

فاضطرب أمر الشيعة فى بغداد ، مع بقاء النفـــوذ للفرس وهم يكتمون تشيعهم الى آخر خلافة الواثق ، فلما تولى المتوكل سنة٢٣٢هـ اضطهدالشيعة وشدد النكير عليهم ، لانه كان قد ربى من حداثتـــه بين جماعة أهل عصبية عربية يكرهون الفرس أو الشيعة ، منهم على بن الجهم الشاعر الشامى من بنى شامة ، وعمرو بن فرخ الرخجى ، وأبو السمط من ولد مروان بن أبى حفصة، الذى كان يتقرب الى الرشيد بهجو العلويين وهو من موالى بنى أمية • وكانوا يخوفون المتوكل من الشيعة على الاجمال ، ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ، ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد النـــاس علو منزلتهم فى الدين • فأثرت أقوالهم فيه ، وشب على كره الشيعة وكره الخلفاء الذين كانوا ينصرون الشيعة قبله ، وهم المأمون والمعتصم والواثق (٢) كما أثرت تربية البرامكة فى المأمون وحببوا اليه الشيعة وأهلها (*)

فلما تولى المتوكل أمر بهدم قبر الحسين بن على وهدم ما حوله من المبانى، ومنع الناس من اتيانه ، وبالغ فى بغضه عليا وأهل بيته حتى جعله سخرية ـ ذكروا أنه كان فى جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة ، كان يشد على بطنـــه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع تشبها بالامام على ، ويرقـــص ويقول : « قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين » (يعنى عليا) والمتوكل يشرب ويضحك (٣) وغلبت السنة فى الدولة من ذلك الحين وقوامها الاتراك، كما سيأتى . وبذهاب أمر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وبخلافة المتوكل ينقضى العصر الفارسى الاول

---

(١) ابن الاثير ١٥٦ ج ٦ (٢) ابن الاثير ٢٢ ج ٧

(*) كشفت حرب الامين والمأمون عن نواحى الضعف فى الدولة العباسية بصورة تلقى ضوءا على كثير من الحوادث التى وقعت قبلها • فقد بدا بوضوح ان الامور المالية كانت مضطربة من زمن بعيد ، وان خزائن بغداد كانت خاوية تقريبا ، وان الجند هم أصحاب الكلمة العليا ، وانهم كانوا شراذم من العتاة لايحرصون على شىء قدر مايحرصون على مايصيبون من مال ، ويكفى ان تستعيد مشهد قتل الامين حتى تستدل على ان الدولة فقدت الهيبة وان القلوب فقدت الايمان والرحمة ـ أما مايقال من مبايعة المأمون لعلى بن موسى الرضا بولاية العهد ، فلم يكن ذلك الا حيلة منه اراد ان يكسب بها تأييد اهل بغداد ، فلما رأى ان حيلته لم تنفع انصرف عنها . كذلك كان رجال الدولة من طراز سىء جدا ، وطاهر بن الحسين نفسه نموذج سىء لرجل الحرب ، فهو لم يثبت فيها كفاية ، بل غلبه سوقة بغداد مرارا ، فكان يلجأ الى حرق البيوت على الناس . ولما صار الامين فى يده أمر به فقتل على صورة لاشهامة فيها ولا مروءة ، وكان الفضل بن سهل اسوأ من طاهر بن الحسين ، اضف الى ذلك ان البيت العباسى نفسه كان خلوا من الرجال الذين يعتمد عليهم ، وفى تصرفات المأمون نفسه مايدل على أنه لم يكن خيرا من أخيه الامين ، وكان الامر قد وصل الى أن أصبحت الخلافة غنيمة لمن غلب ، واذا كانت الدولة قد استقامت بعد ذلك ، فقد كان ذلك مصادفة ، وكان ظاهرا ان الدولة فى حاجة الى انشاء جديد ، وبدلا من ان يهتم المأمون بذلك جعل همه تكوين جنس جديد من المحاربين ، فبدأت قصة الاتراك وحلوا بعد قليل محل الفرس ، ولم يحسن انشاء القوة الجديدة ، فلم يلبث الاتراك ان صاروا اسوأ من الفرس

(٣) أبو الفداء ٤٠ ج ٢

الاسرار فى الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الأسرار والتكتم فيما ينوونه ، وكانوا يفرضون ذلك على مواليهم ورجال بطانتهم ، ولاسيما فيما يحتاجون اليه لتثبيت دعائم دولتهم ، كما رأيت من تصرف الخلفاء مع قوادهم ووزرائهم من أول دولتهم ، وخصوصا المنصور مع أعمامه وأبى مسلم وغيرهم،وتصرف الرشيد مع البرامكة ، والمأمون مع الفضل بن سهل وعلى الرضا وطاهر بن الحسين • وكانوا يرون كتمان مشروعاتهم شرطا من شروط نجـــاحها ، كما فعل قثم بن العباس فى التفريق بين فرق الجند بحيلة لم يشأ أن يطلع المنصور عليها • وكانوا يستعينون على ذلك بالعيون والارصاد ، وكل منهم يتجسس على صاحبه • فيبث الخليفة العيـــون على قواده ووزرائه ، ووزراؤه يقيمون الارصاد عليه . فربما كان خادم الرجل وجاريته عينا عليه ، وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على أولاده أو أخوته،أو يقيم ولاة العهد الرقباء على آبائهم، كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم الرشيد ، فقد كان رقيب المأمون على أبيـــه مسرورا الخادم ، ورقيب الأمين جبرائيـــل بن بختيشوع الطبيب ، وكانوا يحصون أنفاسه (١) كما تقدم

ولما تولى المأمون الخلافة وأتى بغداد كان يتجسس على ابراهيم بن المهدى ، فألزمه رجلا ينقل اليه كل ما يسمعه من لفظه جدا أو هزلا (٢) وهكذا كان سائر الخلفاء ، وخصوصا فى أواخر الدولة ، لان التجسس يكثر اذا مالت الدولة الى السقوط وتدانت من الهرم ، كما سيجىء • وكان للوزراء عيون على الخلفاء ، وللخلفاء عيون على العمال ، هم أصحاب البريد أو أصحاب الاخبار، غير ما كانوا يبثونه من الخدم والجوارى والمغنيات لهـــذه الاغراض — كانوا يفعلون ذلك خوفا على سلطانهم ، فبالغوا فى التكتم الى ما يفوق الوصف • فكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر ، وكان يغتفر كل شىء الا القدح فى الملك وافشاء السر والتعريض بالحريم (٣)

وبمحافظتهم على الاسرار والتكتم فى أعمالهم ؛ أشكل على الناس كثير من الحوادث التى جرت فى أيامهم ولم يفهموا أسبابها . فنكبة البرامكة مثلا تكهن المؤرخون فى تدوينها رجما بالغيب ، وذهبوا فى أسبابها كل مذهب . وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من أكلة عنب أو تمر أو غير ذلك ، وانما قتل مسموما بدسيسة بعض الخلفاء أو القواد أو ولاة العهد الى طبيبه أو صاحب داره (٤)

---

(١) ابن الاثير ٨٣ ج ٦ (٢) الاغانى ٨٢ ج ٢٠
(٣) المسعودى ٢٢٥ ج ٢ وطبقات الاطباء ١٧١ ج ١ (٤) طبقات الاطباء ١٨٢ ج ١

اختلاط الانساب بعد الاسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية فى حفظ أنسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولودا من أبوين عربيين ، فاذا كان أبوه غير عربى سموه المذرع، وان كانت أمه أعجمية سموه الهجين . واذا كانت أمه أمة استعبدوه ، فاذا أنجب (*) اعترفوا به ، والا ظل عبدا ، والعرب لا تورث الهجين ، وهو من قبيل احتقارهم غير العرب كما تقدم

أبنـاء الاماء

ولما جاء الاسلام وغلب العرب على أمم الشرق من فارس والترك وغيرهما ، وكثرت السبايا فى أثناء الفتوح،اتخذوا من النساء آظئارا ودايات ومراضع، واقتنوا الجوارى للفـراش ، وكانوا فى بادىء الرأى يكرهون التزوج بهن ويحتقرون أبناءهن ، وخصوصا فى الحجاز مركز الجامعة العربية ، حتى نشأ فى المدينة ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من الاماء ، وهم على بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، وفاقوا أهل المدينة فقها وعلما وورعا فرغب الناس فى السرارى (١)

على أن بنى أمية ظلوا يحتقرون أبناء الاماء ، تعصبا للعرب على العجم ، فبلغ عبد الملك يوما أن على بن الحسن تزوج جارية له وأعتقها ، فكتب اليه يؤنبه فأجابه على : « ان الله رفع بالاسلام الخسيسة وأتم النقيصة وأكرم به من اللؤم، فلا عار على مسلم ، وهذا رسول الله (صلعم) قد تزوج أمته وامرأة عبده» ، فلما تلا عبد الملك جوابه قال : «ان على بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس» . على أن العرب أصبحوا بعد الاسلام يرفعون من شأن الهجنـاء ، اعتمادا على أن النسب ليس من قبيل الام وانما النسب للآباء عملا بقول الشاعر:

لاتشتمن امرأ من أن تكون له ... أم من الروم أو سوداء عجماء
فانمـا امهـات القوم أوعيـة ... مستودعات ، وللاحساب آباء

أما بنو أمية فظلوا على احتقارهم بنى الاماء الى أواخر دولتهم ، وكانوا لا يستخلفونهم ، وقالوا : لا تصلح لهم العرب . ولذلك لما قام زيد بن على بن الحسين يطالب بالخلافة فى أيام هشام بن عبد الملك عيره هشام بقوله : «أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة وأنت ابن أمة ؟» قال : «يا أمير المؤمنين ، ان الامهات لايقعدن بالرجال عن الغايات . وقد كانت أم اسماعيل أمة لأم أسحق ، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صلبة خير البشر محمدا » (٢) فالعلويون كانوا أقرب للاختلاط بغير العرب ،

(*) أى اذا ظهرت نجابته
(١) العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣ (٢) المسعودى ١٣٠ ج ٢

استنكافا من شدة تعصب بنى امية للعرب ، ولذلك كان الموالى أكثرهم من شيعة العلويين

وكان العرب فى صدر الاسلام بهذا الاعتبار طائفتين ، فيهم من يحقر ابناء الاماء وفيهم من لايجعل لنسب الام قيمة ــ ذكروا أن عبد الملك بن مروان سابق ولديه سليمان ومسلمة ، فسبق سليمان فقال عبد الملك :

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم ... على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوى المرآن: هذا ابن حرة ... وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه ... وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وأدركنه خالاته فنزعنه ... ألا ان عرق السوء لابد يدرك

وهاك ما قاله حاتم الطائى :

وما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلة ... ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا ... فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية ... اذا لقى الابطال يطعنهم شزرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه ... فيوردها بيضا ويصدرها حمرا
كريم اذا اعتز اللئيم تخاله ... اذا ماسرى ليل الدجى قمرا بدرا (١)

على أن طبيعة العمران غلبت على ما أراده الامويون من حفظ النسب العربى، وقضى الاختلاط بالاعاجم باختلاط الانساب ، حتى فى الخلفاء من بنى امية ، فبايعوا فى أواخر دولتهم لابناء الاماء . وأول من تولى الخلافة من الخلفاء الهجناء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ، ولكن أمه كانت من نسل يزدجرد بن كسرى ، سباها قتيبة ببلاد الصغد وارسلها الى الحجاج فقدمها الحجاج الى الوليد بن عبد الملك فأولدها يزيد (٢) ويقال أن بنى أمية حظروا مبايعة بنى الاماء ، ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد ابن أمة ، فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذى يذهب ملكهم على يده ، فلم يلبث سبعة أشهر حتى مات ، ووثب مكانه مروان بن محمد وأمه أمة كردية، فذهب ملكهم على يده

الخلفاء الهجناء

أما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالى ، وقد ضعفت فى أيامهم العصبية العربية لكثرة الاختلاط ، فأصبحوا لايعتدون بالام على الاطلاق ، وكان أكثر خلفائهم من بنى الاماء من ابراهيم الامام فما بعده، وفيهم الاماء من الفرس والترك والروم والاكراد والبربر والاحباش والزنج وغيرهم ، واليك أسماء بعض خلفاء بنى العباس من أبناء الاماء :

(١) العقد الفريد ٢٣٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٤ و ١٤٧ ج ٥

اسم الخليفة	جنس أمه	اسم الخليفة	جنس أمه
ابراهيم الامام	بربرية	المأمون	فارسية
المنصور	بربرية	المنتصر بالله	حبشية رومية
الرشيد	حرشية (*)	المستعين بالله	صقلية
ابراهيم بن المهدى	زنجية	المعتز	جارية ؟
المهتدى	رومية	المستضىء	أرمنية
المقتدر	تركية	الناصر	تركية
المكتفى	تركية		

وقس على ذلك الخلفاء من الدول الاخرى . فان المستنصر بالله الفاطمى أمه أمة سودانية ، وعبد الرحمن الداخل الاموى أمه بربرية . ناهيك بأبناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة حتى فى صدر الاسلام ، فان محمد بن الحنفية أمه جارية سندية سوداء

فاذا كان هذا حال اختلاط النسب فى الخلفاء ، فكيف فى سائر طبقات الناس؟ فالنسب العربى لم يكن خالصا الا فى الجاهلية وصدر الاسلام الى أواسط الدولة الاموية ، وظل بعد ذلك محفوظا من حيث الآباء فقط ، أما من حيث الامهات فانه اختلط اختلاطا عظيما . ونحن نعلم الآن ان الولد يرث من أمه كما يرث من أبيه ، وربما كان من حيث الاخلاق أقرب الى أمه مما الى أبيه . فالعرب بعد القرن الثانى للهجرة قل فيهم الدم العربى الخالص ، الا فى البادية أو حيث لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم . فضلا عما أثر فيهم من طبائع الاقاليم التى نزلوها وعادات أهلها

فالعرب الحضر فى القرن الثالث للهجرة هم غير العرب فى صدر الاسلام فكيف فى حضر هذه الايام وقد توالى فيهم الاختلاط والتزاوج ؟ ناهيك بمن يتعرب وينتسب الى البلاد ، فأهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلا يعدون من العرب ، وهم فى الحقيقة أخلاط من العرب والترك والديلم والجركس والروم والفرس والارمن والكرج وغيرهم ، ولكن الرجل اذا نزل بعض هذه البلاد عد فى بادىء الرأى غريبا ، فاذا قطنها وتناسل فيها كان أولاده مولدين ، فاذا توالت عليهم الاجيال سموا عربا

(*) عند ابن الاثير (٨٢/٥) : « وأمه الخيزران أم ولد يمانية جرشية » ، وفى نسخة : حرشية

العصر التركي الأول

العصر التركي الاول

من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ

نريد بهذا العصر المدة التي استبد فيها الاتراك بالدولة العباسية، وهم الاجناد، تمييزا له عن العصر العباسي الفارسي الذي استبد فيه الفرس، وهم الوزراء. وليس بين العصرين حد فاصل ينتهي اليه الواحد ويبتدىء منه الآخر، بل هما تعاصرا مدة كان الاول في أواخره، والآخر في أوائله

الاتراك القدماء

الترك أمة قديمة جدا مؤلفة من قبائل وبطون وأفخاذ، كانت مواطنهم على جبال الالطاي أو جبال الذهب في أواسط آسيا بين الهند والصين وسيبريا. وهم يذهبون في أصل اجتماعهم مثل مذهب الرومانيين في مؤسس دولتهم «روملس» فيعتقدون أن برتزينا أول قوادهم رضع من ثديي الذئبة، فلما شب قادهم في الحروب والغزو بخيامهم وانعامهم، لانهم أهل بادية، فحاربوا الامم المجاورة لهم وخصوصا سكان الصين. وخلف برتزينا غير واحد من أبنائه، وكانوا قد شاهدوا مدن الصين وعمرانها فأحب بعضهم أن يبني المدن فمنعه بعض أمرائه، ومن نصائحه في هذا الشأن قوله: «نحن يامولاي أقل من عشر أهل الصين عددا وقوتنا انما هي باطلاق حريتنا، اذا رأينا في أنفسنا قوة على الحرب هجمنا والا رجعنا الى البادية، وأهل المدن محبوسون داخل الاسوار كأنهم في قفص»، فأعجبه رأي الرجل وعدل عن التحضر. وتلك كانت حال العرب في صدر الاسلام، فان بداوتهم كانت من أهم أسباب تغلبهم

وما زال الاتراك أهل بادية وغزو وخيام، يزدادون قوة وعددا حتى اجتمع منهم نحو ٤٠٠,٠٠٠ رجل حاربوا أهل الصين والفرس والرومان خمسين سنة، وظفروا في معظم حروبهم، وقد عقدوا مع الرومان في أيام جوستنيان صلحا، وظلت العلائق حسنة بينهم وبين خلفائه، وتبودلت السفارات بين الامتين غير مرة. وفي أيام خاقان ديزابول أرسل اليه الرومانيون في جبال الذهب وفدا عقدوا معه محالفة على محاربة الفرس في زمن كسرى أنوشروان فلم يقووا عليه، وكانوا قد انتشروا في بلاد تركستان وأقام بعضهم في المدن

الاتراك بعد الاسلام

ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في أنحاء العالم، وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك، وهم يعبرون عنها بما وراء النهر، ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة

وأشروسنة وغيرها من تركستان فى أيام بنى امية . ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج ، وكانوا يحملون فى جملة الجزية أولادا من أهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق ، وهم فى الغالب من السبى او الاسرى على جارى العادة فى تلك الاعصر . فضلا عمن كان يقع منهم فى أيدى المسلمين فى اثناء الحروب بالاسر او السبى ويعبرون عنهم بالمماليك ، ويفرقونهم فى بلاط الخلفاء ومنازل الامراء. فأخذوا يدينون بالاسلام مثل سواهم من الامم التى خضعت للعرب فى ذلك العهد ،ومنهم العبيد والموالى كما تقدم

وكان الاتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التى دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة فى رمى النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل ، والثبات فى ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولاسيما الفلسفة والعلم الطبيعى ، وقلما اشتغل أحد منهم بدرسها فى ابان التمدن الاسلامى . واشتهر ذلك عنهم حتى أصبحوا اذا سمعوا بتركى يشتغل بالعلم الطبيعى ذكروه مع الاستغراب ، كما فعل ابن الاثير لما أشار الى معرفة قتلمش علم النجـوم فقال : «ومن العجب أن قتلمش هذا كان يعلم علم النجوم وقد أتقنه معأنه تركى ويعلم غيره من علوم القوم» . ويعرف الاتراك فى تاريخ الاسلام بأسماء كثيرة تختلف باختلاف أصولهم وفروعهم ، وقبائلهم كثيرة مثل قبائل العرب

الجند التركى فى الدولة العباسية

المعتصم والاتراك

أول من استخدم الاتراك فى الجندية من الخلفاء المنصور العباسى ، ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لاشأن لها فى الدولة ، وانما كان الشأن الاكبر يومئذ للخراسانيين «الفرس» والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس فى أيام الرشيد ، وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الامين وتسلط الفرس انصار المأمون وأخواله واستبدوا فى الدولة ، كانت الحضارة قد اضرت بالمسـلمين وأذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم أخو المأمون فى ذلك قبل أن تفضى الخلافة اليه ، وكانت أمه تركية وفيه كثير من طبائع الاتراك التى ذكرناها مع الميل اليهم لانهم أخواله ، كما كان يميل المأمون الى الفرس . وشـاهد المعتصم من جراة الفرس وتطاولهم بعد قتل أخيه الامين ، حتى أصبح يخافهم على نفسه . ولم يكن له ثقة بالعرب ، وقد ذهبت عصـبيتهم وأخذوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم ، فرأى أن يتقوى بالاتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد أهل بداوة وبطش ، مع الجراة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم فى العراق ، أو

يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف ، وفيهم جمال وصحة ، فألبسهم أثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وميزهم بالزى عن سائر الجنود(١). وأكثر الاتراك الذين اجتمعوا عنده ينسبون الى فرغانة وأشروسنة

فلما أفضت الخلافة اليه كان الاتراك عونا له ، وتكاثروا حتى ضاقت بغداد عنهم ، وصاروا يؤذون العوام فى الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك أذى كثير ، وربما أردوا الواحد بعد الواحد قتيلا على قارعة الطريق . فاتفق أن المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام اليه شيخ فقال له :«يا أبا أسحق !» فأراد الجند ضربه فمنعهم وقال : « ياشيخ مالك ؟ » قال : لاجزاك الله عن الجوار خيرا ! جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكنتهم بيننا،فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا» والمعتصم يسمع ذلك،فدخل منزله ولم ير راكبا الى مثل ذلك اليوم . فخرج فصلى بالناس العيد ، ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكرا لاجناده ، حتى أتى سامرا فاتخذها معسكرا فأعجبته وسماها سر من رأى ، واختط فيها الخطط وأقطع أتراكه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم فى بلادهم ، وأفرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه ، وتسامع الناس أن دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها، وجهزوا اليها من أنواع الامتعة وسائر ماينتفع به الناس ، فكثر العيش واتسع الرزق . وما زالت سامرا قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١ هـ الى أيام المعتمد ، فعاد الى بغداد سنة ٢٧٩ هـ وهو أول من عاد اليها منذ بنيت سامرا(٢)

وكان المعتصم ينظم المماليك فرقا عليهم القواد منهم ، مثل نظام الجند فى ذلك الزمن . ولم يكتف بجمع المماليك الاتراك بالشراء أو المهاداة ، ولكنه رغب أمراء الاتراك وأولاد ملوكهم فى القدوم اليه والاقامة فى ظله . وممن جاء منهم على هذه الصورة جف بن بلتكين من أولاد ملوك فرغانة،وكانوا قد وصفوه له بالشجاعة والتقدم فى الحروب ، فوجه المعتصم اليه من أحضره وأحضر غيره من أبناء الامراء فبالغ المعتصم فى اكرامهم . ولما بنى سر من رأى«أو سامرا» أقطعهم فيها القطائع ، وظلت قطائع جف تعرف باسمه هناك عدة قرون (٣)

وكان أكثر الاتراك لما جمعهم المعتصم اليه يدينون بالمجوسية أو الوثنية على ماكانوا عليه فى بلادهم ، وفيهم جماعة قد دخلوا الاسلام . أما غير المسلمين فلما صاروا من جند الخليفة وتربوا فى ظل المسلمين أسلموا ، وفيهم من أظهر ذلك تزلفا للخلفاء كالافشين ، وكان مجوسيا وأظهر الاسلام طمعا فى الكسب من الغنائم بالحروب

---

(١) المسعودى ٢٤٦ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١٨١ ج ٧ (٣) ابن خلكان ٤١ ج ٢

وكان المعتصم شديد الرغبة فى استبقاء أتراكه على فطرتهم، ويخاف تحضرهم واختلاطهم بالامم الاخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدتهم ، فابتاع لهم الجوارى التركيات فأزوجهم منهن ومنعهم ان يتزوجوا أو يصاهروا احدا من المولدين ، الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض ، وأجرى للجوارى ارزاقا قائمة ، وأثبت أسماءهن فى الدواوين فلم يكن يقدر احد منهم ان يطلق امرأته او يفارقها (١)

الجند التركي ومصالح الدولة

فاشتد ساعد الاتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على أمور الدولة ، وخصوصا بعد ان انقذوا المملكة من بابك الخرمى وفتحوا عمورية ونصروا الاسلام فتحول النفوذ اليهم . وبعد أن كانت امور الدولة فى قبضة الوزراء الفرس أصبحت فى أيدى القواد الاتراك ، أو صار النفوذ فوضى بين الوزراء والقواد . واشتهر من الوزراء فى أثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال ، كابن وهب وابن الفرات وعلى بن عيسى وابن مقلة وغيرهم . وكانوا يسابقون الاتراك الى النفوذ وابتزاز الاموال بالمصادرات ونحوها من المظالم كما سيجىء

وكانت الدولة قد تجاوزت طور الشباب وأخذت فى التقهقر ، وانغمس الخلفاء فى الترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة ، فأصبحوا لايبلغون منصب الخلافة الا بالجند (الاتراك) وهؤلاء لايعملون عملا الا بالمال ، فمن استطاع استخدام الجند ملك ، ولا عصبية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية . فأصبح الاتراك محور تلك الحركة وهم أهل شجاعة وحرب كما تقدم ، فأصبح البطش والفتك أكبر عوامل السيادة

وكانت جنود الدولة العباسية فى أوائلها العرب من مضر واليمن ، والفرس ونريد بالفرس سكان مابين العراق وأطراف خراسان شرقا الى نهر جيحون (الاندوس) (*) ويدخل فى ذلك أهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها — وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقاما من بنى أمية أو رغبة فى الملك ، ومعظمهم من الجنود الاحرار بلا بيع ولا عتق ، وانما سموا الموالى اشارة الى أنهم ليسوا عربا على اصطلاح ذلك العصر . واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم فى مصالح الدولة ، فنبغ منهم الوزراء والامراء والعلماء ، وولاهم الخلفاء الولايات فاستقلوا بها وأنشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية كما سيأتى

فلما تولى المعتصم واقتنى الاتراك بالترغيب أو الشراء ، أصبح الجند

---

(١) اليعقوبى : تقويم البلدان ٣٢

(*) الاندوس لا يقابل نهر جيحون ، وانما اسمه عند العرب السند ، فلعل المؤلف أراد أن يقول : الى نهرى جيحون والسند ، والمعنى يستقيم بذلك

العباسي أكثره من المماليك الاتراك واخلد الخلفاء بعده الى نصرتهم واختصوا بعضهم بالخدمة فى بلاطهم ، وجعلوا من بطانتهم فى جملة الخدم أو الحرس ، وتقدم بعضهم فى مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا بالاحكام. فانتقلت سياسة الدولة من أيدى الموالى الفرس - وأكثرهم من الشيعة - الى الجند الاتراك وأكثرهم من السنة . وتمكن هذا المذهب منهم منذ جاهر الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة ، وأولهم المتوكل على الله . ورسخ الاتراك فى مذهب السنة من ذلك الحين ، ولا يزالون عليه الى اليوم

أما استبدادهم فى بلاط الخلفاء فابتدأ فى أيام المتوكل ، لانه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢ هـ وكان ماكان من كرهه الشيعة واستبداده فيهم ، زاد فى تقديم الاتراك ورعايتهم فزاد طمعهم فى الدولة . ثم أغراهم ابنه المنتصر بعده ، ولم تطل مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر فمات وضميره يخزه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل أمر الاتراك استفحالا عظيما - ومما يحكى عن استبدادهم بالخلفاء أنه لما تولى المعتز قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى فى الخلافة . . » وكان فى المجلس بعض الظرفاء فقال : « أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . . » فقالوا له : « فكم تقول انه يعيش وكم يملك ؟ » قال : « مهما أراد الاتراك . . » فلم يبق فى المجلس الا من ضحك (١)

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة ، فانهم جروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، وأقاموه فى الشمس بالدار فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده (٢) . والمستكفى سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات فى الحبس (٣) وبلغ من فقر القاهر بالله أنهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفى رجله قبقاب خشب (٤) - فلا غرو اذا أصبح الخلفاء آلة فى أيدى الاتراك : اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب(٥) وبعد أن كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم (٦)

فلما تقدم الاتراك فى الدولة العباسية ، وعلم اخوانهم فى بلادهم بذلك ، تقاطروا مئات والوفا يطلبون الارتزاق بالجندية ، ورغبوا فى الاسلام وجعلوا يدخلون فيه بالالوف وعشرات الالوف . فقد أسلم منهم سنة ٣٥٠ هـ ٢٠٠,٠٠٠ خركاه دفعة واحدة ، والخركاه الخيمة ولا يقل أهل الخيمة الواحدة عن خمسة أنفس ، فعدد الذين أسلموا فى هذه الدفعة نحو مليون نفس . وأسلم سنة ٤٣٥ هـ ١٠,٠٠٠ خركاه من أهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة ، وضحوا عشرين ألف رأس غنم (٧)

---

(١) الفخرى ٢٢٠ (٢) ابن الاثير ٧٧ ج ٧ (٣) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ (٤) ابن الاثير ١٧٣ ج ٨
(٥) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩ (٦) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ (٧) ابن الاثير ٢١٠ ج٨ و٢١٦ ج ٩

وكان الجند الاتراك يومئذ أشـــبه شيء بالفرق التى كانت عنـد الرومان ويسـمونها Praetorian (*) أو هم كالباشـبوزق فى الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال . فكل من وصلت يده الى السلطة اقتنى الغلمـان الاتراك اما بالشراء أو بالاجرة . وتألفت منهم الفرق بتوالى الاعوام ، وكل منها تنسب الى صاحبها كالساجية نسبة الى أبى الساج ، والصلاحية الى صلاح الدين ، وقس على ذلك الاسدية والنظامية وأمثالهما . وكثيرا ماكانت الحروب تشب بين هذه الفرق تنازعا على النفوذ أو على الاموال . ولما استولى الديلم على بغداد فى أيام بنى بويه توالت الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفـاء أو الموالى . وما من دولة قامت فى ذلك العصر الا استخدمت الاتراك فى جندها، سواء كانت شيعية أو سنية . فكانوا يحملون الى بغداد أو غيرها من المـدائن الاسلامية تباعا ، وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية ، وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبرا

وكان للامراء والقواد عناية كبيرة فى تدريب جنودهم الاتراك على الحركات العسكرية ، فضلا عن تعليمهم الفرائض الدينية . على انهم كانوا يعلمونهم هذه الفرائض وهم أحداث ــ فاذا جاء التاجر بمملوك للبيع عرضه على الامـير أو السلطان ، فاذا أعجبه اشتراه وأنزله فى الطبقة التى يماثلها من مماليكه ،وسلمه الى الطواشي برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن. وكان فى دولة المماليك المصرية لكل طائفة من الغلمان فقيه يحضر اليها كل يوم ويعلمها القرآن والخط وآداب الشريعة الاسـلامية وملازمة الصـلوات . فاذا شب المملوك علمه الفقيه شيئا من الفقه ، فاذا صار الى سن البلوغ أخذوا فى تعليمه فنون الحرب من رمى النشاب ولعب الرمح ونحـو ذلك . واذا ركب الاتراك لرمى النشاب أو اللعب بالرمح لا يجسر جندى ولا أمير أن يحـدثهم أو يدنو منهم . فاذا أتقن فنون الحرب تنقل فى أطوار الخدمة رتبة بعد رتبة ، حتى يصير من الامراء ، ولا يصل الى هذه الرتبة الا وقد تهذبت أخـلاقه وكثرت آدابه ، وقد ينبغ منهم الفقهاء والادباء والشعراء والحساب (١)

على أن أهل البلاد كانوا يهابون الاتراك ويخافون بطشهم ، فاذا جاءوا بلدا خافهم أهله ، اذ كثيرا ماكانوا ينزلون فى دور الناس (٢) ويتعرضون للحـرم والغلمان ، فأصبح عامة بغداد يكرهونهم كرها شديدا

الخدم ونفوذهم فى الدولة العباسية

أقدم من سمعنا به من الخدم النابغين فى الدولة العباسـية مسرور خادم الرشيد ، ولم يكن له شأن كبير . وأول من قرب الخدم واستكثر منهم الامين

(*) هم حرس الاباطرة الرومان
(١) المقريزى ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩

ابن الرشيد ، فانه لما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم ، فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وعين منهم جماعة سماهم الجرادية وجماعة من الحبشان سماهم الغرابية . ولم يقرب الامين الخدم لحمايته أو سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكا فى الترف والقصف . ومن أقوال الشعراء فى عصره يصفون انصرافه الى اللهو بالغلمان ويسمون بعضهم قولهم :

ألا يا أيها الثوى بطوس — عزيبا ما تفادى بالنفوس
لقد ابقيت للخصيان هقلا — يحمل منهم شؤم البسوس
فاما نوفل فالشأن فيه — وفى بدر فيا لك من جليس
وما للمعصمى شيء لديه — اذا ذكروا بذى سهم خسيس
وما حسن الصغير أخس حالا — لديه عند مخترق الكؤوس
لهم من عمره شطر وشطر — يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظ — سوى التقطيب والوجه العبوس
اذا كان الرئيس كذا سقيما — فكيف صلاحنا بعد الرئيس ؟
فلو علم المقيم بدار طوس — لعز على المقيم بدار طوس (١)

وكان لهوه من أعظم أسباب سقوطه

سبب نفوذهم

ولم يكن للخدم شأن فى أيام المأمون ولا المعتصم ولا الواثق ، فلما استبد الاتراك وعلت كلمتهم فى أيام المتوكل فما بعده،وصاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم أو يقتلونهم ، كان فى جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم أن يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسوهم فى القصور ليزيدوهم ضعفا . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يميلون الى حبس أولادهم وأقاربهم (٢) خوفا من تواطئهم مع بعض الاتراك على خلعهم أو قتلهم . ولا عشير لهم فى أثناء الحجر الا الخدم والخصيان، فألفوا أخلاقهم وتحققوا بالاختبار أن حياتهم تتوقف بالاكثر على أمانة أولئك الخدم لما آنسوه من غيرتهم عليهم ، وخصوصا الخصيان اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفانى فى خدمة أسيادهم ولا مطمع لهم فى الملك لاولادهم وأهلهم . فأصبح ولاة العهد اذا افضت الخلافة اليهم بالغوا فى تقريب الخدم بالعطايا والاكرام ، التماسا لحمايتهم اذا أراد الاتراك الفتك بهم . فعمدوا الى الاستكثار من الخدم ، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم فى أمورهم ، فازداد الخدم نفوذا وسطوة حتى أصبح الاتراك يخافونهم ، وقد ارتقى كثيرون منهم فى العصر التركى من الخدمة فى المنازل الى قيادة الجند أو الامارة على الاقاليم

---

(١) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ (٢) الفخرى ٢٩٧

ولما تكاثر الخدم فى دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقا تعرف بأسماء خاصة ، وفيهم الرومى والتركى والحبشى والارمنى والسندى والبربرى والصقلبى ، فى فرق أشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجوارى (*)

والمراد فى الاصل بالخدم الغلمان او العبيد أو المماليك الذين يقيمون فى دور الخلفاء أو الامراء للخدمة فيما يحتاجون اليه من مهام المنازل . فكانوا يبتاعون الغلمان وفيهم الحائك والسائس والحجام والخبازوغيرهم .ثم صاروا يستكثرون منهم للاستعانة بهم فى حماية تلك المنازل ايام الشدة ، على قدر ما يستطيعون بذله من المال فى ابتياعهم . واثمانهم تتفاوت من مئة دينار الى الف دينار أو اقل أو أكثر . وربما بلغعدد الخدم عند بعضالامراء الى خمسمائة غلام أوالف أو أكثر . فغلمان بغا الشرابى أحد قواد الاتراك بلغ عددهم ٥٠٠ ، وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠

أما فى دور الخلفاء فكان الغلمان فرقا تعرف بأسماء خاصة ، كفرقالغلمان الاصاغر ، والغلمان الحجرية (**) والرجال المصافية والركابية وغيرها . والفرق بين فرق الجند التركى وفرق الغلمان ، ان الاجناد عساكر الدولة ينتظمون فى خدمة المملكة ويتقاضون رواتبهم من بيت المال وفيهم المبتاع والمأجور ، وأما الغلمان فهم مختصون بالامير أو الخليفة لخدمته الشخصية أو حماية داره ، وهم ملكه وينفق عليهم من ماله الخاص . وقد تتحول فرق الغلمان الى فرق من الجند ، أو يعملون معا فى خدمة الدولة على ما تقتضيه الاحوال . وقد يبتاع الخليفة العبيد ليتقوى بهم على أعدائه مما لا ضابط له . وكثيرا ما تستبد بعض فرق الخدم بالخليفة أو الامير حتى تغلبه على أمره وتفعل ما تشاؤه فيضطر الخلفاء أحيانا الى الفتك بهم غيلة بمساعدة فرق أخرى (١)

وكان فى دور الخلفاء صنف من الخدم الخصيان يغلب استخدامهم فى دور النساء ، وكانوا يستكثرون منهم أيضا وأكثرهم من الطواشية السود . وكان اهل بغداد يسخرون بهم ويهزأون بأشكالهم ويتعرضون لهم فى الطرق وينادونهم بعبارات التهكم كقولهم : « يا عقيق صب ماء واطرح دقيق .. يا عاق ياطويل الساق » وهم يشكونهم الى الخلفاء ، وأصاب الناس فى أيام المعتضد شدة بسبب ذلك ، فان بعض اهل بغداد تعرضوا لبعض الطواشية

(*) أى الجرايات من الخبز واللحم والطعام وما اليها

(**) الحجرية بضم الحاء وتسكين الجيم نسبة الى الحجرة أى الذين يخدمون داخل البيوت ، وهم بخلاف المصافية أى الذين يقومون بالحرب فى المصاف

(١) ابن الاثير ١٢٦ ج ٨

السود سنة ٢٨٤ هـ فاجتمعوا وكلموا المعتضد بما يلحقهم من ذلك ، فأمر المعتضد بجماعة من العامة ضربوا بالسياط (١) على أن الخصيان كثيرا ما كانوا يرتقون فى الدولة الى مصاف الامراء

القواد والوزراء من الخدم

وأول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله ، فقد تولى سنة ٢٩٥ هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١٫٠٠٠ خـادم من الروم والسودان (٢) وكثير من المال والجوهر فتمكن من الحكم ٢٥ سـنة رد فيها رسوم الخلافة الى ما كانت عليه . وكان يقدم الخدم ويستعين بهم ، وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها . وفى أيامه نبغ مؤنس الخادم ، فقـدمه وكان يستشيره فى أموره ، فتصرف مؤنس فى مصالح الدولة كما يشاء ، وتولى رياسة الجيش وامارة الامراء وبيوت الاموال ، واستبد بكل شىء ، لكنه على الاجمال خدم الخليفة المقتدر خدمات ذات بال فلقبه الخليفة بمؤنس المظفر ، ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى أدت الى حروب انتهت بقتل المقتدر ، وحملوا راسه الى مؤنس فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه

فالخلفاء انما لجأوا الى تحكيم الخدم والخصيان استبقاء لحياتهم أو احياء لنفوذهم ودفع استبـداد جند الاتراك . ولم يكن ذلك خاصـا بالدولة العباسية ، بل شمل معظم الدول الاسلامية المعاصرة . ولا هو من مخترعات الاسلام لانه كان شائعا فى معظم الدول القديمة ، فاسطفان المعتق (المولى) استبد بشئون الدولة الرومانيـة (*) من قتل وتنصيب وعـزل ، وكـذلك سليمان الخصى وغيرهما

أما فى الاسلام فاشتهر من الخدم فى مناصب الدولة جماعة كبيرة ، تولوا القيادة أو الامارة أو بيت المال أو غير ذلك من المناصب الكبرى . فبدر غلام المعتضد تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التروس والاعلام ، وأبلى فى خدمة مولاه بلاء حسنا حتى قتل فى سبيل نصرته سنة ٢٨٩ هـ (٣) وبجكم أصله من الغلمان وارتقى حتى صار أمير الامراء وهى أعلى رتب الدولة العباسية فى عصرها الثانى (٤) وجوهر قائد جند الفاطميين الذى فتح لهم مصر وبنى القاهرة فى أواسط القرن الرابع للهجرة كان مملوكا روميا ، وبلغ من تعظيمهم أمره واكرامه أنه لما أقلع عن المغرب قادما الى مصر لفتحها ترجل أولاد الخليفة المعز وأهله ومشوا بين يديه (٥) وكان قبله كافور الاخشيـدى وهو خصى أسود ارتقى بمصر حتى استقل بأحكامها سنة ٣٥٥ هـ ، ويانس

---

(١) المسعودى ٣٤٠ ج ٢ — (٢) الفخرى ٢٣٤ (*) يريد البيزنطية
(٣) ابن الاثير ٢٠٥ ج ٧ — (٤) ابن الاثير ١٣٣ ج ٨ — (٥) المقريزى ٣٧٧ ج ١

الصقلى الخصى أصله خادم مؤنس الخادم تقدم مع ذلك فى أعمال الدولة وعظمت منزلته حتى ولى الولايات وتداخل فى السياسة . وبرجوان الاستاذ كان خصيا أبيض ارتقى فى الدولة الفاطمية الى رتبة الوزارة ، ووزر للعزيز بالله والحـاكم وتلقب بأمين الدولة ، وهو أول من لقب بذلك فى الدولة الفاطمية (١) وقراقوش الطواشى وزير صلاح الدين الايوبى بلغ أرقى مناصب الحكومة فى الدولة الايوبية . وعميد الملك أحد كبار القواد الاتراك كان من الخصيان ، وكذلك شقير الخادم صاحب البريد فى مصر والشام أيام بنى طولون . ومؤتمن الخلافة فى الدولة الفاطمية كان خادما خصيا ، وقس على ذلك تقدم الصقالبة فى دولة بنى أمية بالاندلس ، وتقدم الخصيان فى دول السلاجقة وبنى بويه وسائر دول الاسلام فى تلك العصور

تأثير النساء فى سياسة الدولة

للمرأة تأثير كبير فى أعمال الرجل ، مهما يكن نوعها وفى أى عصر كان وأية أمة كانت ، وان اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الامم وآدابها . فاذا كانت الدولة ملكية مطلقة كان للمرأة شأن كبير فى سياستها ، حتى فى الاسلام مع شيوع الطعن فى آرائهن وقولهم أن مشاورتهن فى الامور مجلبـة للعجز ومدعاة الى الفساد . وما من عظيم من عظماء الاسلام الا ونهى عن مشورتهن وادخالهن فى الامور . قال المنصور فى وصيته لابنه المهدى : «اياك أن تدخل النساء فى أمرك » ، وقال النخعى : « من اقتراب الساعة طاعـة النساء » ، وقال أبو بكر : « ذل من أسند امره الى امرأة » ، ولعلى أقوال كثيرة فى النهى عن مشورة النساء ، ومع ذلك فقد اثرت المرأة فى سياسـة الدولة تأثيرا عظيما

أمهات الخلفاء

وتأثير النساء فى الدولة من قبيل تأثير الام فى الابناء ، وقد بينا ذلك فى باب الامومة ، ويعظم أثره على الخصوص فى تأثير أمهات الخلفاء على اولادهن ، ولا سيما فى أواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم الى الخدم

على أن العباسيين حتى فى صدر الدولة كانوا يصغون الى النساء ، فأحرزت المرأة نفوذا كبيرا وخصوصا أمهات الخلفاء ، وأول من استبد منهن الخيزران أم الهادى والرشيد ، وهى قرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها أولادها ، ومن خالفها منهم أو اعترضها قتلته . وكانت فى أيام زوجها المهدى صاحبة الامر والنهى وهو يطاوعها ، فلما تولى ابنها الهادى ارادت الاستبداد بالامور

---

(١) ابن الاثير ٩٤ ج ٩

دونه ، وأن تسلك به مسلك أبيه ، فلم يمض أربعة أشهر حتى انثال الناس اليها ، وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فساءه ذلك ، وكلمته يوما فى أمر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلا فقالت : « لابد من اجابتى اليه فانى قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك » فغضب الهادى وقال : « ويلى على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها (*) والله لا أقضيها لك » ، قالت : « اذن والله لا أسألك حاجة » ، قال : « لا أبالى » وقامت مغضبة فصاح بها : « مكانك .. والله أنا نفى من قرابتى من رسول الله ، لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو خاصتى لاضربن عنقه ولاقبضن ماله . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح الى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك ؟ اياك واياك لاتفتحى بابك لمسلم ولا ذمى ! » فانصرفت وهى لا تعقل ، ولم تنطق عنده بعدها . ثم انه قال لاصحابه : « أيما خير : أنا أم أنتم ، وأمى أم أمهاتكم ؟ » ، قالوا : « بل انت وامك خير » قال : « فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر امه فيقال : فعلت أم فلان وصنعت ؟ » قالوا : « لا نحب ذلك » ، قال : « فما بالكم تأتون أمى فتتحدثون بحديثها ؟ » ، فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدتها عليه ، حتى اذا علمت أنه يريد خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر أمرت بعض جواريها بقتله بالغم والجلوس على وجهه (١) فقتلنه (**)

فلما كانت ايام الرشيد استبدت الخيزران بالاحكام ، واحتشدت الاموال فبلغت غلتها فى العام ١٦٠ مليون درهم ، أى نحو نصف خراج المملكة العباسية فى ذلك العهد ، ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها . وقس على ذلك ثروة سائر أمهات الخلفاء (٢)

أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر — وهى تركية — سطوة غريبة على رجال الدولة فى خلافة ابنها ، وكانت تتصرف فى الاحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم ، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفا من ذكرها (٣)

ويقال نحو ذلك فى أم المستعين بالله المتوفى سنة ٢٥١ هـ ، وكانت صقلبية الاصل ، فأطلق المستعين فى أمور الدولة يدها ويد اثنين من قواد الاتراك

(*) أى صاحب الحاجة

(١) ابن الاثير ٤١ ج ٦

(**) الخبر عند ابن الاثير وغيره ، ومعنى « قتلنه بالغم والجلوس على وجهه » أنهن كتمن نفسه ، ويقال انهن وضعن على فمه وانفه وسادة وجلسن عليها ، فاختنق ومات . وكان هو قد حاول قتلها بالسم قبل ذلك ، فلم يفلح

(٢) الجزء الثانى من هذا الكتاب (٣) تاريخ الوزراء ٦٧

هما اتامش وشاهك الخادم ، فكانت الاموال التى ترد الى بيت المال من النواحى يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة (١)

على أن تسلط النساء فى الدولة العباسية كان على معظمه فى أيام المقتدر، لتسلط الخدم والحجاب . وقد اشتهر من النساء فى ذلك العهد السيدة أم المقتدر والخالة وأم موسى الهاشمية القهرمانة ، فهؤلاء كن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب والكتاب ونحوهم ، ويمشين الامور كما يردن ويريد هؤلاء . وكان لام موسى المذكورة دهاء ونفوذ ، حتى تكفلت مرة بالخلافة لاحد العباسيين من أصهارها ، واخذت تبذل الاموال للقواد وغيرهم ، فوشى بها بعضهم الى المقتدر فقبض عليها واخذ منها أموالا عظيمة . وقس على ذلك نفوذ نساء القصور فى الدولة العباسية ، وهو من قبيل نفوذ الموالى فى هذه الدولة ، لان أكثر أولئك النساء من غير العرب

فساد الاحكام فى الدولة العباسيــة

التنازع على النفوذ

بلغت الدولة العباسية عصرها الذهبى فى أيام خلفائها الاولين ، وخصوصا الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولا سيما البرامكة . فاتسع سلطانها فى أيامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور فى ذلك العهد ، فبلغت الهند شرقا والمحيط الاطلسى غربا وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالا وبحر فارس وبلاد النوبة جنوبا . وقد بينا أقسامها وجغرافيتها فى الجزء الثانى. فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركى بالحكومة أصبحت الاحكام فوضى، وخصوصا بعد المتوكل ، لانهم أقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جراتهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل . فعجز الخلفاء عن القيــام بشئون الدولة ، وهم أصحابها المسئولون عنها والاحكام تصدر بأسمائهم ، وان كانوا مدفوعين الى اجراءاتهم ببعض أرباب النفوذ فى بلاطهم ، من الوزراء والقواد . فأقدرهم على ارضاء الخليفة أو أشدهم دهاء ومكرا يفضى النفوذ اليه ، فاذا ملك قياد الحكومة بذل جهده فى حشد الاموال ، اذ لا يأمن أن يستبدل هذا الخليفة بآخر لا يرضاه ، أو لعل بعض أعدائه يغلبه بدسائسه وسعايته فيعزله ، فاذا لم يكن له مال عاش ذليلا مهانا . على أن القواد كانوا يحاولون الاستئثار بالنفوذ فى بلاط الخليفة بالتهديد أو بالوشاية ، ويختلف ذلك باختلاف الاحوال والاشخاص

ويقال بالاجمال أن النفوذ أصبح ضائعا بين الوزراء والقواد ، وكلاهمــا لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لانفسهم ، غير ما يكتسبونه من

(١) ابن الاثير ٤٧ ج ٧

المال فى أثناء نفوذ كلمتهم . فأصبح الفرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذى يتولى أمور الدولة ولا يدرى ما يكون مصيره بعد عام أو عامين من عزل أو قتل أو حبس لا يهمه غير الكسب من أى طريق كان ، ولا يبالى بما قد يترتب على ذلك فيما بعد ، عملا بالقاعدة التى وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهى قوله : « ان تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب » (١)

وانتبه الخلفاء الى مطامعهم ، فأصبحوا اذا عزلوا وزيرا صادروه وأخذوا أمواله ، وقد فصلنا ذلك فى باب المصادرة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة ، حتى الرعية ، وأصبحت بتوالى الايام المصدر الرئيسى لتحصيل المال . فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى أنشأوا للمصادرة ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة (٢) فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة

أنواع المصادرة ومقاديرها

قال الوزير ابن الفرات : « تأملت ما صار الى السلطان من مالى فوجدته ١٠ ملايين دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهرى (ابن الجصاص) فكان مثل ذلك » فكأنه لم يخسر شيئا ، لانهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة . واذا صودر احدهم على مال لم يكن فى وسعه أداؤه كله معجلا اجلوه بالباقى ، وساعدوه على تحصيله أو جمعه برد جاهه وتغيير زيه وانزاله فى دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ، ليستطيع التمحل فى جمع الاموال من الناس (٣)

وتعددت أسباب المصادرة وجهاتها ، حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة لها . وهاك قائمة بما قبضه ابن الفرات من المصادرة على أيام الراضى بالله ، ننشرها بنصها حرفيا أنموذجا لأنواع المصادرات ومقاديرها (٤)

دينار	
٧٫٣٠٠	من احمد بن محمد البسطامى عن النصف مما بقى عليه من مصادرته لسنة ٣٠٠ هـ
١١٫٠٠٠	من على بن الحسين الباذبينى الكاتب عما تولاه بالموصل
٣٠٫٠٠٠	من محمد بن عبد الله الشافعى عما تصرف فيه لعلى بن عيسى
٨٠٫٠٠٠	من محمد بن على بن مقلة عما تصرف فيه

(١) تاريخ الوزراء ١١٩ (٢) تاريخ الوزراء ٣٠٦
(٣) الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ (٤) تاريخ الوزراء ٢٢٤

دينار	
١٠٠,٠٠٠	من محمد بن الحسين المعروف بأبى طاهر
١٣,٠٠٠	من الحسن بن أبى عيسى الناقد عما ذكر انه وديعة لعلى بن عيسى
٤,٠٠٠	ومنه أيضا عن نفسه
٢٠,٠٠٠	من ابراهيم بن احمد المادرائى
٣٦,٣٦٠	من عبد الواحد بن عبد الله بقية مصادرة والده
١٠,٠٠٠	من أحمد بن يحيى عن مصلحة وجبت
٦,٠٠٠	من ابراهيم بن أحمد الجهبذ عن صلحه
٤,٠٠٠	من محمد بن عبد السلام عما عنده من الوديعة لمحمد بن على وابراهيم المادرائى
٤٠,٠٠٠	من عبد الوهاب بن احمد بن ماشاء الله عن صلحه
١٠,٠٠٠	من محمد بن عبد الله بن الحرث عن صلحه
٢٥٠,٠٠٠	من محمد بن أحمد عما تصرف فيه بالموصل وغيرها
١٥,٠٠٠	من ابراهيم المادرائى عن الباقى عليه
٣,٠٠٠	من أبى عمر بن الصباح عن الباقى على ابن العباس احمد
٧,٠٠٠	من على بن محمد بن الحوارى وقتل
٧,٠٠٠	من هرون بن أحمد الهمذانى
٢,٠٠٠	من عبد الله بن زيد بن ابراهيم
١٥,٠٠٠	من عبد الله بن زيد صلحا عن نفسه
٦٠,٠٠٠	من على بن مأمون الاسكافى وقتل
٧٠,٠٠٠	من يحيى بن عبد الله عما تصرف فيه مع حامد
١,٣٠٠,٠٠٠	من حامد بن عباس وقتل
١٥٠,٠٠٠	من محمد بن حمدون الواسطى
٤٢,٠٠٠	من على بن عيسى
١٠,٠٠٠	من ابراهيم جهبذ حامد بن عباس
١,٢٠٠,٠٠٠	من الحسن المادرائى
١,٠٠٠,٠٠٠	ومنه أيضا
١,٠٠٠,٠٠٠	من محمد المادرائى
١٠,٠٠٠	ومنه أيضا بخط آخر

درهم	
٢٠٬٠٠٠	من أبى الفضل محمد بن احمد بن بسطام
٥٠٠٬٠٠٠	من على بن الحسن الباذبينى صلحا عما تصرف فيه بالموصل وقتل
١٠٠٬٠٠٠	من أبى عمر بن الصباح عن ضمانة الباقى من مصادرة أبى ياسر
١٠٠٬٠٠٠	من عبد الله بن أحمد اليعقوبى
١٠٠٬٠٠٠	من الحسن بن ابراهيم الخرائطى صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس
١٠٠٬٠٠٠	من الحسين بن على بن نصير
٢٬٠٠٠	من على بن محمد بن احمد السمان عن ورثة قرقر
١٠٬٠٠٠	من أبى بكر الجرجانى من ضياع بن عيسى
٢٣٠٬٠٠٠	من الحسين بن سعد القطربلى
١٬٥٠٠٬٠٠٠	من محمد بن احمد ...
٣٬٠٠٠٬٠٠٠	من أبى الحسن بن بسطام
٥٠٬٠٠٠	من أحمد بن محمد بن حامد بن عباس
٢٣٠٬٠٠٠	من سليمان بن الحسن بن مخلد

ابتزاز الاموال

فالوزير يتولى الوزارة عاما أو عامين ، ثم يعزل أو يستقيل وله عدة ملايين من الدنانير ، فضلا عن الضياع والمبانى ، وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من أسباب المظالم . وكان الوزير لا يولى عاملا على ولاية ما لم يقبض منه مالا على سبيل الرشوة يسمونه « مرافق الوزراء » . ومن أغرب حوادث التولية بالرشوة أن الخاقانى وزير المقتدر بالله ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة واخذ من كل واحد رشوة . واذا لم يكن للعامل أوالناظر مايفى المبلغ المتفق عليه مع الوزير ، دفع بعضه معجلا وأجل البعض الآخر الى مدة معينة أو غير معينة ، والخلفاء يعلمون ذلك ولا ينكرونه أو يرون فيه غرابة أو ظلما

والعامل الذى يتولى عمله بالرشوة وهو لايزال مدينا ببعضها يهون عليه ابتزاز أموال الرعية ــ أو هو يطلب الولاية لهذه الغاية ــ فيأخذ العمال فى حشد الاموال اما بالتلاعب فى جباية الحكومة ، فينفقون دينـــارا فى بعض مصالحها فيقيدونه عليها عشرة دنانير ، أو باستخراج أموال الرعية بالرشوة ،

او بضرب الضرائب الفادحة على الباعة واهل الاسواق فى المدن (١) أو بسلب الفلاحين فى القرى بعض غلاتهم ، وقد يقاسمونهم اياها فان بعض العمال كان يبعث رجاله الى البيدر فيقسمونه كما يشاءون ، واذا تكلم الاكار (الفلاح) شتموه وحلقوا لحيته وضربوه (٢) وقد لا يرضيهم ذلك فيغتصبون الضياع برمتها

ومن أغرب طرق الاغتصاب ان يغتصب العامل او الوزير أو غيرهما من رجال الدولة ضيعة لبعض الناس ، فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه واذا استحق عليها الخراج أداه صاحبها الاول ، مخافة ان يثبت الملك لمغتصبها اذ يدون خراجها باسمه فى الديوان فيبطل حق مالكها فى ملكيتها (٣) فيضطر المالك الى دفع الخراج أعواما ريثما يتوفق الى من ينصفه ممن يفضى النفوذ اليهم من أهل العدالة أو يهتدى الى وساطة أو حيلة

ناهيك بما كانوا يغتصبونه من أموال الرعية باقتضاء خراج الارض مضاعفا أو مكررا ، على انهم قد يرون لهم نفعا من ترك خراج بعض الارضين ، فيتركونه لاصحابها على أن يخدموهم فى مصلحة لهم ، وربما بلغ مقدار الخراج المتروك مالا كثيرا جدا . فقد كان لرجل يدعى أبا زنبور فى وزارة ابن الفرات ضياع مساحتها مئة فرسخ بمئة فرسخ لم يأخذ منه من حقوق بيت المال درهما (٤) وكثيرا ماكانوا يتركون أمثال هذه الضياع بلا خراج لاهل الوساطة أو الدالة أو النفوذ عند الخليفة أو غيره

الجاسوسية واللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الاموال ان يقسط الوزير أو من يقوم مقامه على أرباب الدواوين والقضاة أو غيرهم مالا على وجه القرض ، على أن يسبب لهم عوضه من أهل النواحى (٥) فتقع الخسارة على الرعية · فتضايق أهل الاسواق فى المدن والفلاحون فى القرى والرساتيق وضاقت أبواب الرزق على الناس ، وأصبحت الحقوق فوضى ، من استطاع حيلة فى اختلاس المال سرا أو جهرا استخدمها ، وكثر العيارون والشطار فى المدن ، وتعدد اللصوص فى القرى ، وفيهم جماعة أصلهم من جنود الدولة ، طمع الوزراء أو القواد فى أرزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم ، واذا عوتبوا أو حوكموا احتجوا بذلك . وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار ويأخذون أموالها باعتبار انها حق لهم ، لان أصحابها لم يؤدوا زكاتها لبيت المال وقد منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة ، واللصوص

(١) ابن الاثير ١٢٩ و ٢٠٣ ج ١٢ (٢) تاريخ الوزراء ٩٢ (٣) الاغانى ٤٧ ج ٢٠
(٤) تاريخ الوزراء ٩٤ (٥) تاريخ الوزراء ٢٦٢

فى حاجة اليها بسبب فقرهم فاذا أخذوا تلك الاموال — وان كره التجار أخذها — كان ذلك لهم مباحا لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الاموال أوكرهوا (١) لأن الزكاة صدقة تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرق فى فقرائهم ، وكان لها شأن كبير فى أول الاسلام ثم أهملت فى أواسط الدولة العباسية فاتخذ اللصوص ذلك حجة لسلب أموال التجار

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الاحكام من الضيق المالى وغلاء الاسعار فى المدن ، وما انتشب من الفتن بين الاحزاب ولاسيما السنة والشيعة ، وراجت الدسائس وتكاثرت السعايات برجال الدولة ، وانتشرت الجاسوسية فى قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب . وأصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون اليه أخبارهم ، فتسابق أسافل الناس الى السعاية بافاضلهم ، يرفعون الى الخليفة أو الى صاحب النفوذ فى دولته كتبا يختلقون بها المطاعن على الابرياء للانتفاع بأذاهم . واكثر ماتكون وشايتهم بأهل الدولة فى حال اعتزالهم ، أو فيمن يخافونهم اذا ألقيت مقاليد الاحكام اليهم ، وقد يجتمع عند الخليفة أو الوزير صناديق مملوءة بتلك الكتب فاذا تكاثرت أو ذهبت الحاجة اليها أحرقوها (٢)

فلما فسدت الاحكام فى دار الخلافة ، واستبد الوزراء والقواد بشؤون الدولة ، رأى العمال فى الولايات أن يجتزئوا من ذلك الاستبداد فى ولاياتهم ، فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب وغيرهم . ومنها ماجاءها التغلب من الخارج ففتحها ، كما أصاب مصر لما فتحها الفاطميون

تفرق المملكة العباسية

لما أصبحت الدولة العباسية فيما تقدم من فساد الامور ، والفوضى فى سلطتها وأحكامها بين الفرس والاتراك ، أو بين الوزراء والاجناد ، أو بين الخدم والنساء ، وذهبت هيبة الخلفاء بما أصابهم من التضييق والاحتقار ، هان على عمالهم فى أطراف المملكة أن ينفصلوا عنهم بأحكامهم الادارية والسياسية ، وان يستأثروا بجباية اعمالهم وهو الاستقلال . وكان أسبقهم اليه أبعدهم عن مركز الخلافة . وأسبق عمال العباسيين الى ذلك ابراهيم بن الاغلب فى شمال افريقيا استقل سنة ١٨٤ هـ ولا يعد استقلاله من نتائج فساد الدولة ، لانه حدث فى عصر الرشيد والدولة العباسية فى معظم سطوتها ،

---

(١) الفرج بعد الشدة ١٥ ج ١ (٢) تاريخ الوزراء ٢٢٤

وانما ساعده على ذلك بعده عن مركز الخلافة . واما استقلال العمال بذهاب هيبة الخلفاء أو اختلال شؤون الدولة فالاسبق اليه الفرس ثم الاتراك فالاكراد ، مثل تواليهم فى التغلب على الخلفاء . وتدرج كل من هذه الامم من العمالة الى الامارة الى الملك أو السلطنة . فأول من استقل من الفرس العمال ، فانشأوا الامارات الصغرى ثم الدول الكبرى ، وكذلك فعل الاتراك والاكراد . فنقدم الكلام عن الفروع الفارسية ، ثم نذكر الفروع التركية والكردية . أما العربية فسيأتى ذكرها فى الكلام على العصر العربى الثانى

الدول الفارسية
فى ظل العباسيين

الدول الصغرى

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة الى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافا بالسلطة العباسية ، ثم استبد الاتراك بالخلفاء بعد المعتصم وغلوا أيديهم وكسروا شوكتهم ، فكان للفرس على الاجمال حظ كبير من ذلك . فلما رأوا ذهاب نفوذهم فى دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال باماراتهم

على أن الذين استقلوا من القواد أو الامراء مازالوا يعترفون للعباسيين بالسلطة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم . فتفرعت المملكة العباسية الى امارات مستقلة عملا بسنة الارتقاء . واليك أهم الفروع الفارسية باعتبار تاريخ استقلالها واسماء مؤسسيها :

	الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١	الطاهرية	خراسان	٢٠٥ ـ ٢٥٩ هـ	طاهر بن الحسين
٢	الصفارية	فارس	٢٥٤ ـ ٢٩٠	يعقوب بن الليث الصفار
٣	السامانية	ماوراء النهر	٢٦١ ـ ٣٨٩	نصر بن احمد السامانى
٤	الساجية	أذربيجان	٢٦٦ ـ ٣١٨	يوسف بن أبى الساج (*)
٥	الزيارية	جرجان	٣١٦ ـ ٤٣٤	مرداويج بن زيار (**)

فانظر كيف تفرعت بلاد فارس الى امارات فارسية . فانتعشت الشيعة ، ونالوا بعض ما كانوا يؤملونه من مساعيهم فى نصرة العلويين من أن يعيدوا دولة

(*) لم يكن الساجيون دولة ، وانما كان يوسف بن ابى الساج أحد الولاة الذين استبدوا بالامر فترة قصيرة تحت طاعة ولاة آخرين ، وقد خلفه اثنان من أهل بيته ، وقد حكموا فى ناحية من الرى وشمل سلطانه وقتا ما قزوين وأبهر وزنجان وآذربيجان . وقد استقل يوسف بن ابى الساج بناحيته فترة قصيرة من ٣٠٦ الى ٣١٢

انظر : زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة ، ترجمة الدكتور زكى محمد حسن وآخرين ، جا ، ص ٧١

(**) امتدت املاك مرداويج بن زيار حتى شملت الرى وقزوين وهمدان وكشكور ودينور وبروجرد وقم وقاشان واصبهان وجرابذقان وطبرستان وجرجان . وقد استعاد هذه النواحى من مرداويج نصر السامانى سنة ٣١٧ ، غير أن وشمكير بن زيار عاد فاستبد بها سنة ٣٢٣ عاما واحدا . انظر نفس المصدر ، ص ٧٢

الفرس الضخمة كما كانت قبل الاسلام . ولكن تلك الامارات لم تمكث طويلا ــ كما ترى فى الجدول ــ حتى قامت دولة آل بويه ، وهى أكبر دولة فارسية شيعية ظهرت فى الشرق فى عهد ذلك التمدن فى ظل الدولة العباسية

دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وانصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان ، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ، ويرتفع نسبهم الى ملوك الفرس القدماء ، وانما سموا ديلم لانهم سكنوا بلاد الديلم . وكان العلويون يسعون فى نشر دعوتهم هناك أيام الرشيد ، وآخر من نجح فى ذلك الحسن بن على الاطروش من نسل الحسين ، فدعا الديلم الى مذهبه فى أواخر القرن الثالث فأجابوه

وجد آل بويه الاقرب الذى أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه أبو شجاع ، كان له ثلاثة أولاد : على ويلقب عماد الدولة ، وحسن ويلقب ركن الدولة ، وأحمد ويلقب معز الدولة . وكان بويه رقيق الحال ، فانتظم أولاده فى الجندية لأنها كانت يومئذ بابا من أبواب الرزق الواسعة ، وكان عماد الدولة فى خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيارية ، فارتقى عنــده حتى ولاه الـكرج ، ثم اتسعت أحواله فكتب الى الخليفة العباسى وهو يومئذ الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ أن يقاطعه على اعمال فارس بمال يحمله الى دار الخلافة ، على جارى عادتهم مع الدولة العباسية فى ذلك العهد ، فأجابه الراضى وبعث اليه بالخلعة . وأخوه حسن ركن الدولة تملك خوارزم ، وجاء الأخوان واتحدا مع أخيهما الثالث معز الدولة فى شيراز ، وساروا غربا حتى اتوا بغداد فى أيام المستكفى سنة ٣٣٤ هـ فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم الألقاب المذكورة ، وجعل معز الدولة أمير الأمراء ، واستبدوا بالمملكة واستولوا على الخلافة ، وعزلوا الخلفاء وولوهم ، فرفعوا منار الشيعة وأحيوا معالمها وأضعفوا نفوذ الاتراك والخلافة العباسية لا تزال فى بغداد . ولما أفضت امارة الأمراء الى عضد الدولة لقب بالملك ، وهو أول من خوطب بهذا اللقب فى الاســلام . وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠ ــ ٤٤٧ هـ (*)

(*) كانت القاعدة التى جرى عليها أولئك الامراء المستقلون هى « المقاطعة » ، أى مقاطعة الخليفة (الاتفاق معه) على مبلغ من المال يؤدونه له كل سنة فى نظير استبدادهم بأمور الناحية مع الخطبة له والاعتراف بسلطانه . وقد بدأ ذلك من ايام الرشيد ، فقد قاطع ابراهيم بن الاغلب على مبلغ سنوى من المال فى نظير استبداده بأمور افريقية . وقد اتسع العمل بهذه الطريقة مع الزمن ، وخاصة خلال خلافة المعتضد بالله (٢٧٩ ــ ٢٨٩) ، فقد كان طاغية قاسيا ، قليل الكفاية الادارية ، فخافه امراء النواحى وبدأوا يستقلون ، وفى ايامه خرج عمرو بن الليث الصفار فى فارس ، وبدأت حركة القرامطة على يد حمدان قرمط فى الكوفة وعلى يد أبى سعيد الجنابى فى البحرين ، وظهر ابن حوشب فى اليمن وابو عبد الله الشيعى فى المغرب ، ونصر بن احمد السامانى مؤسس الدولة السامانية فيما وراء النهر ، وزاد الامر فى ايام المكتفى (٢٨٩ ــ ٢٩٥) والمقتدر (٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ) ونستطيع ان نسمى عهده بعهد الوزراء ، فقد تولى

الوزارة نفر من اقدر وزراء العصر العباسى الثانى كابن الفرات وعلى بن عيسى وابن مقلة ، ولكن احوال الدولة كانت قد بلغت من الفساد مبلغا اعجز هؤلاء الوزراء عن الاصلاح ، ثم انهم كانوا جميعا ، رغم كفايتهم أميل الى الفساد منهم الى الصلاح ، وقد روى السيوطى عبارة عظيمة الدلالة لابأس بايرادها وهى : لما علم محمد بن جرير الطبرى بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز قال : « ما الخبر ؟ » قيل : « بويع ابن المعتز » قال : « فمن رشح للوزارة ؟ » قيل : « محمد بن داود » قال : « هذا الامر لايتم » . قيل له : « كيف ؟ » قال : « كل واحد ممن ذكرتهم متقدم فى معناه ، على الرتبة ، والزمان مدبر والدنيا مولية ، وما ارى هذا الا الى اضمحلال وما ارى لمدته طولا » (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢)

وقد لقى المقتدر اهوالا ، وعزل عن الخلافة ثم عاد ، وفسد حال الدولة فى ايامه تماما ، وخلفه اخوه القاهر (٣٢٠ — ٣٢٢) وقد وصفه الصولى بأنه كان « أهوج سفاكا للدماء قبيح السيرة كثير التلون والاستحالة ، مدمنا للخمر ، ولولا جودة حاجبه سلامة ، لاهلك الحرث والنسل » . وقد بلغ من فساد رأيه أن حفر فى داره نحو خمسين مطمورة تحت الارض واحكم أبوابها ، ليدفن فيها المخالفين له من حرسه وجنده ، وقد عزل وآل أمره الى التكفف . وفى حكومة امثال هؤلاء كان نظام المقاطعة خير ما يمكن اتباعه . وقد انتهى الامر بالخلفاء الى تفويض أحد القواد بالقيام بكل شؤون الدولة باسم الخليفة ، وبهذا نشأ نظام « امرة الامراء » وكان ذلك فى ايام الراضى ، واول امراء الامراء هو ابن رائق ، وقد تنازل له الراضى عن سلطانه كاملا . قال مسكويه (تجارب الامم ١/١٨٨) : « فأرسل اليه الراضى ماكرد الديلمى من الساجية ، وعرفه انه قلده الامارة ورياسة الجيش ، وجعله امير الامراء ، ورد اليه تدبير اعمال الخراج والضياع واعمال المعاون فى جميع النواحى ، وفوض اليه تدبير المملكة ، وامر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، وبأن يكنى ، وانفذ اليه الخلع واللواء مع ماكرد الديلمى خادم من خدم السلطان » . ولم ينفع ذلك الحل ، لان القواد تنافسوا على امرة الامراء ، كما كان الوزراء من قبل يتنافسون على الوزارة ، ثم ان المشاكل الاساسية للدولة ، وهى مشاكل سياسية وادارية ومالية ، لم تحل وظلت تزداد مع الزمن

الـدول التـركيـة في ظـل العباسيين

الدول الصغرى

لما قويت شوكة الاتراك فى الدولة العباسية وهابهم الخلفاء كما تقدم ، طمع بعضهم فى الولايات كما طمع الفرس ، فاستقلوا بها فنبتت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس ، كما نبتت الفروع الفارسية فى بلاد الفرس . واليك الفروع التركية فى العصر العباسى حسب سنى نشأتها وأسماء مؤسسيها وبلادها :

اسم الدولة	مقرها	مدة تأسيسها	مؤسسها
١ الطولونية	مصر	٢٥٤ — ٢٩٢ هـ	احمد بن طولون
٢ الايلكية	تركستان	٣٢٠ — ٥٦٠	عبد الكريم ستق (*)
٣ الاخشيدية	مصر	٣٢٣ — ٣٥٨	محمد الاخشيد
٤ الغزنوية	أفغانستان والهند	٣٥١ — ٥٨٢	البتكين

وتدرج الاتراك فى الولايات الاسلامية كما تدرج الفرس قبلهم ، أى من الامارة الى السلطنة وهم أول من سموا سلاطين فى الاسلام ، وأولهم سلاطين الدولة الغزنوية التى منها السلطان محمود الغزنوى فاتح الهند وناشر الاسلام فيها

(*) يريد المؤلف بالدولة الايلكية دولة ايلخانات فارس ، وهى دولة مغولية اسلامية كبرى قامت فى فارس ، وشملت البلاد الواقعة بين بحر قزوين والمحيط الهندى ومن نهر السند الى الفرات ، وكانت عاصمتها تبريز . وقد أنشأ الدولة ايل خان حسن حفيد ارغون بن هولاكو ، وقد ازدهر أمر الدولة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) وقامت بينها وبين دولة المماليك علاقات صداقة حينا وحرب حينا ، وحاول الايلخانات انتزاع الشام من المماليك فلم يستطيعوا ، وقد دخل هذا الفرع من المغول الاسلام منذ أيام أرغون بن هولاكو ، ولكن الدولة لم تأخذ طابعا اسلاميا حقيقيا الا فى عهد سلطانها غازان — اوقازان — خان. وكانت دولة الايلخانات سنية المذهب

انظر :

D'Ohsson, Histoire des Mongols, III, IV
Hammer Purgstall, Gesch. der Ilchane, 2 Vols.
Howorth, History of the Mongols, Part III
Quatremère, Mémoire sur la vie et les ouvrages de Raschid-eldin (Histoire des Mongols de la Perse, écrite en persan par Raschid el-din. Paris, 1836.
W. Barthold, Persidskaya nadpis' stienie Anijskoi meceti Manuce. St. Petersbourg, 1911 بالروسية

الدولة السلجوقية وفروعها

على أن هذه الامارات نشأت فروعا للدولة العباسية ، وكان أمـــراؤها وسلاطينها من عمال الدولة العباسية أو قوادها

وكانت السنة قد تقوت بظهور الامارات التركية ، فلما قامت دولة آل بويه فى أواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطميـة بمصر ، عظم أمر الشيعة فى العالم الاسلامى وتضعضعت السنة فتشتت شمل المملكة العباسية . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى فى أواسط القرن الخامس، وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة الى جدها سلجوق ، فجاءت فى حال الحاجة اليها ، لانها لمت شعث المملكة العباسية ونصرت مذهبها (السنة) بعد أن كادت تضمحل بين يدى الشيعة فى مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب ، وأوشكت أن تستولى على المشرق كله ، فجاء السلجوقيون من أقاصى الشرق فاستولوا على المملـكة العباسية وجمعوا شملها . وبعد أن كانت ولايات مستقلة يملكها أمراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب ، جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسى

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن تكاك ، أمير تركى كان فى خدمة بعض خانات تركستان ، فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها ، وعلم انه لايبلغ ذلك وهو على دين غير دين الاسلام، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة (*) ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غربا، فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا فى الفتح ونشر سلطانهم حتى اكتسحوا المملكة العباسية، وامتد سلطانهم من أفغانستان الى البحر الابيض . وأصبح العالم الاســـلامى

(*) يسمى جد السلاجقة دقاق أيضا ، ويلقب بتيمور يالغ أى صاحب القوس الحديدى . وكان دقاق اميرا من امراء قبيلة الغز التى كانت فى ناحية قينيك . وقد اختصم دقاق مع ملك من ملوك الترك يسمى بيغو ، لان بيغو اراد ان يغزو بلاد الاسلام فعارضه دقاق ، وكانت النتيجة أن أخذ دقاق قبيلته وأهله وهاجر بهم الى حدود بلاد الاسلام ، واستقر عند نهر سيحون . وهناك اعتنق سلجوق وآله الاسلام . وقد ذهب بعض علماء الروس الى ان سلجوق تحول الى النصرانية أولا ، ثم الى الاسلام ، وليس لدينا مايثبت ذلك ، وحجتهم أن ابناء سلجوق كانوا يحملون أسماء مسيحية : ميكائيل وموسى واسرائيل . وكانت الظروف مواتية لسلجوق فى الناحية التى استقر فيها وهى ما وراء النهر (Transoxania) حيث كان السامانيون والقرخانيون يتنازعون على السلطان فانضم سلجوق ومن معه من الغز الى السامانيين ، وما زال هو وابناؤه من بعده يحاولون حتى سيطروا على بلاد ما وراء النهر ، ثم اخذوا يتحرشون بالبويهيين . وكان الغز السلاجقة من أهل السنة ، فكان هذا مثار النزاع بينهم وبين البويهيين الشيعيين . وقد تمكنوا من السيطرة على فارس ، ثم استدعاهم الخلفاء لانقاذهم من البويهيين ، فانتقلوا الى العراق وبدأ نجمهم يصعد

والمراجع من السلاجقة ودولهم كثيرة جدا ، نجد أهمها فى مقال « سلاجقة » فى دائرة المعارف الاسلامية

تتنازعه ثلاث دول اسلامية ، أكبرها دولة السلاجقــة فى المشرق ، ثم الدولة الفاطمية فى مصر والمغرب ، والثالثة دولة بنى أمية فى الاندلس . فشأن الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التى تقدمتها ، لان هذه امارات نشأت فى حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها ، وأما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وأنقذت الخلافة العباسية من الضياع على أيدى البويهيين وغيرهم من الشيعيين . والدولة الايلكية نشأت مستقلة أيضا ، لكنها قلما أثرت فى المملكة الاسلامية

وللسلاجقة منزلة عظمى فى تاريخ الاسلام ، وفى أيامهم تكاثر نزوح الاتراك الى المملكة الاسلامية فى فارس والعراق والشام ، للسكنى والارتزاق فى ظل أبناء جلدتهم ، والسلاجقة أول من أنشأوا المدارس فى المملكة الاسلامية ،بأرقى مابلغت اليه فى عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى فى أواسط القرن الخامس ، وقد فصلنا ذلك وعللناه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب

ونظام الملك فارسى الاصل من أولاد الدهاقين ، ولكنه أنشأ ما أنشأه من المدارس والتكايا والرباطات والمساجد والمارستانات باسم سلطانه ملك شاه

والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وعرفت باسم واحد ، ولكنها تمتاز بعضها عن بعض بأماكن حكمها ، وأكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم أصل سائر الفروع وأقوى منها جميعا . واليك الدول السلجوقية ومقدار حكمها :

١ ــ السلاجقة العظام (*)	حكموا من سنة ٤٢٩ـ٥٥٢ هـ
٢ ــ سلاجقة كرمان (**)	« « « ٤٣٣ـ٥٨٣ هـ

(*) السلاجقة العظام هم : طغرل بك (أنشأ الدولة سنة ١٠٣٨ وحكم حتى ١٠٦٣) ، ألب أرسلان (١٠٦٣ ــ ١٠٧٢) ، ملك شاه (١٠٧٢ــ ١٠٩٢) ، برقياروق (١٠٩٢ ــ ١١٠٤) ، ملك شاه الثانى ومحمد (حكما من ١١٠٤ حتى ١١١٧) ، سنجر (١١١٧ ــ ١١٥٧) . وقد شملت دولة السلاجقة الكبار فارس كلها والعراق . وكان دخول السلاجقة بغداد على يد طغرل بك (فى رمضان ٤٤٧ ــ ديسمبر ١٠٥٥) وسلم اليه الخليفة العباسى مقاليد الامور ولقبه بملك المشرق والمغرب ، وقد امتد سلطانهم الى الموصل . ومد ألب ارسلان حدود الدولة حتى شملت أرمينية وآسيا الصغرى ، ثم دخلت الشام فى طاعتهم سنة ١٠٩٢/٤٨٥ بل خطب لهم فى اليمن وعدن . وبعد موت ملك شاه تنازع اولاده واتابكة الدولة على العرش ، فتفرقت الدولة وانقسمت الى دول ، وظلت على ذلك الحال حتى مجيء الصليبيين

(**) دولة سلاجقة كرمان انشأها قاورد قره ارسلان بك بن شغرى بك بن هولاكو ، وقد هاجر هذا الاخير بمن تبعه من الغز وفتح كرمان واستقر فيها وانشأ فيها هذه الدولة سنة ١٠٤١/٤٣٣ ، ثم استولى على عاصمتها بردسير واتخذها عاصمة له . وقد خضع قاورد للسلطان ألب أرسلان . وعند وفاة هذا الاخير طمع قاورد فى أن يخلفه سلطانا على الدولة السلجوقية كلها ، ولكنه انهزم وقتل . وقد أقر ألب أرسلان ابنه سلطان شاه سلطانا على سلاجقة كرمان . وقد توالت على عرش سلطنة كرمان السلجوقية سلسلة من الحكام الاقوياء اهمهم ــ بعد سلطان شاه الذى حكم حتى ١٠٨٤/٤٧٧ ــ توران شاه (١٠٨٤ ــ ١٠٩٤) ، ايران شاه (١٠٩٤ ــ ١١٠٠ أو ١١٠١) وارسلان شاه (١١٠١ ــ ١١٤٢) ومحمد شاه (١١٤٢ ــ ١١٥٦)

ـ سلاجقة الشام (*١) حكموا من سنة ٤٨٧ ـ ٥١١ هـ
٤ ـ سلاجقة العراق وكردستان (*٢) « « « ٥١١ ـ ٥٩٠ هـ
٥ ـ سلاجقة بلادالروم (آسيا الصغرى) (*٣) « « « ٤٧٠ ـ ٧٠٠ هـ

فحكمت الدولة السلجوقية على الاجمال نحوا من ثلاثة قرون ، وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين الى آخر حدود الشام

انتقال المملكة السلجوقية الى الاتابكة

وكان السلاجقة فى أيام سلطتهم يولون الاعمال أو الولايات قوادا من مماليكهم يسمونهم الاتابكة ، واحدهم أتابك ، وهو لفظ تركى معناه « الاب

وطفرل شاه (١١٥٦ ـ ١١٦٩) وبهرام شاه وأرسلان شاه (١١٦٩ ـ ١١٧٤) وتوران شاه الثانى (١١٧٤ ـ ١١٨٣) ومحمد شاه الثانى (١١٨٣ ـ ١١٨٣) وبه انتهت الدولة

(*١) فى سنة ٤٦٣/١٠٧٠ ـ ١٠٧١ دخل صاحب حلب فى طاعة الب ارسلان ، فانتقلت جماعة من جند السلاجقة من التركمان الى فلسطين يقودها اتسز بن ابق ، فاستولى على الرملة والقدس وبقية فلسطين فيما عدا عسقلان التى ظلت فى أيدى الفاطميين . ثم استولى على دمشق سنة ٤٦٨/١٠٧٦ . وقد حاول اتسز دخول مصر ، ولكن بدر الجمالى وزير الفاطميين رده عنها ، وتبعته جيوش الفاطميين فى الشام ، فتحرج مركزه واستغاث بالامير تتش بن ألب أرسلان ، فأقبل تتش ودخل دمشق ، ثم اتهم اتسز بالمروق وقتله واستولى على الشام . وقد حاول تتش الاستيلاء على حلب دون جدوى . ثم انهزم تتش امام سليمان سلطان دولة سلاجقة الروم أو آسية الصغرى ، فأسرع الب أرسلان وعين على الشام الامير آق سنقر البرسقى جد آل زنكى ، ولكن تتش عاد الى دمشق بعد موت ألب أرسلان ، وعندما مات تقسم دولته ابناه دقاق ورضوان ، فأخذ رضوان حلب وأخذ دقاق دمشق ، وقد ظلا يحكمان حتى مجىء الصليبيين

(*٢) بعد موت السلطان محمد السلجوقى عام ٥١١/١١١٨ خلفه ابنه محمود (وكانت سنه ١٣ سنة) على سلطنة دولة السلاجقة كلها ، عدا خراسان حيث كان عمه سنجر قائما بالسلطنة . وبهذا انقسمت دولة السلاجقة الى قسمين : قسم فى خراسان وما يليها غربا ، وقسم فى العراق وكرمان ، وقد عرف القسم الثانى بسلطنة سلاجقة العراق وكرمان . وخلف محمودا على السلطنة ابنه داود (١١٣١ ـ ١١٣٢) ثم طغرل الاول (١١٣٢ ـ ١١٣٣ أو ١١٣٤) ثم مسعود (١١٣٤ ـ ١١٥٢) وملك شاه (١١٥٢ ـ ١١٥٣) ومحمد الثانى (١١٥٣ ـ ١١٥٩) وسليمان (١١٥٩ ـ ١١٦١) وارسلان شاه (١١٦١ ـ ١١٧٥) وطغرل الثانى (١١٧٥ ـ ١١٩٤). وقد تولى هؤلاء جميعا السلطنة وهم اطفال ، فقام بأمورهم مربوهم أى أتابكتهم ، ولهذا تعرف الدولة بدولة الاتابكة . وقد كان التنافس شديدا على السلطان بين السلاطين واتابكتهم من ناحية ، وخلفاء بغداد من ناحية اخرى . وقد انتهى الامر بتركهم بغداد للخليفة وانتقال عاصمتهم الى همدان

(*٣) مؤسس هذه الدولة سليمان بن قطلميش بن ارسلان (وهو اسرائيل) بن سلجوق . وقد كان أبوه قطلميش من كبار رجال الدولة السلجوقية ايام طغرل بك . فلما تولى ألب ارسلان أبى الخضوع له ، وحاربه فانهزم على مقربة من الرى (٤٥٦/١٠٦٤) . وبعد انتصار ألب أرسلان على البيزنطيين فى موقعة ملاذكرد عام ١٠٧١ انتقل سليمان بن قطلميش الى آسيا الصغرى ليحاول اقتطاع جزء من أراضى الدولة العثمانية ينشىء فيه دولة له ، ففى سنة ١٠٧٧ نجده فى نيقية ، ولكنه ارتد عنها واستولى على انطاكية من الارمن (٤٧٧/١٠٨٥) ولكنه اختلف مع تتش صاحب دمشق مما اضطر ملك شاه الى التدخل ، فأقبل الى آسيا الصغرى واستصحب سليمان ابن قطلميش معه الى العراق . وعندما تولى سلطنة السلاجقة برقياروق اقبل قلج ارسلان بن سليمان ابن قطلميش الى آسيا الصغرى وهناك أنشأ امارة سلجوقية كبيرة عاصمتها قونية ، سميت بسلطنة سلاجقة الروم ، أى ارض الروم ، او سلاجقة آسيا الصغرى ، وقد عمرت هذه الدولة طويلا ومرت بها ظروف مختلفة اثناء الحروب الصليبية ما بين صعود وهبوط ، وظلت قائمة حتى قضى عليها سلاطين آل عثمان عام ٧٠٢/١٣٠٢

المراجع : المراجع عن السلاجقة كثيرة جدا ، تجد بيانا بأهمها فى ختام كل جزء من اجزاء مقال السلاجقة الذى كتبه بارتولد على الاغلب فى دائرة المعارف الاسلامية

الامير » (*) ، واستعملوه اولا بمعنى وزير ثم صار بمعنى الملك . وأخذ الاتابكة يستقلون بولاياتهم شيئا فشيئا ، حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ، الا الفرع الرومى فى آسيا الصغرى فانه ظل فى حوزة السلاجقة ، حتى اتى العثمانيون فى اواخر القرن السابع ـ واليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى الى مماليكهم الاتابكة وغيرهم وسنى حكم كل دولة منها :

١ ـ الدولة البورية	فى دمشق	من سنة ٤٩٧ ـ ٥٤٩ هـ
٢ ـ « الزنكية	« الجزيرة والشام	« ٥٢١ ـ ٦٤٨
٣ ـ ـ البكتيجينية	« اربلاء وغيرها	« ٥٣٩ ـ ٦٣٠
٤ ـ « الارتقية	« ديار بكر وماردين	« ٤٩٥ ـ ٧١٢
٥ ـ دولة الشاهات	« أرمينيا	« ٤٩٣ ـ ٦٠٤
٦ ـ أتابكة أذربيجان	« أذربيجان	« ٥٣١ ـ ٦٢٢
٧ ـ الدولة السلغرية	« فارس	« ٥٤٣ ـ ٦٨٦
٨ ـ « الهزارسبية	« لورستان	« ٥٤٣ ـ ٧٤٠
٩ ـ « الخوارزمية	« خوارزم	« ٤٧٠ ـ ٦٢٨
١٠ ـ « القطلغية	« كرمان	« ٦١٩ ـ ٧٠٣ (**)

وما زالت هذه الممالك فى حوزة الاتابكة وغيرهم من مماليك الدولة السلجوقية وقوادها حتى جاء المغول فاكتسحوها كلها واستولوا عليها

سلاجقة الروم :

أما الفرع السلجوقى الذى ظل سائدا دون سائر الفروع فهو سلاجقة آسيا الصغرى ، وهى بلاد الروم فى اصطلاح تلك الايام. على أن مملكتهم هناك تفرعت الى عدة فروع يحكم كلا منها عائلة سلجوقية صغيرة ، وهاك أسماءها مع أسماء العائلات السلجوقية التى كانت تتولاها :

ونضيف اليها ما يلى :

تاريخ البيهقى ، ترجمه من الفارسية الى العربية الدكتور يحيى الخشاب والاستاذ صادق نشأت ، القاهرة ١٩٥٧

السلوك لمعرفة دول الملوك لتقى الدين احمد بن على المقريزى ، المجلدان الاول والثانى ، قام على نشرهما الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والمجلد الثالث على وشك الظهور

أبو شامة : كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية ، بتحقيق الدكتور محمد حلمى احمد ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٦

Stevenson, Crusaders in the East. Oxford, 1930.
Stephen Runciman, The Crusades, 3 vol. Cambridge 1948-1955.

(*) الاصح : مربى الامير ، وهو مكون من مقطعين : أطا : بج

(**) هذه كلها دول تركية صغيرة لا يتسع المجال للتعليق عليها جميعا ، وكلها مذكورة فى معجم الانساب والاسرات الحاكمة لزامباور ، ترجمة زكى محمد حسن وآخرين

اسم الامارة	اسم العائلة
١ ــ ميسيا	آل كراسى
٢ ــ بيسيديا	« حميد
٣ ــ فريجيا	« كرميان
٤ ــ ليسيا	« تاكة
٥ ــ ليديا	« سروخان وأيدين
٦ ــ كاريا	« منتشا
٧ ــ بفلاغونيا	« قزل احمدلى
٨ ــ ليكونيا	« قرمان (١) (*)

وما زالت هذه الامارات فى سلطة الامراء السلاجقة حتى أتى العثمانيــون فاستولوا عليها وأنشأوا الدولة العثمانية فى أوائل القرن الثامن للهجرة

(١) Lane Poole's Moh. Dynasties

(*) ورد بيان هذه الدويلات واسماء أصحابها وامرائها والواضع التى قامت فيــها فى معجم الانساب الذى سبق ذكره ، فتراجع هناك

الـــدول الكرديـــة
فى ظل العباسيين

الدول الصغرى

الاكراد قوم أشداء واكثرهم أهل بادية وخشونة وجفاء ، يقيمون فى الخيام وينقسمون الى قبائل وعشائر وبطون ، وهم اقل قبولا للحضارة من الفــرس والترك وغيرهما من الامم الشرقية التى دانت للاسلام فى ابان التمدن الاسلامى وقد ظلوا أهل ظعن ورحلة فى معظم ذلك التمدن . وكانت الدول تستعين بهم فى الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالاعراب ، ومقامهم على الاكثر فى كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر ، ولا يزال سوادهم هناك الى الآن .

ونظرا لتمسكهم بالبداوة والخشونة لم تستخدمهم الدولة العباســـية فى أعمالها الا قليلا ، فلم ينبغ فيهم أحد من رجال الامارة المستقلة أو أهـــل السياسة والتدبير الا بعد دهر طويل من عهد ذلك التمدن . وأول من انشأ دولة كردية مستقلة فى الاسلام حسنويه بن حســين البرزكانى ، زعيم بعض قبائل الاكراد فى كردستان ، فى أواسط القرن الرابع للهجرة ، وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها ديناور (أو الدينور) وهمــذان ونهاوند وسرماج وغيرها . وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة . ولم يطل عمرها كثيرا فحكمت من ســـنة ٣٤٨ ـ ٤٠٦ هـ ثم اســتقل من الاكراد أبو على بن مروان فى ديار بكر سنة ٣٨٠ هـ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين ، وبايع خلفه للفاطميين حينا من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩ هـ .

الدولة الايوبية :

على أن الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر فى الاسلام الا على عهد الدولة الايوبية من سنة ٥٦٤ ـ ٦٤٨ ومؤسسها السلطان صلاح الدين الايوبى . وهو من أعظم رجال الاسلام تعقلا وسياسة وبسالة وتدبيرا ، أنشأ دولته على أنقاض الدولة الفاطمية بمصر وبايع فيها للعباسيين ، وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا وانقذ بيت المقدس من أيديهم ، ومآثره أشهر من أن تذكـــر . وارتفع شأن الاكراد فى أيام دولته وتولوا الامارات والولايات فى مصر والشام وكردســتان واليمن وخراسان ، ولما مات اقتسم مملكته اخوته وأولاده وأولاد اخــوته ،

ولذلك لم يطل حكمها . فغلبهم على معظمها مماليكهم الاتراك ، كماغلب الاتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم ، فكان للماليك بمصر دولتـــان تعرفان بالسلاطين المماليك كما سيجيء

ومما يحسن التنبيه اليه فى هذا المقام أن الاسلام قد أثر فى أمم المشرق تأثيرا خاصا وساقها الى التمدن تدريجا ، فتسابقت الى انشـــاء الدول وتأسيس الممالك باعتبار أسبقيتها فى الاسلام وقربها من العالم الاسلامى . فأول من أسلم من تلك الامم العرب وأسسوا الدولة الاسلامية العربية ، فاحتك بهـــم أولا الفرس وهم أقرب أمم المشرق الى جزيرة العرب فكانوا أسـبق الاعاجم الى انشاء الدول . ثم جاء الاتراك من وراء بلاد فارس ، فلما انتشر الاسلام بينهم أسسوا الدول ونظموا الحكومات . ثم ظهر الاكراد وهم أقرب من الاتراك الى العالم الاسلامى يومئذ لكنهم تمدنوا بعدهم لان الاتراك أقرب منهم الى سياسة الدول . وامتد الاسلام فى تركستان وما وراءها من بلاد التتر أو المغول فنهض هؤلاء وأغاروا على بلاد الاسلام للنهب والقتل ، لكنهم ماكادوا يحتكون بالعالم الاسلامى حتى أخلدوا الى النظام وأنشأوا الدول . ويقال نحو ذلك عن تأثير الاسلام فى المغرب ، خصوصا قبائل البربر فى شمالى أفريقيا كما تقدم (*)

(*) أشار المؤلف هنا الى ظاهرة من اعظم ظواهر التاريخ الاسلامى ، وهى اكبر دليل على ان الاسلام فى ذاته قوة حضارية كبرى ، وان فيه حوافز معينة تدفع الاجناس التى تدخل فيه الى التنظيم والترتيب وانشاء الدول ، وفى ظل الدول تنشأ الحضارات . ويلاحظ ان كل شعب دخل فى الاسلام تمثله فى كيانه واعتبر نفسه حامل لواء من الوية الاسلام ومضى ينشره فيمن يليه ، واذا نحن قارنا من دخل الاسلام على ايدى العرب بمن دخله على ايدى غيرهم لوجدنا ان العرب لم ينشروا الاسلام الا فى جزء صغير من العالم الاسلامى اليوم ، والباقى ضمته الى الاسلام شعوب أسلمت على يد العرب او غيرهم ، ويكفى ان نذكر ان الاسلام المنتشر اليوم فى افريقية (عدا مصر والمغرب وشمال السودان) وفى الهند وتركستان واندونيسيا والفيليبين يرجع الفضل فيه الى أمم بعيدة كل البعد عن العروبة ، بل لاتعرف العربية . وكل شعب يدخل الاسلام يسرع الى انشاء دولة على غرار دولة الاسلام الاولى ، وهذه الدولة هى الاداة التى تعمل على نشر الاسلام . وهذا صحيح فيما يتصل بشعوب آسيا وافريقية ، ويكفى ان نلاحظ ان شعوب المغرب كلها كانت قبل الاسلام مجرد قبائل ، فعرفت فى ظل الاسلام كيف تنشىء الدول والحضارات ، واذا كان المؤلف قد وقف طويلا عند دول المشرق فنحن نشير هنا الى دول المغرب التى أقامها البربر أنفسهم دون عون من العرب . كدولة بنى زيرى الصنهاجيين فى افريقية وهى المعروفة اليوم بتونس ، ودولة المرابطين صاحبة الفضل الاكبر فى انقاذ الاسلام الاندلسى من الضياع المبكر ثم فى ادخال الاسلام الى غربى افريقية ، ودولة الموحدين وهى من اعظم ما انشأ المسلمون من الدول حضارة وقوة ونظاما وسياسة ، وما جاء بعدها من دول المرينيين والوطاسيين والحفصيين مما يطول ذكره . والاسلام من هذه الناحية اعظم قوة معنوية تنظيمية عرفها التاريخ ، وهذه ناحية لم يتنبه لها واحد من مؤرخى الاسلام ، ولا ابن خلدون نفسه ، وهى جديرة بأن تدرس على حدة

الخلافة والسلطة

أو الدين والسياسة

لما ظهر الاسلام كان النبى رئيس المسلمين فى أمور الدنيا والدين ، وهو حاكمهم وقاضيهم وصاحب شريعتهم وامامهم وقائدهم . وكان اذا ولى أحد أصحابه بعض الاطراف خوله السلطتين السياسية والدينية ، وأوصاه أن يحكم بالعدل وان يعلم الناس القرآن . ولكنه ما لبث أن فصل بين المنصبين فيمن كان يوليهم أمور الرعية ، فبعث فى السنة الثالثة للهجرة أبازيد الانصارى وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام ، وقال لهما : « ان أجاب القوم الى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وأبوزيد على الصلاة واخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن »

على أن ذلك لم يكن قاعدة عامة ، لان الامير كثيرا ماكان يتولى الخراج والحرب والصلاة معا ، كما تولاها يزيد بن المهلب فى العراق من قبل سليمان ابن عبد الملك (١) ويقال بالاجمال ان مصالح الدولة الاسلامية بعد أن كانت محصورة فى النبى (صلعم) سياسيا ودينيا تفرعت فى أيام الخلفاء الى عشرات من المناصب ، الا الخلافة فانها ما زالت حتى الآن (حوالى سنة ١٩١٠) تشمل الرياسة فى أمور الدين والدنيا

والخلافة فى الاصل منصب دينى تولاه الخلفاء الراشدون لاتمام العمل الذى بدأ به النبى (صلعم) وهو نشر الاسلام والجهاد فى سبيله ، وكانوا يتولون أمور المسلمين السياسية أيضا لما يقتضيه الجهاد من الحرب وأسبابها، كادارة الجند وتنظيمه لحماية البلاد ، ويدخل فى ذلك ولاية الاعمال وجباية الخراج . على انهم كانوا يفعلون ذلك بصفة دينية ، اى ان كل ما يعملونه فالى الدين ينتهى الغرض منه ، فكانوا يجندون الرجال ويفتحون البلاد فى سبيل الدين . فلما انتشر الاسلام وتوطدت دعائمه وذهبت الحاجة الى الجهاد (*) جاز للرياسة الدينية أن تستقل عن السيادة السياسية ، أو

---

(١) ابن الاثير ١٠ ج ٥

(*) لم تذهب الحاجة الى الجهاد ولكن القوة عليه ضعفت . وطوال العصور الوسطى ، بل حتى القرن السابع عشر ، كان الاتراك العثمانيون يجاهدون فى سبيل الاسلام ، بل ان الجهاد هو العنصر الاساسى فى سياسة هذه الدولة . وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان أهل الشمال الافريقى يجاهدون فى البحر الابيض ، وكان الفرس والهنود والحضارمة يجاهدون جهادا سلميا فى نواحى آسيا ، وهو جهاد جليل مد رواق الاسلام حتى المحيط الهادى . وحتى الحرب العالمية الاولى كان خلفاء آل عثمان يتحدثون عن الجهاد ويحاولونه رغم عجزهم عنه . واليوم يجاهد كثير من مسلمى الهند فى نشر الاسلام فى شرق افريقية وبعض نواحى امريكا اللاتينية . والخلاصة أن الجهاد عنصر داخل فى تكوين الدعوة الاسلامية ، وهو من الناحية النظرية فرض لازم على كل مسلم

تنقسم الرياسة الى الخلافة والسلطة ، كما حدث فى النصرانية وغيرها

ولكن الارتباط بين الدين والسياسة فى الاسلام يختلف عما فى النصرانية ، لأن النصرانية انتشرت أولا فى عامة الناس ثم انتقلت الى رجال الدولة . واما الاسلام فانه ظهر أولا فى رجال الدولة وانتقل منهم الى العامة ، لأن أقدم أهل الاسلام الصحابة وهم جند المسلمين وأمراؤهم ، نشروا الاسلام فى الارض وجاهدوا فى سبيل نصرته بأنفسهم . فلما تأيد الدين وقامت دولة المسلمين ورغب الأمراء فى السلطة الدنيوية ، كان منصب الخلافة من أكبر أسباب تغلبهم ، لتأثير الدين على أذهان الناس فى تلك الايام ، فقد كانوا لايجتمعون الا تحت رايته وخصوصا فى الشرق ، ولا يزالون على ذلك حتى الآن

على أن أهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حدا فاصلا بين الخلافة والسلطة ، فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها أهل المطامع بالدهاء والقوة ، خالفوه وأبوا مبايعته ، فلما قتل على وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، لم ير المسلمون بدا من مبايعته على الطاعة كمايبايعون الملوك، لكنهم استنكفوا من أن يسموه « خليفة » أو يعترفوا له بسلطة دينية فسموه « ملكا » ، وهو يأبى الا أن يجمع الرياستين لعلمه أن الرياسة الدنيوية وحدها لاتفيده شيئا — ذكروا أن سعد بن أبى وقاص دخل على معاوية بعد أن استقر الأمر له وقال : «السلام عليك أيها الملك» فضحك معاوية وقال : «ماعليك لو قلت يا أمير المؤمنين ؟ » . فقال : « تقولها جذلان ضاحكا ؟ والله ما أحب انى وليتها بما وليتها به »

فيظهر من ذلك انهم كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء ، ويعتقدون ان بنى أمية نقلوا الاسلام من الدين الى العصبية والسيف ثم الى الملك البحت

الخلافة لازمة السلطة المطلقة

وفى اعتقادنا ان الحكم المطلق لا يتأيد ويتسع نطاقه ويطول مكثه الا بالدين أو ما يقوم مقامه . فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكتها الا وفى سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع الطامعين ، بأن تجعل لملوكها مزية على سائر الناس . واذا أريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى ، وهى أفضل الحكومات وأطولها عمرا ، والا فانها تنحل سريعا ، ويكفى لانحلالها أن يتولى شؤونها ملك قليل التدبير ناقص الاختبار فيغتصب ملكه بعض وزرائه أو قواده. واذا تدبرت تاريخ الدول الاسلامية رأيت للسلطة الدينية تأثيرا كبيرا فى طول بقائها واتساع نطاقها — اعتبر ذلك فى الدول التى نشأت فى أثناء التمدن الاسلامى من الفرس والترك

والكرد والجركس ، كالبويهيين والسلاجقة والايوبيين وغيرهم من الدول الضخمة ، فان بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة السياسة ، ولم تطل أعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية . وانظر الى الدول العربية التى جمعت بين الخلافة والسلطة ، كالعباسيين والفاطميين والامويين فى الاندلس ، مع ماطرأ عليها من أسباب السقوط ، فقد صبرت وطال جهادها. واذا نظرت الى الدول الاعجمية رايت أطولها عمراً وأوسعها ملكا الدولة التى جمعت بين السلطتين وهى الدولة العثمانية . وبنو أمية فى الشام لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على أزمة الرياسة الدينية ما استطاعوا الى الحكم سبيلا ، فانهم انما حكموا الناس وأيدوا سلطتهم بما فى الخلافة من الصبغة الدينية ، وتوفقوا الى أعوان عرفوا أن العامة لا تحكم بمثل الدين ، فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة ، وسموا الخليفة « خليفة الله » وقالوا : « خليفة الرجل فى أهله أفضل من رسوله فى حاجته » (*) كما تقدم ــ والعلماء ينكرون ذلك ولا يصدقونه ، وأما العامة فكانوا يساقون الى الطاعة بالارهاب ، رغم ما كان يعتور صحة خلافة بنى أمية من الشكوك

فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس ، وهم من بنى هاشم ومن أولى الناس بالخلافة ، كان المسلمون أطوع لهم مما لبنى أمية ، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتى السيد المسيح (١) وغرس فى أذهان الناس بتوالى الازمان ان الخليفة العباسى اذا قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات (٢)

وكان الخلفاء لايأنفون من ذلك التفخيم ، حتى الرشيد مع تعقله وانتشار العلم فى عصره ، فقد ذكروا انه كان يحتمل أن يمدح بما يمدح به الانبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده ، حتى قال فيه بعض الشعراء : «فكأنه بعد الرسول رسول » (٣) فكيف يكون حال الخلفاء فى عصر الاضمحلال، اذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ويكثر المتزلفون والمتملقون ويكتفى أولو الامر بالكلام دون الاعمال ؟

واذا شاخت الدولة تمسك أهلها بالعرض وتركوا الجوهر ، فلا غرو اذا سموا الخليفة فى أيام المتوكل « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » (٤) أو قالوا قول ابن هانىء للمعز الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار (٥)

(*) لم يقل بهذا الا نفر من المستبدين من رجال الدولة الاموية ، وقد أنكره عامة المسلمين كما رأينا

(١) ابن الاثير ١٩٨ ج ٥   (٢) الفخرى ١٢٥   (٣) الاغانى ١٨ ج ١٢   (٤) المسعودى ٢٨٠ ج ٢
(٥) ابن الاثير ٢٤٥ ج ٨

ويدل ذلك على ما كان للخلافة من المنزلة المقدسة عند عامة النـاس ، والاصل فى هذا التقديس انما هو للدين ، وتعظيم الخلافة فرع منه. ولذلك كان بين الخلفاء الاولين وعلماء الدين الاسلامى، كالحفاظ والمحدثين والفقهاء ، علاقة متبادلة وكل منهم يتقوى بالآخر — ومعنى ذلك ان الخليفـة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيـوية ، فهو أمير الناس فى السلم ، وقائدهم فى الحرب ، وامامهم فى الصلاة ، وهو قاضيهم وفقيههم كما كان النبى (صلعم) فى أول الاسلام . فلما اتسعت الفتوح ومست الحاجة الى تقسيم الاعمال بمقتضى سنة العمران ، عمد الخليفة الى انابة من يتـولى تلك الاعمال عنه . فالوالى انما هو نائب الخليفة فى العمـل الذى يتولاه ، والقاضى نائبه فى القضاء ، وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة. وقس على ذلك سائر المناصب الادارية والسياسية والقضائية ، وكذلك فى المهن الدينية ، فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون أعمالهم بالنيابة عن الخليفة . فكما يحتاج الخليفة الى نصرة العمال والقواد والقضاة فى تأييد سلطته الدنيوية ، فهو يفتقر أيضا الى نصرة الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية . ولذلك رأيت الخلفاء يقربون أهل العلم ولا سيما فى أوائل الاسلام (وهم يومئذ الحفاظ أو القراء) وكان اليهم المرجع فى حل المشكلات الدينية أو القضائية أو الفقهية ، وهى أساس الاحكام السياسية فى الدولة الاسلامية. ونظرا لتمسك العامة بالدين على الاجمال كان للفقهاء تأثير شديد فى الدولة ، فلا يقطع الناس بأمر هام الا باستفتائهم حتى فى تنصيب الخلفاء ، فاذا أنكر الفقهاء بيعة أحدهم أنكرها الناس . ولذلك كان الخلفاء يجلون العلمـاء ويقربونهم ويعولون على مشورتهم فى عصر الراشدين والدولة على سذاجتها لم يلابسها غش ولا دهاء ، فاذا نهوا الخليفة أو الامير عن عمل انتهى وأخذ بنصيحتهم

فلمـا طمـع بنـو أمية فى الخـلافة والتمسـوها من طـريق الدهـاء والبطش ، كان فى جملة ما أهملوه من قواعد الراشدين الاخذ بأقوال أهل العلم ، لأنهم لو أطاعوهم ما تيسر لهم الملك . فقاسى العلماء فى أوائل دولة الامويين عذابا شديدا من المقاومة والضغط ، فاضطر بعضهم للافتاء بما يرضى أهل الدولة وأبى البعض الآخر الا الحق ، فاضطهدوهم وضـيقوا عليهم — بدأوا بذلك من أيام عثمان والعمال يومئذ من بنى أميـة ، وقد أخذوا يمهدون السبيل لسلطانهم بجمع الاموال والاستئثار بالنفوذ . وفى حكاية أبى ذر الغفارى مع معاوية بن أبى سفيان دليل ناطق على ما كان من جراة أهل العلم على الخلفاء وانكار الامويين ذلك . وقد فصلناها فى الجزء الثانى من هذا الـكتاب

فلما استتب الامر لبنى امية حبست الافكار وتقيدت الالسنة ، ولم يتقدم من العلماء فى مناصب الدولة الا المتملقون . وبعد أن كان الخليفة لا يعمل عملا الا بمشورة فقهاء المدينة ، اغفل بنو امية المدينة وفقهاءها الا عمر ابن عبد العزيز فانه عاد الى مشورتهم . فظل الاحرار من الفقهاء فى زوايا الاهمال معظم أيام بنى أمية . فلما تسلط العباسيون واظهروا أنهم يريدون احياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين فى عهد الامويين ؛ ظهر اهل الافكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد ، وقربهم الخلفاء واكرموهم فعادوا الى جراتهم فى خطاب من يأنسون منه اصغاء ، كما فعل ذلك الرجل بالمنصور وهو يطوف — وقد أشرنا اليها أيضا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب — وكما فعل سفيان الثورى لما استدعاه الرشيد الى بغداد ليكرمه ويقربه ، فكتب اليه سفيان كتابا قال فيه : « اما بعد ، فانى كتبت اليك اعلمك انى صرمت حبلك وقطعت ودك ، وانك قد جعلتنى شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك أنك هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه وانفذته فى غير حكمه . ولم ترض بما فعلته وانت ناء عنى حتى كتبت الى تشهدنى على نفسك . فأما أنا فانى قدشهدت عليك انا واخوانى الذين حضروا كتابك وسنؤدى الشهادة غدا بين يدى الله الحكم العدل . يا هرون ! هجمت على بيتمال المسلمين بغير رضاهم .. هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل .. ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعنى العاملين) ؟ أم رضى بفعلك الايتام والارامل ، أم رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ » (١)

ودخل سفيان المذكور على المهدى مرة ولم يسلم بالامارة فلم يغضب عليه المهدى بل استعطفه (٢) وكان اكثر الخلفاء الاولين من بنى العباس اذا لقوا فقيها أو زاهدا طلبوا اليه أن يعظهم ، فاذا وعظهم بكوا حتى تخضل لحاهم . واشهر المتعظين من الخلفاء المنصور والرشيد والمعتصم والواثق ، ولهم حكايات مشهورة

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامة ، مثل توسط الامراء والقواد فى تأييد السيادة الدنيوية ، وقد يغنى الفقهاء عن الواسطتين جميعا ، لأن عامة المسلمين ينقادون الى فقهائهم ويستسلمون اليهم كما ينقاد عامة النصارى الى كهنتهم . فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون الى الفقهاء للاستعانة بهم على اخضاع العامة وامتلاك قلوبهم ، وكذلك كان يفعل السلاطين والأمراء لنفس هذا السبب أو لسبب آخر . والنفع متبادل بين الفئتين ، لأن الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالا وجاها ولكن

---

(١) الدميرى ١٨٨ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢١٠ ج ١

ما يكتسبه الخلفاء منهم أعظم وأبقى . فرسخ احترام الفقهاء في قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين

وكان الخلفاء يذعنون للعامة باسم الدين أيضا . حتى انهم كثيرا ما كانوا يضطرون الى مسايرة بعض الناس فى بعض اعتقاداتهم الدينية ، ولو كان ذلك الاعتقاد مخالفا لما فى نفوسهم أو مناقضا للواقع ، كما فعل المهدى اذ جاءه رجل بنعل زعم أنها نعل النبى (صلعم) فقبلها المهدى منه وأجازه عليها مع اعتقاده كذبه ، وانما خاف ان كذبه ان يحمل العامة قوله على الفتور فى الدين (١)

ولم يكن للخلفاء بد من اظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية ، لئلا يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك . ذكروا ان الوليد بن يزيد الاموى مع اشتهاره بالخلاعة والتهتك ، كان اذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطيبة ، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة ، فيصلى فيها أحسن الصلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود ، فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب (٢) (*)

---

(١) كتاب الاذكياء ٩ (٢) الاغانى ١٤١ ج ٦

(*) لم تعرف الدولة فصل الناحية الدينية عن الناحية السياسية كما عرفه العالم المسيحى، ففى العالم المسيحى كان السلطان السياسى هو الاصل ، وكان يمثله امبراطور الدولة الرومانية ، ثم تسربت المسيحية وانتشرت بين أهل الدولة ، وكان يمثلها رجال دين هم رؤساء الجمعيات المسيحية السرية ، ولما أصبحت المسيحية ديانة معترفا بها ايام قسطنطين ، ثم ديانة رسمية للدولة الرسمية أيام تيودوسيوس الكبير نشأت الكنائس ونظمها ، وأصبح رجال الدين هيئة ــ أو هيئات ــ رسمية تطالب بالسلطة الروحية على الناس وتقوم بالطقوس الدينية اللازمة لمناسبات الميلاد والتعميد والزواج والطلاق والوفاة وما الى ذلك ، وما زال أمر الكنيسة ينتظم حتى اصبحت سلطة كاملة لها نظامها ورجالها وأدواتها وقوانينها واموالها . وبدأ النزاع بين هذه السلطة الجديدة والسلطة الزمنية ، اى بين الكنيسة والامبراطور ، وهو نزاع شغل العصور الوسطى كلها

اما فى العالم الاسلامى فان الدولة نشأت من اول الامر كأداة للمحافظة على الدين والعمل على نشره ، اى انها نشأت فى ظل الدين ، وكان لابد ان تكون تابعة لصاحب السلطان الاعلى فى الجماعة الاسلامية وهو الرسول صلوات الله عليه او من يحل محله . غير أن الدولة التى نشأت أداة من ادوات العقيدة لم تلبث ان اتسع مداها وعظم سلطانها وتعقد تركيبها ، حتى أخذت الحيز الاكبر من اهتمام الخلفاء ، نظرا لبساطة العقيدة الاسلامية واستغنائها عن رجال يقومون على طقوسها ، ونظرا لانتشارها من تلقاء نفسها دون حاجة الى تبشير أو دعوة او وعظ ، ومن ثم فقد غلب الطابع المدنى على شؤون الدولة الاسلامية ، وتحول الخلفاء الى ملوك ، لا بارادة معاوية بل لان ذلك كان الاتجاه الطبيعى للامور ، ولا يمكن أن يقال ان خلفاء بنى العباس كانوا أكثر عناية بالدين من خلفاء بنى امية . وقد قامت بأمر الدين جماعات من أهل العلم والبحث ، فوضعوا علوم الدين والمذاهب وقواعد المعاملات ، وتألفت منهم مع الزمن جماعات الفقهاء ، ولم يكونوا رجال دين بل علماء دين . وفى خلال العصر العباسى الاول كان الخليفة يتمسك تمسكا شديدا بسلطانه الروحى على الناس ، ولهذا لم يكن للفقهاء سلطان وان كان لهم احترام عظيم ، فلما تخلى الخلفاء عن ذلك الجانب الروحى احتاجوا الى من يعطى سلطانهم جلال الدين فاحتاجوا الى الفقهاء ، وبدأ هؤلاء ينشئون لانفسهم دولة داخل الدولة ، وأصبح لابد لاعطاء اوامر رجال الدولة طابعا شرعيا من تأييدها بفتاوى ، فظهر المفتون او اصحاب الفتيا ، وكان لهم شأن عظيم فى الاندلس ، ثم فى دولة الاتراك العثمانيين ، واصبح الافتاء وظيفة ثابتة من وظائف الدول الاسلامية

فلهذا السبب كان الامراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالادارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم لايستطيعون الاستقلال عنه بالدين ، اذ لايستغنون عن بيعته (*) لتثبيت سلطانهم . فاذا أراد أحدهم الاستقلال بولاية أو فتح بلد أو انشاء امارة لنفسه ، بعث الى الخليفة فى بغداد يبايعه ويطلب منه أن يعطيه تقليدا أو عهدا بولاية ذلك البلد ، او أن يلقبه ويخلع عليه ، واذا أبى الخليفة أن يجيبه غضب وعد ذلك تحقيرا له ، وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تثبيته

فالامارات أو الممالك التى استقلت عن الدولة العباسية ، فى فارس وخراسان وتركستان وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها ، قبل قيام الدولة الفاطمية ، كان أصحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعثون اليه بمال معين فى العام ، مع انهم فى أمن من سطوته ، وانما يريدون أن يرضى العامة عن سلطانهم

وكذلك كان شأن الاجناد الاتراك وأمرائهم ، فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلا وخلعا لايجسرون على استبقاء منصب الخلافة خاليا يوما واحدا ، لاعتقادهم انه بدون الخليفة لا تستصلح العامة . حتى الملوك أو السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شيء فيها وأصبح الخليفة آلة فى أيديهم ، مثل آل بويه وآل سلجوق ، فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش ، حتى اذا ظفروا به وغلبوه بايعوه وأكرموه ورفعوا مقامه وتبركوا به . فعضد الدولة البويهى ملك بغداد واستبد بها ، وهو شيعى على غير مذهب الخليفة . وكان يغالى فى التشيع ويعتقد أن العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقيها ، فلم يكن ثمة باعث دينى يدعوه الى طاعة خليفة بغداد ، ومع ذلك فانه بايعه وعظم شأنه وأعاد من أمر الخلافة ما قد نسى ، وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثار من الآلات ، وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته وأكرمه غاية الاكرام (١)

وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يعرفون حاجة الامراء المسلمين الى رضاهم ، فاذا ساءهم أحد منهم هددوه بالخروج من بغداد ، فيضطر الى استرضائهم لان خروجهم يغضب العامة (٢) ويجرئهم على خلع الطاعة ، لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ — ولذلك لم يكن من سبيل

(*) الاصح هنا ان يقال « تأييده » لان الخليفة كان لايبايع اولئك الامراء والملوك والسلاطين ، بل يؤيدهم باعلان رسمى يرفقه بخلع خاصة تسمع الخلع الخلافية . أما المبايعة فتصدر منهم له ، أى انهم يبايعونه بالخلافة

(١) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٢١٣ ج ٩

الى نزع سلطته أو الاعتراض عليها الا من وجه دينى ، فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين، فيلبسون الصوف ويدعون الى المعروف أو يعلقون فى أعناقهم المصاحف (١) أو نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة . واذا أراد أحد الخلفاء أن يصلح ما بينه وبين العامة أصلحه بالتقوى . فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون أوصاه باظهار الورع والدين ليستميل القواد (٢) ولما رأى أبو مسلم الخراسانى أهل اليمن فى مكة قال : « أى جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة » يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء . فلم يكن للممالك الاسلامية بد من خليفة تبايعه ليثبت ملكها . وقد يستاء بعض الامراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته الا اذا رأى خليفة آخر يبايعه . فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد وبايعت للفاطميين فى القاهرة . ولما تغلب السلطان صلاح الدين الايوبى على مصر وذهبت الدولة الفاطمية منها ، فأول شىء فعله انه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسى فى بغداد ، وطلب المنشور منه والخلع عليه . وكانت الخلافة العباسية فى غاية الاضمحلال والضعف ، وهو فى غنى عن بيعتها ، ولكنه علم أنه اذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى عنه الناس

وكذلك فعل السلاطين المماليك الذين ملكوا مصر بعد الدولة الايوبية ، فانهم بايعوا للعباسيين وكانت الخلع تأتيهم من بغداد الى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم بالله توقف شأن الخلافة ، فاضطربت أحوال مصر وبذل سلاطينها جهدهم فى ايجاد خليفة يبايعونه (٣) ولو أعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحدا ليحكموا العامة به (٤) على أنهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا فى بغداد ، حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم الى القاهرة ، وفرضوا لهم الرواتب واحتفلوا بهم احتفالا عظيما ، وبالغوا فى احترامهم واكرامهم (٥) مع علمهم ان أولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئا ، ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الاسلام بالإطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسى بالقاهرة ، ويطلبون التقليد منه أو المنشور لاثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك (٦) فما الذى بعث أولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك فى أذهان العامة ؟ ولا ننكر أن بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تدينا ، ولكن الكثيرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها

---

(١) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٨ (٢) كتاب الاذكياء ٢٧
(٣) ابو الفداء ٢٢٢ ج ٣ (٤) ابن الاثير ١١٩ ج ٩
(٥) المقريزى ٣٠١ ج ٢ (٦) ابن خلدون ٥٤٣ ج ٣

ومما يستحق النظر والاعتبار أن ملوك المسلمين غير العرب ، على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم ، من الفرس والاتراك والاكراد والبربر والجركس وغيرهم ، مع ما بلغوا اليه من سعة الملك وعز السلطان ، ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم وتجتمع الرعية على طاعتهم ، لم يخطر لأحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الاسلام الى طوره الثانى ، بعد تضعضعه بفتوح المغول ، ولا ادعاها احد من العرب غير قريش. وأول سلطان غير عربى بويع بالخلافة السلطان سليم العثمانى

على أن الذين قويت شوكتهم فى عهد ذلك التمدن ، من الامراء المسلمين أو القواد غير العرب ، كانوا اذا طمعوا فى السيادة الدينية او الخلافة انتحلوا لأنفسهم نسبا فى قريش ، كما فعل أبو مسلم الخراسانى لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة ، وربما طمع فى الخلافة فانتحل لنفسه نسبا فى بنى العباس ، فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس (١)

وأما الملوك أو السلاطين الاعاجم فلما ضخمت دولهم فى أواخر العصر العباسى ، ورأوا اضمحلال الخلافة وتقهقرها تمنوا الاستغناء عنها ، ولكنهم لم يروا سبيلا الى ذلك الا ان يستبدلوها بخلافة اخرى . على أن بعضهم طمع فى النفوذ الدينى من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . وأول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسى فى أيامه أن يتزوج بابنته ، وغرضه من ذلك أن تلد ابنته ولدا ذكرا فيجعله ولى عهده ، فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب (٢) ولم يوفق الى مراده

ولما أفضت السلطة الى السلاجقة ، تقدموا فى هذا الطريق خطوة أخرى ، فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة أيضا ، ولكن على أن يتزوج السلطان طغرل بك السلجوقى ابنة الخليفة ، وهو يومئذ القائم بأمر الله ، فخطبها اليه ووسط قاضى الرى فى ذلك ، فانزعج الخليفة لهذا الطلب أيما انزعاج ، اذ لم يسبق أن يتزوج بنات الخلفاء الا أكفاؤهم بالنسب . وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شىء فى يده ، فأخذ فى استعطافه ، ليعفيه من اجابة طلبه ، فأبى السلطان الا أن يجاب . وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة ، فاضطر الخليفة الى القبول ـ فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ وهذا ما لم يجر مثله قبله ، لأن آل بويه لم يطمعوا فى ذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة فى المذهب (٣) اذ يكفى من الخليفة تنازلا أن يتزوج

---

(١) الفخرى ١٢٢ (٢) ابن الاثير ٢٨٣ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٨ ج ١٠

بنات الملوك لا أن يزوجهم بناته ، ولم ينل هذا الشرف أحد قبل طغرل بك. ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه فى السنة التالية ، قبل الارض بين يديها وهى جالسة على سرير ملبس بالذهب ، فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له ، وظل أياما يحضر علىهذه الصورة وينصرف. على انه لم يوفق لاتمام ما أراده لأنه توفى فى تلك السنة . أما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة اسلامية قبلَ العثمانيين ، فلما فتح السلطان سليم مصر وجـــد فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم ، فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣ هـ

العصر العربي الثاني

الأمارات العـــربية

والعنصـــر العـــربى

نريد بالعصر العربى الثانى (*) العصر الذى جـــدد فيه العرب سطوتهم ،

(*) لم يتحدث عن عصر عربى ثان الا المؤلف ، وهو رأى من آرائه الخاصة فى تقسيم عصور التاريخ الاسلامى ، وهو رأى جدير بالتقدير ، ولنا عليه ملاحظات : (١) لايمكن وضع هذه الدول كلها تحت عصر واحد ، فقد اختلفت أزمانها اختلافا كبيرا ، فالدولة الاموية فى الاندلس قامت فى النصف الاول من القرن الثانى الهجرى ، اى فى نفس الوقت الذى قامت فيه الدولة العباسية تقريبا ، وقامت دولتا الادارسة والاغالبة فى النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى ، فى حين قامت دول الحمدانيين والعقيليين فى القرن الرابع ، وقامت دولتا المزيديين والمرادسة فى القـــرن الخامس ، وعلى هذا فلا يمكن اعتبار ظهور هذه الدول معينا لعصر خاص ذى طابع متميز . (٢) ثم ان الكثير من هذه الدول كانت عربية بالاسم ، فى حين كان رجالها وجندها من غيرالعرب، كالدولة الفاطمية مثلا ، وهى فى هذه الناحية لاتختلف عن الدولة العباسية ، بل هذه الاخيرة أظهر عروبة واكثر اعتمادا على العرب ، ومن هنا لايجوز ان نخرج الدولة العباسية من عدادالدول العربية لمجرد ان وزراءها وكتابها وجندها ــ او اكثرهم بتعبير أصح ــ كانوا من غير العرب . (٣) ولا ينبغى أن نتصور ان آل حمدان مثلا انشأوا دولتهم انتصافا للعرب من غير العرب ، فقد كان معظم اعتمادهم على غير العرب ، وكانت أساليب ادارتهم اشبه بأساليب العباسيين والبويهيين ومن اليهم ، بل هم من حيث الادارة أسوأ الدول التى عرفها الاسلام على الاطـلاق ، فقد كان ظلمهم وعسفهم ونهبهم أموال الناس مضرب المثل . ولم يكونوا هم وبنو مرداس وبنو عقيـــل الا غاصبين للسلطان بالقوة فى ناحية من نواحى الدولة العباسية ، مثلهم فى ذلك مثل البويهيين (٤) ثم انه ليس هناك مايدعو الى تقسيم الدول الى عربية وغير عربية بحسب اصحابها ، لان هؤلاء جميعا كانوا مستمسكين بفكرة العروبة مهتمين بلغتها وآدابها ، وقد قام السلاجقة بأجل الخدمات للغة العربية بما أنشأوا من المدارس والمعاهد

وبعد هذه الملاحظات العامة نبدى ملاحظات فرعية هى : (١) لايمكن وضـــع الدولة الاموية الاندلسية والدولة المرداسية مثلا فى كفة واحدة ، فشتان بين دولة كبرى كدولة بنى امية ومشيخة قبيلة استبدت بالامر زمنا فى ناحية صغيرة من نواحى العالم الاسلامى . ولا معنى كذلك لوضع بنى دلف العجليين الى جانب الدولة الفاطمية او حتى دولتى الادارسة والاغالبة ، فشتان مابين هذه وتلك من حيث الطبيعة والقوة والاتساع والخدمات التى أدتهـــا للاســـلام والعروبة (٢) ليس صحيحا ان « العرب الذين كانوا يطمعون فى احياء العنصر العربى ويكبرون ذهاب دولة العرب فى ظل العباسيين كانوا ينزحون الى الغرب فينزلون الاندلس » لان احدا لم يهاجر من المشرق الى المغرب لهذه الغاية ، بل كان أهل الاندلس أنفسهم يرون ان الدولةالعباسية هى قلب العروبة وأصلها . (٣) ليس من المحقق ان على بن محمد صاحب الزنج قد انتحـــل الدعوة العلوية للوثوب بالدولة العباسية ، لان الثابت ان الرجل كان يقود حركة اجتماعيـــة ، حركة انصاف الزنج من الظلم الذى كانوا يقاسونه ، ولكنه هو أفسد الدعوة بسوء تصرفه وضعف تفكيره السياسى (٤) لم يقل أحد ان الآمال كانت متعلقة بالدولة الفاطمية لاحياء العنصر العربى ، فان رجال الدولة كانوا من البربر والاتراك والسودان ، ولم يكن عربا من رجالها الا قليل جدا ، اما البقية ففرس او عجم أو بربر او ترك ، وفيهم الكثير من النصارى واليهود والارمن (٥) واضح جدا ان قوله : « فالعصر العربى الثانى عبارة عن احياء العنصر العربى فى المغرب بعد انحلاله فى المشرق » لايطابق الواقع (٦) ان تفكير محمد على فى اقامة دولة عربية غير ثابت ، وربما يكون قد لجأ الى ذلك لاعطاء حركته طابعا يشد أزره امام الاتراك ، ولم يكن محمد على نفسه عربى الميول ، بل كانت طبيعتـــه التركية أغلب عليه ، وربما يكون صاحب هذه الفكرة ابنه ابراهيم ، فقد نشأ فى مصر واستعرب وأحب المصريين والعرب . وما يلاحظ من اجتهاد محمد على فى احياء اللغة العربية انما جاء نتيجة البيئة المصرية التى قامت فيها دولته ، وكان اهتمامه اول الامر موجها نحو اللغة التركية ، وكانت هذه اللغة هى اللغة الرسمية لدولته فترة طويلة ، ولكنه لم يستطع الاستمرار فى دعوته التركية ازاء ضغط العنصر المصرى العربى ، واتجاهه الى احياء ثقافته العربية

وأعادوا سلطانهم ونفوذهم فى الدولة ، بعد ان غلب الفرس على امورهم واستبدوا بهم . فقد رأيت ان شوكة العرب ضعفت بذهاب الدولة الاموية ، وتغلب الفرس فى الدولة العباسية ، حتى غلب الامين فانكسرت تلك الشوكة وتضعضع شأن العرب ، ثم جاء المعتصم فقطع أعطيتهم ومنعهم من مصالح الدولة ، فذلوا ونقموا على العباسيين ولبثوا يترقبون الفرص لاسترجاع سلطانهم ، واصبحوا ينصرون كل من يخرج على تلك الدولة فى العراق أو الشام أو مصر ، حتى الاكراد والاعراب والقرامطة ، فلم ينفعهم ذلك الا قليلا لتغلب الاتراك فى مصالح الحكومة

على ان بعض القبائل العربية تمكنت بأسباب مختلفة من انشاء امارات صغيرة فيما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين ، وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس وأجنادهم الاتراك فى القرن الرابع للهجرة ، ورأوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلدوهم ، فاستقل آل حمدان من بنى تغلب بالموصل وحلب وغيرهما من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ هـ ، وكانت دولتهم عربية أحيوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية ، أشهر امرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظمه فيه أبو الطيب المتنبى

ونشأ فى حلب فى ذلك القرن أيضا دولة عربية أخرى اسمها المرداسية ، نسبة الى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بنى كلاب من المضرية ، فحكم فى حلب هو وأولاده من سنة ٤١٤ — ٤٧٢ هـ وخلف الحمدانية بالموصل دولة بنى عقيل من كعب من المضرية فتولوها من سنة ٣٨٦ — ٤٨٩ هـ ، وظهرت فى أثناء ذلك دولة عربية رابعة عرفت بالمزيدية نسبة الى مزيد الشيبانى من قبيلة أسد، وقد أنشأوا مدينة الحلة فى العراق وحكموا من سنة ٤٠٣ — ٥٤٥ هـ

وهناك دولتان انشأهما رجال من العرب فى العصر العباسى الاول وفى بلاد غير عربية ، فالاولى أن تعدا من الدول الاعجمية ، وهما الدولة الدلفية التى انشأها أبو دلف العجلى فى كردستان ، والعلوية التى انشأها الحسن بن زيد فى طبرستان ، واذا أضفنا الى ما تقدم دولة الاغالبة التى استقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية ، ودولة الادارسة الآتى ذكرها ، بلغ عدد الدول العربية الصغرى فى النهضة العربية الثانية ثمانى دول ، هذا بيانها مع أسماء مؤسسيها ومدة حكم كل منها ، ننشرها بحسب تاريخ تأسيسها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ — الادريسية	مراكش	١٧٢ — ٣٧٥ هـ	ادريس بن عبدالله
٢ — الاغلبية	تونس وغيرها	١٨٤ — ٢٨٩	ابراهيم بن الاغلب

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
٣ ــ الدلفية	كردستان	٢١٠ ــ ٢٨٥	أبو دلف العجلى
٤ ــ العلوية	طبرستان	٢٥٠ ــ ٣١٦	الحسن بن زيد
٥ ــ الحمدانية	حلب والموصل	٣١٧ ــ ٣٩٤	بنو حمدان
٦ ــ المزيدية	الحلة	٤٠٣ ــ ٥٤٥	مزيد الشيبانى
٧ ــ العقيلية	الموصل	٣٨٦ ــ ٤٨٩	بنو عقيل
٨ ــ المرداسية	حلب	٤١٤ ــ ٤٧٢	صالح بن مرداس

غير الامارات العربية الصغرى التى ظهرت فى بلاد اليمن ، كالزيادية فى زبيد ، واليعفورية فى صنعاء ، وغيرهما

على ان هذه الدول قلما أثرت فى احياء سطوة العنصر العربى أو ارجاع شوكة العرب ، لأنها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم ، الا العلوية والادارسة . ولا حرج عليهم ، فان الفرس والترك والديلم كانوا قد استبدوا بأكثر امارات المملكة العباسية ، ورسخ فى أذهان الناس أن الدولة العباسية باقية الى رجوع المسيح ، فبات الشرق كله تحت سيطرة العباسيين، يخطب لهم ويضرب النقود باسمهم ، فاتجهت آمال العرب نحو الغرب

وكان الامويون أصحاب العصبية العربية ، وأكبر أعداء الفرس ومن جاورهم من الاعاجم ، قد انشأوا دولة عربية فى الاندلس من سنة ١٣٨ هـ سيأتى الكلام عليها . فالعرب الذين كانوا يطمعون فى احياء العنصر العربى ، ويكبرون ذهاب دولة العرب فى ظل العباسيين ، كانوا ينزحون الى الغرب فينزلون فى الاندلس أو يقيمون فى افريقيا فى ظل السيادة العربية بعيدين عن سلطة الدولة العباسية

وأكثر العرب نفورا من تلك الدولة وأشدهم بغضا لها شيعة العلويين ، لاسيما بعد أن قضى على آمالهم فى الشرق بما توخاه العباسيون من التفرد بالخلافة هناك . وكان بعض أصحاب هذه الدعوة قد فروا من وجه العباسيين نحو الغرب فى أوائل دولتهم ، فأنشأوا هناك دولة علوية عرفت بالدولة الادريسية ، نسبة الى ادريس بن عبد الله حكمت من سنة ١٧٢ ــ ٣٧٥ هـ ولم يطمع أمراؤها فى لقب الخلافة

وبقى فى الشرق جماعة من العلويين كانوا لايزالون يؤملون الفوز بشيعتهم الموالى الفرس ، فلما رأوا العباسيين غلبوهم على ما فى أيديهم بعد فتنة الأمين والمأمون واستبداد رجال الاتراك فى الدولة ومقاومتهم العنصرين الفارسى والعربى جميعا ، يئسوا من نصرة الموالى فنزح بعضهم الى المغرب تدريجا ، وظل البعض الآخر فى المشرق يترصدون ضعفا يبدو لهم من الدولة

العباسية ، فيغتنمون الفرصة للوثوب بها لايبالون بمن يستنصرون أو على من يعولون . فكانوا يقومون تارة بالفرس أو الخراسانيين ، وطورا بالاكراد أو الديلم أو غيرهم من الامم الناقمة على الاتراك ، أو الفئـات المظلومة من فساد الاحكام واستبداد الخدم ، ولم يفز أحد منهم بانشاء دولة غير الحسن ابن على فى طبرستان صاحب الدولة العلوية التى ذكرناها ، ولم يطل عمرها. وكثيرا ما كانت تلك الفئات المظلومة تنتحل الدعوة العلوية للوثوب على الدولة ، كما فعل صاحب الزنج فى العراق ، فانه أقلق راحة الدولة العباسية واجنادها وعمالها بضعة عشر عاما ، بما جمعه من اباق العبيـد والزنوج الذين كانوا يكسحون السباخ فى ضواحى البصرة والكوفة ، واستنهض سائر السودان فتركوا أسيادهم وقاموا معه فحارب الدولة فى وقائع كثيرة قتل فيها نحو ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ (١) وكانوا يفعلـون ذلك باسم الدعوة العلوية وزعيمهم دعى اسمه على بن محمد زعم انه من نسل الحسين ، وانتهت تلك الثورة بقتل الدعى وتشتت رجاله

على ان الشيعة العلوية لم يكن لها شأن يذكر ، الا بعـد ظهور الدولة البويهية الشيعية فى الشرق ، واستيلائها على بغداد واستبدادها بالخلافة . وكان الشيعة قد انشأوا خلافة علوية فى بلاد المغرب ، فاشتد أزرهم بذلك وحملوا على المشرق يلتمسون افتتـاح المملكة العباسـية ، فجاءوا مصر وفتحوها فى أواسط القرن الرابع للهجرة واقاموا فيهـا ، وكانت دولتهم ضخمة عرفت بالدولة الفاطمية وهي أكبر دول الشيعة ، وسيأتى ذكرها

وجاءت الدولة الفاطمية مزاحمة للدولة العباسـية ، وقد قام بنصرتها العرب والبربر ، وهؤلاء ينتحلون لأنفسهم نسبا فى العرب . وكانت الآمال متعلقة باحياء العنصر العربى على يدها كما كان فى صدر الاسلام ، فبايعها معظم العالم العربى يومئذ حتى فى العراق وما بين النهرين ، فان أهل الكوفة والموصل بايعوها مدة مع قربهم من بغداد عاصمة العلويين (٢) على أنهم لم يستطيعوا احياء ذلك العنصر ، لذهاب دولة آل بويه من المشرق ، وظهور الدولة السلجوقية التركية هناك ، وانتصارها للعباسيين وانتحالها مذهبها ودفاعهـا عنها ، فظلت الموازنة محفوظة بين الشرق والغرب : الاول سنى والثانى شيعى

فلما تغلب الاكراد على الدولة الفاطمية وأخرجوا مصر من حوزتها على يد صلاح الدين الايوبى ، أعادوا البيعة العباسية اليها سنة ٥٦٧ هـ ، وكان

---

(١) الفخرى ٢٢٧ (٢) ابن الاثير ٩٢ ج ٩

العنصر العربى قد ضعف بمصر قبل انقضاء تلك الدولة بمن استبد بالاحكام من الاتراك والارمن وغيرهم كما سيجىء ، فعاد العنصر العربى الى الضياع ، الا امارات صغيرة ظهرت فى جزيرة العرب ولا يزال بعضها باقيا الى الآن (حوالى سنة ١٩١٠)

فالعصر العربى الثانى عبارة عن احياء العنصر العربى فى المغرب بعد انحلاله فى المشرق ، واكبر العوامل فى احيائه الدولتان الاموية بالاندلس والفاطمية بمصر ، وكان قيامهما نهضة عربية لم يطل مكثها ولا كان لها تأثير يذكر ، ولم يقم للعرب قائمة فى الدولة الاسلامية من ذلك الحين — الا ما أبدته بعض القبائل من النهوض فى بلاد العرب أو غيرها بدعوة سياسية أو دينية ، كقيام الوهابية فى نجد والدراويش فى السودان . ولما عزم محمد على مؤسس العائلة الخديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى فى أوائل القرن التاسع عشر، أراد أن يستعين على انشائها بعصبية اسلامية ، وأقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب ، والعصبية التركية للدولة العثمانية ، فاختار عصبية العرب ، فحامت الآمال حوله ، وخصوصا بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل ، فأحيا العنصر العربى ونشط العصبية العربية بما أنشأه من المدارس والمطابع ونشره من الكتب . فكان للعرب نهضة قلما أفادته فى غرضه السياسى ، لما حال دون مطامعه من أغراض دول الافرنج فى المملكة الاسلامية ، ولكنها أفادت أهل الشرق من العرب فائدة أدبية علمية ، بتمهيد السبيل للنهضة التى نحن فيها الآن ، أما ما تتناقله الجرائد من أخبار اليمن ونجد وتمرد بعض رؤساء القبائل فلا نتوقع له نتيجة تذكر ، لأسباب عمرانية سياسية لا محل لها هنا

فالنهضة العربية فى العصر العربى الثانى الذى نحن فى صدده قلما أثرت فى احياء العنصر العربى . وقد تقلبت على كل من الدولتين الأموية فى الاندلس والفاطمية بمصر أحوال مختلفة فى سياستها وشؤون حكومتها لابأس من الاتيان على خلاصتها ، وان كانتا فى الحقيقة مقلدتين للدولة العباسية فى أكثر أحوالهما

سياسة بني أمية في الأندلس

من سنة ١٣٨ – ٤٢٢ هـ

اقتدت هذه الدولة فى سياستها بالدولة العباسية ، مثل سائر الدول التى عاصرتها أو نشأت بعدها . فمؤسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان كان شديدا مثل جده عبد الملك ، نجا من مذبحة اهله فى مجلس السفاح سنة ١٣٢ هـ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى له اسمه بدر ، لم يدخر وسعا فى انقاذه وحمايته فى اثناء ذلك الفرار ، والمسافة طويلة وأهل البلاد ناقمون على الامويين . فلما وصل به الى المغرب سعى له فى جمع الاحزاب ، فقطع مضيق جبـــل طارق الى الاندلس ، وفيها من موالى بنى أمية نحو خمسمائة رجل ، فأخبرهم بقدوم مولاه وحرضهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك ، فنصروه وجمعوا كلمة المضرية واليمنية – وجمعها صعب فى ذلك العهد . فبعد حروب كثيرة مهدوا له الدولة واستقدموه اليهم ، فدخـــل الاندلس وتولى أمورها (*) سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) ولذلك سموه الداخل

وقد حكم عبد الرحمن أولا باسم الدولة العباسية ، وخطب بها للمنصور نحو سنة ، ولم يجسر فى بادىء الرأى على انشاء خلافة أخرى مع وجود الخلافة العباسية ، لأن النبى (صلعم) واحد وخليفته واحد . وكان لعبد الرحمن ابن عم يقال له عبد الملك بن عمير بن مروان ، (**) شديد العصبية للأمويين واسع الامل فى ارجاع خلافتهم ، وكانوا يسمونه شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه ، وقدحارب فى نصرة ابن عمه حروبا ثبتت له بها الدولة ، فحرضه على قطع الخطبة العباسية ، ولما آنس منه ترددا صاح فيه : « اقطعها والا قتلت نفسى ! » فقطعها ولـكنه لم يجسر أن يسمى نفسه خليفة ، فكانوا يسمون أمويى الاندلس فى أوائل دولتهم الامراء ، ثم سموهم الخلفاء

واتفق فى أثناء ذلك ان المنصور العباسى أهان مالك بن أنس أمام المدينة ، لما علمه من افتائه بخلع المنصـــور ، لأنه كان قد بايع للعلويين ، فاغتنم

(*) الصحيح ان بدرا وموالى بنى أمية الذين انضموا اليه لم يحاربوا الا بعد ان عبر عبـد الرحمن اليهم ، فهو الذى خاض الحروب وكسب المواقع ، ولم يتول امور الاندلس الا بعد ان كابد بنفسه من الشدائد اضعاف ما كابده بدر والموالى

(**) صحته : عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الاموى (انظر ترجمته فى نفح الطيب للمقرى ، طبعة محى الدين ج ٤ ص ٥٩)

الامويون نقمة مالك عليه وقربوه منهم وأكرموه ، فانتفع كل منهما بصاحبه. فالامويون رأوا فيه اماما كبيرا ينصر دعوتهم أو يؤيدها من حيث الدين ، ويطعن فى خلافة بنى العباس . ورأى مالك فى الامويين ملجأ كبيرا وتعزية لما ذاقه من شدة بنى العباس . فشاع مذهب مالك فى الاندلس من ذلك الحين، وكانوا قبلا على مذهب الاوزاعى مثل أهل الشام . وقد نقلوا الفتوى الى رأى مالك فى أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (١) (*)

وكان عبد الرحمن هذا يقلد سياسة المنصور العباسى فى تأييد دولته (**) ، وكانا متشابهين من عدة أوجه : منها ان والدة كل منهما بربرية ، وكان عبد الرحمن مثل المنصور من حيث الشدة والعزم وضبط الامور. واتفقا فى أن كلا منهما قتل ابن أخيه ، فقتل المنصور ابن أخيه السفاح ، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية (٢) (***) وقد اقتدى عبد الرحمن بالمنصور فى سياسة الفتك والغدر لتأييد سلطانه بقتل الذين ساعدوه على تأييده ، فسخط على بدر مولاه لفرط دلاله عليه ، ولم يرع حق خدمته وصدق مناصحته ، فأخذ ماله وسلبه نعمته ونفاه سنة ١٥٦هـ الى مكان بقى فيه الى أن هلك ، كما قتل المنصور أبا مسلم الخراسانى بعد بلائه فى انشاء دولته (٣) (****) . وقتل عبد الرحمن أيضا أبا الصباح بن يحيى رئيس العرب اليمانية ، وكان قد ساعده على القيام وله فضل عليه (٤) ففعل به مثل ما فعل بنو العباس بأبى سلمة وابن كثير وغيرهما (*****) . وقام

---

(١) نفح الطيب ٧٩٩ ج ٨

(*) القصة هنا تخالف الواقع بعض الشىء ، فان مالكا أولا لم يطعن فى خلافة العباسيين ، ولكنه أفتى أهل المدينة بأن بيعة المنصور لاتلزمهم ، وانهم فى حل ان يبايعوا غيره ، ولم يكن لعمل مالك هذا صدى فى الاندلس ، وقد وقع ذلك بينما كان عبد الرحمن يؤسس دولته ، ولم ير مالك فى دولة عبد الرحمن ملجأ ، ولم يتصل به . وكان لدخول مذهب مالك الى الاندلس أسباب وظروف أخرى غير ما وقع بين مالك والمنصور ، وأصحاب الفضل فى ذلك نفر من تلاميذ مالك من أهل المغرب والاندلس ، وربما كانت مدرسة المالكيين فى مصر وامامها عبد الرحمن بن القاسم هى السبب الاكبر فى شيوع مذهب مالك فى الاندلس والمغرب

(**) هنا ايضا مبالغة ، فقد كان المنصور فاتكا لا يبقى على خصم ولا يتردد فى القتل ، فى حين أن عبد الرحمن الداخل كان أميل الى الرفق ، ولم يلجأ الى القتل الا عند الضرورة القصوى

(٢) نفح الطيب ٧١٥ ج ٢

(***) العبارة منقولة عن المقرى كما أشار المؤلف (طبعة محيى الدين ، ٣٥/٤) وقد ذكر المقرى اسم ابن أخيه المقتول هذا على الصورة التى أوردها المؤلف ، وكذلك ابن حزم فى جمهرة الانساب ، ص ٨٦

(٣) ابن الاثير ٥ ج ٦

(****) الفرق واضح فى المعاملتين ، ففى حين أن المنصور غدر بأبى مسلم وقتله شر قتلة اكتفى عبد الرحمن بابعاد بدر . وقد ذكر المقرى قصته وما دار بينه وبين عبد الرحمن من مكاتبات (نفح الطيب ، طبعة محيى الدين ، ٣٩/٤ – ٤٠)

(٤) نفح الطيب ٧٠٦ ج ٢

(*****) المقارنة هنا ايضا غير سليمة ، لان عبد الرحمن لم يغدر بأبى الصباح ، وانما غدر هذا به ، فحاربه عبد الرحمن وقتله ، فى حين أن المنصور أوقع بأبى سلمة على صورة بغيضة . انظر ، نفح الطيب ٤٨/٤

اليمانية رجال أبى الصباح يطلبون بثأره ، فأوقع عبد الرحمن بهم وأكثر القتل فيهم ، واستوحش من العرب قاطبة وعلم انهم يصحبونه على غل وحقد ، فانحرف عنهم الى اتخاذ المماليك ليتقوى بهم على أعدائه ، فبعث الى كبراء مملكته يبتاع مواليهم ، فاقتنى موالى الناس من كل ناحية ، واعتضد بالبربر فوجه اليهم فى بر العدوة على شواطىء افريقية واستوفدهم، فجاءه منهم كثيرون فأكرم وفادتهم وأحسن اليهم وقربهم ، فرغبوا فى خدمته فاستكثر منهم ومن العبيد حتى بلغ جنده من هؤلاء نحو ٤٠٫٠٠٠ رجل ، غلب بهم على أهل الاندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت دعائمها كما تأيدت الدولة العباسية بالخراسانيين

الصقالبة

ثم عمد الامويون بعده الى استخدام الخصيان الصقالبة ، وهم غلمان كان النخاسون يحملونهم من شمالى أوربا يتجرون ببيعهم فى أنحاء العالم ، وكان الاتجار بهم رائجا . والسبب فى رواجه أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا فى أوائل أدوارهم شمالى البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أواسط أوربا ، وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم (*) . فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب التى فى طريقهم ، كالسكسون والهون وغيرهم ، فتكاثر الاسرى من الجانبين . وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق ، فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى ، عن طريق فرنسا فاسبانيا الى افريقيا ومنها الى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد فى أيدى المسلمين راجت تلك التجارة. فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من السلاف والجرمان ، من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطىء البحر الاسود — ولايزال أهل جورجيا والجركس الى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع (الى ما قبل الحرب العالمية الاولى) — فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء أمامهم سوق الاغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث ، الى أن يحطوا رحالهم فى فرنسا

(*) السلاف تحريف للفظة اللاتينية Sclavus بمعنى العبد ، وقد اطلق أهل الدولة الرومانية هذه التسمية على الشعوب التى كانت تسكن شرق نهر الدنيبر ، لان تجار الرقيق كانوا يأسرون أولادهم ويأتون بهم رقيقا . واللفظة العربية « الصقالبة » انما هى اللاتينية Sclavus . والصرب تحريف للفظة اللاتينية Servus بمعنى الخادم ، وقد اطلقت هذه التسمية على ذلك الجنس كما أطلق لقب الصقالبة على الروس . وأما البوهيم فهم أهل أقليم بوهيميا من أقاليم ألمانيا ، واسمه بالالمانية Boehmen وكان اهلها يعيشون ظواعن متنقلين ، فأطلق اللفظ على كل متنقل يعيش على هواه فقيل بوهيمى . والدلمات هم اهل دلماشيا ، وهى الساحل الشرقى للبحر الادرياتى ، وهى اليوم فى يوغوسلافيا

ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يبتـاعون الذكور للخدمة أو الحرب ، والاناث للتسرى . وغلب على أولئك الارقاء انتسابهم الى الجنس الصقلى ، وكانت كلمة « سلاف » تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلب » ، ومنها « صقلبى وصقالبة » ، وأصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الابيض على الاجمال (*)

على ان عبد الرحمن الداخل قلما رغب فى الصقالبة ، وأول من استكثر منهم حفيده الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) فانه استكثر من اقتنـاء المماليك وارتبط الخيول ببابه وتشبه بالجبابرة . وهو أول من جند الجند المرتزقين بالاندلس (**) ، فجعـل المماليك من المرتزقة فبلغت عـدتهم ٥٠٠٠ مملوك ، وكانوا يسمونهم الخرس لعجمة ألسنتهم ، ثم تدرج الامويون فى استخدام الصقالبة ، حتى تكاثروا فى أيام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسى بالاتراك قبله . واستقل بنو أمية بمملـكتهم هذه فى أوربا عن سائر ممالك الاسلام فى آسيا وافريقيا ، ولم يكونوا يطمعون فى التغلب على الممالك الاخرى ، فقطعـوا علاقاتهم معها ومنعوا أهل دولتهم من الحج الى الحرمين (١) مخافة أن يقع أحد منهم فى أيدى العباسيين ، فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم ، وما أبيح لهم الحج الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوع مملكة الاندلس الى ملوك الطوائف غير العرب

ملوك الطوائف بالاندلس

وبلغت الاندلس ابان مجدها فى أيام عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠هـ وكان عاقلا كريما توفرت الثروة فى خلافته ، وكانت أيامه مثل أيام هرون الرشيد فى بغداد من حيث الرغد والرخاء . وخلفه ابنه الحكم المستنصر ، وكان محبا للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد ، وبلغت مملكة الاندلس فى أيام هذين الخليفتين الى اوج مجدها سطوة وأبهة وثروة ، وأخذ شـأن الخلافة بعدهما فى الاضمحلال ، فاستبد أهل الدولة وجندها بالاحكام ، وهم موالى الامويين من البربر والصقالبة ، كما استبد الفرس والاتراك فى الدولة العباسية (***)

(*) كان الذين يقومون بهذه التجارة اليهود خاصة ، وكانت لهم مواضع يقومون فيهـا بخصاء الرقيق أهمها مدينة فردان الحالية

(**) سبق أن ذكر المؤلف أن اول من فعل ذلك عبد الرحمن الداخل ، وهو الاصح

(١) ابن خلدون ٢٣٨ ج ١ — * والواقع لا يؤيد ابن خلدون فى ذلك

(***) لم يكن الذين تقاسموا ملك الدولة الاموية فى الاندلس ، وهم المعروفون بملـوك الطوائف ، كلهم من موالى بنى أمية من البربر والصقالبة ، بل كان أكبرهم وأهمهم من عرب الاندلس ، فكانت هناك امارات عربية (مثل بنى عباد فى اشبيلية وبنى هود فى سرقسطة وبنى جهور فى قرطبة) وأمارات بربرية (مثل بنى زيرى بن مناد فى غرناطة وبنى حمود فى مالقـة) وأمارات صقلبية (زهير العامرى فى المرية ومجاهد العامرى فى دانية والجزائر الشرقية)

وكان العرب فى مقدمة رجال الدولة وأهل العصبية ، ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة ، لأن الامويين أهل عصبية للعرب كما تقدم ، فلما استبد الصقالبة والبربر بالمناصب والاعمال أخذت شوكة العرب فى الضعف تدريجيا (*) ، حتى غلب ابن ابى عامر وزير الحكم بن الناصر على امور الدولة فى أيام هشام بن الحكم فى أواخر القرن الرابع للهجرة ، ومكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض ومنع الوزراء من الوصول الى الخليفة ، وهو عربى الاصل من اليمنية ، فأصبح يخاف الجند على نفسه ، فعمل على تفريق جموعهم فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فنكبهم بدسيسة وأخرجهم من القصر ، ثم فتك بالجند الصقالبة وأخر رجال العرب واسقطهم عن مراتبهم (**) واستقدم اليه رجالا من برابرة افريقية وزناتة وقدمهم واستعان بهم . فانكسرت شوكة العرب فى الاندلس من ذلك الحين

وما زالت الدولة هناك آخذة فى الانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وغيرهم ، بأسرع مما حدث فى الدولة العباسية ، لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بنى أمية ، ولأن العباسيين أرسخ قدما فى الخلافة لقرابتهم من النبى (صلعم) (***) فانقسمت مملكة الاندلس فى أوائل القرن الخامس

(*) لم يستبد البربر والصقالبة بالوظائف فى دولة بنى أمية بالاندلس ، وانما شاركوا فيها فقط ، وظلت الصدارة دائما للعرب أو للمنتمين الى أصول عربية ، بل كان أمراء بنى أمية وخلفاؤهم يفضلون الشاميين على غيرهم . وقد حاول عبد الرحمن الناصر ان يعلى مكانة مواليه وصقالبته على العرب ، فكانت لذلك نتائج سيئة ، فعدل عن ذلك ، وعاد العرب الى السلطان فى عهد ابنه الحكم المستنصر

(**) لم يؤخر المنصور محمد بن أبى عامرالعرب عن مراتبهم ولم يسقطهم من الدواوين ، وانما استبد بالامر من دونهم وأبقاهم الى جانبه دون عمل تقريبا ، ثم أنه لم يستخدم صقالبته فى الوظائف الكبرى ، ولم ينتفع بالبربر الا فى شئون الجيش ، ولم تنكسر شوكة العرب فى الاندلس من ذلك الحين ، وانما الذى انكسر هو جاه البيت الاموى نفسه . أما العرب فقد ظل لهم مركزهم وسط الفوضى التى عمت بعد سقوط الخلافة ، وزاد تمسك الناس بالعروبة ، بل ظلت هى العامل الوحيد السليم الذى ظل يحفظ للاندلس ، أو لما بقى منه ، قوته وتماسكه بضعة قرون

(***) كان ايمان الناس فى الاندلس بالبيت الاموى وفضله أقوى بكثير من ايمان الناس فى المشرق بالبيت العباسى ، لان بنى أمية الاندلسيين استنقذوا البلاد اول الامر من الفوضى التى شملت الاندلس خلال فترة الولاة ، التى سبقت مجىء عبد الرحمن الداخل (٧١٣/٩٣ — ٧٥٦/١٣٨) ، فقد وحد عبد الرحمن البلاد وسوى بين أهلها ووضع نظاما ثابتا صالحا للحكم السليم ، وعرف عن طريق توزيع السلطات بين العناصر المختلفة ، كيف يحافظ على التوازن بينها ، فهو لم يعهد بالوظائف والولايات الى أهل بيته كما فعل الامويون والعباسيون ، بل أبعد آله عن مراكز الادارة الفعلية ، ولم يعهد فى الامور الى وزير واحد ، بل الى عدد من الناس ، كان فيهم العربى والمولى والبربرى والمولد ، وهو نفسه لم يسم أولئك الرجال وزراء ، بل جد لقب الوزارة فيما بعد ، وجعل لكل منهم اختصاصا ، ومن هنا فلم يستبد أحد بسلطان مطلق كما كان الحال مع وزراء العباسيين ، وأصبح من اليسير ابعاد من يراد ابعاده منهم عن الادارة أو اسقاطه عنها بأمر من الامير

وقد أكمل الذين أتوا بعد عبد الرحمن بناء الادارة على الاسس التى وضعها ، فأصبح كبار الموظفين هؤلاء وزراء ، ثم ميزوا واحدا منهم بلقب الحاجب ، فأصبح شبيها برئيس الوزراء. والى جانب ذلك لم يفصل الامويون بين الادارة والجيش ، فلم يعد هناك قواد متخصصون فى قيادة العسكر ، بل كان يقود الجند واحد من الوزراء يختاره الامير ، ولم تكن هناك قيادة عامة للجيش ، وانما كانت هناك قيادة للحملات ، أما رياسة الجيش فكانت للامير نفسه ، ومن هنا

للهجرة الى امارات تولاها أصحاب الاطراف والرؤساء ، وفيهم العرب والبربر

لم يتسع المجال لاحد من القواد ليستبد بالدولة كما حدث فى الدولة العباسية ، ولم يصبح الجند سادة الدولة ولم يعد لقادتهم هذا السلطان الخطر الذى صار لقادة الجند فى الدولة العباسية . والى جانب ذلك استعان الامويون فى الاندلس بالفقهاء على صورة أحسن وأحكم مما حدث فى المشرق ، فاختاروا عددا منهم يشاورونهم فى الاحكام ، وأطلقوا على كل منهم لقب فقيه مشاور ، ولم يجعلوا منهم مع ذلك هيئة ذات كيان ، بل كانوا يشاورون من يرون مشاورته منهم دون تفريق ، ومن هنا أصبح هؤلاء الفقهاء المشاورون قوة معنوية دينية كبرى دون أن يكونوا « سلطة » يخشى خطرها ومنافستها ، واستطاع الامراء أن يستخدموا هذه « القوة » فى موازنة قوى الاداريين والعسكريين دون أن يخشوا سلطانها أو حرص أفرادها على السلطان ، واذا ظهر من بين الفقهاء رجل ممتاز له شخصية وعلم ونزوع الى السلطان اعتبروه رئيس المشاورين او رئيس الفتيا ، وربما سمى الشيخ الرئيس دون تعيين او تقليد رسمى بذلك ، فأصبح أولئك الفقهاء سلطة معنوية كبرى تؤيد العرش وتضمن له ولاء الجمهور وتوازن سلطة الاداريين والعسكريين ، ثم ان أولئك الفقهاء عملوا على القضاء على كل مذهب مخالف لمذهبهم ، حرصا على مصالحهم ، وكانوا مالكية ، فلم يعد فى البلاد مذهب آخر مخالف لهذا المذهب ، وايد الامراء الفقهاء فى ذلك لما فيه من توحيد الراى فى البلاد ، أى أن سياسة الامراء ضمنت توازنا طيبا بين القوى وتوحيدا بين صفوف الشعب ومكنت لهم من أن يمسكوا بالزمام ، فأصبحوا سادة منفردين بالسلطان دون استبداد ، آمنين من المخاوف الكثيرة التى أفسدت على العباسيين أمورهم ، ولم يعودوا يخشون الوزراء أو القواد ، ولم يجدوا أنفسهم مضطرين الى نكبة وزير او الى مصادرته الا فى النادر ، واصبحوا فى نظر الجميع ميزان البلاد ورمز الوحدة وضمان العدالة ، فأيدهم الجميع وآمن بهم الشعب وسارت الامور سيرا طيبا

وما دام السلطان موزعا على هذه الصورة ، فان عمال الدولة الذين يلون الوزراء والقواد لم تتلاش شخصياتهم وينعدم سلطانهم كما كان الحال فى المشرق ، وأصبح لكل منهم سلطان وهيبة وضمان ، فقاضى قرطبة مثلا كان المفروض ان يكون من اتباع رئيس الفتيا ، ولكنه رغم ذلك كان شخصية ممتازة لها وزنها وقوتها وسلطانها ، وبينما كان رجال مثل أبى يوسف وأحمد بن أبى دؤاد مستبدين بشؤون القضاة استبدادا تاما فى الدولة العباسية ، فتلاشت أهمية قضاة بغداد وغيرها من العواصم ، نجد قاضى قرطبة ممن يجالسون الامير فى الاندلس ، فيشاورهم ويشاورونه ، وربما اختلفوا مع رئيس الفتيا او مع فقهاء المشيخة ، فيحتكم الى الامير فينصره ويعززه ، مما جعل للقضاء فى الاندلس هيبة وجاها لا تقاس بهما هيبة قضاة بغداد وجاههم ، بل كان قضاة النواحى فى الاندلس ذوى سلطان وهيبة لا يستطيع عامل الناحية ان يستبد بهم او يفرض عليهم سلطانه ، وكان باب الامل مفتوحا لهم على الدوام . بل ان رؤساء أهل الذمة ــ وهم المسمون فى الاندلس بالقوامس (جمع قومس) ــ كانوا متصلين بالامراء اتصالا مباشرا ، فلا يظلمهم عامل او يستبد بهم وزير ، وكان لهم مركز لايقل عن مراكز الوزراء ، وقد احترمهم الامراء وقدروهم ، لانهم كانوا يضمنون ولاء من يتبعهم من أهل الذمة ، ومن هنا ، وعلى الرغم من كثرة الذميين فى الاندلس ، والنصارى منهم بصفة خاصة ، لا نسمع عن مضايقات كهذه التى كانت تصيبهم فى المشرق ، من الزامهم بلباس معين أو سلوك خاص ، وكانت العلاقات بينهم وبين المسلمين علاقات ود وصداقة ، بل حدث فى كثير من الاحيان ان كانوا أوفى لاخوانهم المسلمين من المسلمين أنفسهم . والادلة على ذلك كثيرة . وكان الذميون جميعا يعلمون تماما أن سلامتهم وضمان مصالحهم متوقفان على قوة الامير وثبات البيت المالك

لذلك كله كان للبيت الاموى فى الاندلس مركز معنوى يختلف اختلافا تاما عن مركز العباسيين فى المشرق ، فبينما كان الولاء الروحي الحقيقي للمسلمين فى المشرق مع العلويين وولاؤهم الظاهرى للعباسيين ، نجد ان الولاء كله فى الاندلس كان للامويين ، فهم رمز العروبة والاسلام وضمان الوحدة والعدالة ، وميزان القوى والسلطات ، ومن هنا فاننا نجد أهل الاندلس مخلصين للبيت الاموى اخلاصا صحيحا عميقا ، وقد تمكن هذا الاخلاص فى قلوبهم بفضل السياسة الرشيدة التى سار عليها الامراء والخلفاء . وعندما استبد المنصور محمد بن ابى عامر بالسلطان دون الخليفة هشام المؤيد ظل الشعب ينظر اليه على أنه غاصب لابد أن يزول ، وكان هذا أكثر ما أخاف ابن ابى عامر ودفعه الى محاربة العمد التى قام عليها سلطان بنى أمية من فقهاء ووزراء ورجال ادارة وعسكريين ، فاضطهدهم واستبد بالامر من دونهم وارهبهم بجنده المرتزق الذى أتى به وجله من زناتة المغرب ، وقد انتهت سياسته الى تحطيم الوحدة وايجاد عنصرين قويين متخاصمين متنافسين : الاول عنصر الاندلسيين مابين عرب وبربر قدماء وأندلسيين أسلموا

والموالى ، فتغلب كل انسان على ما فى يده ، فصاروا دولا صغيرة متفرقة ، ولذلك سموا ملوك الطوائف . وهاك أشهرهم مع اسماء اماراتهم :

اسم الدولة	اسم المملكة	مدة الحكم
بنو حمود	مالقة والجزيرة (*)	٤٠٧ ـ ٤٤٩ هـ
بنو عباد	اشبيلية	٤١٤ ـ ٤٨٤
بنو زيرى	غرناطة	٤٠٣ ـ ٤٨٣
بنو جهور	قرطبة	٤٢٢ ـ ٤٦١
بنو ذى النون	طليطلة	٤٢٧ ـ ٤٧٨
العامريون	بلنسية	٤١٢ ـ ٤٧٨
بنو هود التجيبيون	سرقسطة	٤١٠ ـ ٥٣٦ (**)

واستعربوا واهل ذمة احتفظوا بدينهم وان استعربوا لسانا وفكرا وأسلوب حياة ، والثانى عنصر البربر الجدد ومن انضم اليهم من جند ابن ابى عامر من صقالبته الذين اتى بهم . ثم انه اجتهد فى القضاء على كل من خاف منافسته من امراء البيت الاموى ، فلم يبق الا الضعاف والعاجزين عن الادارة والحكم

وعندما مات ابن ابى عامر سنة ١٠٠٣ ميلادية وخلفه ابنه عبد الملك لفترة قصيرة انتهت سنة ١٠٠٩ وأراد ابنه الثانى عبد الرحمن الملقب بشنجول ان يسير على سيرة ابيه وأخيه انفجرت الثورة فى قرطبة ، ووقف العامريون مابين بربر وصقالبة ورجال ادارة وجها لوجه أمام الشعب الكاره لهم ، وقد حاول الشعب ان يجد اميرا أمويا يعهد اليه فى الخلافة فلم يوفق ، وانتهز عمال النواحى والاطراف الفرصة فاستبدوا بنواحيهم ، وتقسمت الدولة الى امارات متنافسة متعادية هى التى تعرف بممالك الطوائف ، وتفككت وحدة الدولة تفككا تاما بزوال العامل الرئيسى فى الوحدة ، وهو البيت الاموى . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل ولاء الناس متجها الى البيت الاموى؛ فخلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ظلت القلوب كلها متجهة نحو بنى أمية، وظل الناس يحلمون بعودتهم الى السلطان ويتحسرون على أيامهم ، بأكثر مما نجد فى المشرق نحو العباسيين ، وكل كبار كتاب الاندلس خلال هذا القرن وما جاء بعده أمويون فى نزعاتهم ، كما نجد عند ابن حيان وابن حزم وابن بسام وابن خاقان ، بل ان عبد الله بن العربى وهو من فقهاء القرن السابع الهجرى اموى النزعة والميول ، وفى كتابه « العواصم من القواصم » دفاع مجيد عن بنى أمية ، المشارقة منهم والمغاربة . وفى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) نجد المقرى يتحسر على ايام بنى أمية ، ويجعل من « الروانية » اسطورة عاطفية يفرد لهـا صفحات بعد صفحات

(*) كان لبنى حمود فرعان ، احدهما فى مالقة (١٠٣٥ ـ ١٠٥٧) والثانى فى الجزيرة الخضراء (١٠٣٥ ـ ١٠٥٨)

(**) أوجز المؤلف هنا بيان ملوك الطوائف فى الاندلس ايجازا شديدا ، فرأيت أن آتى بأهمهم هنا بصورة أوفى :

اشبيلية

بنو عباد ٤١٤ ـ ١٠٢٣/٤٦٣ ـ ١٠٧٠

قرطبة

بنو جهور ٤٢٣ ـ ١٠٣١/٤٦٣ ـ ١٠٧٠

مالقة

بنو حمود ٤٢٧ ـ ١٠٣٥/٤٤٩ ـ ١٠٥٧

ولم تطل سيادة هذه الدول كما رأيت ، فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم الموحدين ، وظل الانقسام متتابعا بين تلك الممالك ، والخصام متواليا والافرنج يغتنمون ضعفهم وانقسامهم ، ويسترجعون اماراتهم واحدة بعد واحدة وبلدا بعد بلد ، حتى غلبوا على المسلمين وأخرجوهم من الاندلس . وآخر مدينة افتتحها الافرنج من تلك المملكة غرناطة ، وكانت فى حوزة بنى نصر نسبة الى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩ هـ ، توالى عليها منهم بضعة وعشرون ملكا ، آخرهم أبو عبد الله محمد بن على ، فاستخرجها

الجزيرة الخضراء
بنو حمود ٤٢٧ ـ ١٠٣٥/٤٥٠ ـ ١٠٥٨
غرناطة
بنو زيرى بن مناد الصنهاجيون ٤٠٦ ـ ١٠١٥/٤٨٣ ـ ١٠٩٠
وليـة (Huelva)
البكريون ٤٠٢ ـ ١٠١١/٤٤٣ ـ ١٠٥١
بطليوس (Badajoz)
بنو الافطس ٤٥٨ ـ ١٠٦٥/٤٨٧ ـ ١٠٩٤
طليطلة
بنو ذى النون ٤٢٨ ـ ١٠٣٦/٤٧٨ ـ ١٠٨٥
سرقسطة
استبد بها أول الامر منذر بن يحيى التجيبى ، ثم انتزعها منه بنو هود ٤٣١ ـ ١٠٣٩/٥٠٤ ـ ١١١٠
السهلة
وتسمى أيضا سهلة بنى رزين أو شنتمرية الغرب ٤٠٢ ـ ١٠١١/٤٩٧ ـ ١١٠٣
بلنسية
استبد بها أول الامر مبارك ومظفر من صقالبة العامريين ثم صارت أمورها الى :
بنى عبد العزيز العامريين ٤١٢ ـ ١٠٢١/٤٥٨ ـ ١٠٦٥
ثم انضمت الى طليطلة ٤٥٨ ـ ١٠٦٥/٤٦٨ ـ ١٠٧٥
ثم عادت الى العامريين ٤٦٨ ـ ١٠٧٥/٤٧٨ ـ ١٠٩٤
دانيـة
أبو الجيش مجاهد العامرى وبنوه ٤٣٢ ـ ١٠٤٠/٤٦٩ ـ ١٠٧٦
ثم انضمت الى امارة سرقسطة ، ثم دخلت فى طاعة المرابطين ، وعاد بنو هود الى السلطان فيما بعد فى سرقسطة ، ٤٦٩ ـ ١٠٧٦/٤٨٤ ـ ١٠٩١
مرسية
موالى العامريين ٤٠٧ ـ ١٠١٦/٤٧١ ـ ١٠٧٨
المرية
خيران ومظفر العامريان ١٠٢٨/٤١٩
ثم انضمت الى بلنسية ٤٣٠ ـ ١٠٣٨/٤٣٣ ـ ١٠٤١
ثم استبد بها بنو صمادح ٤٣٣ ـ ١٠٤١/٤٨٤ ـ ١٠٩١
وكان هناك أمراء طوائف صغار غير هؤلاء ، ضربنا صفحا عن ذكرهم لان اماراتهم صارت الى غيرهم . وقد صارت امارات الطوائف ـ عدا سرقسطة ـ الى المرابطين ، وعدا طليطلة فقد استولى عليها الفونسو السادس ملك قشتالة سنة ١٠٨٦

الافرنج من يده سنة ٨٩٧ هـ وفر أبو عبد الله ، وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالاندلس (*)

(*) مر المؤلف مرورا سريعا بما كان بعد ملوك الطوائف فى الاندلس ، ولم يتسع امامه المجال للكلام على دولتى المرابطين والموحدين وهما من اعظم دول الاسلام ، ولا يتسع مجال التعليق هنا أيضا للتحدث عن هاتين الدولتين كما ينبغى ، وكذلك لم يتحدث عن أصحاب غرناطة وهم بنو نصر أو بنو الاحمر ، ويستطيع القارىء أن يجد تفاصيل عن هذه الدول الثلاث فى المواد الخاصة بها فى دائرة المعارف الاسلامية ، وقد ألف فى تاريخ المرابطين الاستاذ خاثنتو بوش فيلا J. Bosch Vilà مؤلفا طيبا مختصرا بالاسبانية بعنوان المرابطين « Almoravides » صدر سنة ١٩٥٧ . وألف المستشرق الاسبانى أمبروزيو هويثى ميراندا Ambrosio Huici y Miranda مؤلفا ضخما عن الموحدين بالاسبانية صدر منه الى الآن جزآن بعنوان Los Almohades . أما بنو نصر فقد تحدث عنهم فى ايجاز الاستاذ محمد عبدالله عنان فى كتابه « نهاية الاندلس » وهو يطبع الآن طبعة جديدة ، وتوفر على دراسة تاريخهم الدكتور أحمد مختار العبادى ، وكتب بحثا قيما بالاسبانية عن « محمد الغنى بالله سلطان غرناطة وعصره » ولم ينشر بعد ، وكتب عن الموحدين ايضا الدكتور سعد زغلول فؤاد وبحثه الرئيسى بالفرنسية عن « ابى يعقوب المنصور الموحدى » . ويجد القارىء ايجازا لتواريخ دول المغرب (أى ما يسمى عادة بمراكش) من الفتح الى اليوم فى كتاب الاستاذ محمد بن عبد السلام عبود « تاريخ المغرب » جزآن ، تطوان ١٩٥٧ . وكتبه كتابا مختصرا فى تاريخ تونس السيد الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب . ونضيف تعليقا على ما ذكره المؤلف أن آخر ملوك غرناطة أبا عبدالله محمد بن على لم يفر ، بل سلم البلد الى فرناندو وايزابلا ملكى قشتالة وأرغون وسار الى أندرش حيث لبث بعض الوقت ثم استأذن فى الانصراف الى المغرب ، ولجأ الى بنى مرين ، وتجد تفصيل ذلك فى الجزء الاول من « أزهار الرياض فى أخبار عياض » للمقرى

الدولة الفاطمية

من سنة ٢٩٧ – ٥٦٧ هـ

الشيعة فى المغرب

قد علمت حال الشيعة فى أيام بنى أمية بالشام وما قاسوه من القتل والصلب ، ثم ما كان من حالهم فى الدولة العباسية ، وخصوصا فى أيام المنصور والرشيد والمتوكل ، من الاضطهاد والقتل ، فحملهم ذلك على الفرار الى أطراف المملكة الاسلامية ، فهاموا على وجوههم شرقا وغربا كما تقدم. وكان فيمن جاء منهم نحو الغرب ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ، أخو محمد بن عبد الله الذى بايعه المنصور ثم نكث بيعته (*) . فأتى ادريس مصر وهى يومئذ فى حوزة العباسيين ، فاستخفى فى مكان أتاه اليه بعض الشيعة سرا ، ومنهم صاحب البريد فحمله الى المغرب فى أيام الرشيد ، فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه ، فأنشأ دولة فى مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ – ٣٧٥ هـ ، على ان هؤلاء لم يسموا انفسهم خلفاء

أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية ، نسبة الى فاطمة بنت النبى (صلعم) لأن أصحابها ينتسبون اليها، وتسمى أيضا الدولة العبيدية نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدى . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور فى المشرق على يد بنى بويه فى أواسط القرن الرابع للهجرة

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها فى المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون فى التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها ، فأشار بعضهم على معز الدولة البويهى أن ينقل الخلافة الى العبيديين أو لغيرهم من العلويين ، فاعترض عليه بعض خاصته قائلا : « ليس هذا برأى . فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ، لو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ،

(*) لم يبايع المنصور لادريس بن عبد الله بن الحسن ، لان ادريس كان صغيرا وقت الدعوة السرية لاهل البيت خلال العصر الاموى ، وكان يحجبه عن الترشيح للخلافة أبوه عبدالله . واذا كان المنصور قد بايع أحدا ، فيكون ذلك لمحمد بن الحسن المعروف بالنفس الزكية . ويقال ان محمدا هذا تنازل عن حقه فى الخلافة للعباسيين قبل موته كما سبق أن رويناه . أما الذى تصدى للقضاء على الادارسة فهو هارون الرشيد ، وقد حاول ذلك ولم يوفق ، ويقال انه بعث من قتل ادريس الاول بالسم ، وذلك غير ثابت ، ثم بايع أهل المغرب لادريس الثانى ابن ادريس الاول سنة ١٧٧ هـ وقد اتصل ملك الادارسة فى المغرب الاقصى حتى سنة ٣٠٥ هـ . وكان الذى قضى على دولتهم مصالة بن حبوس المكناسى قائد الفاطميين

ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معز الدولة عن عزمه (١)

على أن الشيعة اعتزت فى الشرق بهذه الدولة ، وأحيا البويهيون كثيرا من الاحتفالات الدينية الشيعية ومنها عاشوراء تذكار مقتل الحسين (٢) وحملوا الخليفة على أن يخطب لعضد الدولة فى بغداد ، أى أن يذكر اسمه فى الخطبة ، فخطب له وهو أول من خطب له فيها • فوقع التحاسد بين الاتراك والديلم هناك ، ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين ، والترك يمثلون السنة والديلم أو الفرس يمثلون الشيعة • فحمل الاتراك أهل بغداد على الاحتفال ببعض الاعياد عكس احتفال الشيعة (٣) نكاية بهم

الشيعة فى مصر

على أن ظهور الشيعة فى الشرق هون على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها ، وكانت قصبتها قبلا مدينة المهدية بافريقية وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن على ، وللمؤرخين فى انتسابهم اليه أقوال متناقضة ، فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم • ويغلب فى اعتقادنا صحة انتسابهم اليه ، وأن السبب فى وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصغيرا لشأنهم (٤)

والمصريون كانوا يحبون عليا من صدر الاسلام ، وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ، ولكن قلما كان لهم شأن فى الشيعة العلوية ، لأن العلويين استنصروا أولا أهل العراق وفارس كما تقدم • فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس ، وقتل محمد بن عبد الله الحسنى وبعض أهله وفر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية ، كان فى جملتهم على بن محمد بن عبد الله فجاء مصر بأمر دعوته بعض رجال الشيعة ، لكنه ما لبث أن حمل الى المنصور واختفى (٥)

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء ، بتقلب أحوال الخلفاء فى بغداد ، فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس ، فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل أبى طالب الى العراق فأخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ، ولما قدموا الى العراق أرسلوهم الى المدينة واستتر من بقى فى مصر على رأى العلوية ، لان عمال المتوكل كانوا يبالغون فى اظهار الكره للشيعة تزلفا للخليفة — يحكى أن رجلا من الجند اقترف ذنبا أوجب جلده ، فأمر يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذ بجلده ، فأقسم الرجل عليه بحق الحسن والحسين الا عفا

---

(١) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٢١٦ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٦٥ ج ٩
(٤) المقريزى ٣٤٩ ج ١ (٥) المقريزى ٢٣٨ ج ٢

عنه فزاده ثلاثين ضربة · ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر ، فورد كتابه الى العامل أن يضرب الجندى المذكور مائة سوط فضربه · وتتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين ، فعلم برجل منهم له دعاة وأنصار فقبض عليه وأرسله الى العراق مع أهله وضرب الذين بايعوه

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتب الى عامله بمصر أن لا يضمن علوى ضيعة ولا يركب فرسا ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطراف مصر ، وأن يمنعوهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد· واذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمه فيه بغير أن يطالب ببينة · فقاسى العلويون عذابا شديداً بسبب ذلك

ولما استقل أحمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤هـ اضطهد الشيعة لأنه تركى ولأنه على رأى الخليفة العباسى ، فاقتص آثار العلويين وحاربهم مرارا· حتى اذا ضعف أمر بنى طولون بمصر واختلت أحوال الدولة العباسية فى بغداد وتغلب آل بويه عليها فى القرن الرابع للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى · فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٨هـ بقيادة جوهر الصقلى كانت الاذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ، ففتح جوهر مصر على أهون سبيل وخطب فيها للعلويين وأقام شعارهم وأزال شعار العباسيين، وبنى مدينة القاهرة وانتقل اليها مولاه المعز لدين الله ، وتوالى من دولة الفاطميين بمصر عشرة خلفاء ، وجملة خلفائهم منذ أنشأوا دولتهم فى افريقية الى انقضائها بمصر ١٤ خليفة حكموا من سنة ٢٩٧ ـ ٥٦٧ هـ وانتقلت مصر منهم الى الاكراد الأيوبيين

سياسة الدولة الفاطمية

ان الفاطميين من جملة الدول الاسلامية التى قلدت الدول العباسية فى نظام حكومتها وسائر شؤونها ، الا مايتعلق منها بالدين فانهم أيدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من ايثار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال أئمتهم· فألف يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى كتابا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، وبوبه على أبواب الفقه فبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخارى ، وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية· وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها فى نشر هذا الفقه بين المسلمين ، حتى كان الوزير المشار اليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة ، وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والادباء · وجعله مرجع القضاء فى الفتوى ، وأفتى الناس به ودرسوه فى الجامع العتيق (جامع عمرو) وعمل الخلفاء على ترغيب الناس فى حفظه بالبذل والعطاء ، فأجرى العزيز بالله على ٣٥ رجلا من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه أرزاقا تكفيهم ،

فضلا عما كان يصلهم من مال العزيز بالله فى الصلات السنوية ، وأمرهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر ، وكان يخلع عليهم فى عيد الفطر ويحملهم على البغال ترغيبا لهم فى نشر فقه الشيعة وتعاليمهم ، وأجلسوا أناسا فى قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس ، لأنه بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة ، لارتباط السياسة بالدين كما قدمنا • وتعقبوا من يطالع غير ذلك الكتاب وشددوا فى عقابه ، فاتفق أنهم عثروا على رجل وجدوا عنده كتاب الموطأ لمالك ، فضربوه وطافوا به فى المدينة • وكان يعقوب الوزير المذكور يهوديا وأسلم ، وخدم الدولة الفاطمية خدمات جزيلة فى تأييد دعوتهم كما رأيت ، فلا عجب اذا عاده العزيز فى مرضه وقال له : « وددت لو أنك تباع فأبتاعك بملكى » (١)

وتمشى سائر الخلفاء الفاطميين على هذه الخطة فى نشر مذهب الشيعة ، فأنشأ العزيز والحاكم دور الكتب للمطالعة والنسخ لنشر كتبهم ، ولما تولى الخليفة الظاهر سنة ٤١١ هـ أخرج من كان فى مصر من الفقهاء المالكية وغيرهم . وشددوا الاوامر على الناس أن يحفظوا كتاب «دعائم الاسلام» و «مختصر الوزير » وجعلوا لمن حفظ ذلك مالا (٢) ومن مقتضيات فقه الدولة الفاطمية فى المواريث توريث ذوى الارحام ، فالبنت عندهم اذا انفردت استحقت المال بأجمعه (٣) تأييدا لحقهم فى وراثة الخلافة ، لأنهم ينتسبون الى فاطمة بنت النبى وهى منفردة بالارث (*)

أدوار الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية فى ثلاثة أدوار تشبه الادوار التى مرت بها الدولة

---

(١) ابن الاثير ٣٢ ج ٩ (٢) المقريزى ٣٥٥ ج ١ (٣) المقريزى ١١١ ج ١

(*) بسط القول فى الدعوة الفاطمية ومراتبها ومراكزها الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه « فى أدب مصر الفاطمية » (القاهرة ١٩٥٠) ص ١٩ وما يليها ، وبين كيف أن الفاطميين وضعوا نظاما محكما للدعاية لمذهبهم ، فألف خلفاؤهم الكتب الرئيسية فى المذهب ، وحفزوا رجالهم على وضع الكتب فيه ، ثم رتبوا الدعاة مراتب ودرجات ، وجعلوا لكل ناحية من نواحى الدولة الاسلامية داعيا رئيسيا يتبعه دعاة يسيرون جميعا وفقا لخطة مقررة ويجرون فى الدعوة على منهج ثابت ، وأنشأوا للدعوة مراكز خاصة فى المساجد ، وخصصوا مكانا خاصا فى القصر لقراءة كتب الدعوة وتفسيرها ، وأنشأ الحاكم فى سنة ٣٩٥ دارا خاصة سماها دار العلم ، « وقد حمل الى هذه الدار الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعا قط لملك من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ، فجلس فيها المنجمون وأصحاب النحو واللغة والاطباء .. » الى آخره ، نقلا عن خطط المقريزى (٢/٣٣٤) وجعل على رأسها عبد العزيز بن محمد بن النعمان قاضى القضاة • وأفاد الدكتور محمد كامل حسين فى هذه الناحية من مقدمة كتاب «ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة » و « راحة العقل » لاحمد حميد الدين الكرمانى و « سيرة الاستاذ جودر » ، وكلها كتب قيمة تلقى ضوءا كاشفا على الدعوة الفاطمية وأصولها وأساليبها • وتحدث عن الموضوع أيضا الدكتور عبد المنعم ماجد فى مقدمة « الرسائل المستنصرية » التى نشرها (القاهرة ١٩٥٣) ، وكذلك الدكتور جمال الدين الشيال فى مقدمة « اتعاظ الحنفا » للمقريزى

العباسية ، فقد رأيت أن نفوذ الكلمة فى الدولة العباسية كان فى أوائلها مشتركا بين العرب والفرس ، ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر ، فكان النفوذ فى أولها مشتركا بين هـذين العنصرين ، ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك

والبربر قوم أشداء ، مساكنهم فى شمال أفريقية ، وقد نصروا الشيعة العلوية فى المغرب كما نصرها الفرس فى المشرق (*) وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل ، وقد قاسى المسلمون فى اخضاعهم عذابا شديدا ، لانهم ارتدوا عن الاسلام اثنتى عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين ، ولم يثبت اسلامهم الا فى أيام موسى بن نصير فى أواخر القرن الاول (**) . ولما نقم الناس على بنى أمية لتعصبهم على غير العرب كان البربر فى جملة الذين خرجوا عليهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ، ولكن ساءهم انتقالهـا الى الاندلس على مقربة منهم ، لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين نكاية فيهم ــ الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال (***) وللبربر فضل كبير فى نشر الاسلام فى أواسط أفريقية ، مثل فضل الاتراك فى نشره فى أواسط آسيا الى الهند والصين ، لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم فى أفريقية الغربية فنشروا الاسلام هناك

فلما قامت الدولة الفاطمية فى المغرب كان البربر من أنصارها ، لاسيما قبائل كتامة وهوارة وهما من قبائل صنهاجة فأخذوا بيد الفاطميين منذ قيامهم على أيام عبيد الله المهدى أول خلفائهم فى أواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولتهم اتخذ خلفاء الفاطميين بطانتهم منهم وجعلوهم من أهل الدولة وأول من فعل ذلك أبو عبد الله الشيعى ، وظلوا كذلك فى خلافة ابنه القائم بأمر الله «سنة ٣٢٢ هـ» ثم المنصور بنصر الله «سنة٣٣٤هـ» ثم المعز لدين الله «سنة ٣٤١هـ» وساعدوهم فى تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفى أيام المعز

وانظر أيضا :

Asaf. A.A. Fayzee, A chronological list of Imams and Da'is (J.B.B.A.S.) 1934
— Materials for an Ismaili Bibliography (J.B.B.R.A.S.) Vol. II, 1935.
— Quadi al-Nu'uman. P.R.A.S.1934.
Hamadany, H.E., A History of the Ismaili Da'wat and its litertaure during the last phase of the Fatimid Caliphate (JRAS) 1932.
Ivanow, W, A Guide to Ismaili literature (London 1933)
— The Organisation of the Ismaili Propaganda (J.B.B.R.A.S.) 1940
Lewis,B., The Origins of Ismailism. Bombay 1942.

(*) قام على نشرها فى المغرب دعاة ارسلهم الفاطميون ، ثم انضم الى الدعـوة فريق من برابر صنهاجة أهمهم قبيلة كتامة وعلى يديها قامت الدولة الفاطمية فى المغرب

(**) انظر : فتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٤٧

(***) انظر عن ذلك

Lévi Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. 2, Paris.

لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما أفضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ ، أراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته، كأنه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفى العزيز بالله وخلفه الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ وكان يقدر فضل البربر،فقدمهم وقربهم فاشترطوا أن يتولى أمورهم ابن عمار الكتامى (من البربر) فولاه الوساطة وهى كالوزارة عندهم • فاستبد فى أمور الدولة وقدم البربر وأعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز • فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلبيا وقد تاقت نفسه الى الولاية،فأغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان ، فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم فى القصر • ثم بدا للحاكم أن يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيرا من رجال دولة أبيه وجده ، فنضعضع البربر وقوى الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ أكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشارقة ، فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى • فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت أمه أمة سوداء استكثرت فى جنود ابنها من العبيد أبناء جلدتها ، حتى بلغوا ألف عبد أسود ، وكان هو يستكثر من الاتراك فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ ، وآل التنافس الى حرب شقيت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار رجال دولته فى الشام ، فأتاه أمير الجيوش بدر الجمالى من سوريا وهو أرمنى الأصل فقتل الكثير من أهل الدولة وأقام بمصر جندا من الأرمن ، وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ، ولم يبق لهم شأن فى الدولة بعد أن كانوا وجوهها وأكابر أهلها (١)

وكان السلاجقة فى أثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس ، وذهبت دولة آل بويه وضعف أمر الشيعة هناك ، وولى السلاجقة مماليكهم وقوادهم (الأتابكة) على الولايات ، واستقل كل منهم بولايته كما تقدم ، ومنهم نور الدين زنكى فى الشام • وكان فى جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الاكراد ،منهم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه ، وقد بلغا عنده منزلة رفيعة ، وكانت خلافة مصر قد أفضت سنة ٥٥٥ هـ الى العاضد بن يوسف ، وكان ضعيف الرأى وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على

---

(١) المقريزى ١٢ ج ٢

الاستئثار بالنفوذ ، وطال تنافسهم حتى أخربوا البلاد والخليفة لا يستطيع عمـــلا

وكان في جملة المنافسين وزير اسمه شاور ، قد غلب على أمره فذهب الى نور الدين زنكي واستنجده على رجل آخر كان ينافســـــه فى الوزارة وهو ضرغام ، فاغتنم نور الدين تلك الفرصة للاستيلاء على مصر ، وأنجده بأسد الدين شيركوه فى جند من المماليك ، فرد الوزارة الى شاور وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر الى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية فى تلك الاثناء قد احتدمت ، فزاد تداخل نور الدين فى شؤون مصر ونائبه فيها شيركوه ، ومعه بن أخيه يوسف بن نجم الدين ، وهو صلاح الدين الايوبى الشهير • ومات شيركوه بمصر سنة ٥٦٤هـ فخلفه صلاح الدين فى منصب النيابة وهى الوزارة

وكان صلاح الدين من أهل المطامع الكبرى ، فلما قبض على أزمة النيابة، وهى كالوزارة،ورأى ضعف الخليفة أراد مصرلنفسه وليس لأميره نورالدين• فلما ماتالعاضد آخرالخلفاء الفاطميين ، خطب صلاح الدين بالقاهرة للخليفة العباسى ونقل حكومة مصر من الشيعة الى السنة وقبض على أزمة الاحكام • واستفحل أمر الصليبيين فى تلك الايام فتولى صلاح الدين أمر حربهم وقام بأعمال لا يزال التاريخ يردد صداها الى اليوم ، أهمها استرجاع بيت المقدس ومد سلطته على الشام وغيرها • وأنشأ الدولة الايوبية ، وهى كردية الجنس سنية المذهب ، فعادت مصر الى ظل الدولة العباســية من حيث البيعة فقط

وعمد صلاح الدين ومن خلفه من أهله الى الاستكثار من المماليك الاتراك والجراكسة للجندية ، على جارى العـــــادة فى تلك الاعصر ، حتى اذا كثروا استبدوا بشئون الحكومة وطمعوا فى السلطة•فلما ضعفأمر الدولة الايوبية قبضوا هم على أزمة الحكومة وأنشأوا بمصر دولتين ، عرفتا بدولتى السلاطين المماليك وهما المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حكمت الاولى من ســنة ٦٤٨ ـ ٧٩٢ هـ والثانية من سنة ٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ وكانتا تبايعان للخليفـــة العباسى وهو مقيم فى بغداد • فلما جاء التتر وفتحوا بغـــداد سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة (المستعصم) فر من بقى من بنى العبـــاس ، والتجأوا الى سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس فاختار واحداً منهم قلده الخلافة وبايعه ، وبهذا انتقلت الخلافة العباسية الى القاهرة ، وظل خلفاء العباسيين والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثمانى وفتح مصر ســنة ٩٢٣ وكان الخليفة العباسى عامئذ المتوكل على الله آخر خلفائهم ، فبايع للســلطان سليم وسلم اليه الآثار النبوية ، فانتقلت الخلافة من العباسيين الى العثمانيين من ذلك الحين (*)

(*) اختصر المؤلف الكلام فى هذا الفصل اختصارا شديدا ، ويبدو انه اكتفى بذلك فى هذا المقام ، لانه فصل الكلام فى تاريخ مصر الاسلامية فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » فى مجلدين، وهو من كتبه الجيدة ، ويعتبر من أقيم كتبه وحبذا لو نشر نشرة جديدة

العصر المغولى أو التترى

انحلال الدولة الإسلامية

من قيام جنكيزخان سنة ٦٠٣ هـ حتى وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ

قد رأيت فيما تقدم ان الدولة العباسية ، لما فسدت أحكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها ، ضعفت علاقة أطراف مملكتها بدار الخلافة ، فتفرعت الى فروع بعضها فارسي وبعضها تركي أو كردي والبعض الآخر عربي ، وكلها تبايع للخليفة العباسي في بغداد ، حتى نشأت الدولة الفاطمية في المغرب وخلافتها علوية ، ففتحت مصر ونازعت الدولة العباسية على الشام وغيرها ، ثم أصابها ما أصاب تلك فمالت الى الشيخوخة مثلها ، ولكنها انقرضت قبلها على يد صلاح الدين الايوبي ، وعادت مصر الى مبايعة العباسيين

على أن الخلافة العباسية كانت يومئذ قد بلغت منتهى الضعف ، واستبد السلاجقة بمملكتها في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر حينا ، ثم اقتسمها مماليكهم الأتابكة كما تقدم

فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الاسلامية قد تولاها الضعف والانقسام ، ولا سيما في المشرق بمن تنازع على سلطتها من الاتراك قواد السلاجقة ومماليكهم ، وأهمهم الخوارزمية في خراسان وتركستان ، والخلافة العباسية قد تناهت في الضعف وبلغت الهرم ، حتى أشرفت على الانحلال ، وانما استبقاها أصحاب الاطراف ليستعينوا بها على تأييد سلطانهم بالبيعة. وأصبحت مملكتهم الواسعة تتنازعها ثلاث أمم، كأنهم اقتسموها فيما بينهم، وهم : (ا) الاتراك السلاجقة وقوادهم في المشرق (ب) والاكراد الأيوبية في مصر والشام (حـ) والبربر في المغرب والاندلس (الموحدون) . وقد ذهبت دولة العرب ذهابا تاما الا امارات صغيرة بقيت في اليمن ونحوها . وهذه الدول على اختلاف أجناسها وأطوارها مجمعة على مبايعة الخليفة العباسي في بغداد على ضعفه وانحلال دولته ، ولكنها تختصم على الاستئثار بالسلطة في العالم الاسلامي (*)

(*) الكلام هنا عام ، فان الوضع العام في العالم الاسلامي لم يكن هكذا تماما خلال القرن الثاني عشر الميلادي الذي ضعف فيه أمر السلاجقة وتفككت دولتهم ، فقد تقاسم المشرق دول الاتراك والتتر وبقايا السلاجقة ، ثم ان الدولة الايوبية لم تكن كردية الا من حيث أصل مؤسسها ، وقد استعان الايوبيون من أيام صلاح الدين نفسه بالعرب والاتراك والمماليك وهم من أجناس شتى . أما دولة الموحدين فلم تبايع للخليفة العباسي ، اذ كان الموحدون أنفسهم خلفاء ، والذين بايعوا للعباسيين هم المرابطون الذين سبقوهم

فلما رأى أعداء الدولة الاسلامية المحيطون بها ضعفها وانقسامها عمدوا الى الانتقام منها فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها . فهاجمها الكرج والأرمن واللان من الشمال هجوم الغزاة للسلب والنهب ، حتى انهم كثيرا ما كانوا يدخلونها بعشرات الالوف فيكتسحون أذربيجان وما جاورها ، يقتلون وينهبون ويعودون بالأسرى والسبايا والغنائم ، وكانت سبايا المسلمين تزيد أحيانا على عدة آلاف غير القتلى (١) — كما كان العرب يفعلون فى أوائل دولتهم . على انهم لم يستطيعوا فتحا ولا رسخت لهم قدم فى مملكة الاسلام

وهجم عليها من الغرب أمم الافرنج الصليبيين هجوم الفتح ، وقد تكاتفوا لاكتساح المملكة الاسلامية بحجة الدين لان القبر المقدس فيها ، ففتحوا فلسطين وبعض سوريا وملكوا بيت المقدس حينا ، ولو اجتمعت كلمتهم لافتتحوا ما وراء ذلك ، ولكنهم انقسموا على أنفسهم وجاءهم صلاح الدين الايوبى ببسالته ودهائه وتدبيره ، فغلبهم على ما فى أيديهم وأخرجهم من بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ فضعف أمرهم وأخذ المسلمون يستعيدون البلاد منهم شيئا فشيئا ، حتى أزالوهم من الشام تماما على أيام الناصر قلاوون

أما من الشرق فجاءها التتر أو المغول بقبائلهم وبطونهم ، وهم فى خشونة البداوة وقوة الابدان ، وقد توفقوا الى رجل شديد البطش وهو جنكيزخان القائد الشهير ، فحمل بهم من أواسط آسيا على العالم المتمدن فى أوائل القرن السابع للهجرة ، وليس للمسلمين يومئذ رجل مثل صلاح الدين ، فدوخ جنكيزخان مملكة الاسلام من أقصى أطرافها الشرقية الى حدود العراق، غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠ر٠٠٠ ميل مربع

المغول

المغول أو المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالى بحيرة بيقال (أو بيكال) فى جنوبى سيبيريا ، وتاريخهم القديم سقيم،لأنهم لميظهروا الا بظهورجنكيز خان فى أوائل القرن السابع للهجرة،وكانوا قبله مثل سائر القبائل الرحل، يعيشون بالغزو والنهب والصيد والقنص فى تلك البلاد البعيدة عن التمدن، وقد كفوا الناس خيرهم وشرهم ولا شأن لهم بين الامم ، لانهم كانوا لا يزيدون على ٤٠ر٠٠٠ خيمة ، فاذا حسبنا فى الخيمة عشر أنفس لم يزد عددهم على ٤٠٠ر٠٠٠ نفس ، فلما كانت أيام جنكيزخان حمل بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة واكتسحوها فى بضعة عشر عاما ، كما خرج بدو العرب فى أول الاسلام وافتتحوا مملكتى الروم وفارس فى نحو تلك المدة . وفى الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة ، لان المسلمين

---

(١) ابن الاثير ١٢٨ ج ١١

كانوا فى أيام جنكيزخان قد تحضروا وانغمسوا فى الترف وانقسموا علـى أنفسهم ، كما كان الروم والفرس عند ظهور الاسلام ــ والتاريخ يعيد نفسه

جنكيزخان

كان والد جنكيزخان أميرا على ١٣ قبيلة من المغـــول ، تحت رعاية الخان الاكبر ملك التتر بعهود متبادلة بينهما • ولد جنكيز خان سنة٥٤٨ فسموه تموجين وهو اسمه الذى كان يعرف به فى نشأته الاولى • وبعد أربع عشرة سنة توفى أبوه فاستخف رؤساء القبائل بتموجين وتمردوا عليه ، وأصـبح كل منهم يطالب بالسيادة لنفسه • وكان تموجين شديد البطش من حداثته، فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم ، وهذه أول وقائعه فهابه الناس، على انه لم يستغن عن استنجاد الخان الاعظم ، فأنجده وأكرمه وثبته فى امارة أبيه وزوجه ابنته

وكان تموجين قد شب على ظهور الخيل وتعلم رمى النشاب وضرب السيف وأتقن الفروسية بسائر فروعها ، وكان قوى البدن شجاعا صبورا على التعب والجوع والعطش والبرد والألم ، وعود رجاله على ذلك فاجتمعت كلمتهم على نصرته وانقادوا لأمره

ولما علت منزلة تموجين عند الخان هاجت عوامل الحسد فى أعضاء أسرته وغيرهم من رجال الدولة ، وكان تموجين قد أغرى الخان بأولئك الامراء فضيق الخان عليهم ، فأوغرت صدورهم فثاروا عليه وشقوا عصـا الطاعة وحاربوه وغلبوه ، فاستنجد تموجين فأنجده وأعاده الى كرسيه ومثل بأعدائه ، حتى ألقى سبعين رجلا منهم فى الماء الغالى وهم أحياء

فلما ظفر تموجين وأظهر القسوة والشدة خافه حموه وحسـده ، وأدرك تموجين ذلك فسعى فى اصلاح ما بينهما بالحسنى فلم ينجح ، فعزم عـلى محاربته فتحاربا فانتصر تموجين فخافه الامراء وحسـدوه وحاربوه وكان الفوز له ، فتولى عرش المغول

وحارب تموجين بعد ذلك حروبا فازفيها ، فازداد أمراؤه تعلقا به واحتفلوا بتهنئته احتفالا عظيما فى سهل على ضفاف سلنكا ، فاجتمع الامراء والخانات فوقف فيهم خطيبا وكان قوى العارضـة فأبدع • ثم جلس على لبادة سـوداء فرشوها له هناك ، وأصبحت تلك اللبادة أثرا مقدسا عندهم من ذلك الحين• ثم وقف بعض الحضور وكان من أهل التقوى والنفوذ فقال : « مهما بلغ من قوتك فانها من الله ، وهو سـيأخذ بيدك ويشـد أزرك • فاذا فرطت فى سلطانك صرت أسود مثل هذه اللبادة ، ونبذك رجالك نبذ النواة » • وفى هذا القول من حرية البداوة والجرأة مثـل ما يروونه عن جـرأة العـرب على

خلفائهم وأمرائهم فى صدر الاسلام • ثم تقدم سبعة أمراء أنهضوه باحترام، وساروا بين يديه حتى أقعدوه على عرشه ، ونادوا باسمه ملكا على المغول • وكان فى جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة ، فتقدم وليس عليه كساء وقال : « يا اخوتى ، قد رأيت فى منامى كأن رب السماء على عرشه النارى تحدق به الارواح ، وقد أخذ فى محاكمة أهل الارض ، فحكم بأن يكون العالم كله لمولانا تموجين ، وأن يسمى جنكيز خان أى الملك العام» • ثم التفت الى تموجين وقال : « لبيك أيها الملك ، فانك تدعى منذ الآن جنكيزخان بأمر الاله » • ولم يعد يعرف بعد ذلك الا بهذا الاسم

فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده ، عمد الى فتح العالم فسار أولا نحو الشرق الى مملكة الصين ، وكان لامبراطور الصين جزية على المغول يؤدونها كل سنة ، فلما استفحل أمر جنكيز خان أبى الدفع ، ومعنى ذلك الاباء اشهار الحرب • فحمل جنكيز خان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم ، وأمعن فيها قتلا ونهبا ، والصينيون يومئذ أسبق الامم فى الاختراعات الحربية، فاستخدموا النار اليونانية التى استعان بها اليونان على دفع العرب (*) وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل أن يعرفه أهل الغرب بأزمان • على ان ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل ، فما زال جنكيزخان زاحفا حتى احتل بكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية • فازداد ذلك الفاتح رغبة وقوة، فتحول بجنده الجرار نحو الغرب أى غربى بلاده وهى مملكة الاسلام

وكانت المملكة الاسلامية بما وصفناه من الضعف والاختلال ، وقد انقسمت الى عدة ممالك كردية وتركية وفارسية ، وأقربها من بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة والاتراك ، وسلطانها يومئذ علاء الدين خوارزمشاه، وكانت سلطة علاء الدين قد امتدت فى أواخر أيامها على معظم العراق العجمى وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وفارس وما وراء النهر وقسم من أفغانستان وبعض الهند • وكانت قصبة تلك الدولة مدينة خوارزم ، ومنها سمى سلطانها « خوارزم شاه » ، فحمل جنكيز خان نحو الغرب وجنده يزيد على ٧٠٠ر٠٠٠ مقاتل ، واكتسح تركستان وما وراءها وأوغل فيها قتلا ونهبا مما تقشعر له الابدان (**)

(*) استخدم الصينيون البارود من أقدم الازمنة ، وعن الصين أخذه ماركو بولو الى أوربا ، أما النار اليونانية التى كان البيزنطيون يستخدمونها فكانت خليطا من السوائل السريعة الاشتعال ، يظن أن من بينها البترول ، اخترعه رجل سورى ممن كانوا يخدمون فى الاسطول البيزنطى ، وعن البيزنطيين أخذه العرب فيما بعد وسموه النفط ، وهو غير البترول — على عكس ما يظن — وكان الذين يقومون بتركيبه وقذفه على الاعداء يسمون « النفاطين »

(**) انظر عن ذلك كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » للاستاذ حافظ حمدى ، القاهرة ١٩٤٩

ومما حمله على ارتكاب الفظائع ، انه لما وصل بجنده الى تركستان سير جماعة من التجار الاتراك ومعهم الذهب الى سمرقند وبخارى من بلاد ماوراء النهر (تركستان) ليشتروا له ثيابا للكسوة ، فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك اسمها اترار وهى آخر مملكة خوارزمشاه مما يلى بلاد جنكيز خان . وكان لخوارز مشاه هناك نائب ، فلما جاءته هذه الطائفة من التتر أرسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر ما معهم من الاموال ، فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم وأخذ مامعهم وانفاذه اليه . فقتلهم وسير مامعهم وكان شيئا كثيرا ففرقه خوارزمشاه فى تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم . وعذره فى هذه المعاملة أن المغول كانوا قد غزوا كاشغار وبلاساغون وغيرهما من تركستان ، وصاروا يحاربون عساكره ، فلذلك منع الميرة عنهم(*)

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكيز خان ، حمى غضبه وجمع من الرجال فوق ما كان عنده وحمل على مملكة الاسلام ، وكتب الى علاء الدين خوارزمشاه يقول : « تقتلون أصحابى وتأخذون أموالهم ؟. تهيأوا للحرب . فانى قادم اليكم بجمع لا قبل لكم به » . فلما قرأ خوارزمشاه الرسالة قتل الرسول وأمر بحلق لحى الجماعة ، وأعادهم الى جنكيز خان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له : « آن خوارزمشاه يقول لك : أنا سائر اليك ولوأنك فى آخر الدنيا ، حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك » ــ فاستخف خوارزمشاه بالمغول كما استخف هرقل بالعرب اذ جاءته كتبهم فى أوائل الاسلام

وقد فعل جنكيزخان كما قال تماما ، فزحف بعساكره على المملكة الاسلامية فدوخوها من بلاد تركستان فما وراءها غربا ، وهم ينتقلون من مدينة الى أخرى يفتكون وينهبون ويحرقون ويهدمون ، لا يخلفون وراءهم الا الاطلال البالية مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الانسان . وهنا يفترق بدو المغول عن بدو العرب ، فان هؤلاء أبقوا على البلاد التىفتحوهاوأمنوا أهلها وجعلوهم فى ذمتهم ، واقتبسوا تمدنهم وبنوا عليه تمدنا من عند أنفسهم.وأما المغول فلم يكن همهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة ، وليس هنا محل الافاضة فى سيرة هذا الرجل (١) وانما يقال بالاجمال انه تمكن فى حياته من انشاء مملكة لم يتوفق لمثلها أحد من الفاتحين قبله ولا بعده ، لا الاسكندر المقدونى ولا يوليوس قيصر الرومانى ولا نادرشاه الفارسى ولا نابليون بونابرت الفرنسى ــ أنشأ مملكة تمتد من البحر المحيط الى البحر الاسود ،

(*) انظر تفصيل ذلك فى المرجع المشار اليه ، ص ٧٠ وما يليها

(١) راجع الهلال السادس من السنة الثالثة عشرة

ودخل فى سلطانه ملايين من الصينيين والتنكوت والافغان والهنود والفرس والاتراك غيرهم

أنشأ جنكيز خان هذه المملكة الواسعة وهو لايعرف الكتابة ولا القراءة ، وكذلك معظم رجاله ، فاستعان فى وضع الشرائع والنظام بمن دخل فى سلطانه من المسلمين ورعاياهم ، كما استعان العرب فى انشاء دولتهم أول الاسلام بالفرس والروم وغيرهم ، وقد توفى جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ وهو فى السادسة والسبعين من عمره بعد أن حكم ٢٢ سنة

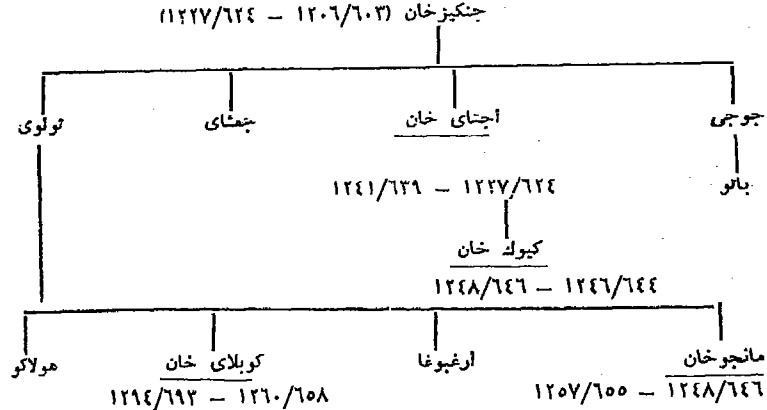
وبعد وفاته اقتسم أولاده مملكته على عادة المغول فى هذه الحالة ، باعتبار أن البلاد ملكه فيورثها لأعقابه فيقتسمونها كما يقتسمون سائر أمواله ، فانقسمت مملكة المغول بعده الى أربعة فروع تفرقت فى أولاده الاربعة ، ثم تفرع كل منها الى غير فرع مما يطول شرحه ، فنكتفى بذكر ما يهمنا منها :

ان أولاد جنكيز خان الذى أفضت الحكومة اليهم أربعة : أقطاى وطلوى وجوجى وجقطاى ، فانقسمت المملكة فيما بينهم على ما يأتى ، ويعرف ملوكها بالخاقانات وهم :

١ دولة أقطاى فى زنقاريا وغيرها (*)	من سنة	٦٠٣ ـ ١٠٤٣ هـ
٢ « طلوى فى بلاد المغول	« «	٦٥٤ ـ ٧٥٠
٣ « جوجى فى بلاد القفجاق وغيرها	«	٦٢١ ـ ٩٠٧
٤ « جقطاى فى ما وراء النهر	« «	٦٢٤ ـ ٧٦٠(**)

(*) زنقاريا ، وتسمى أيضا زنجاريا ، سهول واسعة تقع جنوبى بحيرة بيكال ، وهى تقع الآن فى جمهورية منغوليا الداخلية احدى جمهوريات الاتحاد السوفييتى ، وأهلها مسلمون . وأقطاى يسمى أيضا أجتاى

(**) هؤلاء الاربعة هم أولاد جنكيزخان ، واليك تسلسل أولاده ، وقد وضعنا خطا تحت الذين تمكنوا من اعادة وحدة المملكة المغولية وحكمها كما كانت فى عهد جنكيزخان



ويتبين أن هولاكو الذى دخل بغداد وخربها حفيد جنكيزخان وهو أصغر أبناء تولوى وابن أخى كيوك خان

نقلا عن حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول (القاهرة ١٩٤٩) ص ٢٧٦

وايلخانات فارس الذين سيأتى ذكرهم هم هولاكو ومن ولى الملك من أبنائه واحفاده ، وقد دخلوا فى الاسلام من عهد ابنه اباقا

فالدولة الاولى (أقطاى) كانت لهـا السيادة العظمى ، وأول ملوكها جنكيز خان نفسه ولا يهمنا تاريخها فى هـذا المقام • أما الدولة الثانية فيهمنا من فروعها فرع له شأن فى تاريخ الاسلام ، نعنى به فرع « هولاكو » وهو ابن طولوى بن جنكيز خان ، تولى بعض المقاطعات فى مملـكة أبيه واسـتقل بها وملك فارس سنة ٦٥٤هـ ، وعرفت دولته فيها بدولة ايلخان أومغول الفرس، وكان فى بلاد فارس بقايا مملكة خوارزمشاه فضمها اليه ، وأقدم على ما لم يقدم عليه أحد من أسلافه ــ وذلك أنه لما استقر له الملك فى فارس حمل على بغداد

هولاكو وسقوط بغداد

والسبب فى ذلك أن المنافسات بين السنة والشيعة ببغـداد تكررت فى أواخر الدولة ، فلا تمضى سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة فى اصلاحه ، وبما أن الحكومة سنية فالضغط كان يقع غالبا على الشيعـة ، وكانوا يقيمون معا فى الكرخ ببغـداد وهم صـابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهد اليهم بتدبير شؤونها • وكان الخليفة فى أيام هولاكو المستعصم بالله ، تولى الخلافة سنة ٦٤٠هـ ،وكان ضعيف الرأى ووزيره رجل من الشيعة اسـمه مؤيد الدين بن العلقمى ذو دهاء ومكر • فاتفق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جارى العادة ، وكان للخليفة ولد اسمه أبو بكر شديد العصبية على الشيعة ، فاستعان بقائد الجند (الدوادار) وأمر العسكر أن يفتكوا بالشيعة ، فهجموا على الـكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش ، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمى ولم يعد يستطيع صبرا ، فكتب الى هولاكو سرا وأطمعه فى ملك بغـداد ، وأرسـل اليه أخاه ليحرضه على القدوم ، فزحف هولاكو على بغداد بجيش عظيم • فلما علم الخليفة المستعصم بقدومهم ، بعث الدوادار فيمن بقى ببغداد من الجنـد وهم لا يزيدون على ٢٠٫٠٠٠ مقاتل ، فالتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهزم عسكر الخليفة وتشتت

أما هولاكو فأقبل حتى نزل الجانب الشرقى من بغـداد ، وأرسـل قائدا من قواده نزل الجانب الغربى قبالة دار الخلافة ، والمستعصم لا يعلم بما دبره ابن العلقمى ، فأنفذه لمخابرة هولاكو بشأن الصلح ، فكمل مكيدته وعاد وقال للخليفة : « ان هولاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسـلطان الروم ، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر » • وحسن له الخـروج الى هولاكو ، فخرج اليه فى جمع من أكابر أصحابه ، فأنزلهم فى خيمـة ، ثم اسـتدعى الوزير الفقهاء والأماثل ، فاجتمع هناك جميع سـادات بغداد • فلمـا اجتمعوا أمر

هولاكو بقتلهم فقتلوا ، ثم بذلوا السيف فى بغداد ، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ، الا الاطفال فأخذوهم فى جملة الاسرى والسبى • ودام القتل والنهب فى دار السلام أربعين يوما ، ثم نودى بالأمان ودخلت بغداد فى سلطة هولاكو سنة ٦٥٦هـ وذهبت الخلافة العباسية من العراق على يد الشيعة العلوية ، كما كان يخاف ذهابها المنصور والمهدى والرشيد ، وقد نكبوا وزراءهم وقوادهم خوفا من ذلك • على ان الخلافة العباسية لم تنقرض تماما ، بل انتقل من بقى من العباسيين بعد مذبحة هولاكو الى مصر ، وأقاموا فى ظل السلاطين المماليك كما تقدم

أما هولاكو فلما ملك عاصمة الاسلام فى ذلك العهد طمع فى فتح ما وراءها ، فحمل على الشام وكانت فى حوزة السلاطين المماليك بعد الدولة الايوبية فردوه عنها ، فقنع بما دخل فى حوزته ، وقد امتدت مملكته من الهند الى الشام وأورثها لاولاده ، فانقضت دولته ولم يتم عليها القرن «٦٥٤ — ٧٥٠ هـ» وانقسمت الى ولايات صغيرة مازالت فى اضطراب وتضعضع حتى أخضعها تيمور لنك

تيمور لنك

ينسب هذا القائد العظيم الى دولة جنكيز خان . وليس هو من نسله ولكنه من عائلته ، وكان جده وزيرا عند جقطاى بن جنكيز خان • ولد تيمور سنة ٧٣٦ هـ ، ولما ترعرع تولى بعض الاعمال فى دولة اقطاى فى ما وراء النهر ، ثم نرقى الى رتبة الوزارة فطمع فى الملك ، فغلب على ملكه محمود وحمل على العالم كما حمل جنكيز خان قبله ، ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سفكت فيها دماء غزيرة ، ولم تمض سبع سنوات حتى دوخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وأفغانستان وفارس وأذربيجان وكردستان ، ثم جاء العراق فاستخرج بغداد من الجيلارية وكانوا قد تملكوها بعد هولاكو ، ثم حول أعنة خيوله شرقا نحو الهند ، فغزا كشمير ودلهى ، وتحول غربا لفتح آسيا الصغرى وكانت فى حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ بايزيد ، فبلغ تيمور لنك فى فتوحه الى أنقرة وحارب بايزيد وأسره سنة ٨٠٤ هـ واكتسح سائر بلاد المشرق الى آخر حدود الشام ، وبايعه سلاطين مصر على الطاعة ، فتحول لمحاربة الصين فمات فى الطريق سنة ٨٠٧ هـ قبل أن ينظم حكومته ، فذهبت فتوحه هدرا فعادت البلاد التى فتحها الى ملوكها الاولين ، وعادت الاحوال الى ما كانت عليه قبله . على أن الدولة التيمورية طال حكمها فى ما وراء النهر الى سنة ٩٠٦ هـ ، وبوفاة تيمور لنك ينقضى العصر المغولى ، وبانقضائه ينقضى الدور الاول من تاريخ الاسلام

الـــدور الثـــانى

من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت أن المغول لم ينشئوا دولة ثابتة فى بلاد الاسلام ، ولم يكن لهم شأن فى التمدن الاسلامى ، وانما علاقتهم بهذا التمدن أنهم جاءوه والدولة الاسلامية فى آخر دورها الاول ، وفى منتهى التضعضع والضعف بمن حمل عليهـــا من الافرنج والكرج والارمن واللان ، فزادوها ضعفا وذهبوا ببقية الخلافة العباسية فى بغداد ، وعادوا عنها وهى تكاد تكون فى حال الاحتضار ، وقد تبدد شـــملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها ، على أن ذلك كان مقدورا للدولة العثمانية فى العصر التركى الثانى ، وللدولة شاهات الفرس فى العصر الفارسى الثانى ، ويتألف منهما الدور الثانى من تاريخ الاسلام . فعاد التتر عن المملكة الاسلامية فى أوائل القرن التاسع للهجرة ، ومصر فى حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة ويتخاصمون على الكسب . والشام بعضها فى أيدى أولئك المماليك ، وبعضها فى أيدى بعض أعقاب الايوبيين ، حتى يكاد يكون كل بلد مستقلا بنفسه . والعراق وبلاد الفرس وما بين النهرين يتنازع عليها الايلخانية والجيلارية والمظفرية والقراقيونلية والتيمورية وغيرهم . وما وراء النهر وافغانستان فى سلطة المغول التيمورية . وآسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقايا السلاجقة . وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر أو بقايا الاتابكة . وشمالى أفريقيا كان منقسما بين المرينية والحفصية . والاندلس لم يبق منها فى سلطة المسلمين الا الدولة النصرية فى غرناطة . وجزيرة العرب تحكمها امارات صغيرة تتحارب وتتعادى . وهذه الدول مع ضعفها واختلال أحوالها تجمعها خلافة أضعف منها ، هى بقية الخلافة العباسية فى الديار المصرية

تلك كانت حال العالم الاسلامى من الاضطراب والتضعضع عند تغلب الدولة العثمانية ، فجاءت فى ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية ، وقد يئس المسلمون من فتحها بعد أن حاولوه مرارا . وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوربا وطاردوهم الى بلاد المجر ، وحاصروا فينا عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردينان ، واكتسحوا البحر الابيض الى شواطىء أسبانيا ، فارتعدت أوربا خوفا منهم ، وفتحوا المشرق الى العراق ، ثم ساروا جنوبا غربيا حتى فتحوا الشام ومصر ، وفيها بقية الدولة العباسية ، فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة كما تقدم . فامتدت مملكتهم فى أيام السلطان سليمان «سنة ٩٢٦ — ٩٧٤ هـ» من بودابست على ضفاف الطونة الى أسوان على ضفاف النيل ، ومن

الفرات بالعراق الى مضيق جبل طارق ، فاجتمع العالم الاسلامى الغربى تحت جناح الدولة العثمانية . وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سببا لطول بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية ، حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم ، لان سلطتهم أصبحت بعد القرن الثالث من انشاء دولتهم اسما بلا رسم

ونهض الصفويون من الجهة الاخرى فى بلاد فارس وبين النهرين فأنشأوا دولة شيعية كبرى ، ثم انتقلت الى الدولة القاجارية وجمعت البلاد الشيعية كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السنية (*)

(*) الى هنا ينتهى المؤلف من ذلك الجزء الذى خصصه لنشوء الدولة الاسلامية وتاريخها السياسى ونظمها الادارية ، وقد شاء أن يجعله تاريخا عاما فاتسع المجال أمامه وافاض فى عصور الراشدين والامويين والعباسيين ، واستنفد فى ذلك معظم الجزء ، ثم اراد ان يضغط الحوادث والنظم ابتداء من العصر العباسى الثانى الى عصره (قبل الحرب العالمية الاولى) فأعـــوزه المجال ، ومر بنحو تسعة قرون من تاريخ الاسلام مرا سريعا ولكنه مفيد . وربما كان عذره فى ذلك أن هذه الاعصر لم تدرس بعد ، وخاصة فيما يتصل بدول الاسلام فى آسيا ، فان مراجع تاريخها لم ينشر معظمها ، وما نشر منها لم يدرس بعد ، والكثير منها الى ذلك فارسى او تركى او مغولى ، مما نرجو ان يوفق الى دراسته والتمكن منه نفر من الباحثين المحدثين . أضف الى ذلك ان طموحه شاء ان يتناول غرب مملكة الاسلام أيضا ، فتحدث عن دول المغرب والاندلس، وهذه بدورها ميدان فسيح لانزال نحاول الالمام بأطرافه وسبر أغواره ، فجاء حديثه عن هذا الجناح الغربى من عالم الاسلام حديثا مختصرا ، ولكنه ينفع القارىء الراغب فى الالمام وتكوين فكرة عامة عن تطور دولة الاسلام . اما دول المماليك فقد تحدث عنها باسهاب فى كتاب آخـــر قيم له اختصه بتاريخ مصر العام ، جعل عنوانه « تاريخ مصر العام » وهو فى جزأين حافلين بالمادة الطيبة ، فعلى الذين يريدون دراسة تواريخ الدول المصرية كما يرويها العلامة جرجى زيدان ان يقرأوا ذلك الكتاب



فهرس

الموضوع **صفحة**

سياسة الدولة فى عهد الامويين

الموضوع صفحة

الموضوع **صفحة**

الموضوع | صفحة

العصر التركى الاول

الموضوع **صفحة**

العصر المغولي أو التترى







ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة